



رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية

١٣٥٧ لسنة ٢٠١٦م

مصدر الفهرسة: IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda.

رقم تصنيف LC: 2016. A31 BP38.02.

المؤلف الشخصي: عجمي، أحمد فاضل.

العنوان: كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: مصدرا من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام.

بيان المسؤولية: تأليف أحمد فاضل عجمي؛ تقديم سيد نبيل قدوري الحسني.

بيانات الطبعة: الطبعة الأولى.

بيانات النشر: كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة - مؤسسة علوم نهج البلاغة.

١٤٢٧هـ = ٢٠١٦م.

الوصف المادي: ٥٦٨ صفحة.

سلسلة النشر: مؤسسة علوم نهج البلاغة.

تبصرة عامة:

تبصرة ببليوغرافية: يتضمن هوامش - لائحة المصادر (الصفحات ٥٢٩ - ٥٦٢).

تبصرة محتويات:

موضوع شخصي: ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد، ٥٨٦ - ٦٥٦ هجرياً - شرح نهج البلاغة -

مصادر.

موضوع شخصي: الشريف الرضي، محمد بن الحسين بن موسى، ٣٥٩ - ٤٠٦ هجرياً. نهج البلاغة. شرح.

موضوع شخصي: علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الإمام الأول، ٢٣ قبل الهجرة - ٤٠ هجرياً - أحاديث.

مصطلح موضوعي: العرب - تاريخ - العصر الجاهلي.

مصطلح موضوعي: العرب - الأحوال الاجتماعية - العصر الجاهلي.

مؤلف إضافي: الحسني، نبيل قدوري حسن، ١٩٦٥م، مقدم.

مؤلف إضافي: الشريف الرضي، محمد بن الحسين بن موسى، ٣٥٩ - ٤٠٦ هجرياً. نهج البلاغة. شرح

عنوان إضافي: شرح نهج البلاغة. مصادر.

عنوان إضافي: نهج البلاغة. شرح.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة

كِتَابُ
شَرْحِ هَجْرِ الْبَلَاغَةِ

لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ الْمُعْتَزِلِيِّ مَصْدَرًا مِنْ مَصَادِرِ تَارِيخِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

تَأَلَّفَ

أَحْمَدَ فَاضِلَّ عَجَمِيَّ

إِصْدَارُ
مَنْشُورٍ مِنْ مَجْمُوعَةِ الْبَلَاغَةِ
فِي الْعَبْرِ الْحُسَيْنِيِّ الْقُدْسِيِّ

جميع الحقوق محفوظة

للعتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م



العراق: كربلاء المقدسة - شارع السدرة - مجاور مقام علي الاكبر عليه السلام

مؤسسة علوم نهج البلاغة

هاتف: ٠٧٧٢٨٢٤٣٦٠٠ - ٠٧٨١٥٠١٦٦٣٣

الموقع: www.inahj.org

Email: Inahj.org@gmail.com

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ

عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾

صَدَقَ اللّٰهُ الْعَلِیُّ الْعَظِیْمُ

سورة یوسف: الآیة: ۱۱۱.

الإهداء



إلى كل من نطق بكلمة حق عند سلطان جائر...

إلى من أوصى الله ببرّها فقال وبالوالدين إحسانا...

إلى عوني وأملي في الحياة عائلتي...

إلى كل من علّمني حرفاً...

أهدي جهدي البسيط....

الباحث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤسسة

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم والصلاة والسلام على أتم النعم محمد وآله الأطهار.

وبعد :

لعلّ من أبرز اهتمامات الإنسان بالتاريخ يرتكز على ارتباطه بالحدث والحادثة التي وقعت في الماضي، ولأن هذه الحادثة موضع اهتمام الإنسان سواء كان هدفه منها الرواية والنقل لأبناء زمانه والأجيال اللاحقة، أم كان هدفه الاعتبار والتحليل والتأسيس لحياة أفضل تتجنب عوامل السقوط والانحيار.

ولذا قالوا (إن التاريخ هو الماضي الحاضر، أي إن مجموع عوارض الماضي حاضرة بأخبارها (آثارها)، وإن فحص تلك الأخبار عملية تنجز دائماً في الحاضر، والتاريخ حاضر بمعنيين :

الأول : بشواهد؛ وثانياً في ذهن المؤرخ)^(١).

أي : من خلال الشاهدة التاريخية تكوّن في ذهن المؤرخ تاريخ متجدد، ولذا فهو حاضر معه فأصبح يدور بين مقارنة الماضي بالحاضر، والحاضر بالماضي.

من هنا :

كانت معرفة الماضي نسبية وعملية، فهي نسبية لأنها تستجيب لمتطلبات الوضع القائم؛ وهي عملية لأنها تجيب عن أسئلة حالية. ومنهما أي من المعرفة النسبية والعملية كان موضوع التاريخ هو : «التاريخ هو الماضي الحاضر».

(١) مفهوم التاريخ لعبد الله العروي : ص ٣٨.

في حين ذهب البعض إلى أنّ مقولة «التاريخ هو الماضي الحاضر» تعني: «أنّ الماضي التاريخي هو عالم ذهني، يستنبط في كل لحظة من الآثار القائمة.

أو بعبارة أخرى: موضوع التاريخ هو الماضي الذي هو حاضر، المقصود هنا ليس تمام الماضي، وإنما الماضي التاريخي، أو ما سميناه بالتاريخ المحفوظ؛ فهل يمكن أن يكون غير حاضر في الذهن، في الكلام، في الأشياء... الخ»^(١).

ينتج عن هذا التحليل: «أنّ الكلام على أحوال الماضي هو نوع من المشاهدة، إذ لم يبق من الماضي إلا الأخبار الدالة عليه والمعاصرة لنا؛ إن التاريخ هو مجال الاستنباط، إذ المؤرخ يحمل في ذهنه كل الأخبار عن الماضي المحفوظ فيستطيع أن يقارن بينها ويستخلص منها قوانين وعبر، خلاصة بديهية قال بها جلّ المؤرخين القدامى الذين جعلوا من التاريخ مدرسة أخلاق وسياسة»^(٢).

إذن: موضوع التاريخ هو استخلاص القوانين والعبر من أحداث وآثار الماضي، وهو بهذا يكون، - أي التاريخ - مدرسة الأخلاق والسياسة.

في خضمّ هذه التعريفات حول التاريخ، من حيث الاصطلاح والمعنى العام والخاص والمفهوم والحركة التاريخية، ما هو علم التاريخ عند العرب؟.

«يكون علم التاريخ عند العرب جزءاً من التطور الثقافي العام، وصلته بعلم الحديث وبالآداب بصورة خاصة وثيقة، وتستحق اهتماماً خاصاً، ثم إن ظهور الإسلام، وتكوين الإمبراطورية، والتصادم بين الآراء والتيارات الحضارية، وتطور الأمة وخبراتها، هذه كلّها حيوية لفهم التطورات الأولى للكتابة التاريخية.

(١) مفهوم التاريخ لعبد الله العروي: ص ٣٩.

(٢) المصدر السابق.

ومع أن علم التاريخ عند العرب ظهر في صدر الإسلام، إلا أن الاستمرار الثقافي يوجب الالتفات إلى تراث ما قبل الإسلام^(١).

ولعل هذا الهاجس الفطري والمعرفي أيضاً هو الذي دفع ابن أبي الحديد المعتزلي في إيراد هذا الإرث التاريخي الذي تكون لديه في شرحه لحديث أمير المؤمنين عليه السلام؛ فضلاً عن ذلك فقد مارس دوره في نقد الحدث والشاهد له والراوي في مفاصل كثيرة من مكونه التاريخي لحياة العرب قبل الإسلام، ومن ثم لم يكن مؤرخاً صامتاً، بل محلاً وباحثاً ودارساً وناقداً، مما شكل حقلاً معرفياً جديداً في المنهجية الروائية للحادثة.

وهو أمر تأثر به من خلال حديث أمير المؤمنين عليه السلام في بيانه لشؤون الإنسان الحياتية وتجاذباته النفسية والذهنية التي انعكست على آلية تعامله مع الإسلام ورموزه .

ولذا: جاء شرحه لكتاب نهج البلاغة مليئاً بهذه الثقافة التاريخية المقرونة بالدراسة والتحليل، فكان (مصدراً من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام) كما عنون له الباحث في هذه الرسالة الجامعية القيّمة والتي جمع فيها الباحث بين تحقيق العنوان وثبوت المنهجية التحليلية للمؤرخ الباحث.

السيد نبيل الحسني

رئيس مؤسسة علوم نهج البلاغة

(١) نشأة علم التاريخ عند العرب لعبد العزيز الدوري : ص ١٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره، وخلق الأشياء ناطقةً بحمده وشكره، والحمد لله الذي من توكل عليه كفاه، والذي لا ينسى من ذكره ولا يخيب من دعاه، والصلاة والسلام على نبيه محمد المشتق اسمه من اسمه المحمود وعلى آله الطاهرين أولي المكارم والجلود.

أما بعد :

تحتل الدراسات التاريخية التي تناولت حياة العرب قبل الإسلام أهمية كبيرة لدى الباحثين لأمرين، الأول: للوقوف على أصالة الماضي، إذ أنها تمثل القاعدة التي تقوم عليها دراسة تاريخ العرب بشكل عام والتاريخ الإسلامي بشكل خاص، والثاني: لدفع الغمامة والحيف عمّا لصق بها من رؤية البعض إليها، الذين يرون أن لا تاريخ للعرب قبل الإسلام، وأطلقوا على عصرها عصر ظلمات وفوضى، فالعربي عندهم لم يعرف حضارة ولم يتذوق ثقافة قبل الإسلام^(١)، وهو رأي واهم، فما حضارة العرب في الإسلام إلا ثمرة ماضٍ طويل تخلّله ارتفاع تدريجي ونمو حضاري في كل النواحي الأدبية والسياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية التي احتوتها الكتب عندما تحدثت عن تلك الحقبة.

(١) نقل غوستاف لوبون عن رينان مؤلف تاريخ اللغات السامية الشهير قوله (لا مكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذي صار به العرب أمة فاتحة مبدعة، ولم يكن لجزيرة العرب شأن في القرون الأولى من الميلاد حين كانت غارقة في دياجير ما قبل التاريخ، ولم يظهر بأسها وبسالتها إلا بعد القرن السادس من الميلاد)؛ ينظر حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتير، دار الكتب (القاهرة: ١٩٦٩م)، ص ٨٥.

ويُعد كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي في مقدمة الكتب التي ضُمَّت بين طياتها الكثير من الروايات التي تناولت حياة العرب قبل الإسلام، وهو شرح لكتاب نهج البلاغة الذي يعد من الكتب التي حفظت للمكتبة العربية الإسلامية مكانتها العالية في مجال العلم والأدب والتراث، فقد حوى السفر الخالد كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يرتجل كلماته في مجالس أصحابه، وفي أثناء حروبهم، خطباً تجيش بها الذات فينطق بها اللسان فتأتي محكمة (دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق)^(١)، وقد جمعه الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ) وهو الذي يقول فيه: (يتضمن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية وثواقب الكلم الدينية والدنياوية ما لا يوجد مجتمعاً في كلام ولا مجموع الأطراف في كتاب، إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرّع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها ومنه عليه السلام ظهر مكنونها وعنه أخذت قوانينها وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب وبكلامه استعان كل واعظ بليغ)^(٢).

وحظي الكتاب باهتمام العلماء من القدامى والمحدثين فعكفوا على قراءته وشرحه، فكثرت الشروح وتنوعت دراساته وتداولها الناس حتى عدّ بعضهم أكثر من مائة دراسة^(٣)،

ويعد شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد من أشهر الشروح وأكثرها انتشاراً وأغزرها مادة، فهو موسوعة أدبية تاريخية وفكرية، تجمع بين المتعة والفائدة، ويشتمل على الكثير من الكتب التي نقل منها ابن أبي الحديد، إذ كان يهدف في كتابه إلى عرض المعلومة الصحيحة، فنراه لا يفرط في رواية واحدة يمكن الاستفادة منها، وقد ضم كتابه مجموعة من الكتب المفقودة التي

(١) جرداق، جورج، روائع نهج البلاغة، ط ٢، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، (قم ١٩٩٧ م)، ص ٥.

(٢) ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت ٦٥٦ هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار الكتاب العربي، (بغداد ٢٠٠٥ م)، ١ / ٦٧.

(٣) لمعرفة تفاصيلها ينظر الخطيب، عبد الزهرة الحسيني، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ط ٣، دار الأضواء، بيروت (١٩٨٥)، ١ / ٥٣-٥٧؛ الشهرستاني، هبة الله الحسيني، ما هو نهج البلاغة، تعليق عبد الستار الحسيني، العتبة

العلوية المقدسة، (النجف الاشرف ٢٠١٠)، ص ٥٣ - ٥٧.

حفظت عناوينها ومقتبسات منها فيه، وكانت ثقافة ابن أبي الحديد ومعرفته بأغلب علوم المعرفة قد جعلته جديراً بالتصدي لشرح كلام الإمام علي عليه السلام وإخراجه بالصورة الجميلة التي وصلت إلينا.

وحاول بعض المشككين والمبغضين للإمام عليه السلام أن يثيروا الشبهات حول نهج البلاغة ومقدار نسبته إليه، فقالوا إنما الذي جمعه هو الذي وضعه، ويقصدون الشريف الرضي، لمجموعة من الأسباب الواهية التي فندها الكثيرون^(١)، ولعل أبرزهم ابن أبي الحديد في شرحه إذ قال: (إما أن يكون كل نهج البلاغة مصنوعاً منحولاً أو بعضه والأول باطل بالضرورة لأننا نعلم بالتواتر صحة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقد نقل المحدثون كلهم أو جلهم والمؤرخون كثيراً منه وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك، والثاني يدل على ما قلناه لأن من قد أنس بالكلام والخطابة وشدا طرفاً من علم البيان وصار له ذوق في هذا الباب لا بد أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح وبين الفصيح والأفصح وبين الأصيل والمولد... وأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماءً واحداً ونفساً واحداً وأسلوباً واحداً كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز أوله كأوسطه وأوسطه كآخره وكل سورة منه وكل آية مماثلة في المآخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لباقي الآيات والسور ولو كان بعض نهج البلاغة منحولاً وبعضه صحيحاً لم يكن ذلك كذلك، فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين عليه السلام)^(٢).

إن المكانة العلمية التي يتمتع بها ابن أبي الحديد كانت الدافع لاختيار هذا الموضوع فضلاً عن سببين آخرين:

الأول: إنّ ابن أبي الحديد لم يكن بصدد ذكر تاريخ العرب قبل الإسلام بل ركّز اهتمامه

(١) أفرد لها السيد عبد الزهرة الخطيب (٩٩) صفحة للرد عليها، ينظر مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ١٠٠/١ - ١٩٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٠١/١٠ - ١٠٢.

على الحوادث التاريخية التي حدثت في صدر الإسلام المستوحاة من خطب وكلام الإمام علي عليه السلام، لذا دفعنا الاصرار والتحدي إلى اختيار الموضوع، لأن المادة العلمية كانت متناثرة بين السطور، ولإثبات إن ابن أبي الحديد كان موسوعياً، أنه لم يغفل جانباً معيناً من تاريخ العرب في شرحه.

الثاني: من خلال البحث، لم نجد دراسات تاريخية أكاديمية خصصت لدراسة كتاب شرح نهج البلاغة، إذ ان اغلب الدراسات السابقة كانت دراسات فلسفية ونحوية ولغوية، لعل من أبرزها أطروحة الدكتوراه الموسومة بـ(شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد رؤية اعتزالية عن الإمام علي عليه السلام) لجواد كاظم النصر الله، وأطروحة الدكتوراه الموسومة بـ(الوجود الإلهي عند ابن أبي الحديد) لرؤوف الشمري، ورسالة الماجستير (ابن أبي الحديد سيرته وآثاره الأدبية والنقدية)، للباحث علي جواد محيي الدين، ورسالة ماجستير لـ(حامد ناصر عبود) عنوانها (ابن أبي الحديد وجهوده النقدية والبلاغية)، وأطروحة الدكتوراه (المباحث اللغوية في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد)، للدكتور هادي عبد علي هويدي، ورسالة ماجستير لـ(سجاد عباس حمزة) بعنوان (المباحث النحوية في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد)، فضلاً عن بعض البحوث المنشورة في المجالات ولعلّ من أبرزها بحث مشترك للدكتور جواد كاظم النصر الله والدكتور شاكِر مجيد كاظم الذي نشر في مجلة أبحاث البصرة بعنوان (الحياة العقائدية والاجتماعية عند العرب قبل الإسلام في شرح نهج البلاغة) وركّز فيه الباحثان على الجزء التاسع عشر من كتاب الشرح فقط.

ونظراً لسعة الدراسة وتعدد مفاصلها، اقتضت الضرورة تقسيمها على مقدمة وخمسة فصول وخاتمة تضمّنت أهم الاستنتاجات التي توصل إليها الباحث بوصفها المحصلة النهائية لكل ما ورد في فصول الرسالة من معلومات.

تناول الفصل الأول سيرة ابن أبي الحديد وكتابه شرح نهج البلاغة وضم مبحثين: الأول كان في سيرة ابن أبي الحديد من حيث نسبه وكنيته ونشأته وعصره وعقيدته ومنزلته العلمية

وآراء العلماء فيه وشيوخه وتلامذته ومؤلفاته وتاريخ وفاته، والمبحث الثاني منهجه ومصادره عن تاريخ العرب قبل الإسلام.

أما الفصل الثاني فقد خصص للحياة الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام، وضم خمسة مباحث، تحدث المبحث الأول عن القيم الأخلاقية عند العرب مثل الشجاعة والفروسية والكرم والضيافة وصلة الرحم والحوار وحسن المجاورة، وتناول المبحث الثاني المعتقدات الشعبية والاجتماعية مثل الهامة والصفرة والطيبة والفأل والبلية والعقر على القبور والرقي وتخيلاتهم في السفر والأطعمة والأشربة والعين، وتناول المبحث الثالث القوانين والعقوبات عند العرب قبل الإسلام مثل الخلع وجز الناصية والقسامة والديّة والسجن، وتناول المبحث الرابع الحياة الأسرية عند العرب قبل الإسلام مثل نظرة العرب للمرأة والنكاح والطلاق والزنا ووآد البنات، وتناول المبحث الخامس الأنساب.

وجاء الفصل الثالث تحت عنوان الحياة الفكرية عند العرب قبل الإسلام وضم أربعة مباحث، تحدث المبحث الأول عن المعتقدات الدينية المعطلة عند العرب قبل الإسلام مثل الدهرية وعبادة الاصنام وأصحاب التجسيم والتناسخ وعبادة الجن، وغير المعطلة مثل الحنيفية، وديانات أخرى مثل اليهودية، والمسيحية، والصابئة، والمجوسية، وتضمّن المبحث الثاني الطقوس الدينية عند العرب قبل الإسلام مثل الاستقسام بالأزلام والحلف والاستسقاء والحج والعمرة، أما المبحث الثالث فقد خصص لمعارف العرب قبل الإسلام مثل الكهانة والعرافة والقيافة والعيافة ومعرفة النجوم ومسالك الطرق والطب، وتناول المبحث الرابع الأمثال.

والفصل الرابع تناول الحياة الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام وقد جاء في مبحثين، خصص المبحث الأول للنشاطات الاقتصادية مثل الزراعة والصناعة والتجارة، وتناول المبحث الثاني أسواق العرب قبل الإسلام.

وتناول الفصل الخامس دراسة الحياة السياسية عند العرب قبل الإسلام وقد احتوى هذا الفصل على مبحثين، الأول تحدث عن الممالك والمدن السياسية قبل الإسلام مثل مكة

والحيرة وكندة والغساسنة ويثرب، وتحدث المبحث الثاني عن أيام العرب قبل الإسلام. ولعلّ من أكثر الصعوبات التي واجهت الباحث في الدراسة هي تنوع المادة التاريخية الخاصة بالعرب قبل الإسلام ووجودها بشكل عام دون التفاصيل، وتناثرها في طيّات كتاب شرح نهج البلاغة في أجزاءه العشرين، وحتى يتم الإلمام بها كان لابد للباحث من مراجعة دقيقة لكل الكتاب ولأكثر من مرة للوقوف على ما أخفته السطور من حقائق ومعلومات، ومن ثم الرجوع إلى عدد كبير من المصادر والمراجع للاطلاع عليها والاستفادة منها في توضيح الكثير من الحقائق، مما كان له الأثر الواضح في تكوين صورة شاملة عن حياة العرب قبل الإسلام بجميع جوانبها.

أما بشأن المصادر والمراجع فقد اعتمدت الدراسة على مجموعة كبيرة من المصادر والمراجع يمكن بيانها بالشكل الآتي:

أولاً: القرآن الكريم:

يعد القرآن الكريم من أهم المصادر لدراسة حياة العرب قبل الإسلام، فهو يقدم لنا صورة متكاملة عن حياتهم الدينية، والفكرية، والاقتصادية، والاجتماعية، واستعان الباحث بالنصوص القرآنية لما فيها من إشارات وأخبار قيّمة عن الفترة التي سبقت الإسلام لاسيما فيما يتعلق بالآيات التي تخص المعتقدات الدينية عند العرب وطقوسهم الدينية الخاصة بالحج، والآيات التي تتحدث عن أنواع النكاح التي كانت معروفة عند العرب، والوآد، وغير ذلك.

ثانياً: كتب التاريخ العام:

ويأتي في مقدمتها كتاب الأصنام لابن الكلبي (ت ٢٠٤هـ) إذ اعتمد عليه الباحث كثيراً في دراسة أصنام القبائل العربية قبل الإسلام والآلهة التي كانوا يعبدونها والبيوتات المقدسة عند العرب وأماكن عبادة هذه الأصنام ومن كان يعبدها، ويشاركه في هذه الميزة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) في كتابه أيام العرب قبل الإسلام، وابن حبيب (ت ٢٤٥هـ) في كتابيه المحبّر، والمنمّق، اللذين انتهجا نهجه في ذكر أيام العرب قبل الإسلام وتلبيباتهم لأصنامها، فقد ذكر

الصنم ومن لبي له من القبائل، وكذلك كتاب أخبار مكة للأزرقي (ت ٢٥٠هـ)، إذ اعتمد عليه الباحث كثيراً في المعلومات الخاصة بمكة وديانتها وأحداثها، أما كتاب المعارف لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) وتاريخ يعقوبي (ت ٢٩٢هـ)، والكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري (٦٣٠هـ)، وغيرها من كتب التاريخ فقد كان لها دور في ذكر بعض عقوبات وقوانين العرب قبل الإسلام وأيامها وبعض العادات والتقاليد الاجتماعية ومنها أنواع الزواج والطلاق عند العرب قبل الإسلام.

ثالثاً: كتب السيرة:

إنّ أكثر ما اهتمت به كتب السيرة هو كتابة السيرة النبوية الشريفة إلا أن تلك المصادر تطرقت إلى بعض الأحداث التي كان لها صلة بالسيرة النبوية الشريفة قبل البعثة ومنها حادثة محاولة هدم الكعبة من قبل أبرهة الحبشي (حادثة الفيل)، والحديث عن آل هاشم ودورهم في مكة فضلاً عن إشارتها إلى بعض النشاطات الاقتصادية ولاسيما عقد الايلاف والمحالقات الاقتصادية، وقد أفادت الرسالة في هذا المجال من كتاب المغازي للواقدي (٢٠٧هـ)، وكتاب السيرة النبوية لابن هشام (٢١٣هـ).

رابعاً: كتب الأنساب:

وأفادت الدراسة كذلك من بعض كتب الأنساب في معرفة أنساب بعض القبائل العربية وفي معرفة أنساب بعض الشخصيات التي ورد ذكرها في الدراسة ولا سيما المبحث الخامس من الفصل الأول الذي تحدث عن الأنساب، فضلاً عما احتوت عليه من معلومات عن تاريخ العرب قبل الإسلام، ومن أبرز تلك الكتب جمهرة النسب لابن الكلبي (٢٠٤هـ)، وكتاب نسب قريش لمصعب الزبيري (٢٣٦هـ)، وكتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم الاندلسي (٤٥٦هـ) ومجموعة أخرى من كتب الأنساب.

خامساً: كتب الطبقات والتراجم:

كان لهذه الكتب فائدة كبيرة للبحث، إذ قدّمت تراجم مفصلة عن كثير من الشخصيات في صدر الإسلام وعصر ما قبل الإسلام، وتراجم شيوخ وتلامذة ابن أبي الحديد وميولهم،

وتراجم أصحاب مصادر ابن أبي الحديد، ومن أبرز تلك الكتب كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٣٠ هـ)، والفهرست لابن النديم (٤٢٨ هـ)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٦٨١ هـ)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٧٤٨ هـ)، وفوات الوفيات لأبي شاعر الكتبي (٧٦٤ هـ)، والوفيات بالوفيات للصفدي (٧٦٤ هـ).

سادساً: كتب التفسير والحديث:

تعد كتب التفسير ذات قيمة كبيرة أيضاً، وقد استفاد الباحث منها كثيراً لاسيما فيما يتعلّق بتفسير عدد من الآيات القرآنية، وتوثيق الأحاديث النبوية التي وردت في شرح نهج البلاغة ومن أهمها جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (٣١٠ هـ)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦٧١ هـ)، أما كتب الحديث فمن أهمها كتاب صحيح البخاري (٢٥٦ هـ) وكتاب صحيح مسلم (٢٦١ هـ)، وغيرهما من كتب الحديث.

سابعاً: كتب اللغة:

أفادت الدراسة من كتب اللغة في بيان معاني كثير من المفردات اللغوية التي وردت في ثنايا البحث، فضلاً عما حفلت به تلك المعاجم اللغوية من الأخبار ومعلومات تاريخية مهمة من خلال توضيحها لكثير من المفردات اللغوية وما تعنيه هذه المفردات من معانٍ عند العرب قبل الإسلام والتي قد يصعب على القارئ فهمها لأول وهلة ومنها كتاب الصحاح للجوهري (٣٩٣ هـ)، ولسان العرب لابن منظور (٧١١ هـ) وتاج العروس للزبيدي (١٢٠٥ هـ) وغيرها من المعاجم اللغوية التي لا تقل أهمية عما ذكرنا منها.

ثامناً: كتب الأدب والدواوين والأمثال:

وقد أمدّت هذه الكتب الدراسة بنصوص مهمة جاءت عن طريق الشعر والأمثال وما احتوتها من قصص وحوادث عن تاريخ العرب قبل الإسلام، إذ عكست لنا الصورة الاجتماعية والاقتصادية والحضارية لواقع العرب ونذكر منها كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه (٣٢٨ هـ)، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني (٣٥٦ هـ)، والكامل في اللغة والأدب للمبرد (٢٨٥ هـ)، كما اعتمدت الدراسة على بعض الدواوين الشعرية مثل ديوان

امرئ القيس وديوان الأعشى الكبير والنابغة الذبياني وبشر بن أبي خازم، وديوان حاتم الطائي، وديوان زهير بن أبي سلمى، وحسان بن ثابت، وديوان الخنساء، وغيرها من الدواوين الشعرية.

وأفادت الدراسة أيضاً من بعض كتب الأمثال فائدة كبيرة في توثيق ما أورده ابن أبي الحديد في كتابه شرح نهج البلاغة من أمثال تخص الحقبة التي عاشها العرب قبل الإسلام، فهي عبارة عن صورة صادقة تصور حياة العرب قبل الإسلام، منها كتاب الأمثال للأصمعي (ت ٢١٧هـ)، وكتاب جمهرة أمثال العرب لأبي هلال العسكري (٣٦٥ هـ)، وفصل المقال في شرح كتاب الأمثال للبكري (ت ٤٧٨ هـ)، وكتاب مجمع الأمثال للميداني (٥١٨ هـ).

تاسعاً: كتب البلدان:

كان لكتب الجغرافية والبلدان دور كبير في إغناء الدراسة بالمعلومات الخاصة بتحديد العديد من المواقع والمدن التي حدثت فيها أيام العرب قبل الإسلام وفي تحديد أسواقهم وقد أغنتنا بمعلومات قيّمة، أزلت عنّا كثيراً من الغموض، فهي بحق تحوي كثيراً من التفاصيل التي من الصعب وجودها في المصادر الأخرى، ولعل أبرز من زدنا بتلك المعلومات كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني (٣٣٤ هـ)، ومعجم البلدان لياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ)، الذي يعد موسوعة في الجغرافية والتاريخ واللغة والادب.

عاشراً: المراجع الحديثة

تأتي الدراسات الحديثة مكتملة لما أورده المصادر فكان لها دور أساس في سد الثغرات التي لم يعثر عليها في المصادر الأولية، ويأتي في مقدمتها كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي الذي يعد من المراجع التاريخية الحديثة الشاملة لتاريخ العرب قبل الإسلام، إذ لا يمكن لأي باحث الاستغناء عنه، وقد أمدنا بمعلومات وافية في جميع فصول الدراسة، وكتاب بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الألوسي الذي يعد من المراجع المهمة، وكان للأدباء المحدثين دور كبير في الدراسة من خلال تحليلاتهم للشعر العربي والحياة العامة للعرب قبل الإسلام ومنها كتاب العصر الجاهلي لشوقي ضيف وكتاب

الحياة العربية من خلال الشعر الجاهلي لأحمد الحوفي.

وقد كان للدوريات والرسائل الجامعية وبعض البحوث فائدة كبيرة عزز الباحث من خلالها الدراسة بالكثير من الآراء والأفكار وقد أمدتنا بمادة علمية واسعة.

وهناك كثير من المصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها يضيق المقام عن ذكرها في المقدمة، آليت أن أذكرها في آخر الدراسة ضمن قائمة المصادر والمراجع.

وأخيراً حاولنا جاهدين أن نسجل للمكتبة العربية دراسة جديدة حول شرح نهج البلاغة تضاف إلى الدراسات الأخرى، وما هي الا جانب واحد من جوانب عديدة جديدة بالدراسة والبحث لازالت تنتظر أقلام الباحثين المولعين بنهج البلاغة، راجين من الله القبول والتوفيق.

الباحث



الفصل الأول:

ابن أبي الحديد؛ سيرته ومنهجه ومصادره عن العرب قبل الإسلام.

المبحث الأول: سيرة ابن أبي الحديد ومنزلته العلمية وآثاره.

المبحث الثاني: منهجية ابن أبي الحديد ومصادره في كتاب نهج البلاغة.

المبحث الأول سيرة ابن أبي الحديد ومنزلته العلمية وآثاره

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته:

عزّ الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد^(١)، أبو

(١) ينظر ترجمته عند: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ٣٩٢/٥؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد، ومحى هلال سرحان، مؤسسة الرسالة، (بيروت ١٩٨٣م)، ٣٧٢/٢٣؛ ابن الفوطي، كمال الدين ابو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين بن أحمد الشيباني الحنبلي (ت ٧٢٣هـ)، تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب، تحقيق مصطفى جواد، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، (دمشق ١٩٦٣)، ٤/قسم ١، ص ١٩٠؛ الكتبي، محمد بن شاعر (ت ٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، تحقيق علي بن محمد بن يعوض الله، وعادل أحمد عبد الموجود، (دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٠م)، ٦٠٩/١؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، (بيروت ٢٠٠٠م)، ٤٦/١٨؛ الغيث المنسجم في شرح لامية العجم، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠٣)، ١٧٥/٢؛ ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، (بيروت ١٩٨٨م)، ٢٣٣/١٣؛ الغساني، الملك الأشرف ابو العباس اسماعيل بن العباس بن رسول (ت ٨٠٣هـ)، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاعر محمود عبد المنعم، دار التراث الاسلامي، (بيروت ١٩٧٥) ٦٤٢/٢؛ المقرئ، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٧)، ٤٩٧/١؛ الخوانساري، محمد باقر بن زين الدين (ت ١٣١٣هـ)، روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات، الدار الإسلامية للطباعة، (بيروت ١٩٩١م)،

حامد^(١) المدائني^(٢) البغدادي^(٣) المعتزلي^(٤).

ولد بالمداين في ذي الحجة من سنة (٥٨٦هـ)^(٥)، وهو من أسرة عربية ذات مقام رفيع حيث كان بعض أفرادها من رجال العلم والحديث والأدب المعروفين في البلاط العباسي، فأبوه هبة الله بن أبي الحديد قاضي المدائن وخطيبها، وكان فقيهاً على مذهب

١٩/٥؛ القمي، عباس بن محمد رضا، الكنى والألقاب، تقديم محمد هادي الأميني، مكتبة الصدر، (طهران ١٩٧٥)، ١/١٩٣؛ بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة رمضان عبد التواب، مراجعة يعقوب بكر، دار المعارف، (القاهرة ١٩٨٣)، ٥/١٧٧؛ البغدادي، اسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ١/٥٠٧؛ الزركلي، خير الدين، الاعلام، ط ١٥، دار العلم للملايين، (بيروت ٢٠٠٢)، ٣/٢٨٩.

(١) كنيته (أبو حامد) أما لقبه فلقب بـ(عزّ الدين)، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٥/٣٩١.
(٢) نسبة إلى المدائن وهي مدينة تقع جنوبي شرق بغداد على مسافة ستة فراسخ منها، سمّتها العرب بالمداين لأنها سبع مداين بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة كانت ولادة ابن أبي الحديد وصباه فيها، ينظر ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ)، معجم البلدان، قدم له محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت ٢٠٠٨)، ٧/٢٢٢.

(٣) نسبة إلى مدينة بغداد التي ترعرع فيها وعاش معظم حياته السياسية والأدبية وكانت وفاته فيها.

(٤) نسبة إلى المعتزلة، وهي فرقة كلامية ظهرت في أواخر القرن الأول الهجري في البصرة، وتبنت آراءً وأفكاراً تختلف في عدد من المسائل عما كان مألوفاً عند علماء المسلمين، وقامت على أصول خمسة، هي التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. سميت بهذا الاسم لاعتزال مؤسسها واصل بن عطاء (ت ١٣١ هـ) مجلس استاذة الحسن البصري (ت ١١٠ هـ)، ثم تحولت إلى مدرستين مدرسة البصرة ومدرسة بغداد، وتميّزت مدرسة بغداد بالميل إلى الإمام علي عليه السلام فهم يرون القول بالتمفصيل، لذا نجد ابن أبي الحديد يفتتح شرحه بالقول بالتمفصيل ثم يؤكد على هذه المسألة في أجزاء العشرين أينما سنحت له الفرصة والرغبة بتطبيق الاعتزال عملياً، ينظر الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت ٥٤٩ هـ)، الملل والنحل، تحقيق إبراهيم شمس الدين، مؤسسة الاعلمي، (بيروت ٢٠٠٦)، ص ٤٩ - ٥١؛ النصر الله، جواد كاظم منشد، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي رؤية اعتزالية عن الإمام علي، مؤسسة ذوي القربى، (قم ١٣٨٤)، ص ٩ - ١١.

(٥) الصفدي، الغيث المنسجم في شرح لامية العجم، ٢/١٧٥.

الإمام الشافعي، إذ تخرّج من المدرسة النظامية، وأصبح شيخاً من شيوخ الحديث في بغداد والمدائن توفي سنة ٦١٣هـ^(١).

أمّا إخوته فأبرزهم كان موفق الدين أبو المعالي أحمد ويدعى القاسم، كان أديباً فقيهاً فاضلاً، شاعراً محسناً، مشاركاً في أكثر العلوم غزير العلم^(٢)، وكان أشعرياً في الأصول^(٣) وتولّى منصب القضاء في المدائن أيام الخليفة الظاهر (٦٢٢ - ٦٢٣هـ) وصنّف كتاباً سمّاه (الحاكم في اصطلاح الخراسانيين والعراقيين في معرفة الجدل والمناظرة) ثم تولّى كتابة الإنشاء للخليفة المستعصم العباسي (٦٤٠ - ٦٥٦هـ)^(٤)، كما تولّى أمر خزائن الكتب مع أخيه عزّ الدين بعد احتلال بغداد، توفي في رجب سنة ٦٥٦هـ، بعد وفاة الوزير ابن العلقمي^(٥) بنحو إسبوع^(٦).

وكان أخوه الثاني أبو البركات، محمد بن هبة الله، أديباً فاضلاً، موصوفاً بالذكاء، وعنده فضل غزير وكتابة ضبط تام، ويقول الشعر، مات شاباً عن أربع وثلاثين في حياة

(١) المنذري، زكي الدين ابو محمد عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦ هـ)، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، (بيروت ١٩٨٤)، ٣٨٢/٢؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨هـ)، المختصر من تاريخ ابن الديلمي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٧)، ص ٣٦٨.

(٢) الكتبي، محمد بن شاكر، فوات الوفيات، ١/١٨٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ٨/١٤٦؛ الغساني، العسجد المسبوك والجواهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، ٢/٦٤١.

(٣) ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي (ت ١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، (بيروت ١٩٩١)، ٧/٤٨٥.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، ٨/١٤٦.

(٥) محمد بن أحمد بن علي، أبو طالب مؤيد الدين الأسدي البغدادي المعروف بابن العلقمي (ت ٦٥٦ هـ)، وزير المستعصم العباسي، اشتغل في صباه بالأدب، وارتقى إلى رتبة الوزارة (سنة ٦٤٢) فوليها أربعة عشر عاماً. ينظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ١/١٥١؛ الزركلي، الاعلام ٥/٣٢١.

(٦) ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٧/٤٨٥؛ محيي الدين، علي، ابن أبي الحديد سيرته وآثاره الأدبية والنقدية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٧، ص ٧١.

والده سنة ٥٩٨هـ، أما الثالث عبد اللطيف، فكان فقيهاً على مذهب الإمام الشافعي، وموصوفاً بالفضل، وله نظر في علم الكلام والأدب توفي سنة ٦٠١هـ ودفن بمشهد الإمام موسى بن جعفر (عليهما السلام)^(١).

أما أولاد ابن أبي الحديد فلم تذكر المصادر التي تناولت سيرته عن ذكر عقب له، إلا إننا يمكن أن نستنتج أن له أهلاً وولداً، مما حدّث هو عن نفسه في كتاب شرح نهج البلاغة فهو يقول مقدماً لبعض شعره (ومن شعري أيضاً في المعنى وكنت أنادي به ليلاً في مواضع مقفرة خالية من الناس بصوت رفيع وأجدح قلبي أيام كنت مالكا أمري مطلقاً من قيود الأهل والولد وعلائق الدنيا)^(٢).

ثانياً: نشأته وعصره:

بعد انتقاله إلى بغداد، بلاد العلم والثقافة التي يتوافد إليها العلماء والادباء من كل بقاع العالم الاسلامي، وفي ضوء توفر المكتبات التي تحتوي على مختلف الكتب بكل مجالاتها الفلسفية والادبية والعلمية، ظهرت شخصية ابن أبي الحديد العلمية مع بروز قوى نشاط أهل المذاهب والعقائد ومجالسهم وكثرة أصحابها، في تلك المدة التي امتازت بنوع من الحرية الفكرية وكثرت المؤلفات للطوائف الدينية في بيان مذاهبهم وعقائدهم، وكان المعتزلة من أقواهم وأكثرهم حركة في التأليف المذهبي والفكري إلى جانب الأشعرية والإمامية والزيدية، فاختلط ابن أبي الحديد بعلمائها، ومال في نهاية المطاف إلى الاعتزال، وصار من أبرز علماء المعتزلة في مجلس النظر، ومن أبرز مناظراته كانت مناظرته مع علي بن الفارقي في مسألة فدك، إذ سأل ابن أبي الحديد المعتزلي علي بن الفارقي: أكانت فاطمة عليها السلام صادقة في دعواها؟ فأجاب علي بن الفارقي:

(١) المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ٥٨/٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٤١/١٣.

نعم. فسأله ابن أبي الحديد: فلم لم يدفع إليها أبو بكر وهي عنده صادقة؟ فرد عليه علي بن الفارقي مبتسماً وقال: لو أعطها اليوم فدك بمجرد دعواها لجاءت إليه غداً وادعت لزوجها الخليفة، وزحزحته عن مقامه، ولم يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء، لأنه يكون قد اسجل على نفسه أنها صادقة فيما تدعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بينة وشهود، وقد استحسّن قوله ابن أبي الحديد وقال: هذا كلام صحيح وإن كان أخرجه مخرج الدعابة والهزل^(١).

عاصر ابن أبي الحديد خلال مدة حياته التي قاربت السبعين عاماً مجموعة من الأحداث المليئة بالاضطرابات والفتن، إذ أدرك فيها من الخلفاء العباسيين أربعة؛ الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ)، والظاهر بأمر الله (٦٢٢ - ٦٢٣هـ)، والمستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠هـ)، والمستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦هـ).

فسياسياً كان السلاجقة في أيامهم الأخيرة، إذ تمكّن الخليفة العباسي الناصر لدين الله من القضاء عليهم وإسترجاع السلطة منهم بعد أن أوعز إلى سلطان خوارزم علاء الدين بالزحف نحو السلطان السلجوقي (طغرل) فزحف إليه في سنة (٥٩٠هـ) فقتله وحمل رأسه إلى بغداد^(٢)، وبذلك أعاد للخلافة هيبتها، واستمر ذلك في خلافة ابنه الظاهر بأمر الله، أما في خلافة المستنصر بالله الذي كان شغوفاً بحب العلم والمعرفة، فقد تقرب إليه أهل العلم والأدب وامتدحه كثيرون، منهم ابن أبي الحديد، فقد ألف ديواناً كاملاً أسماه (المستنصرات) مدح في قصائده الخمس عشرة الخليفة المستنصر بالله

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢١٨/١٦؛ الغزي، محسن راشد طريم، المجالس الإسلامية العامة في بغداد في العصور العباسية المتأخرة ٣٣٤ - ٦٥٦، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة بغداد، ٢٠٠٧، ص ١٣٠.

(٢) السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ١٣٢ - ٦٥٦هـ، دار الكتب، (الموصل ١٩٨٨)، ص ٣٣٨.

العباسي^(١). غير أن في مدّة حكمه كانت غارات المغول التتار تُشن بين الحين والآخر على مدن العراق، إلى أن تسلّم الخلافة المستعصم بالله في سنة (٦٤٠هـ) الذي يصفه ابن الطقطقي فيقول: (كان المستعصم رجلاً خيراً متديناً، ليّن الجانب، سهل العريكة، عفيف اللسان، حمل كتاب الله تعالى وكتب خطأ مليحاً. وكان سهل الأخلاق، وكان خفيف الوطأة، إلاّ أنّه كان مستضعف الرأي، ضعيف البطش، قليل الخبرة بأمور المملكة، مطموعاً فيه، غير مهيب في النفوس، ولا مطلع على حقائق الأمور، وكان زمانه ينقضي أكثره بسماع الأغاني والتفرج على المساخرة، وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة، وكان أصحابه مستولين عليه وكلّهم جهّال من أراذل القوم)^(٢).

هذا الوضع السياسي المضطرب خلق نوعاً من عدم التوازن داخل المجتمع، فقد ظهرت هناك طبقتان، الأولى هي الطبقة المترفة الغنية وعلى رأسها الخليفة وأتباعه من الأقرباء التنفيذيين، ويتلوهم حواشيهم من الوزراء والقادة والأمراء والولاة وكبار الموظفين. والطبقة الثانية وهي الطبقة العامّة الفقيرة المعدّمة، وتشمل غالبية المجتمع المنهَمك بالصراع الديني والمذهبي، وكانت تعاني كثيراً من الضنك والضيّق لكثرة الضرائب التي كانت تجبى منها وقلة ما كان يعود عليها من الكسب^(٣). فضلاً عن ابتلائهم بأوضاع اقتصادية متدهورة من جراء الكوارث الطبيعية وما تخلفها لهم وتفتك بهم فتكاً ذريعاً، منها كثرة الأمطار والفيضانات التي تسببت بغرق كثير من المحلات

(١) ينظر الكتاب ضمن مؤلفات ابن أبي الحديد ص ٢٩ من الرسالة.

(٢) ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ)، الفخري في الاداب السلطانية، مطبعة مرسو، (مدينة شالون ١٨٩٤)، ص ٤٤٨.

(٣) المشهداني، اركان طه عبد، النهضة العلمية والثقافية في بغداد في القرنين الخامس والسادس الهجريين، أطروحة دكتوراه غير منشورة، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية، الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٥، ص ٤٤ - ٤٨.

وتلف الكثير من الأمتعة والغلات، فقد ذكر ابن الجوزي في حوادث سنة ٥١٥ هجرية أن أمطاراً عظيمة وقعت ودامت واتصلت بجميع العراق، وأهلك ما على رؤوس النخل وفي الشجر من الأرتاب والأعناب والفواكه، وما كان في الصحارى من الغلات، ثم سقط الثلج ببغداد ودام سقوطه إلى وقت الظهر من الغد فامتألت به الشوارع والدروب، وبقي خمسة عشر يوماً ما ذاب، وهلك شجر الأترج والنانرج والليمون^(١).

وفي أحداث سنة ٥٥٤ هـ قال ابن الجوزي كثر المد بدجلة وبقي الماء الذي في داخل البلد يدب في المحال إلى أن وصل إلى بعض دروب المدينة فما وجد حائطاً قائماً، ولم يعرف أحد موضع داره إلا بالتخمين، وإنما الكل تلال، واستدل البعض على دربه من منارة المسجد فإنها لم تقع، وغرقت مقبرة الإمام أحمد بن حنبل وغيرها من الأماكن والمقابر وانخسفت القبور^(٢)، ومن جهة أخرى كثرة الامراض التي فتكت بالناس حيث بدأ الطاعون ببغداد ونواحيها، وكان عامة أمراضهم الصفراء، فمات منه نحو عشرين ألف ببغداد، وكان المرض يكون خمسة أيام وستة ثم يأتي الموت^(٣) فهذه الأوضاع المضطربة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً كان لها أثرها البالغ في تفكك الخلافة العباسية.

أما فكرياً فقد ازدهرت الحركة العلمية في هذه المدة، إذ ظهرت إلى جانب المساجد مدارس لرواد العلم، وكان في هذه المدارس أساتذة وعلماء مختلفون يحاضرون في جميع العلوم وكانت أشهر هذه المدارس المدرسة النظامية ببغداد، التي أمر الخليفة الناصر لدين

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧ هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر

عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت ١٠٠٢)، ١٧/١٩٧ - ٩٨.

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٣٥/١٨.

(٣) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٢٤٠/١٦، ٢٥٧، أحداث سنة ٤٧٨ سنة ٤٨٩ هـ.

الله بعمارة خزانة الكتب فيها ونقل إليها من الكتب النفيسة أوفاً لا يوجد مثلها^(١). فكانت أشبه بجامعة كبيرة وإن كانت الدراسة والتدريس يقتصران فيها على المذهب الشافعي. وإلى جانبها بنيت مدارس عدّة في بقية المدن الإسلامية^(٢).

وكذلك بنى الخليفة المستنصر بالله العباسي ببغداد في سنة (٦٣١هـ) مدرسة كبيرة على غرار المدرسة النظامية، وهي المدرسة المستنصرية. فهي أعظم جامعة علمية في بغداد وجعلها الخليفة المستنصر وفقاً على المذاهب الأربعة، وأمر أن يقوم العلماء الصالحون والأدباء المشهورون بإقراء القرآن بها وتعليم العلوم الشرعية والأدبية وإقراء الأحاديث النبوية فيها وأن يكون عدد الفقهاء بها مائتين وثمانية وأربعين رجلاً من كل طائفة اثنان وستون، وأن يكون لكل طائفة مدرس وأربعة معيدين^(٣).

وكان من آثار الحركة العلمية والفكرية في هذه الحقبة أن كثُرَ عدد العلماء في كل علم مما حدا بعضهم إلى تأليف كتب في تراجم كل مجموعة على حدة، منها كتب للفقهاء، وكتب للمفسرين، وكتب للنحاة، وكتب الأطباء إلى غير ذلك من العلوم الأخرى. وبذلك نرى أنّ العقل كان نشيطاً خلاقاً مبدعاً حتى يمكن القول بأنه بلغ النشاط الفكري والثقافي الدرجة العالية من النضج، ويبدو أن تلك الآثار انعكست على فكر ابن أبي الحديد، لذا ظهرت بوادره ومعطياته واضحة في تأليفاته ونضج أفكاره، وقد نال ابن أبي الحديد الخطوة عند الخلفاء العباسيين فمدحهم وأخذ جوائزهم ونال المراتب والمناصب الرفيعة فكان كاتباً في ديوان الخلافة، ثم كاتباً في دار التشريعات ثم ناظراً للبيمارستان، وأخيراً فوّض إليه أمر خزائن الكتب في بغداد^(٤).

(١) الغساني، الملك الاشرف، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، ٢٢٤/٢ - ٢٢٥.

(٢) محبوبة، عبد الهادي محمد رضا، نظام الملك، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة ١٩٩٨)، ص ٤٠٤.

(٣) الغساني، الملك الاشرف، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، ٤٥٨/٢.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٤/١، مقدمة المحقق (أبو الفضل إبراهيم).

ثالثاً: عقيدة ابن أبي الحديد

لم يتفق المؤرخون على مذهب ابن أبي الحديد، فقد وصفه كل من الذهبي (ت ٧٤٨هـ) والصفدي (ت ٧٦٤هـ) بالمعتزلي^(١)، وذكر الغساني إنه كان (شافعي المذهب ينتحل في الاصول في مذهب المعتزلة، وله في ذلك تصنيف ورد على المخالفين)^(٢) فيما عدّه ابن كثير من الشيعة الغلاة^(٣)، وقال آخر إنه من خصوم الشيعة وأشدّ مناوئهم رغم ما يظهر من حبه لعلي، وإظهار تفضيله^(٤)، بينما عدّه بعضهم (موالياً لأهل بيت العصمة والطهارة وإن كان في زي أهل السنة والجماعة، منصفاً غاية الإنصاف في المحاكمة بين الفريقين، ومعتزلاً في ذلك المصاف بأن الحق يدور مع والد الحسين)^(٥)، وذكر أحد الباحثين المعاصرين أن عقيدته أخذت طورين، الطور الأول، فيه تفتحت عينا ابن أبي الحديد على الحياة في المدائن وهي قريبة يغلب على أهلها التشيع على مذهب الشيعة الإمامية، وحين قوي عوده واشتد ساعده، وصل إلى بغداد، حاضرة العالم الإسلامي، وقطن الكرخ، وأهل الكرخ - كما يقول ياقوت الحموي - شيعة إمامية لا يوجد فيهم السنيّ البتة^(٦)، ففي هذين الوطنين نشأ وفيهما تلقى التشيع. أما الطور الثاني وهو طور النضوج الفكري حيث استقر ببغداد واتصل برجال الدولة والعلماء فتحول عن عقيدته الشيعية، واتخذ لنفسه مذهباً آمن به أشد الإيمان، وتفانى في الدفاع عنه وفسر جميع الظواهر على مقتضاه وهو مذهب الاعتزال، لقد رأيناه في هذه الفترة من حياته معتزلياً سنياً شافعيّاً، لا يلتقي مع الشيعة في شيء من أصول مذهبهم، بل هو يناقضهم

(١) الذهبي، سير اعلام النبلاء، ٢٣/٢٧٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٨/٤٦.

(٢) العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، ٢/٦٤٢.

(٣) البداية والنهاية، ١٧/٣٥٤.

(٤) الخطيب، عبد الزهرة الحسيني، مصادر نهج البلاغة واسانيده، ١/٢١٧.

(٥) الخوانساري، روضات الجنات، ٥/١٩.

(٦) النص موجود عند ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٧/٢٢٢، [المدائن]

ويخالفهم في كل شيء حتى رأيناه ألف كتاباً في مقالات الشيعة^(١).

ويبدو أن ابن أبي الحديد لا يمكنه الجمع بين كل ما ذكره، فهناك حدود فاصلة تبعدهم الواحد عن الآخر فلا يوجد ترابط بينهم، فلا يمكن أن يكون شافعيّاً وشيعيّاً ومعتزليّاً في الوقت نفسه، إنما نرى أنه على مذهب الاعتزال وليس شافعيّاً فقط أو شيعيّاً كما توهم البعض، ولعله كما وصفه الغساني (شافعي المذهب ينتحل في الاصول مذهب المعتزلة)، ووقفه على الاعتزال ثابت لدينا لعدة أسباب منها:

أولاً: إن ابن أبي الحديد نفسه صرّح بأنه على مذهب الاعتزال في مواطن متعدّدة من شعره منها قوله:

أحب الاعتزال وناصره
فأهل العدل والتوحيد أهلي
ذوي الآبواب والنظر الدقيق
ونعم فريقهم أبداً فريقتي^(٢)

وقال في مدح الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

ورأيت دين الاعتزال وإنني
أهوى لأجلك كل متشيع^(٣)

وذكر الصفدي أبياتاً طريفة لابن أبي الحديد تثبت اعتزاله:

لولا ثلاث لم أخف صرعتي
أن أنصر التوحيد والعدل في
ليست كما قال فتى العبد^(٤)
كل مكان باذلاً جهدي

(١) محيي الدين، ابن أبي الحديد سيرته وآثاره الأدبية والنقدية ص ٨٥ - ٨٩.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١١/١، مقدمة المحقق (أبو الفضل إبراهيم).

(٣) ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله مدائني (ت ٦٥٦ هـ)، شرح القصائد العلويات

السبع، مؤسسة الأعلمي، بيروت، (د.ت)، القصيدة السادسة في وصف الإمام عليه السلام، ص ١٤٤.

(٤) يشير في هذا البيت إلى أبيات طرفة بن العبد في معلقته، تنظر الأبيات ص ١٠٤ من الرسالة.

وَأَنْ أَنَا جِي اللَّهُ مَسْتَمْتَعَا
وَأَنْ أَتِيَهُ الدَّهْرُ كَبْرًا عَلَى
كَذَاكَ لَا أَهْوَى فَتَاهُ وَلَا
بِخْلُوةِ أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ
كُلُّ لُئِيمٍ أَصْعَرَ الخَدَّ
خَمْرًا وَلَا ذَا مِيعَةَ نَهْدٍ^(١)

ثانياً: بداية حياة ابن أبي الحديد العلمية والفكرية كانت على يد والده الذي كان فقيهاً من فقهاء المذهب الشافعي وكذلك إخوته، كان والده أستاذه الأول الذي ينهل منه الفقه والعلوم، فضلاً عن اختلافه إلى حلقات الدرس والتعليم في دراسته كطالب في المدرسة النظامية ببغداد وهو غلام - كما صرح بنفسه -^(٢)، والتي لا يدرّس فيها سوى مذهب الإمام الشافعي، فضلاً عن ملازمته لعلماء كبار وهو دون سن العشرين من عمره، كما سنبين عند التطرق إلى أساتذته، ثم عززها بالتوجه نحو الاعتزال في الاصول بتأثير أساتذته الذين كان يدرس عندهم علم الكلام فكانت فكرة الاعتزال قد ترسخت في ذهنه من خلالهم وهو في بداية حياته.

ثالثاً: إنّ من ذهب على أنه شيعي فقد يكون لتأليفه القصائد العلويات، وشرحه لنهج البلاغة، ولكن يمكن القول أنّه نظمها للتقرب من البلاط العباسي، فهو حينما يقوم بتأليف كتاب ما يقوم بإهدائه إلى الخزانة الشريفة للخليفة أو للوزير لغرض التقرب إليهم كما فعل في أغلب كتبه، والعلويات السبع نظمها سنة ٦١١ هـ للخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي كان يتشيع ويرى رأي الإمامية ويميل إلى مذهبهم^(٣)، أما شرح نهج البلاغة فقد أهداه للوزير ابن العلقمي الشيعي المذهب كما سنبين.

رابعاً: مذهب الاعتزال الذي ذهب إليه ابن أبي الحديد نراه واضحاً ومميزاً من خلال

(١) الغيث المنسجم في شرح لامية العجم، ١٥٧/٢.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢١٤/١٤.

(٣) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٤٣٤.

آرائه الاعتزالية التي طرحها في كتابه (شرح نهج البلاغة) تلك التي كان يعنونها بعنوان (مباحث كلامية) أو يبدأ بعرض آراء أصحابه في المسألة الكلامية أو الفلسفية ومناقضته لآراء الشيعة في الكثير من آرائهم ومعتقداتهم التي لا تنسجم مع مذهبه.

رابعاً: منزلته العلمية وآراء العلماء فيه:

تعددت أقوال الأدباء والمفكرين في بيان سماته الفكرية وأجمعوا على أنه من أساطين العلم والفكر وأثبت المؤرخين، قال عنه ابن خلكان وعن أخيه موفق الدين (كانا فقيهين أديبين فاضلين لهما أشعار مليحة)^(١)، وقال عنهما الذهبي، (كانا من كبار الفضلاء وأرباب الكلام والنظم والنثر والبلاغة)^(٢)، وذكر كل من الكتبي والصفدي ابن أبي الحديد فوصفاه بالفقيه الشاعر، وأنه معدود في أعيان الشعراء^(٣)، كذلك قال فيه الزركلي إنه (عالم بالأدب ومن أعيان المعتزلة، له شعر جيد واطلاع واسع على التاريخ)^(٤)، وعدّه الخوانساري بين علماء العامة بمنزلة عمر بن عبد العزيز الأموي بين خلفائه^(٥)، وفي ترجمة حياته ذكر محمد أبو الفضل إبراهيم إنه (أحد جهابذة العلماء، وأثبت المؤرخين،.. كان فقيهاً أصولياً، وله في ذلك مصنفات معروفة مشهورة، وكان متكلماً جديلاً نظاراً، اصطنع مذهب الاعتزال، وعلى أساسه جادل وناظر، وحاجّ وناقش... وكان أديباً ناقداً، ثاقب النظر، خبيراً بمحاسن الكلام ومساوئه... ثم كان أديباً متضلّعاً في فنون الأدب، متقناً لعلوم اللسان، عارفاً بأخبار العرب، مطلعاً على لغاتها، جامعاً لخطبها ومنافراتها، راوياً لأشعارها وأمثالها، حافظاً لملحها وطرفها، قارئاً مستوعباً لكل ما حوته الكتب والاسفار في زمانه)^(٦).

(١) وفيات الاعيان، ١٩٢/٥.

(٢) سير أعلام النبلاء، ٢٣/٢٧٥.

(٣) فوات الوفيات، ١/٦٠٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ٨/٤٦.

(٤) الأعلام، ٣/٢٨٩.

(٥) روضات الجنات، ٥/١٩.

(٦) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣-١٢/١، مقدمة المحقق.

خامساً: شيوخه:

كانت المكانة العلمية الرفيعة التي وصل إليها ابن أبي الحديد من خلال نبوغه في أكثر من مجال وبمختلف الفروع الأدبية والفلسفية والتاريخية قد أثارت فينا تساؤلات عدة حول تلك العلوم، ممن تلقاها؟ وكيف وصلت إليه؟ أهى بالفطرة، أم كان وراءها أساتذة وشيوخ وعلماء ومفكرون كانت تنهل عليه بما يفيض من علومها.

بالتأكيد كان هناك أساتذة، ولعل أول أساتذته والده الذي تتلمذ على يديه وأخذ منه الشيء الكثير. فهو كما ذكر الذهبي كان شيخاً من شيوخ الحديث في بغداد والمدائن والقاضي فيها وأحد خطبائها، وتفقه بالمدرسة النظامية، والتي كان مدرسها الشيخ أبو نجيب^(١)، وكان شديد الحرص على أن يسلك ولده طريق المعرفة حباً في طلب العلم وملازمة حلقات العلماء، فأرسله للدراسة فيها غلاماً في بداية نضوجه العلمي، لدراسة العلوم على المذهب الشافعي الذي كان يدرّس لوحده هناك^(٢).

أما بقية أساتذته وشيوخه فلم يتطرق لهم من كتب سيرة ابن أبي الحديد، وضاع علينا القسم الأعظم منهم، ولكن ابن أبي الحديد ذكر قسماً منهم في كتابه شرح نهج البلاغة، إذ صرح بأسماء عشرة منهم، وكان يعطينا تصوراً عن كل واحد منهم، وميوله ومذاهبه، والملفت للنظر أنّ ميولهم كانت تختلف، فقسم منهم كان شافعيّاً وبعضهم حنابلة، وبعضهم أحنافاً وبعضهم علويون، ولعلّ هذا السبب الذي جعل أفكاره تدرك جميع المذاهب وتستوعب الجميع مما أدى إلى اختلاف واضح في معرفة ميوله الفكرية عند عدد كبير من كتب عن سيرته، قديمهم وحديثهم، كما بيّنا سابقاً عند الحديث عن عقيدته. ومن أبرز أساتذته وحسب ميولهم المذهبية:

(١) المختصر من تاريخ ابن الديلمي، ص ٣٦٨.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢١٤/١٤.

١. الدَّبَّاس، عمر بن عبد الله، أبو السعادات (ت ٦٠١هـ):

ولد سنة ٥٦٥هـ، وبرع في النحو واللغة والأصول، وكتب كثيراً فيهما، كان حنبلياً ثم صار شافعيّاً أشعريّاً، سكن المدرسة النظامية ببغداد ثم تولى الإشراف على كتبها وأدركه أجله سنة إحدى وست مائة^(١)، ذكره ابن أبي الحديد ونعته بكلمة (أستاذي) وذلك عند الحديث عن حجر بن عدي والأشتر، إذ قال: (قرئ كتاب الاستيعاب على شيخنا عبد الوهاب بن سكينه المحدث وأنا حاضر، فلما انتهى القارئ إلى هذا الخبر قال أستاذي عمر بن عبد الله الدَّبَّاس - وكنت أحضر معه سماع الحديث - : لتقل الشيعة بعد هذا ما شاءت، فما قال المرتضى والمفيد إلا بعض ما كان حجر والأشتر يعتقدانه في عثمان ومن تقدمه، فأشار الشيخ إليه بالسكوت فسكت)^(٢).

٢. ابن سكينه، ضياء الدين عبد الوهاب بن علي (ت ٦٠٧هـ):

كان رجلاً عالماً عاملاً بمذهب الشافعي، كثير المباحثة في مسائله، دائم التكرار لكتاب التنبيه في الفقه حافظاً له، كثير الاشتغال بكتاب المهذب والوسيط في الفقه^(٣)، وصفه الذهبي بالشيخ الإمام العالم الفقيه المحدث الثقة المعمر القدوة الكبير شيخ الإسلام مفخر العراق وشيخها في الحديث والزهد البغدادي الصوفي الشافعي، وسكينه هي والدة أبيه. مولده في شعبان سنة تسع عشرة وخمس مئة. عمّر حتى حدّث بجميع مروياته، وقصده الطلاب من البلاد، وكانت أوقاته محفوظة، لا تمضي له ساعة إلا في تلاوة أو ذكر أو تهجد أو تسميع^(٤)، وسلّمت إجازة الشافعية إلى الإمام ابن سكينه في السنّة التي توفى

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ٣٠٣/٢٢.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٧٦/١٥.

(٣) ابن النجار البغدادي، محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله (ت ٦٤٣هـ)، ذيل تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر يحيى، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٧)، ٢١٨/١.

(٤) سير أعلام النبلاء، ٥٠٢/٢١ - ٥٠٥.

فيها سنة ٦٠٧هـ^(١)، ويوم وفاته حضره أرباب الدولة، وكان يوماً مشهوداً^(٢).

أخذ ابن أبي الحديد عنه علم الحديث، فقد ذكر أنه حضر سماع الحديث عليه مع شيخه أبي حفص عمر بن عبد الله الدباس^(٣)، كما ذكره ابن أبي الحديد مرة ثانية عند الحديث عن رواية قول جبريل من السماء في معركة أحد (لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي)، فقال ابن أبي الحديد: (وسألت شيخي عبد الوهاب بن سكينه رحمه الله عن هذا الخبر فقال خبر صحيح، فقلت فما بال الصحاح لم تشتمل عليه؟ قال أو كلما كان صحيحاً تشتمل عليه كتب الصحاح، كم قد أهمل جامعو الصحاح من الأخبار الصحيحة)^(٤).

٣. الواسطي، أبو الخير النحوي (ت ٦٠٥هـ):

مصدق بن شبيب بن الحسين الصلحي، كان عالماً باللغة والفرائض، من أهل واسط، من قرية تعرف بدوران من قرى الصلح، والصلح من أعمال واسط، صحب صدقة بن الحسين بن الواعظ الواسطي من صباه وقرأ عليه القرآن وشيئاً من النحو، برع في العربية، وصار مشاركاً إليه مع ما فيه من الصلاح والخير والعبادة، قدم بغداد وأقرأ الناس الأدب زماناً ثم قرأ النحو على ابن الخشاب وعلى أبي البركات الأنباري وأبي الحسن بن العصار وصار مشاركاً إليه، ولد سنة خمس وثلاثين وخمسمائة وعاش سبعين سنة، توفاه الله في ربيع الأول ببغداد سنة خمس وستمائة^(٥)، دفن مع شيخه صدقة في ضريحه في محلة قراح القاضي شرق مدينة بغداد^(٦).

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٩٥/٦.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٥٠٥/٢١.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٧٦/١٥.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٩٣/١٤.

(٥) القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ)، إنباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل

ابراهيم، دار الفكر العربي، (القاهرة، ١٩٨٦)، ٢٧٤/٣؛ الذهبي، المختصر من تاريخ ابن الديلمي، ص ٢٧٤.

(٦) القفطي، إنباه الرواة على أنباء النحاة، ٢٧٥/٣.

وكان ابن أبي الحديد قد ذكره مرتين في شرح نهج البلاغة، الأولى عند الخطبة الشقشقية طارحاً الأدلة على صحة نسبتها إلى الإمام علي عليه السلام، مشيراً بأن شيخه أبا الخير مصدق بن شبيب الواسطي قد حدثه في سنة ثلاثٍ وستمئة، فقال له: قرأت هذه الخطبة على الشيخ أبي محمد عبد الله أحمد المعروف بابن الحشّاب^(١).

وذكره كذلك عندما تناول ابن أبي الحديد قصة غزوة الخندق ومبارزة الإمام علي عليه السلام لعمر بن ودّ العامري، والمحاورة التي جرت بينهما فقال: (كان شيخنا أبو الخير مصدق بن شبيب النحوي إذا مررنا في القراءة عليه بهذا الموضع يقول: والله ما أمره بالرجوع إبقاءً عليه، بل خوفاً منه. فقد عرّف قتلاه بيدرٍ وأحدٍ، وعلم أنّه إنّ ناهضه قتله، فاستحيا أن يظهر الفشل، فأظهر البقاء والإرعاء، وإنّه لكاذب فيهما)^(٢).

٤. ابن الجوزي، (ت ٥٩٧هـ):

عبد الرحمن بن علي أبو الفرج الحنبلي البغدادي الواعظ، ولد في بغداد في حدود سنة (٥٠٨هـ) وهو قرشي النسب، ينتهي نسبه إلى الخليفة أبي بكر، كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ. صنف في فنون عديدة، منها (زاد المسير في علم التفسير) أربعة أجزاء أتى فيه بأشياء غريبة، وله في الحديث تصانيف كثيرة، وله في التاريخ (المنتظم)، وهو كبير، وله (الموضوعات) في أربعة أجزاء، ذكر فيها كل حديث موضوع، وغيرها من الكتب، وبالجملة فكتبه أكثر من أن تعد. حتى يقولون إنه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره وقسمت الكراريس على المدة فكان ما خص كل يوم تسع كراريس، وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل، وكانت له في مجالس الوعظ أجوبة نادرة، فمن أحسن ما يحكى عنه أنه وقع النزاع ببغداد بين أهل السنة

(١) شرح نهج البلاغة، ١/١٩٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٩/٥٨.

والشيعة في المفاضلة بين أبي بكر وعلي عليه السلام فرضي الكل بما يجيب به الشيخ أبو الفرج، فأقاماً شخصاً سأله عن ذلك وهو على الكرسي في مجلس وعظه، فقال: أفضلهما من كانت ابنته تحته، ونزل في الحال حتى لا يراجع في ذلك، فقالت السنة: هو أبو بكر لأن ابنته عائشة تحت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقالت الشيعة: هو علي عليه السلام لأن فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحته، وكانت ولادته بطريق التقريب سنة ثمان، وقيل عشر وخمسمائة. وافته المنية ليلة الجمعة ثاني عشر شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة ببغداد^(١).

وذكر ابن أبي الحديد أستاذه ابن الجوزي في كتابه شرح نهج البلاغة بقوله: (وأجاز لي الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي بروايته عن شيخه محمد بن ناصر عن شيوخه)^(٢)، وإنما إذا ما عرفنا أن ولادة ابن أبي الحديد كانت في سنة (٥٨٦هـ) ووفاة ابن الجوزي كانت في سنة (٥٩٧هـ)، فمعنى ذلك أن عمر ابن أبي الحديد يوم وفاة شيخه ابن الجوزي كان أحد عشر سنة، وهذا يدل على أن ابن أبي الحديد كان ينم عن ذكاءٍ ونبوغٍ مبكرٍ إذا ما رأينا حضوره لعددٍ من الشيوخ وهو غلام.

٥. البغدادي، فخر الدين إسماعيل بن علي، (ت ٦١٠هـ):

أبو محمد الأزجي المأموني الحنبلي، العلامة الأصولي الفيلسوف، صاحب العلامة ناصح الإسلام ابن المني لذلك اشتهر باسم غلام ابن المني. مولده في صفر سنة تسع وأربعين وخمس مئة، وتفقه على ابن المني وسمع منه، وأشغل بمسجد المأمونية بعد شيخه، وكانت له حلقة بجامع القصر للنظر، وكان متوقداً ذكاءً. له تصانيف في المعقول، وتعليقة في الخلاف، قال ابن النجار: برع الفخر إسماعيل في المذهب والأصلين

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان وأبناء أبناء الزمان، ٣/١٤٠.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٢/٢٢٠.

والخلاف، وكان حسن العبارة، مقتدرًا على رد الخصوم، وكانت الطوائف مجمعة على فضله وعلمه، قرأ المنطق والفلسفة على ابن مرقش النصراني وصنّف كتاباً أسماه (نواميس الأنبياء) يذكر فيه أنهم كانوا حكماء كهرمس وأرسطو، أخذ عنه الشيخ مجد الدين ابن تيمية، مات في ثامن ربيع الأول سنة عشر وست مئة^(١).

وذكره ابن أبي الحديد بقوله (كان الفخر إسماعيل بن علي هذا مقدم الحنابلة في بغداد في الفقه والخلاف، ويشغل بشيء من علم المنطق، وكان حلو العبارة، وقد رأيتُه أنا وحضرت عنده وسمعت كلامه)^(٢).

٦. العكبري، أبو القاسم الحسين بن عبد الله:

أشار ابن أبي الحديد إلى شيخه أبي القاسم العكبري عند الحديث عن بيت من الشعر أنشده ولم يسمّ قائله حين قال (أنشدني شيخنا أبو القاسم الحسين بن عبد الله العكبري ولم يسمّ قائله ووجدته بعد لنا بعة بني الحارث بن كعبان:

إن تسألني عنا سمي فإنه يسمو إلى قحم العلاء أدنانا)^(٣).

هكذا ذكره ابن أبي الحديد كنيته واسمه، أبو القاسم الحسين بن عبد الله العكبري على هذا النسق، ولم أعثر على ترجمة له، وذكر أحد الباحثين أنه اطلع على مخطوطة ابن الشعار الموصلية (ت ٦٥٤هـ)، عقود الجمان، ذكر فيها (أن ابن أبي الحديد، شارح نهج البلاغة تتلمذ على محب الدين أبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (ت ٦١٦هـ)، الحنبلي الضرير الفرضي، شارح مقامات الحريري، والمنسوب إليه شرح ديوان المتنبي وغيرهما من مؤلفاته الكثيرة)، وهو يعتقد أنه لا يمت لأبي القاسم العكبري

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٨/٢٢ - ٣٠.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢٣٤/٩.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٣٨/٥.

بأي صلة^(١).

بينما ذكر علي محيي الدين ان المقصود بهذا الاسم هو ولده عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، الأديب النحوي الضرير المعروف الذي يرجح أن يكون هو نفسه الذي تتلمذ عليه ابن أبي الحديد^(٢)، وقد يكون تشابه الاسماء هو الذي جعله يعتقد هذا الاعتقاد بدون دليل علمي.

٧. اللمخاني، أبو يعقوب يوسف بن إسماعيل بن عبد الرحمن، (ت ٦٠٦هـ):

الفقيه الحنفي، البغدادي من أهل باب الطاق من بيت مشهور بالفقه والعدالة، كان عارفاً بالمذهب والخلاف والكلام على طريقة أهل العدل وقرأ كثيراً من مذهب الاعتزال وناظر المتكلمين في إثبات خلق القرآن، وقرأ عليه جماعة من الفضلاء وتخرجوا به وولي التدريس بجامع السلطان بعد وفاة الأمير السيد أبي الحسن علي العلوي وناب في التدريس بمشهد الإمام أبي حنيفة وانتهت إليه رئاسة أصحاب الرأي وكان غزير الفضل حسن المناظرة ذا أخلاق لطيفة وكيساً متواضعاً ولد سنة ثمانى عشرة وخمسائة، توفاه الله في جمادى الأولى سنة ست وستمائة^(٣).

قرأ ابن أبي الحديد عليه علم الكلام، وتلقى على يديه دروساً في الاعتزال في بداية شبابه وهو دون العشرين من عمره. قال عنه ابن أبي الحديد (لم يكن يتشيع، وكان شديداً في الاعتزال، إلا أنه كان في التفضيل بغدادياً)^(٤)، وذكره ابن أبي الحديد أيضاً في معرض تفسيره جانباً من كلام الإمام علي عليه السلام المذكور في إحدى خطبه التي

(١) الربيعي، احمد، العذيق النضيد بمصادر ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، مطبعة العاني، (بغداد ١٩٨٧)، ص ٧٥- ٧٦.

(٢) ابن أبي الحديد سيرته وآثاره الأدبية والنقدية، ص ١٥٢- ١٥٣.

(٣) الذهبي، المختصر من تاريخ ابن الديلمي، ص ٣٧٢- ٣٧٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ٤٦/٢٩ - ٤٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٥٣/١٩.

خطبها في البصرة فقال (هذا كلام يحتاج إلى شرح وقد كنت قرأته على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل اللمعاني رحمه الله أيام اشتغالي عليه بعلم الكلام وسألته عمّا عنده فيه فأجابني بجواب طويل)^(١).

٨. أبو جعفر النقيب، البصري (ت ٦١٣هـ):

يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد العلوي الحسني الزيدي يعرف بابن أبي زيد شاعر، من أشرف البصرة. ولد بها. ومن عائلة معروفة فوالده أبو طالب العلوي البصري نقيب الطالبين بالبصرة، روى عن أبي علي التستري، وجعفر العباداني، وجماعة، استقدمه ابن هبيرة لسماع سنن السجستاني توفاه الله سنة ٥٦٠هـ^(٢)، وبعد وفاته تولى نقابة الطالبين فيها مدة، ولده أبو جعفر النقيب، الذي كانت له معرفة حسنة بالأدب والنسب وأيام العرب وأشعارها، وقال الشعر الجيد ولكنه سرعان ما ترك البصرة واستقر في بغداد بعد أن ترك نقابة الطالبين إلى ابنه وفيها مات سنة ٦١٣هـ، ودفن بمشهد الإمام موسى بن جعفر (عليهما السلام)^(٣).

ذكر ابن أبي الحديد أستاذه أبو جعفر النقيب في كتابه مرّات عديدة، إذ يمكن عدّه من أبرز شيوخه الذين عرفهم، وأشدهم تأثيراً في نضوجه الفكري وقد وصفه بقوله إنّه لم يتعصب للمذهب رغم علويته، وتطورت علاقتهما إلى صداقة حميمة، إذ كانت بينهما نقاشات مثيرة وعديدة تناثرت في أجزاء كتابه^(٤).

(١) شرح نهج البلاغة، ١٩/١٤٨.

(٢) ابن العماد، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، ٦/٣١٨.

(٣) المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ٢/٣٧٩؛ الزركلي، الأعلام، ٨/١٦٥.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٣/١٩٥، ٦/١٣، ٦/١٤، ٧/١٠٥، ٩/١١، ٤/٨٨..... الخ.

٩. شمس الدين فخار بن معد، أبو علي الموسوي (ت ٦٢٠هـ):

كان عالماً، فاضلاً، أديباً، مُحدثاً^(١)، إمامي، من أهل الحائر في العراق. له عدّة مصنفات منها (الروضة في الفضائل والمعجزات) كما صنّف كتاب (الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب) وأرسله إلى ابن أبي الحديد، شارح نهج البلاغة، وكان معاصراً له^(٢)، وهو الكتاب الذي ذكره ابن أبي الحديد في كتابه شرح نهج البلاغة ونسبه إلى بعض الطالبين^(٣). وكانت علاقة ابن أبي الحديد بأستاذه شمس الدين الموسوي علاقة صميمية كعلاقته بأستاذه أبي جعفر النقيب، وقد ذكره أيضاً في حديثه عن علاقة الإمام عليه السلام مع عمر بن الخطاب في نقاش طويل تدخل فيه أستاذه النقيب أبو جعفر^(٤).

١٠. أبو محمد قريش بن السبيع بن المهنا العلوي المدني (ت ٦٢٠هـ):

السيد السعيد الفقيه، رجل فاضل عالم، جليل محدث، قد يعبر عنه اختصاراً، بقريش بن مهنا، وله من المؤلفات كتاب فضل العقيق والتختم به، ينقل عنه ابن طاووس في كتاب أمان الاخطار، وفلاح السائل^(٥)، قدم بغداد وسكنها وسمع ابن البطي وابن النقور وأبا محمد بن الخشاب والمبارك ابن خضير ولد سنة إحدى وأربعين وخمسمائة بالمدينة وافته المنية في ذي الحجة سنة عشرين وستمائة ببغداد^(٦).

وقد روى ابن أبي الحديد عن أستاذه قريش بن المهنا كتاب فضائل الإمام علي لابن

(١) الجواهري، محمد، المفيد من معجم رجال الحديث، ط ٢، مكتبة المحلاتي، (قم ١٤٢٤هـ)، ص ٤٥٣.
 (٢) العسكري، نجم الدين، أبو طالب حامي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وناصره، مطبعة الآداب، (النجف الأشرف ١٣٨٠هـ)، ص ٦٦؛ الزركلي، الأعلام، ١٣٧/٥.
 (٣) شرح نهج البلاغة، ٦٧/١٤.
 (٤) شرح نهج البلاغة، ٥/١٢.
 (٥) النوري، الميرزا حسن النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠هـ)، خاتمة مستدرک الوسائل، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، (قم ١٤١٦هـ)، ٥٣/٣.
 (٦) الذهبي، المختصر من تاريخ ابن الديلمي، ص ٣٢٢.

حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ)، فقد ذكر في كتابه: (جاء في أخبار علي عليه السلام التي ذكرها أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتاب فضائله وهو روايتي عن قريش بن السبيع بن المهنا العلوي عن نقيب الطالبين أبي عبد الله أحمد بن علي بن المعمر عن المبارك بن عبد الجبار أحمد بن القاسم الصيرفي المعروف بابن الطيوري عن محمد بن علي بن محمد بن يوسف العلاف المزني عن أبي بكر أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعي عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أبي عبد الله أحمد رحمه الله، قال: قيل لعلي عليه السلام يا أمير المؤمنين لم ترقع قميصك قال: ليخشع القلب ويقتدي بي المؤمنون)^(١).

سادساً: تلاميذ ابن أبي الحديد:

تمت الإشارة فيما سبق إلى أن المؤرخين الذين ترجموا سيرة ابن أبي الحديد لم يذكروا شيوخه، فهم كذلك لم يتطرقوا إلى من تتلمذ على يديه سوى بعض الإشارات التي يمكن من خلالها إستبيان أسماء تلاميذه القليلين من خلال تراجم حياتهم وهم (حسب سنيّ وفياتهم):

١. الحلبي، سديد الدين يوسف بن علي بن المطهر (ت ٦٦٥هـ):

كان يروي عن ابن أبي الحديد^(٢)، وفي إجازة حفيده فخر المحققين بن العلامة الحلبي للشيخ ابن صدقة قوله: (وأجزت له رواية جميع ما صنّفه ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة عني عن والدي، عن جدي سديد الدين يوسف عنه)^(٣)، وذكر الخوانساري (ومنه يظهر أن والد العلامة رحمهما الله تعالى كان قد قرأ عليه أو يروي عنه بالإجازة)^(٤).

(١) شرح نهج البلاغة، ٩/ ١٨٠.

(٢) القمي، الكنى واللقاب، ١/ ٢٦٤.

(٣) لمجلسي، محمد باقر، بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الائمة الاطهار، دار احياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ٩٩/١٠٥.

(٤) روضات الجنات، ٥/ ٢٢.

وسديد الدين الحلبي، كان عالماً، فاضلاً، فقيهاً، مدرساً من أعظم العلماء في عصره. وقد حاز منزلة علمية مرموقة، ومكانة اجتماعية استثنائية، خاصة بعد مناظرته المعروفة مع علماء العامة في مجلس السلطان محمد خدابنده، وقد أهله ذكاؤه المفرط وقابلياته العلمية وبراعته في الفنون المختلفة لترويج المذهب الشيعي^(١).

وذكر أن الشيخ الأعظم خواجه نصير الدين الطوسي لما جاء إلى العراق حضر الحلة، فاجتمع عنده فقهاء الحلة، فأشار إلى الفقيه نجم الدين جعفر بن سعيد وقال: من أعلم هؤلاء الجماعة: فقال له: كلهم فاضلون علماء، إن كان واحد منهم مبرزاً في فن كان الآخر مبرزاً في فن آخر، فقال: من أعلمهم بالأصولين؟ فأشار إلى سديد الدين يوسف بن المطهر وإلى الفقيه مفيد الدين محمد بن جهيم، فقال: هذان أعلم الجماعة بعلم الكلام وأصول الفقه^(٢).

٢. ابن الساعي السلامي (ت ٦٧٤هـ):

علي بن أنجب، أبو طالب البغدادي وقد ذكره علي محيي الدين ضمن تلاميذ ابن أبي الحديد^(٣)، خازن المستنصرية كان أديباً فاضلاً أخبارياً، عمل تاريخاً ما زال يجمع فيه إلى أن مات، وعمل تاريخاً لشعراء زمانه، وذيل على كامل ابن الأثير، وله كتاب غزل الظراف في مجلدين أجازه المستنصر عليه مائة دينار، وكتاب الإيناس في مناقب بني العباس، وكتاب تاريخ الوزراء، وتاريخ نساء الخلفاء من الحرائر والإماء، ومصنف في آل البيت وله عدة تواليف أخرى، توفاه الله في شهر رمضان سنة أربع وسبعين وستمائة

(١) الحلبي، العلامة ابو منصور الحسن بن يوسف بن المطهر الاسدي (ت ٧٢٦هـ)، منهاج الكرامة في معرفة

الإمامة، تحقيق عبد الرحيم مبارك، مؤسسة عاشوراء للبحوث الاسلامية، (مشهد ١٣٧٩)، ص ٢٠ - ٢١.

(٢) الحلبي، العلامة ابو منصور الحسن بن يوسف بن المطهر الأسدي (ت ٧٢٦هـ)، إرشاد الأذهان إلى احكام

الإيمان، تحقيق فارس الحسون، مؤسسة النشر الاسلامي، (قم ١٤١٠هـ)، ٣١/١ - ٣٢.

(٣) ابن أبي الحديد سيرته وآثاره الأدبية والنقدية، ص ١٥٥ - ١٥٦.

وقد قارب الثمانين أو جازها^(١) ومن مؤلفاته الكثيرة كتاب شرح نهج البلاغة^(٢)، ولم نعر على نسخة من شرحه لنهج البلاغة لتقارن بين ما كتبه هو وما نقله من استاذة ابن أبي الحديد ومدى تأثره به، فقد عُدَّ من الكتب المفقودة.

٣. الديمياطي، شرف الدين عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن، (ت ٧٠٥هـ):

أبو محمد الشافعي وذكره علي محيي الدين من تلاميذ ابن أبي الحديد أيضاً^(٣)، ولد سنة ٦١٣ هـ، ونشأ بدمياط بمصر وتفقه فيها وطلب الحديث وقد صار له ثلاث وعشرون سنة وسمع بالحرمين وارتحل إلى الشام سنة خمس وأربعين وارتحل إلى الجزيرة والعراق مرتين^(٤).

من كتبه كتاب (المعجم) ضمَّنه أسماء شيوخه الذين لقيهم في الشام والحجاز والجزيرة والعراق ومصر وهم نحو ألف ومائتين وخمسين شيخاً، وله تصانيف أخرى في الحديث، والفقه، واللغة، منها السيرة النبوية، وكتاب في الصلاة الوسطى، وكتاب الخيل، وغيرها، توفاه الله في نصف ذي القعدة بالقاهرة سنة ٧٠٥ هـ^(٥).

سابعاً: آثاره العلمية:

عاش ابن أبي الحديد حياة فكرية خصبة فألَّف وصنَّف في شتى العلوم المتداولة في عصره فبرز في كل فن كتب فيه وأبدع، ولكن ما يثير الأسف إن كثيراً من كتبه لم تصل إلينا وإنما في عداد المفقودة إلا بعض منها وهو ما بين المطبوع والمخطوط وأهمها:

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٥٩/٢٠ - ١٦٠.

(٢) عبد الزهرة الخطيب، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ١/٢٢٢.

(٣) ابن أبي الحديد سيرته وآثاره الأدبية والنقدية، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٥٩/١٩.

(٥) ابن العماد، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، ٢٣/٨ - ٢٤.

١. شرح نهج البلاغة:

وهو من أشهر مؤلفات ابن أبي الحديد وأغزرها مادّةً، فهو موسوعة عربية كاملة وشاملة في مختلف المعارف الشائعة في عصره وحينما شرع ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة كان في نيّته أن يقتصر على شرح مختصر في ذكر الغريب والمعنى، كما ذكر في مقدمة كتابه غير أنه عدل عن ذلك حين رأى أن ذلك لا يشفي أوماً، ولا يزيد الحائم إلا حياماً. فبسط القول في شرحه بسطاً اشتمل على الغريب والمعاني وعلم البيان والتفسير، وذكر الحوادث والسير والوقائع والأنساب والأمثال، مع إشارة لدقائق علم التوحيد والعدل^(١) وأهداه إلى مؤيد الدين ابن العلقمي وهو يشتمل على عشرين جزءاً فأثابه وأحسن جائزته^(٢).

٢. الفلك الدائر على المثل السائر:

وهو من مؤلفات ابن أبي الحديد التي ألفها في الرد على كتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) لابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، وذكر أصحاب التراجم أنه قد صنّفه في ثلاثة عشر يوماً ولما أكمل كتابه هذا وقف عليه أخوه موفق الدين أبو المعالي فكتب إليه:

المثل السائر يا سيدي
صنفت فيه الفلك الدائر
لكن هذا فلك دائر
أصبحت فيه المثل السائر (٣)

وهذا يدل على ثقافته العالية وسعة اطلاعه وقدرته على التأليف، وذكر أحد الباحثين أن ابن أبي الحديد في كتابه الفلك الدائر على المثل السائر كان ناقداً خبيراً يجيد الكلام وصاحب نظرات صائبة في تأويل المعنى نثراً ونظماً وفي الرد على بعض المسائل التي عرض لها ابن الأثير^(٤).

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٢/١.

(٢) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٤٥٦.

(٣) ابن خلكان، ١٩١/٥؛ الكتبي، ٦٠٩/١؛ الصفدي، ٤٦/١٨.

(٤) الحنبلي، فدوى، المثل السائر لابن الأثير والردود عليه، دراسة في القضايا النقدية التي أثارها ابن الأثير، رسالة ماجستير غير منشورة في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأمريكية في بيروت، ١٩٧٥، ص ٢٦.

٣. القصائد السبع العلويات:

وهي سبع قصائد طوال يبلغ عدد أبياتها (٤١٨ بيتاً)، الأولى في ذكر فتح خيبر، والثانية في ذكر فتح مكة، والثالثة في وصف النبي، والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة في وصف الإمام علي بن أبي طالب ومدحه^(١)، وكان ابن أبي الحديد قد نظم تلك القصائد وهو في المدائن سنة ٦١١ هـ^(٢).

٤. المستنصرات

وهي مجموعة قصائد وعددها (١٥ قصيدة)، نظمها ابن أبي الحديد في مدح الخليفة العباسي المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ)^(٣)، وذكر علي محي الدين أن (في مكتبة المتحف العراقي في بغداد نسخة خطية فريدة من نوعها من المستنصرات بخط ابن أبي الحديد نفسه، كتبها للخليفة المستنصر بالله على ورق صقيل بخط التعليق، وقد تملك هذه النسخة الوزير محمد بن العلقمي كما أشير إلى ذلك في صفحة العنوان وتملكها عام ٨٠٢ هـ) علي بن الحسين ابن محمد الأسترآبادي والنسخة من ضمن مكتبة السيد صادق كمونة التي آلت إلى مكتبة المتحف العراقي أخيراً^(٤).

٥. شرح الآيات البيئات

وهو رسالة مختصرة في علم المنطق، في عشرة فصول لفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ولأهمية هذه الرسالة علمياً أراد ابن أبي الحديد توضيح مفرداتها وتفصيلها^(٥).

(١) ابن أبي الحديد، شرح القصائد العلويات السبع؛ بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ١٧٨/٥.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح القصائد العلويات السبع، ص ١٦٧، محيي الدين، علي، ابن أبي الحديد سيرته وآثاره الأدبية، ص ٢٢٢.

(٣) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١٧٨/٥.

(٤) ابن أبي الحديد سيرته وآثاره الأدبية والنقدية، ص ٢٢١.

(٥) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١٧٩/٥؛ الزركلي، الأعلام، ٣١٣/٦.

٦. العبقري الحسان

وهو مجموعة مختصرات علم الكلام والتاريخ والشعر، وذكر الخوانساري، (هو كتاب غريب الوضع وقد اختار فيه قطعة وافرة من الكلام والتواريخ والأشعار، وأودعه شيئاً من إنشائه وترسلاته ومنظوماته)^(١) وقد ذكره ابن أبي الحديد في كتابه شرح نهج البلاغة مرتين:

الأولى عند إدراجه إبيات شعر لجريبة بن الإشيم قال: (وقد ذكرت في مجموعي المسمى بالعبقري الحسان أن أبا عبد الله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع رحمه الله ذكر في كتابه في آراء العرب وأديانها هذه الأبيات)^(٢)، والثانية عند قوله: (وقد تكلمت في كتابي المسمى بالعبقري الحسان على أقسام الصناعة البديعة نثراً ونظماً وبيّنت أن كثيراً منها يتداخل ويقوم البعض من ذلك مقام بعض)^(٣)، ويبدو أنه من الكتب المفقودة.

٧. نظم فصيح ثعلب:

وهو من آثار ابن أبي الحديد المخطوط، نظمه تلخيصاً لكتاب (الفصيح في اللغة) لثعلب الكوفي^(٤) تسهيلاً لحفظه، وكان قد نظمه في يوم وليلة^(٥)، وذكر علي محي الدين (أنّ في مكتبة عباس العزاوي التي آلت مؤخراً إلى مكتبة المتحف العراقي في بغداد نسخة مخطوطة منه ناقصة الآخر)^(٦).

(١) روضات الجنات، ص ٢١.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣١٦/١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٢١٩/٨.

(٤) أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد النحوي الشيباني، شيخ أديب بارع، كان إمام الكوفيين في النحو واللغة وهو صاحب كتاب الفصيح في اللغة الذي نسب إليه الفصحي لكثرة تكراره عليه ودرسه إياه، وسمي الرجل ثعلب لأنه كان إذا سئل عن مسألة أجاب من هاهنا وهاهنا فشبوه بثعلب إذا أغار، مات ببغداد في سنة ٢٩١ هـ، ينظر القمي، الكنى والألقاب، ١٢٩/٢ - ١٣٠.

(٥) الكتبي، ابن شاکر، فوات الوفيات، ٦٠٩/١؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ٤٦/١٦.

(٦) ابن أبي الحديد سيرته وآثاره الأدبية والنقدية، ص ٢٢٣.

٨. تعليقات على كتابي (المحصل) و(المحصول) لفخر الدين الرازي:

ذكره كلُّ من ابن شاکر الکتبی^(١)، والصفدي^(٢)، والخوانساري^(٣)، وهي من مؤلفات ابن أبي الحديد المخطوط، وذكر علي محي الدين تعليقاً على كتاب المحصل (لدي نسخة منه على مخطوطة ناقصة الآخر تقع في ٩٢ ورقة، وهي ضمن مجموع تبتدئ بالورقة ٣٧٤ وتنتهي بالورقة ٤٩٥، وقد كُتبت بخط معتاد واضح غير أنها مشحونة بالأغلاط وخاصة النحوية)^(٤)، أما كتاب تعليقات على المحصول فهو من الكتب المفقودة.

٩. ديوان شعر:

وهو من آثار ابن أبي الحديد المفقودة، ورد ذكره عند المؤرخين الذين أروخوا لسيرة ابن أبي الحديد فقد ذكروا أن له ديوان شعر مشهوراً، ولم يسيروا إلى حجمه أو طريقة تبويبه^(٥).

١٠. مناقضة السفينانية:

وهو من مصنفات ابن أبي الحديد المفقودة، كتبه للرد على كتاب (السفينانية) للجاحظ، ولم يذكر عند أصحاب التراجم ممن تحدثوا عن سيرة ابن أبي الحديد، ولكنه أشار إليه في كتابه (شرح نهج البلاغة) فقد ذكر عند الحديث عن روايات الطعن في دين معاوية (وروى فيه شيخنا أبو عبد الله البصري في كتاب نقض السفينانية على الجاحظ وروى عنه أخباراً كثيرة تدل على ذلك وقد ذكرناها في كتابنا في مناقضة السفينانية)^(٦).

(١) فوات الوفيات، ٦٠٩/١.

(٢) الوافي بالوفيات، ٤٦/١٦.

(٣) روضات الجنات، ص ٢١.

(٤) ابن أبي الحديد سيرته وآثاره الأدبية والنقدية، ص ٢٢٦، الهامش رقم ٣.

(٥) الکتبی، فوات الوفيات، ٦٠٩/١؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ٤٦/١٨؛ البغدادي، هدية العارفين، ٥٠٧/١؛

الزرکلي، الاعلام، ٢٨٩/٣.

(٦) شرح نهج البلاغة: ٨٠/١٠.

١١. حل سيفيات المتنبي:

وهي القصائد التي نظمها المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني، فأشار ابن أبي الحديد في كتابه (الفلك الدائر) بمؤلفه هذا ولم يتمه في حينها وكما قال: (وكنت شرعت في حل سيفيات أبي الطيب المتنبي لشهرتها وغلبتها على ألسنة الناس، وأن أجعل ذلك كتاباً مفرداً أتقرب به أيضاً إلى الخزانة الشريفة، فخرج بعضه وصدف على إتمامه عوائق الوقت أو شواغله) وذكر نماذج منها ووعده بإتمام ما شرع به، ولا نعلم إذا ما كان قد أتم عمله هذا أم لا^(١)، وكان بروكلمان قد ذكر أن قطعة منه نشرها النشاشيبي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق^(٢).

١٢. مقالات الشيعة:

وهو كتاب يتناول ذكر فرق الغلاة من الشيعة وأقوالهم، ذكره ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة (وسوف أستقصى ذكر فرق الغلاة وأقوالهم في الكتاب الذي كنت متشاعلاً بجمعه وقطعني عنه اهتمامي بهذا الشرح وهو الكتاب المسمى بمقالات الشيعة إن شاء الله تعالى)^(٣) ولا نعلم إذا ما كان ابن أبي الحديد قد أتمه أم لا؟ ولم يذكر عند مؤرخو سيرته.

١٣. شرح الياقوت:

وهو شرح لكتاب (الياقوت) لأبي إسحاق بن نوبخت (ت ٣٤٦هـ) الذي يعد من كتب علم الكلام القديمة، وضع للرد على الأشاعرة، وقد ذكره الخوانساري^(٤)، وصاحب كتاب هدية العارفين^(٥)، ضمن مؤلفات ابن أبي الحديد حينما تعرضوا لسيرته.

(١) علي محيي الدين، ابن أبي الحديد سيرته وآثاره الأدبية والنقدية، ص ٢١٤- ٢١٥

(٢) تاريخ الأدب العربي، ١٧٩/٥.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٩٨/٨.

(٤) روضات الجنات ٢١/٥.

(٥) البغدادي، اسماعيل باشا، ٥٠٧/١.

١٤. شرح الغرر:

وهو شرح على كتاب (غرر الأدلة) في أصول الكلام لأبي الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي (ت ٤٣٦هـ). ذكره الخوانساري^(١)، وصاحب هدية العارفين^(٢)، وأشار إليه ابن أبي الحديد في كتابه (شرح نهج البلاغة) في موضعين، حينما أحال إليه عند تعرضه لمعنى الأفضلية، وهل هي شرط في الإمامة أم لا؟ بقوله: (وقد تكلمنا في (شرح الغرر) لشيخنا أبي الحسين رحمه الله تعالى في هذا البحث لا يحتمله هذا الكتاب)^(٣)، وعند إيراده لآراء أصحابه المعتزلة في كونه تعالى مدركاً للمسموعات والمبصرات، بقوله: (وهذا البحث مشروح في كتبي الكلامية لتقرير الطريقتين وشرح الغرر)^(٤) وهو من الكتب المفقودة.

١٥. تقرير الطريقتين:

وهو من كتب ابن أبي الحديد الكلامية أيضاً وهو مفقود، أشار إليه ابن أبي الحديد في كتابه (شرح نهج البلاغة) مع إشارته لكتابه السابق (شرح الغرر)^(٥). ولم أقف على ذكر له في كتب الفهارس.

١٦. الإعتبار على كتاب الذريعة في أصول الشريعة:

وهو شرح لكتاب الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) الذريعة في أصول الشريعة، وقد أشار إليه ابن أبي الحديد في شرحه في ثلاثة مواضع^(٦)، ذكره صاحب كتاب هدية العارفين^(٧) ووصفه الزركلي بأنه يقع في ثلاثة أجزاء^(٨).

(١) روضات الجنات، ٢١/٥.

(٢) البغدادي، اسماعيل باشا، ٥٠٧/١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٦٩/١.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١٢٧/٥.

(٥) شرح نهج البلاغة: ١٥٧/٥.

(٦) شرح نهج البلاغة، ٢٦٨/١، ١٩٠/١٦، ٢٨/٢٠.

(٧) البغدادي، اسماعيل باشا، ٥٠٧/١.

١٧. زيادات النقضين:

وهو من كتب ابن أبي الحديد الكلامية، ذكره في كتاب شرح نهج البلاغة وأحال إليه عند عرضه لمسألة رؤية الله تعالى يوم القيامة طارحاً لرأي المعتزلة مقابل رأي الأشاعرة في المسألة بقوله: (وقد شرحت هذا الموضوع في كتابي المعروف بزيادات النقضين وبينت أن الرؤية المنزهة عن الكيفية التي يزعمها أصحاب الأشعري لا بد فيها من إثبات الجهة وأنها لا تجري مجرى العلم، لأن العلم لا يشخص المعلوم والرؤية تشخص المرئي والتشخيص لا يمكن إلا مع كون المتشخص ذا جهة)^(٢)، وهو من الكتب المفقودة فلم نثر عليه في كتب التراجم والفهارس.

١٨. رسالة في اللذة والألم:

وهو في علم الكلام أشار إليه ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) عند ذكره للأقوال المختلفة في مسألة خلق الخلق، فذهب خلال كلامه إلى جواز اللذة والسرور على الله تعالى بقوله: (وعندي في هذا القول نظر، ولي في اللذة والألم رسالة مفردة)^(٣).

١٩. كتب مفقودة أخرى:

١. الوشاح الذهبي في العلم الأبدي، ذكره أبو الفضل إبراهيم في ترجمة ابن أبي الحديد في كتابه شرح نهج البلاغة^(٤).
٢. إنتقاد المستصفي، وهو نقد كتاب (المستصفي في أصول الفقه) للإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، ذكره أبو الفضل إبراهيم في ترجمة ابن أبي الحديد في كتابه شرح نهج البلاغة^(٥).

(١) الاعلام، ٢٨٩/٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٨٣/١ - ٨٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٣٢/٥.

(٤) ١٧/١، مقدمة المحقق.

(٥) ١٧/١، مقدمة المحقق.

٣. كتابي (الرسالة النظامية) و(الرسالة الشرفية في كشف الفلسفة الخفية)، ذكرهما علي محيي الدين^(١).

ثامناً: وفاة ابن أبي الحديد:

إختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاة ابن أبي الحديد، فقد ذهب كل من ابن خلكان(ت ٦٨١هـ)^(٢)، وابن شاعر الكتبي(ت ٧٦٤هـ)^(٣)، والصفدي(ت ٧٦٤هـ)^(٤)، وابن كثير(٧٧٤هـ)^(٥)، والمقريزي(ت ٨٤٥هـ)^(٦)، وحاجي خليفة(ت ١٠٦٧هـ)^(٧)، وعباس القمي^(٨)(ت ١٣٥٩هـ) وبروكلمان^(٩)، إلى أن وفاته سنة (٦٥٥هـ).

بينما ذهب آخرون إلى أن وفاته كانت في سنة (٦٥٦هـ) وهم كل من ابن الفوطي(ت ٧٢٣هـ)^(١٠)، والذهبي(ت ٧٤٨هـ)^(١١)، والغساني(ت ٨٠٣هـ)^(١٢)، والزركلي^(١٣)، ونحن نعتقد ان الرأي الثاني الأقرب إلى الصحة والمرجح لسببين:

-
- (١) ابن أبي الحديد سيرته وآثاره الأدبية والتقدية، ص ٢٢٧.
 - (٢) وفيات الاعيان، ٣٩٢/٥.
 - (٣) فوات الوفيات: ٦٠٩/١.
 - (٤) الوافي بالوفيات: ٤٦/١٨.
 - (٥) البداية والنهاية، ٣٥٤/١٧.
 - (٦) السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤٩٧/١.
 - (٧) مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عني بتصحيحه وتعليق حواشيه وترتيب الذبول عليه محمد شرف الدين بالتقيا، ورفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت ١٩٤١)، ٩٧٧/٢.
 - (٨) الكنى والألقاب، ١٩٣/١.
 - (٩) تاريخ الأدب العربي/٥/١٧٧.
 - (١٠) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، ٤/قسم ١، ص ١٩٠.
 - (١١) سير أعلام النبلاء، ٢٧٥/٢٣.
 - (١٢) المسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، ٦٤٢/٢.
 - (١٣) الأعلام، ٢٨٩/٣.

الأول:

لأن ابن الفوطي هو ممن يذهب إلى ذلك، وهو الذي كان قريباً من الأحداث، إذ ذكر ابن كثير أن ابن الفوطي عاش في بغداد وأسرَ بيد التتار عند إحتلالهم بغداد سنة (٦٥٦هـ) ثم تخلص من الأسر وعيّن خازن الكتب في المدرسة المستنصرية.^(١)، وهي الوظيفة نفسها التي كان يشغلها ابن أبي الحديد.

الثاني:

لا يوجد خلاف عند من ذكروا سيرة أخيه أبي المعالي موفق الدين، أنه قد توفي في سنة ٦٥٦هـ، في الشهر نفسه الذي مات فيه الوزير ابن العلقمي بعد دخول المغول بغداد، وتذكر المصادر أن أخاه عز الدين رثاه بأبيات قال فيها:

فلقد عهدتك في الحياة سميعة
وجوارحي أجرت عليك نجيعة
حبلاً لأسباب الوفاء قطعاً
من بعده شهراً ولا أسبوعاً
بيدي لفارقنا الحياة جميعاً^(٢)

أبا المعالي هل سمعت تأوهي؟
عيني بكتك ولو تطيق جوانحي
أنفاً غضبت على الزمان فلم تطع
ووفيت للمولى الوزير فلم تعش
وبقيت بعدكما فلو كان الردى

وهذه الأبيات تدل على ان عز الدين بما لا يقبل الشك قد مات بعد أخيه موفق الدين في أواخر جمادي الآخرة من سنة (٦٥٦هـ).



(١) البداية والنهاية، ٢٢٧/١٨

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦/١ - ١٧، مقدمة المحقق (أبو الفضل إبراهيم)؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣٧٢/٢٣.

المبحث الثاني

منهجية ابن أبي الحديد ومصادره في كتاب شرح نهج البلاغة

أولاً: منهجية ابن أبي الحديد في كتابة تاريخ العرب قبل الإسلام:

بدأ ابن أبي الحديد تصنيفه للكتاب في الأول من رجب سنة ٦٤٤هـ، وفرغ منه في آخر صفر سنة ٦٤٩هـ، فكانت مدة تأليفه أربع سنوات وثمانية أشهر، وهي مقدار مدة خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كما ذكر ابن أبي الحديد في نهاية كتابه^(١)، وقد صنفه لحزارة وزير البلاط العباسي ابن العلقمي، وقد أرسله مع أخيه موفق الدين أبي المعالي، فبعث له ابن العلقمي مائة ألف دينار، وخلعة سنوية، وفرساً^(٢). وكان الكتاب في عشرين جزءاً، أما منهجية ابن أبي الحديد في كتاب شرح نهج البلاغة، فيمكن توضيحها بالشكل الآتي:

المنهجية الأولى:

اتبع ابن أبي الحديد طريقة واحدة في شرحه للكتاب، إذ ذكر الخطبة أو الكتاب أو الحكمة التي يريد شرحها ثم يبدأ أولاً بتوضيح الكلمات شارحاً معاني المفردات، ثم يسترسل في شرحها، وقد يستشهد بحديث شريف أو بيت شعر أو كلام مختصر، وإذا اقتضت الضرورة تناول مجموعة من المباحث الكلامية لفئة معينة، ثم يعرض الآراء

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٠/٢٨٤.

(٢) الخوانساري، روضات الجنات، ٥/٢٠.

المخالفة لها، مستشهداً بالعديد من الامثلة، وبمختلف العلوم مما يضعنا أمام حقيقة لا غبار عليها، وهي إنه قد وجد أمامه مكتبة هائلة في شتى العلوم يستسقى منها، مع سعة علمه واطلاعه وقابليته على التدقيق والتحقيق من النصوص، فنراه حذراً عند إبداء رأيه في قضية معينة، ففي إسلام أبي طالب قال (أنه قد روي في إسلامه أخبار كثيرة وروي في موته على دين قومه أخبار كثيرة فتعارض الجرح والتعديل فكان كتعارض البيتين عند الحاكم وذلك يقتضي التوقف فأنا في أمره من المتوقفين)^(١)، ولكن هذا لا يمنع من أن يبدي رأيه من بعيد فقد ذكر أن أحد الطالبين في عصره صنّف كتاباً في إسلام أبي طالب وسأله أن يكتب عليه بخطه نظماً أو نثراً يشهد فيه بصحة ذلك وبوثاق الأدلة عليه، قال ابن أبي الحديد: (فتخرجت أن أحكم بذلك حكماً قاطعاً لما عندي من التوقف فيه ولم أستجز أن أقعد عن تعظيم أبي طالب، فإني أعلم أنه لولاه لما قامت للإسلام دعامة وأعلم أن حقه واجب على كل مسلم في الدنيا إلى أن تقوم الساعة فكتبت على ظاهر المجلد:

لما مثل الدين شخصاً فقاما
وهذا يشرب جسّ الحمّاما
وأودى فكان عليّ تاما
قضى ما قضاه وأبقى شاما
ولله ذا للمعالي ختاماً
جهول لغا أو بصير تعامى
من ظن ضوء النهار الظلاما

ولولا أبو طالب وابنه
فذاك بمكة آوى وحمّامى
تكفّل عبد مناف بأمر
فقل في ثبير مضى بعد ما
فلله ذا فاتحاً للهدى
وما ضر مجد أبي طالب
كما لا يضر إياه الصباح

فوفيته حقه من التعظيم والإجلال ولم أجزم بأمر عندي فيه وقفة^(١).

المنهجية الثانية:

أما بخصوص مادة تاريخ العرب قبل الإسلام، فعلى الرغم من أن كتاب شرح نهج البلاغة هو كتاب يتناول الأحداث الإسلامية، وهذا منطقي على ضوء شرح كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وخطبه، التي أغلبها كانت تخص الأحداث الإسلامية، ألا إن ابن أبي الحديد ساق لنا مجموعة كبيرة من الروايات التي تتحدث عن حياة العرب قبل الإسلام، وبمختلف المجالات الاجتماعية والفكرية والدينية والسياسية وحتى الاقتصادية، وكانت متفرقة بين طيات اجزائه العشرين، وقد فصلناها في الرسالة.

وهنا يبرز سؤال مهم؛ لماذا اختار ابن أبي الحديد الكتابة عن العرب قبل الإسلام مع أن الظاهر على كتابه إنه سرد للأحداث الإسلامية؟

ومن خلال قرائتنا للكتاب توصلنا إلى أن سبب وجود تلك المادة يعود لأمرين:

الأمر الأول:

بسبب وجود أحداث وأمثال وقصص عن العرب قبل الإسلام تطرَّق لها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبه، واستشهد بها، ولكون الجمهور المستمع لتلك الأحداث كانوا يعرفون تفاصيلها لقربهم من الأحداث، لذا اقتضت الضرورة عند ابن أبي الحديد أن يوضِّح تلك الأحداث بشكل واسع وشامل.

الأمر الثاني:

في الكثير من الأحيان تكون مفردات خطب الإمام علي عليه السلام قريبة من المفردات التي كان يتداولها العرب قبل الإسلام، والتي كانت مرتبطة بحادث معين أو

(١) شرح نهج البلاغة، ١٤/٦٦ - ٦٧.

قضية معينة معروفة، وكان لزاماً على ابن أبي الحديد أن يتطرق لها ويوضحها عند شرحه لكلام الامام، ثم غالباً ما يقوم بالاستطراد بالمادة التاريخية من كتب مختلفة لتعزيز كلامه، ليضع القارئ امام معلومات كاملة عن الاحداث، فبعد أن ذكر كلاماً للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حول مفردات شاع استخدامها عند العرب قبل الإسلام كالطيرة والفأل والعين والرقي، قال بعد أن شرح مفرداتها (وسنذكر هاهنا نكتاً ممتعة من مذاهب العرب وتخيلاتها لأن الموضوع قد ساقنا إليه)^(١).

المنهجية الثالثة:

لم يكن ابن أبي الحديد مؤرخاً ولكنه مع ذلك كان ناقداً للكثير من الروايات التاريخية وبمختلف مجالاتها عن العرب قبل الإسلام، فهو لم يقف موقف المتفرج، ولم ينقل الرواية في مكانها المخصص فقط، بل تراه ينقد الرواية ويحللها، ويعرض شخصية صاحب الرواية وميوله، ثم يعطي رأيه الخاص، وفي بعض الأحيان كانت آراؤه تختلف عن آراء أصحاب الروايات، مما يدل على سعة اطلاعه وقابلياته العلمية، ومن أبرز تلك الانتقادات:

١ - انتقاده للزبير بن بكار صاحب كتاب نسب قريش، لأنه أدخل بني ناجية في نسب قريش^(٢)، وعلل ذلك لبغضه للإمام، ولأنهم كانوا قد خرجوا ضد الإمام، بعد أن ذكر روايات تثبت عدم نسبهم إلى قريش.

٢ - انتقاداته الكثيرة للخالع صاحب كتاب في آراء العرب وأديانها، وكان قد أخذ منه عدة روايات عن عادات العرب قبل الإسلام، ولكنه لم يتقيد بها بل كان ناقداً لتلك الروايات ويخرجها مخرجاً آخر:

(١) شرح نهج البلاغة: ٣٧/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٩٥/٣.

- فعندما أورد عن طريق الخالغ أبيات شعر على لسان إحدى النساء، وقال إنها من عادات المرأة الفارك المبعضة لزوجها، اعترض ابن أبي الحديد على معنى أبيات الشعر، وقال إنها تقصد العوذة له وليس العكس^(١).
- وعندما أورد الخالغ أبيات جريبة بن الأشيم لتبين عادات العرب في البلية، انتقدها ابن أبي الحديد وقال إنها لا تمت إلى البلية بشيء بل إنها تشير إلى شيء آخر^(٢).
- وكذلك معارضته للخالغ الذي أورد أبيات شعر قال إنها تبين عادات العرب في السفر، قال ابن أبي الحديد، بل إنها تدلّ على فراق الحبيبة والديار وليس لها أي علاقة بعادات العرب في هذا المجال^(٣).
- وانتقد الخالغ لأنه أورد أبيات شعر للشاعر كثير حول عادات العرب بكبي العاشق إذا سلا، وقال إنها تعني حرارة الوجد ولذعه وليس ما أراد الخالغ في عادات العرب^(٤).
- ٣ - انتقد الجوهرى صاحب الصحاح، والقطب الراوندي صاحب كتاب شرح نهج البلاغة لأنهما قالوا إن بكال وهو لقب نوف البكالي أحد أصحاب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، هو اسم حي من همدان، قال ابن أبي الحديد والصواب غير ما قاله إنما بنو بكال حي من حمير ومنهم نوف البكالي، ثم أورد نسبهم عند ابن الكلبي^(٥)، وقد تتبعنا النسب أيضاً عند القلقشندي في كتاب نهاية الارب في معرفة

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٤٨/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٠٧/١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٢٣٠/١٩.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٣٢٦/١٩.

(٥) شرح نهج البلاغة، ٦٢/١٠.

أنساب العرب فكان كما ذكر ابن أبي الحديد^(١).

٤ - وانتقد القطب الراوندي الذي قال عند تفسيره قول الإمام عليه السلام في كلامه لطلحة بن عبيد الله قتيلاً بعد معركة الجمل " أدركت وترى من بني عبد مناف "، قال: يعني طلحة والزبير، كانا من بني عبد مناف، فرد عليه ابن أبي الحديد (هذا غلط قبيح لأن طلحة من تيم بن مرة، والزبير من أسد بن عبد العزى بن قصي، وليس أحد منهما من بني عبد مناف، وولد عبد مناف أربعة هاشم، وعبد شمس، ونوفل، والمطلب، فكل من لم يكن من ولد هؤلاء الأربعة، فليس من ولد عبد مناف)^(٢).

- وعندما قال القطب الراوندي إن مروان بن الحكم من بني جمح، انتقده ابن أبي الحديد نقداً لا ذعاً فقال: (ولقد كان هذا الفقيه رحمه الله بعيداً عن معرفة الانساب، مروان من بني أمية بن عبد شمس، وبنو جمح من بني هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب، واسم جمح تيم بن عمرو بن هصيص وأخوه سهم بن عمرو بن هصيص، رهط عمرو بن العاص، فأين هؤلاء، وأين مروان بن الحكم)^(٣).

٥ - انتقد الفرزدق لأنه ذكر شجعان بني تميم قبل الإسلام في حضرة سليمان بن عبد الملك ولم يذكر عتيبة بن الحارث اليربوعي، وعلل ذلك بقوله لأن بني يربوع منهم جرير فحالت عداوته لجرير أن عدل عن ذكره^(٤).

المنهجية الرابعة:

كان ابن أبي الحديد دائماً ما يعلق على المعلومات التي ينقلها عن عادات العرب قبل

(١) ينظر ص ١٥٨ من الرسالة.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٩٥/١١.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٢١٣/١١.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٠٠/١٥.

الإسلام ولا يتركها كما هي :

١ - فعندما ذكر أن العرب قبل الإسلام كانوا يرون أن أكل لحوم السباع تزيد في الشجاعة والقوة علق ابن أبي الحديد على هذه المعلومة بقوله (وهذا مذهب طبي والأطباء يعتقدونه)^(١).

٢ - وعند الحديث عن الهامة ذكر أبيات شعر تؤكد هذا المعنى من ضمنها بيت شعر لاحد الشعراء قال فيه :

فيا رب إن أهلك ولم ترو هامتي بليلى أمت لا قبر أعطش من قبري

لكنه عاد فقال (و يحتمل هذا البيت أن يكون خارجا عن هذا المعنى الذي نحن فيه وأن يكون ري هامته الذي طلبه من ربه هو وصال ليلي وهما في الدنيا وهم يكنون عما يشفيهم بأنه يروي هامتهم)^(٢).

المنهجية الخامسة:

من ضمن منهجية ابن أبي الحديد التي رأيناها في كتابه شرح نهج البلاغة هو ذكره لكل الآراء فهو غالباً ما يذكر الرأي والرأي الآخر المضاد ليجعل القارئ أمام صور مختلفة للأحداث :

١ - ففي روايته عن الهامة ذكر رأي أبي زيد على أنها من هوام الأرض وهي المتلونة المذكورة، ثم ذكر اعتراض أبي عبيدة عليه وقوله : ما أرى أبا زيد حفظ هذا إنما هي الصدى^(٣).

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٢٧/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣١٩/١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣١٩/١٩.

٢ - وعند ذكره الصفر قال إن أبا عبيدة معمر بن المثنى قال إنه صفر الشهر الذي بعد محرم، ثم علق (ولم يوافق أحد من العلماء أبا عبيدة على هذا التفسير)^(١).

٣ - وفي روايته عن الطيرة قبل الإسلام، ذكر ابن أبي الحديد روايات كثيرة عن تطير العرب من بعض الحالات، ثم يذكر روايات عن عدم انقياد العرب لهذا الأمر، فذكر رواية الاعشى مع زبان بن سيار الفزاري، ورواية الاعرابي الذي ذهب للمبحث عن ناقته الضالة ولم يكثرث للتطير^(٢).

٤ - وفي موضوع التعشير وهي الرجل ينهق نهيق الحمار إذا أراد دخول قرية فخاف وباءها وهي من عادات العرب قبل الإسلام التي ذكرها ابن أبي الحديد ثم ذكر روايات على عدم انقياد العرب لمثل هذه العادات وذكر قصة عروة بن الورد الذي رفض التعشير عند خروجه إلى خيبر مع أبيات شعر تؤيد تلك الحالة^(٣).

المنهجية السادسة:

كان ابن أبي الحديد في بعض الاحيان لا يلتزم جانباً معيناً، بل يعرض روايات عديدة للخبر الواحد، ويجعل الخبر على عهدة صاحبه، لأنه أراد أن يكون جامعاً بالخبر الواحد من مصادره المختلفة، ولا يعلق بترجيح الرواية على غيرها بل يترك القارئ اللبيب أن يُميّزه بنفسه:

١ - ففي نسب بني ناجية ذكر مرة رواية عن الاصفهاني في كتاب الاغاني بأن سامة بن لؤي قتل في الصحراء بعد أن لدغته حية، ولم يخلف فتزوجت امرأته ناجية من رجل وذهبت إلى البحرين فولدت الحارث منه فادعى أنه ابن سامة من قريش وكشف

(١) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٢٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٠٧.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٢١.

أمه^(١)، ثم عاد ابن أبي الحديد ونقل رواية عن ابن الكلبي يقول فيها إن سامة بن لؤي أعقب فولد الحارث له فتزوج الحارث امرأة أبيه ناجية بعد وفاته زواج مقت^(٢).

٢ - في نسب ثقيف ذكر ابن أبي الحديد ثلاث روايات عن نسبهم مرة، قال إنهم من هوازن، ومرة قال إنهم من أياد، ومرة قال إنهم من بقايا ثقيف، ولم يتطرق إلى سند معلوماته^(٣).

٣ - أما في نسب أصحاب الرس فقد ذكر خمس روايات من دون أن يذكر سندها فمرة يقول إنهم أصحاب النبي شعيب، وأخرى إنهم أصحاب قرية باليمامة، ومرة أنهم من العرب وذكر قصتهم مع حنظلة بن صفوان، ومرة أنهم أصحاب الأخدود، وذكر أنهم من أرض أنطاكية وأنهم أصحاب حبيب النجار وأخرى ذكر أنهم أصحاب نهر الرس في إقليم الباب^(٤).

المنهجية السابعة:

على الرغم من أن ابن أبي الحديد كان دقيقاً في نقل الرواية من الكتب بشكل صحيح إلا أن هذا لا يمنع من وجود بعض الاختلافات بين ما ذكره ابن أبي الحديد، وما موجود في تلك الكتب:

١ - اختلفت مجموعة من المفردات الخاصة بأبيات الشعر الموجودة في كتاب نهج البلاغة فيما يخص مادة العرب قبل الإسلام مع ما موجود في الدواوين أو ما نقله من الكتب، وقد فصلناها في الرسالة، فقد نقل أبيات شعر من كتاب المثالب للهيثم بن عدي

(١) شرح نهج البلاغة، ٩٣/٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٩٥/٣.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٢٣٣/٨ - ٢٣٤.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٧٦/١٠.

اختلفت عن ما موجود في الكتاب^(١)، كذلك ذكره أبيات شعر لحسان بن ثابت حول نسب بني أبي وقاص لم نجد لها في الديوان ولا في كتب التاريخ والسير^(٢)، كذلك ذكر بيت شعر لجريبة بن الأشيم، كان قد نقله من كتاب للخالع لم نجد في الديوان وإنما وجدنا بيت آخر بدلاً عنه^(٣).

٢ - وفي تفسيره للمثل (في كل واد بني سعد) أعطى قصة المثل بعكس ما موجود في كتب الأمثال^(٤)، وكذلك المثل القائل (جار كجار أبي داود)^(٥).

المنهجية الثامنة:

على الرغم من أن شارح كتاب نهج البلاغة كان دقيقاً في اختبار النصوص التي تتلائم مع الواقع إلا أننا نراه في بعض الأحيان ينقل الأساطير والخرافات على الرغم من عدم صحتها، ولكن بالمقابل نراه شجاعاً في تحديدها ومعرفته بها، بل ويجد لها الأعذار لوجودها، ففي حديثه عن الجن ذكر محاوره من الشعر كثيرة الأبيات بين عبيد بن الحمارس الكلبي والجن بعد أن قتل أنثى القنفذ وهي من مراكب الجن، وفي نهاية القصة قال ابن أبي الحديد (وهذه الحكاية وإن كانت كذباً إلا أنها تتضمن أدباً وهي من طرائف أحاديث العرب فذكرناها لأدبها وإمتاعها ويقال إن الشرقي بن القطامي كان يصنع أشعاراً وينحلها غيره)^(٦).

المنهجية التاسعة:

-
- (١) شرح نهج البلاغة، ٥٣/١١؛ ينظر ص ١٥٤ من الرسالة.
 - (٢) شرح نهج البلاغة، ٤٦/٦؛ ينظر ص ١٥٥ من الرسالة.
 - (٣) شرح نهج البلاغة، ٣١٦/١٩، ينظر ص ٩١ من الرسالة.
 - (٤) ينظر قصة المثل عند ابن أبي الحديد وغيره في ص ٢٥٦ من الرسالة.
 - (٥) ينظر قصة المثل عند ابن أبي الحديد وغيره في ص ٢٤٤ من الرسالة.
 - (٦) شرح نهج البلاغة، ٣٤٣/١٩ - ٣٤٤.

وعلى الرغم من أنّ كتاب نهج البلاغة امتاز بكونه كتاباً رصيناً ومعلوماته متماسكة، ولكن لاحظنا وجود بعض الحالات النادرة والغريبة في الكتاب منها:

١ - عند ذكره نسب بكالة في الجزء العاشر من كتابه وهي قبيلة نوف البكالي انتقد الجوهري والراوندي حول عدم معرفتهم نسب القبيلة وذهبهم إلى انها حي من همدان واعطى النسب الحقيقي لها من كتاب الأنساب لابن الكلبي^(١)، ولكن في الجزء الثامن عشر وعند التعرض لنسب بكالة في نسب نوف البكالي، ذكر اراء الجوهري والقطب الراوندي دون ان يعلق عليها بل اكتفى بالقول (فأما البكالي في نسب نوف فلا أعرفه)^(٢).

٢ - وفي موضوع وأد البنات نقل لنا حديثاً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم يدعو به على مضر ويقول ان وأد البنات بدأ من خلاله، وهو مخالف للروايات التاريخية وقد ناقشناه وفصلناه في الرسالة^(٣).

المنهجية العاشرة:

كان ابن أبي الحديد لا يتوقف عند الكتاب الذي نقل منه لشرح حادثة معينة بل نراه يضيف اليه من معلوماته أو من ما يملك من معلومات من الكتب الاخرى فمثلاً عند الحديث عن علاقة هاشم وامية، التي نقلها من كتاب الجاحظ، ذكر قسماً من المعلومات بعدها قال: (ثم نرجع إلى حكاية شيخنا أبي عثمان، وقد نمزجه بكلام اخر لنا أو لغيرنا ممن تعاطى الموازنة بين هذين البيتين)^(٤)، وفي مكان اخر من الموضوع نفسه قال: (ونحن نذكر ما أجاب به أبو عثمان عن كلامهم ونضيف إليه من قبلنا أموراً لم يذكرها فتقول)^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة، ١٠/٦٢.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٨/٢١٠.

(٣) ينظر ص ١٤٠ من الرسالة.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٧٧.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٥/٢٠٤.

المنهجية الحادية عشر:

اما اسلوبه في نقل الرواية الادبية الخاصة بالعرب قبل الإسلام فقد كان ابن أبي الحديد على اطلاع تام وواسع في الادب والشعر العربي والذي يمثل مادة ثرية لتاريخ العرب لذلك فهو يوثق النصوص الشعرية الواردة في كتابه بالرجوع إلى دواوين الشعراء انفسهم، وفي حالة عدم عثوره على النص ينبه إلى ذلك، ولا يكتفي بهذا بل يحاول البحث عن قائله ويعدنا بمحاولة توثيقه اذا عثر عليه:

١ - ففي كتاب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إلى اخيه عقيل في ذكر جيش انفذه إلى بعض اعدائه وهو كتاب كتبه رداً على كتاب عقيل اليه قال الإمام علي عليه السلام:

و لكنه كما قال أخو بني سليم:

فَإِنْ تَسْأَلِنِي كَيْفَ أَنْتَ فَأَنْتِي صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبٌ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَابَةٌ فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَيْبٌ

فعلّق ابن أبي الحديد قائلاً (والشعر ينسب إلى العباس بن مرداس السلميّ ولم أجده في ديوانه)^(١).

٢ - وفي كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى معاوية جواباً على كتاب له ذكر بيتاً من الشعر قال فيه: فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أَسَدٍ:

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَّاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلْمُودِ

فعلّق ابن أبي الحديد قائلاً: (كنت أسمع قديماً أن هذا البيت من شعر بشر بن أبي خازم الأسدي والآن فقد تصفحت شعره فلم أجده ولا وقفت بعد على قائله وإن

(١) شرح نهج البلاغة، ١٦/١١٨.

وقفت فيما يستقبل من الزمان عليه ألحقته^(١).

المنهجية الثانية عشر:

كان ابن أبي الحديد في بعض الأحيان يميل إلى كتب كتبها وتناول فيها الأحداث بالتفصيل لمن يريد مزيداً عنها:

١ - عند حديثه عن معاوية بن أبي سفيان وما نسب إليه من الإلحاد قال: (وروى عنه أخباراً كثيرة تدل على ذلك وقد ذكرناها في كتابنا في مناقضة السفينانية)^(٢).

٢ - عند ذكره أبيات الخالغ حول البلية قال: (وقد ذكرت في مجموعي المسمى بالعقبري الحسان أن أبا عبد الله الحسين بن محمد بن جعفر الخالغ رحمه الله ذكر في كتابه في آراء العرب وأديانها هذه الأبيات واستشهد بها على ما كانوا يعتقدون في البلية وقلت إنه وهم في ذلك وإنه ليس في هذه الأبيات دلالة على هذا المعنى)^(٣).

ثانياً: مصادر ابن أبي الحديد في تاريخ العرب قبل الإسلام:

على الرغم من أن ابن أبي الحديد عند حديثه عن حياة العرب قبل الإسلام كان في بعض الأحيان يسرد الأحداث من دون أن يذكر لها سندها، مما صعب علينا عملية الحصول على توثيق تلك المعلومات، ولكنه من جانب آخر كان يذكر اسم الكتاب كاملاً من دون أن يذكر اسم المؤلف مثلاً يقول (ذكر في كتاب طبقات الشجعان ومقاتل الفرسان)، وأحياناً يذكر المؤلف فقط مثلاً يقول، (قال الجاحظ، أو قال الزبير)، وفي بعض الأحيان يذكر الكتاب مع اسم المؤلف بالكامل فيقول (نقلت من كتاب افتراق هاشم وعبد شمس، لأبي الحسن محمد بن علي بن نصر المعروف بأبي رؤبة الدباس).

(١) شرح نهج البلاغة، ١٤/١٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٨٠/١٠.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣١٧/١٩.

ومن أبرز تلك المصادر التي اعتمد عليها ابن أبي الحديد في مادة العرب قبل الإسلام وحسب وفيات مؤلفيها:

١. ابن اسحاق، محمد بن اسحاق بن يسار (ت ١٥١ هـ):

وقد نقل ابن أبي الحديد من كتابين له عن العرب قبل الاسلام:

أ - كتاب السيرة وقد ذكر ابن أبي الحديد اسم المؤلف الكامل مع كتابه عند نقله قصة عبد المطلب ونزاعه مع قريش عن ابن اسحاق إذ قال: (فقد ذكره محمد بن اسحاق بن يسار في كتاب السيرة)^(١)، وهو كتاب يتحدث عن السيرة النبوية التي اختصرها ابن هشام (ت ٢١٨ هـ) فيما بعد.

ب - كتاب المغازي وذكره ابن أبي الحديد بعدما أخذ منه قصة عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بن المغيرة أثناء تجارتهم إلى الحبشة قبل بعثة النبي وبدأها بقوله: (فقد ذكر ابن اسحاق في كتاب المغازي)^(٢).

وذكر ابن خلكان الكتابين ونقل عن كتابه المغازي قول الشافعي (من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن اسحاق)^(٣)، بينما ذكر ابن النديم أنهما كتاب واحد أسماه (كتاب السيرة والمبتدأ والمغازي)^(٤).

٢. ابن الكلبي (٢٠٤ هـ):

أبو المنذر هشام بن أبي النضر محمد بن السائب بن بشر بن عمرو، الكلبي النسابة

(١) شرح نهج البلاغة، ١٧٢/١٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢٣٨/٦.

(٣) وفيات الاعيان، ٢٧٦/٤.

(٤) أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحاق (ت ٣٨٠ هـ)، الفهرست، ضبطه وشرحه وقدم له يوسف علي الطويل، وضع فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠١٠)، ص ١٤٨.

الكوفي، حدث هشام عن أبيه، وكان من أعلم الناس في علم الأنساب، ومن الحفاظ المشاهير، له كتاب (الجمهرة) في النسب وهو من محاسن الكتب في هذا الفن^(١)، وقد أخذ منه ابن أبي الحديد مجموعة من الروايات التي تتحدث عن أنساب العرب وقصصهم وقد ذكره مع اسم الكتاب، فعندما أورد نسب بني ناجية وقصة الخلاف حول نسبهم وقصتهم من كتب مختلفة عاد وقال: (وجدت أنا في جمهرة النسب لابن الكلبي كلاماً قد صرح فيه بأن سامة بن لؤي أعقب) ثم ذكر قصتهم ونسبهم من الكتاب^(٢)، وذكر في مكان آخر نسب بني بكال الحمير من الكتاب نفسه، لينهي اعتراضه على مخالفه في نسبهم^(٣)، ثم ذكر قصة خلاف عبد المطلب مع عمه نوفل وطلب عبد المطلب معونة أخواله من بني النجار^(٤)، وصفات أمية وكيف كان يسرق الحجاج في مكة^(٥).

٣. الواقدي (ت ٢٠٧ هـ):

وهو أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي صاحب كتاب المغازي وذكره ابن النديم باسم (كتاب التاريخ والمغازي والمبعث)^(٦)، نقل منه ابن أبي الحديد العديد من الروايات حول حياة العرب في مكة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومنها خصام أمية وعبد المطلب الذي وصل إلى حد الرهان بينهما^(٧)، وعند الحديث عن الأصنام نقل عنه ابن أبي الحديد رواية قيام أبي سفيان بن حرب بخلق رأسه والذبح للصنمين أساف

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٨٢/٦.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٨٢/٦.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٦٣/١٠.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٧٥/١٥.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٧٦/١٥.

(٦) الفهرست، ص ١٥٨.

(٧) شرح نهج البلاغة، ١٧٤/١٥.

ونائلة^(١)، وكذلك نقل عنه قصة مقتل سويد بن الصامت التي كانت السبب المباشر الذي هيج وقعة بعث بين الاوس والخزرج قبل الاسلام^(٢)، وكذلك تأكيده على أن بدر كان سوقاً للعرب قبل الاسلام^(٣).

٤. الهيثم بن عدي الشعلي (ت ٢٠٧ هـ):

قال ابن النديم أنه كان عالماً بالشعر والأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب، وعدّ له أكثر من ٥٦ كتاباً^(٤)، نقل ابن أبي الحديد من كتابه المثالب الذي ذكره وذكر اسم المؤلف بالكامل بقوله: (قال الهيثم بن عدي في كتاب مثالب العرب)^(٥)، وتطرق إلى نسب الزبير بن العوام وأنه من أرض مصر من القبط وليس من بني أسد بن عبد العزى ذاكراً أبيات شعر لحسان بن ثابت يهجو العوام بن خويلد يؤكد فيها قوله^(٦).

٥. أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـ):

قال ابن النديم كان له (علم الإسلام والجاهلية)^(٧)، وذكر ابن خلكان (قال الجاحظ في حقه، لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه)^(٨)، وعدّ له أكثر من مائتي مصنف بمختلف الفنون، وقد أخذ منه ابن أبي الحديد في مادة العرب قبل الإسلام ثلاثة كتب:

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٠٠/١٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٨/١٥؛ ينظر تفاصيل يوم بعث ص ٣٣٧ من الرسالة.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٨٥/١٥.

(٤) الفهرست ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٥) شرح نهج البلاغة، ٥٣/١١.

(٦) ينظر ص ١٥٤ من الرسالة.

(٧) الفهرست ص ٨٣ - ٨٥.

(٨) وفيات الاعيان، ٢٣٥/٥.

أ - كتاب (التاج)، وقد ذكر اسم المؤلف والكتاب (وقد ذكر أبا عبيدة معمر بن المثنى في كتاب التاج)^(١)، ونقل منه مآثر بني تميم في الجاهلية.

ب - كتاب (طبقات الشجعان ومقاتل الفرسان)، وقد ذكره ابن أبي الحديد هكذا من دون اسم المؤلف، عند حديثه عن شجاعة عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي، وذكر انه المقدم على فرسان العرب كلها في (كتاب طبقات الشجعان ومقاتل الفرسان)^(٢)، وإلا أن ابن أبي الحديد ذكر في مكان آخر وعند الحديث عن عمرو بن معدي كرب (روى أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب مقاتل الفرسان)^(٣)، ولعله نفس الكتاب واختصره ابن أبي الحديد هنا، علماً أن ابن النديم وابن خلكان لم يذكرنا الكتاب كاملاً كما ذكره ابن أبي الحديد إنما كان عندهما كتابان بالمعنى نفسه، الأول كتاب مقاتل الفرسان، والثاني كتاب مقاتل الأشراف^(٤).

ت - عند الحديث عن النابغة أم عمرو بن العاص وقصة اختصام أربعة من قريش فيها، ذكر ابن أبي الحديد مصدر تلك المعلومات بقوله: (روى أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب الأنساب)^(٥)، ولم نجد اسم الكتاب ضمن الكتب التي ذكرها ابن النديم أو ابن خلكان، بل هناك كتاب باسم (الإنسان)، ونحن نعتقد إنه الانساب ولكنه نقل بطريقة الخطأ عند النسخ فتداول بهذا الاسم عند المؤرخين.

ث - في بعض الاحيان اقتبس ابن أبي الحديد بعض النصوص من أبي عبيدة ولكنه لم يشير إلى اسم الكتاب، إذ ذكر عند الحديث عن الصفر (فإن أبي عبيدة معمر بن المثنى

(١) شرح نهج البلاغة، ٩٧/١٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٠٠/١٥.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٨٨/١٢.

(٤) ابن النديم، الفهرست ص ٨٤؛ ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٢٣٥/٥.

(٥) شرح نهج البلاغة، ٢٢٣/٦.

قال هو الشهر بعد محرم^(١)، وعند الحديث عن قصة هند زوج ابو سفيان والفاكهة وذهابهما إلى بعض الكهنة للتحاكم بينهما قبل الإسلام نسب الرواية إلى أبي عبيدة بقوله (روى أبو عبيدة معمر بن المثنى)^(٢).

٦. الأصمعي (ت ٢١٦ هـ):

هو عبد الملك بن قريب، وذكر ابن النديم أن أبا العباس المبرد قال (كان الأصمعي أنشد للشعر والمعاني وكان أبو عبيدة كذلك ويفضل على الأصمعي بعلم النسب وكان الأصمعي أعلم منه بالنحو)، وذكر له كتباً عديدة^(٣).

وقد أخذ منه ابن أبي الحديد روايتين عن تقاليد العرب قبل الإسلام، الأولى عن الجن وتأثيرها في مجتمع عرب قبل الاسلام^(٤)، والثانية عند كلامه عن العين كواحدة من عادات العرب المعروفة^(٥)، ولم يذكر ابن أبي الحديد اسم الكتاب الذي نقل منه بل كان يذكر فقط، (قال الأصمعي، وحكى الأصمعي)، دون تحديد الكتاب في كل ما نقل عنه.

٧. المدائني، ابو الحسن علي بن محمد (ت ٢٢٥ هـ):

ذكر له ابن النديم كتباً كثيرة جداً وزّعها في أخبار النبي، وأخبار قريش، ومناكحة الأشرف وأخبار النساء، وأخبار الخلفاء وكتبه في الاحداث، وكتبه في الفتوح، وكتبه في أخبار العرب، وكتبه في أخبار الشعراء وغيرهم^(٦).

وقد استعمل منها ابن أبي الحديد في مادة العرب قبل الإسلام ثلاثة كتب:

(١) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٢٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١/٣٠٧.

(٣) الفهرست، ص ٨٦- ٨٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١١٩/٣٣٧.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٠٨.

(٦) الفهرست، ص ١٦١ - ١٦٨.

أ - عند الحديث عن عادات العرب في الأكل استعمل كتابه الأكلة، وقد ذكره مع اسم المؤلف بقوله: (قال ابو الحسن المدائني في كتاب الأكلة)^(١).

ب - عند ذكره مهنة القين وهي من المهن المعروفة قبل الإسلام وكانت ملازمة للوليد بن المغيرة، وذكر قصة قيام عمر بن الخطاب بتعبير المهاجر بن خالد بن الوليد بمهنة الحدادة بقوله (روى ابو الحسن المدائني هذا الخبر في كتاب أمهات الخلفاء)^(٢).

ت - وعند ذكر النسابة ورواية دغفل النسابة ذكر ابن أبي الحديد (روى المدائني في كتاب الامثال)^(٣).

٨. ابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ):

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، المعروف بابن السكيت، صاحب كتاب (إصلاح المنطق)، من علماء بغداد ممن أخذ عن الكوفيين وكان عالماً بنحو الكوفيين وعلم القرآن والشعر وقد لقي فصحاء الأعراب وأخذ عنهم وحكى في كتبه ما سمعه منهم وله حظ من الستر والدين وكان مؤدباً لولد المتوكل (٢٣٢ هـ - ٢٤٧ هـ) وله معه أخبار ويقال أن المتوكل كان كثير التحامل على الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وأبنيه الحسن والحسين (عليهما السلام)، جاءه يوماً بولديه المعتز والمؤيد، وقال له: يا يعقوب أيما أحب إليك ابناي هذان أم الحسن والحسين، فغض ابن السكيت من ابنيه وذكر الحسن والحسين (عليهما السلام) ما هما أهله، فأمر الاتراك فداسوا بطنه، وقيل انما قال له: والله إن قبر خادم علي عليه السلام خير منك ومن ابنك فحمل إلى داره، فمات بعد

(١) شرح نهج البلاغة، ٣١٨/١٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٥٤/١١.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٩٥/٤.

غد ذلك اليوم^(١).

وقد أخذ منه ابن أبي الحديد نصين عن عادات العرب قبل الاسلام:

أ - الاول عن دور الاحجار في الرقي والحرز خصوصاً خرزة العقرة التي ذكر ابن أبي الحديد عملها ثم قال (ذكر ذلك ابن السكيت في إصلاح المنطق)^(٢).

ب - وفي النص الثاني عن عادات العرب لم يذكر اسم الكتاب بل ذكر اسم المؤلف فقط بقوله: (قال ابن السكيت إن العرب كانت تقول إن المرأة المقلات وهي التي لا يعيش لها ولد إذا وطئت القليل الشريف عاش ولدها)^(٣).

٩. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ):

العالم البصري المشهور؛ صاحب التصانيف في كل فن، وإليه تنتسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة، وكان تلميذ أبي إسحاق إبراهيم النظام المتكلم المشهور، وقيل له (الجاحظ) لأن عينيه كانتا جاحظتين، والجاحوظ: التتو، وكان يقال له أيضاً "الحدقي" لذلك^(٤).

أ - استعمل ابن أبي الحديد الكثير من كتب وروايات الجاحظ في كتابه وكان غالباً ما يذكره بشيخنا أبي عثمان، وقد ذكر القسم الاعظم من تاريخ مكة قبل الإسلام وفضل بني هاشم على عبد شمس، وعلاقة هاشم وأميه وحياة عبد المطلب ودوره في حادثة الفيل وأغلب أحداث حلف الفضول وحروب الفجار، من روايات الجاحظ^(٥)، وفي أغلب الاقتباسات كان لا يذكر الكتاب إلا أنه ذكر مرة (قال شيخنا أبو عثمان في

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ١١٤؛ ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٦/٤٠٠

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٤٧.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٢٣.

(٤) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٣/٤٧٠.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٤٩ - ١٥٧.

كتاب مفاخرات قريش^(١).

ب - نقل ابن أبي الحديد صوراً عن عادات العرب قبل الإسلام في الجن وتأثيرها على المجتمع وقصصاً أخرى من كتاب (الحيوان)^(٢).

١٠. الزبير بن بكار (٢٥٦ هـ):

أبو عبد الله الزبير بن أبي بكر بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام من أهل المدينة، إخباري أحد النسابين وكان شاعراً، راوية، وكيّ قضاء مكة ومات وهو قاض عليها، له عدد كبير من المصنفات^(٣).

وقد استعمل ابن أبي الحديد ثلاثة من كتبه:

أ - كتاب النسب، وقد تطرق إليه ابن أبي الحديد عند ذكرها بآيات الحذافة العذري في مدح بني هاشم إذ قال (أما الشعر الذي لحذافة العذري والذي ذكره شيخنا أبو عثمان فقد ذكره الزبير بن بكار في كتاب النسب)^(٤)، كذلك اعتمد عليه في العديد من الروايات عن سياسة قريش في مكة ودور هاشم في فيها وفي تجارة مكة، وحياة عبد المطلب في حادثة الفيل وحضر بئر زمزم، ودفاعه عن الجار، ومعلومات عن حلف الفضول وأحداثه كذلك دور أبي طالب في قريش وحرب الفجار^(٥).

ب - كتاب المفاخرات وذكر فيها مجموعة من المفاخرات التي كانت تعقد في مجالس العرب ومنها التي ذكرت اسم النابغة ام عمرو بن العاص بقوله (وروى الزبير بن بكار

(١) شرح نهج البلاغة، ١١/٥٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٣٤، ٣٣٨.

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص ١٧٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٦١.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٥٧ - ١٧٣.

في كتاب المفارحات^(١).

ث - كتاب الموفقيات، وذكره ابن أبي الحديد عند الحديث عن وأد البنات وأسبابه ودور قيس بن عاصم المنقري، وذكره ابن أبي الحديد مع مؤلفه (روى الزبير في الموفقيات)^(٢).

١١. ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ):

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي مولده بها وإنما سمي الدينوري؛ لأنه كان قاضي الدينور، وكان ابن قتيبة يغلو في البصريين إلا أنه خلط المذهبين وحكى في كتبه عن الكوفيين وكان صادقاً فيما يرويه عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقهاء كثير التصنيف والتأليف وكتبه بالجبل مرغوب فيها^(٣):

أ - وقد ذكر له ابن أبي الحديد كتابه المعارف، عند الحديث عن مهنة القين قبل الإسلام وذكر الوليد بن المغيرة الذي كان ربحان قريش ويصنع الدروع بقوله (وكان الوليد بن المغيرة مع جلالته في قريش وكونه يسمى ربحانة قريش، ويسمى العدل، ويسمى الوحيد، حداداً يصنع الدروع وغيرها بيده، ذكر ذلك عنه عبد الله بن قتيبة في كتاب المعارف)^(٤).

ب - فيما لم يذكر ابن أبي الحديد كتابه عند الحديث عن أكالات العرب قبل الإسلام ومنها السخينة عند قريش واكتفى بقوله (قال ابن قتيبة)^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة، ٦/٢٢٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٣/١٣٢.

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص ١٢٣.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١١/٥٤.

(٥) شرح نهج البلاغة، ٥/١٤.

١٢. البلاذري (ت ٢٧٩ هـ):

أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري من أهل بغداد، كان شاعراً راوية ووسوس آخر أيامه فشد في البيمارستان ومات فيه وسبب وسوسته أنه شرب ثمر البلاذر^(١) على غير معرفة فلحقه ما لحقه وله من الكتب كتاب البلدان الصغير، وكتاب البلدان الكبير، ولم يتمه وكتاب الأخبار والأنساب^(٢).

ونقل منه ابن أبي الحديد ذكر قصة يوم بعث بين الأوس والخزرج قبل الإسلام^(٣)، وكذلك ذكره القحط والازمة الاقتصادية التي مرت بها قريش قبل المبعث النبوي مما جعل الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأعمامه يطلبون من أبي طالب ان يدفع لهم احد ولده ليكفوه امرهم، وهو ما ناقشناه في الرسالة بالتحليل^(٤)، وكان يقول (ذكر احمد بن يحيى البلاذري) دون أن يسمي كتابه، لكنه ذكره في مكان آخر بقوله: (وروى البلاذري في كتاب أنساب الأشراف)^(٥).

١٣. المبرد (ت ٢٨٦ هـ):

ابو العباس محمد بن يزيد الأزدي الشمالي وهو من ثمالة قبيلة من الأزد، أخذ النحو عن الجرمي والمازني وغيرهما، ويقال إنه ابتداءً كتاب سيبويه على الجرمي وختمه على

(١) بلاذر: ثمرة شبيهة بنوى التمر ولبه مثل لب الجوز حلو لا مضرة فيه وقشره متخلخل متقرب في تخلخله عسل لزج ذو رائحة ومن الناس من يقضمه فلا يضره وخصوصاً مع الجوز، يذهب البرص ويقلع الوشم ويبرئ من داء الثعلب البلغمي لكنه يهيج الوسواس، ينظر ابن سينا، ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (ت ٤٢٨ هـ)، القانون في الطب، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ٢٦٧/١.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ١٨٠.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٤٠/١٥.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٤١/١؛ ينظر ص ٢٦٢ من الرسالة.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٩٦/٢.

المازني، وقيل انتهى النحو اليه بعدهما^(١)، له مجموعة من المصنفات ولعل أبرزها كتابه الكامل في اللغة والأدب، الذي أخذ منه ابن أبي الحديد المادة المتعلقة بالديّات قبل الإسلام ومنها ديّة الملوكة (المشعرة)^(٢)، وكذلك ما يتعلق بالبغايا قبل الإسلام^(٣)، وقد ذكره ابن أبي الحديد وذكر مؤلفه بقوله (وقال المبرد في كتابه الكامل).

١٤. محمد ابن أبي روبة الدباس (ت ٣٠٢ هـ):

ولم نجد ترجمته إلا عند الخطيب البغدادي الذي قال إن اسم أبي روبة علي بن محمد بن نصر، وكان ثقة^(٤)، وقد ذكر ابن أبي الحديد كتابه بصيغتين، الأولى قال (نقلت من كتاب هاشم وعبد شمس لأبي روبة الدباس)، ثم قال (نقلت من كتاب افتراق هاشم وعبد شمس لأبي الحسين محمد بن علي بن نصر المعروف بابن أبي روبة الدباس)، والظاهر أنهما نفس الكتاب، وقد نقل منه ابن أبي الحديد أغلب قصة هاشم وعبد شمس وذكر صفات عبد المطلب مع أبيات شعر لأبي طالب حول عبودية أمية^(٥).

١٥. الطبري (ت ٣١٠ هـ):

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري الآملي، علامة وقته وإمام عصره وفقهيه زمانه، أخذ الحديث عن الشيوخ الفضلاء وكان متفننا في جميع العلوم، علم القرآن والنحو والشعر واللغة والفقه، كثير الحفظ، وذكر ابن النديم أنه رأى بخطه شيئاً كثيراً من كتب اللغة والنحو والشعر وله مذهب في الفقه اختاره لنفسه وله في ذلك عدة

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٩٢ - ٩٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٠٣.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٦/٢٢٣.

(٤) ابو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ)، تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت (١٩٩٧)، ٣/٢٩٢.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٧٥ - ١٨١.

كتب^(١).

وذكره ابن أبي الحديد وذكر كتابه بقوله (روى الطبري في تاريخه) وهو يقصد هنا تاريخ الرسل والملوك عند الحديث عن الكهنة ودور الكاهن الذي رآه الرسول وهو غلام^(٢).

١٦. أبو الفرج الاصفهاني (ت ٣٥٦ هـ):

هو علي بن الحسين بن الهيثم القرشي من ولد مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن العاص، ولد بأصفهان ونشأ ومات ببغداد وكان شاعراً مصنفاً أديباً له مجموعة من المصنّفات أبرزها كتاب الاغاني الكبير نحو خمسة آلاف ورقة^(٣)، والذي استعمله ابن أبي الحديد عند الحديث عن صفات عبد المطلب وما يتعلق بحياته إذ ذكر الكتاب بالشكل التالي: (وفي كتاب الاغاني لأبي الفرج)^(٤)، وكذلك عند ذكره أيام القحط التي مرت بها مكة في بعض السنين ومنه استند ابن أبي الحديد على رواية قيام أبي طالب بتفريق ابنائه على إخوته والرسول ليكفوه أمرهم^(٥).

١٧. الجوهري (٣٩٣ هـ):

أبو نصر إسماعيل بن حماد التركي إمام اللغة مصنف كتاب "الصحاح" وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة، وفي الخط المنسوب وكان يحب الاسفار والتغرب، دخل بلاد ربيعة ومضر في طلب لسان العرب ودار الشام والعراق، ثم عاد إلى خراسان، فأقام

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٨٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٠٨/١٨.

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص ١٨٣.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٧٥/١٥.

(٥) شرح نهج البلاغة، ٤١/١.

بنيسابور يدرس ويصنف، ويعلم الكتابة^(١).

ذكره ابن أبي الحديد وذكر كتابه قال (قال الجوهري في الصحاح) عند التعرض لنسب نوف البكالي وإنه منسوب إلى حي بكالة في همدان وقد اعترض عليه ابن أبي الحديد^(٢).

١٨. الخالغ الرافقي (ت ٤٢٢هـ):

الحسين بن أبي جعفر بن محمد الخالغ الرافقي ويقال إنه من ذرية معاوية بن أبي سفيان، كان من كبار النحاة، وله من المصنفات كتاب الشعراء وكتاب المواصلة والمفاصلة وكتاب الأمثال وكتاب الأودية والجبال وكتاب الرمال وكتاب تحييلات العرب وتفسير شعر أبي تمام وصناعة الشعر وغير ذلك وكان من الشعراء المذكورين^(٣)، وقد استعمل ابن أبي الحديد كتابه الذي أسماه (في آراء العرب وأديانها)، ولعله هو نفسه الذي ذكره الصفدي باسم كتاب تحييلات العرب، لعدم العثورنا على كتاب الخالغ بالاسم الذي ذكره ابن أبي الحديد، وقد ذكره واعترض عليه ابن أبي الحديد في المواضع التي أخذها منه في عادات العرب في البلية^(٤) وتخيلااتهم في السفر^(٥)، وفي عادات المرأة في الجاهلية^(٦).

١٩. ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ):

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي؛ إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما، روى بقرطبة عن أبي القاسم خلف بن القاسم الحافظ وأبي

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٧/٨٠ - ٨١.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٠/٦٢.

(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٢/٢١٤.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣١٧.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٣٠.

(٦) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٤٨.

الوليد ابن الفرضي وغيرهم.

قال القاضي أبو الوليد الباجي، لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر ابن عبد البر في الحديث؛ وقال أيضاً: أبو عمر أحفظ أهل المغرب.^(١) له مصنفات كثيرة منها الاستيعاب في معرفة الأصحاب، وقد نقل منه ابن أبي الحديد زواج الرهط قبل الإسلام وكيف نسبت النابغة ام عمرو بن العاص إلى العاص نفسه، وقد ذكر ابن أبي الحديد الكتاب مع المؤلف بقوله (وقال أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب)^(٢).

٢٠. ابن ماكولا (٤٧٥هـ):

الأمير سعد الملك أبو نصر علي بن هبة الله العجلي، وأصله من جرباذقان من نواحي أصبهان، ووزر أبوه أبو القاسم هبة الله للإمام القائم بأمر الله، وتولى عمه أبو عبد الله الحسين بن علي قضاء بغداد.

سمع الحديث الكثير وصنف المصنفات النافعة، وأخذ عن مشايخ العراق وخراسان والشام وغير ذلك. وكان أحد الفضلاء المشهورين، تتبع الألفاظ المشتبهة في الأسماء الأعلام وجمع منها شيئاً كثيراً، وكان الخطيب أبو بكر صاحب (تاريخ بغداد) قد أخذ كتاب الحافظ أبي الحسن الدارقطني المسمى (المختلف والمؤتلف) وكتاب الحافظ عبد الغني بن سعيد الذي سماه (مشتبه النسبة) وجمع بينهما، وزاد عليهما، وجعله كتاباً مستقلاً سماه (المؤتلف تكملة المختلف)؛ وجاء الأمير أبو نصر المذكور وزاد على هذا (المؤتلف) وضم إليه الأسماء التي وقعت له، وجعله أيضاً كتاباً مستقلاً سماه (الإكمال) وهو في غاية الإفادة في رفع الالتباس والضبط والتقيد، وعليه اعتماد المحدثين وأرباب

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٦٦/٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢٢٢/٦.

هذا الشأن، فإنه لم يوضع مثله ولقد أحسن فيه غاية الإحسان^(١)، وقد ذكره ابن أبي الحديد بقوله (وقد ذكر ابن ماكولا في الاكمال) عند التطرق إلى يوم بعث وهو من ايام العرب المهمة قبل الاسلام^(٢).

٢١. ابن جزلة الطيب (ت ٤٩٣هـ):

أبو علي يحيى بن جزلة الطيب، كان نصرانياً ثم أسلم وصنف رسالة في الرد على النصارى، ومدح فيها الإسلام وأقام الحجة على أنه الدين الحق، وكان له نظر في علم الأدب، وكتب الخط الجيد، اتصل بالمقتدي العباسي (٤٦٧هـ - ٤٨٧هـ) وصنف له عدة كتب بالطب، وهو صاحب كتاب "المنهاج" الذي رتبته على الحروف، وجمع فيه أسماء الحشائش والعقاقير والأدوية وغير ذلك شيئاً كثيراً^(٣)، وقد استفاد ابن أبي الحديد من كتابه هذا عند الحديث عما ورد من الطيب من الآثار وتفسيره للعنبر وطريقة استخراجه والمسك وانواع الكافور وغيرها من الصناعات التي كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام كذلك معلوماته عن المندلي وهي أعواد كانت تحرق فتستخدم قبل الإسلام كدلالات للضيف تمتاز بطول فترة احتراقها وطيب ريحها^(٤).

٢٢. الزمخشري (ت ٥٢٨هـ):

جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان؛ كان إمام عصره من غير مدافع، تشد إليه الرحال في فنونه، وكان قد سافر إلى مكة، وجاور بها زماناً، فصار يقال له "جار الله" لذلك، وكان هذا الاسم علماً عليه. وكانت إحدى رجليه ساقطة، فكان

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٣/٣٠٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٤٠/١٥.

(٣) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٦/٢٦٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٩/٢٨٤ - ٢٨٧.

يمشي في جاون خشب، وهو معتزلي الاعتقاد متظاهر به، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب وصنف التصانيف البديعة: منها "الكشاف" في تفسير القرآن العزيز، و"ربيع الأبرار وفصوص الأخبار"^(١).

واستعمل ابن أبي الحديد كتابه ربيع الأبرار عند الحديث عن الزنا عند العرب قبل الإسلام ومنه نقل أن هند كانت صاحبة فجور وذكر قصتها مع الفاكهة^(٢)، وقصة النابغة واقترانها بالعاص بن وائل^(٣) وقد ذكره ابن أبي الحديد مع كتابه بقوله: (ذكر الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار)^٤

٢٣. القطب الراوندي (ت ٥٧٣ هـ):

أبو الحسن، قطب الدين سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندي، باحث إمامي، توفاه الله تعالى ببلدة (قم) وقبره بها. له كتب، المشهور منها شرح نهج البلاغة سماه (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة)^(٥)، وقد ذكره ابن أبي الحديد واعتمد عليه في الكثير من مادته في كتابه الشرح، أما بخصوص مادة العرب قبل الإسلام فقد ذكر منه روايتين عن نسب بكالة^(٦)، ونسب طلحة والزيبر الذي أرجعهما خطأ إلى عبد مناف^(٧)، وقد انتقده ابن أبي الحديد في كلتا الحالتين.

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ١٦٨/٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٠٦/١.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٢٢٢/٦.

(٥) الزركلي، خير الدين، الأعلام ١٠٤/٣.

(٦) شرح نهج البلاغة، ١٨٣/١٠.

(٧) شرح نهج البلاغة، ٩٥/١١.

٢٤. مصادر ابن أبي الحديد من الشعر:

- ١ - ديوان امرؤ القيس، وقد اقتبس منه ابن أبي الحديد مجموعة من الايات الشعرية التي فصلناها في الرسالة، وقد ذكر ديوانه باسم (مجموع أشعار امرئ القيس)^(١).
- ٢ - ديوان بشر بن أبي خازم وقد اقتبس منه ابن أبي الحديد مجموعة من الايات عن عادات العرب قبل الإسلام وذكره عند بحثه عن بيت شعر ذكره الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ولم يجدها في الديوان فقال: (كنت أسمع قديماً أن هذا البيت من شعر بشر بن أبي خازم الأسدي والآن فقد تصفحت شعره فلم أجده)^(٢).
- ٣ - ديوان العباس بن مرداس، عند بحثه عن أبيات شعر ذكرها الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ولم يجده في الديوان فقال (والشعر ينسب إلى العباس بن مرداس السلمي ولم أجده في ديوانه)^(٣).
- ٤ - ديوان النابغة الذبياني، وقد اقتبس منه ابن أبي الحديد مجموعة من الايات عن عادات العرب قبل الإسلام وذكره بقوله (وكان أبو جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد العلوي البصري يفضل النابغة واستقراني يوماً ويدي ديوان النابغة قصيدته التي يمدح بها النعمان بن المنذر ويذكر مرضه ويعتذر إليه مما كان اتهم به وقذفه به أعداؤه)^(٤).



(١) شرح نهج البلاغة، ٢٠/١٤٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٨/١٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٦/١١٨.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٢٠/١٣٩.



الفصل الثاني:

الحياة الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام

المبحث الأول: القيم الأخلاقية عند العرب.

المبحث الثاني: العادات والتقاليد الاجتماعية.

المبحث الثالث: القوانين والعقوبات عند العرب قبل الإسلام.

المبحث الرابع: الحياة الأسرية عند العرب قبل الإسلام.

المبحث الخامس: الأنساب.

المبحث الأول القيم الاجتماعية عند العرب

لكل مجتمع من مجتمعات الارض قيمٌ اخلاقية تعتر بها وتمارسها، فما خلت أمة من الأمم من عادات اجتماعية تفرضها عليها طبيعتها البيئية وتركيبها السكاني، وما ورثته من أسلافها، فشكلت لها منظومة قيمة اعترت بها وتفاخرت بممارستها، حتى صارت معياراً للتمايز والتفاخر.

وقد أورد ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة مجموعة كبيرة من الروايات والآراء التي تتعلق بالجانب الاجتماعي ولاسيما ما يتعلق بالقيم الأخلاقية عند العرب قبل الإسلام وهي تقاليد فرضتها الطبيعة الصحراوية التي كانوا يعيشونها وما تفرضه عليهم من قساوة الحياة فأصبحت جزءاً من كيانهم، بعثت في نفوسهم مجموعة من الفضائل والخصال الحميدة عبّروا عنها في أشعارهم فهم يتحدثون عن فروسياتهم وكرمهم الفياض وحلمهم وعزتهم وصبرهم على الشدائد وحفاظهم على العهد وحماية الجار ويمكن تحديد تلك القيم حسب المحاور الآتية:

أولاً: الشجاعة والفروسية:

كان للشجاعة والفروسية عند العرب منزلة، فالعربي مفتون بالشجاعة، وكانوا يفتخرون بالموت أثناء المعارك ويرفضون الموت على الفراش، وأنف المرء الموت حتف أنفه يقول السموأل بن عاديا:

وما مات منا سيدٌ حَتَفَ أنفهِ
تسيل على حد الطباتِ^(١) نُفوسُنَا
ولا طُلُّ منا حيثُ كانَ قَتيلُ
وليستُ على غير الطباتِ تسيلُ^(٢)

وكانوا يكثرُون من الوصايا لأبنائهم ليزرعوا بداخلهم حب الشجاعة فذكر لنا ابن أبي الحديد أن عمرو بن كلثوم^(٣) وهو أحد شجعان العرب أوصى أبناءه فقال: (واعلموا أن أشجع القوم العطوف، وخير الموت تحت ظلال السيوف، ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب)^(٤).

يبدو أن هذا الرأي يدل على أنّ الشجاعة ليست بالعنف واستخدام السيف للاعتداء على الآخر، إنما هو تحكيم المنطق عند الغضب، كما أنّ العطف هو الشجاعة، ولذا قد حدّد عمرو بن كلثوم مبدأً جديداً للشجاعة إذ وصف العاطفة بأنها شجاعة وهذا الوصف قد يكون متناقضاً مع آراء أخرى، إذ يرى ابن خلدون مثلاً أنّ عرب البادية

(١) الطبات: جمع طبة، وهي حد السيف، وفي البيت اشارة إلى الشجاعة في الحرب. ينظر ابن منظور، جمال الدين بن مكرم الافريقي (ت ٧١١)، لسان العرب، اعتنى بتصحيحه أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت ٢٠١٠)، ٥٠٢/٥، (مادة ظأب)

(٢) بن عادي، السمؤال بن غريض بن عادي (ت نحو ٥٦٠م)، ديوان عروة بن الورد والسمؤال، تحقيق عيسى سبابا، دار بيروت، (بيروت ١٩٨٢م)، ص ٩١.

(٣) هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب، من بني تغلب، لقبه أبو الأسود (ت نحو ٥٨٤م)، شاعر وفارس جاهلي، ساد قومه (تغلب) وهو قتي، وعمر طويلا، وكان من أعز الناس نفسا، وهو أحد فتاك العرب وهو الذي فتك بعمر بن هند، أشهر شعره معلقته ويقال إنها كانت في نحو ألف بيت، وإنما بقي منها ما حفظه الرواة، ينظر الاصفهاني، ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم القرشي (ت ٣٥٦ هـ)، الاغانى، تحقيق، قصي الحسين، دار ومكتبة الهلال، (بيروت ٢٠٠٢)، مج ٤، ٢٧٤/١١ - ٢٧٩؛ البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ)، خزنة الأدب ولب لسان العرب، تحقيق محمد نبيل طريفي وأميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٨م)، ١٧٤/٣؛ الزركلي، الاعلام، ٨٤/٥.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٩٥/١٧.

كانوا أكثر شجاعة من أهل المدن (لأنهم أقدر على التغلب والاستبداد... لقدرتهم على محاربة الامم سواهم ولأنهم يتنزلون من الآهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم)^(١)، وهو هنا يرى أنّ الاستبداد والتغلب والافتراس هي الشجاعة نفسها ويبدو أنه أراد أن يثبت لنا أنّ ابن البادية أكثر حرصاً على حماية نفسه لعدم وجود كيان سياسي يحفظ له الأمن إلا سيفه، ولذا يكون أكثر حذراً ويقظة من ابن المدينة.

وذكر ابن أبي الحديد أنّهم كانوا يرون أنّ أكل لحوم السباع تزيد في الشجاعة والقوة وهذا مذهب طبيّ والأطباء يعتقدونه^(٢)، ويبدو أنّهم كانوا يعتقدون بأنّ الأسد كونه أشرس الحيوانات وأشجعها فهو يمثل عندهم روح الشجاعة والقوة فقتله يمثل قوة التحدي والسيطرة على البيئة، لذا كانوا يتغنون بقتله بأشعارهم، واعتقدوا أنّ أكل لحمه بعد مقتله يمثل منتهى العنفوان عند المقاتل كونه انتصر على أقوى الحيوانات، وقد لا يكون للطب دخل في ذلك كما اعتقد ابن أبي الحديد.

وذكر ابن أبي الحديد مجموعة من الأبيات الشعرية بهذا المعنى منها:

أبا المعارك لا تتعب بأكلك ما تظن أنك تلفى منه كرارا
فلو أكلت سباع الأرض قاطبة ما كنت إلا جبان القلب خوارا

وقال بعض الأعراب وقد أكل فؤاد الأسد ليكون شجاعاً فعدا عليه نمر فجرحه:

(١) عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي (ت ٨٠٨)، تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المتبدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠٦م)، ١٥٣/١.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٢٧/١٩.

أكلت من الليث الهصور فؤاده
فأدرك مني ثأره بابن أخته
لأصبح أجرى منه قلباً وأقدما
فيا لك ثأراً ما أشد وأعظما

وقال آخر:

إذا لم يكن قلب الفتى غدوة الوغى
وما نفع قلب الليث في حومة الوغى
أصم فقلب الليث ليس بنافع
إذا كان سيف المرء ليس بقاطع^(١)

ولأن الشجاعة والفروسية تمثل المثل العليا للقيم فقد سارع الفرسان لحماية المظلومين المغلوبين على أمرهم والانتصاف للمظلوم من الظالم وكان الضعيف إذا احتدى بالقوي ضمن له الحماية والأمان من نفسه ومن أهله ومن عشيرته وإذا لم يجد في طريقه رجلاً قوياً يحتدى به كان يستجير بأي اسم.

وذكر ابن أبي الحديد أنّ ركباً من جذام خرجوا عن الحج من مكة ففقدوا رجلاً منهم فاخذوا حذافة بن غانم العذري فربطوه وانطلقوا به فتلقاهم عبد المطلب بن هاشم مقبلاً من الطائف ومعه ابنه أبو لهب فاستنجد به حذافة وهتف به، فأمر عبد المطلب ابنه أن يلحقهم لينجده فحلف لهم أن يعطيهم عشرين أوقية ذهباً وعشراً من الإبل وفرساً وردءه رهن، فقبلوا ذلك منه وأطلقوا حذافة فأردفه خلفه حتى دخل مكة^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ العرب تجعل للشجاعة أربع طبقات فتقول (شجاع) فإذا كان فوق ذلك قالت (بطل) فإذا كان فوق ذلك قالت (بهمة) فإذا كان فوق ذلك قالت

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٢٧/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٦٢/١٥.

(أكيس) وقال العجاج: أكيس عن حوائه سخي^(١).

مع تمجيدها للشجاع فقد كانت العرب تعير الجبان وتصفه بصفات تبقى ملاصقة لاسمه فذكر ابن أبي الحديد أن (قمعة بن إلياس بن مضر) سمي بذلك الاسم لأنه انقَمَعَ في بيته كما زعموا^(٢)، وكان اسمه عُمَيْرًا فَأُغِيرَ عَلَى إِبِلِ أَبِيهِ فَأَنْقَمَعَ فِي الْبَيْتِ فَرَقًّا فَسَمَاهُ أَبُوهُ قَمَعَةَ، وخرج أخوه لبغاء إبل أبيه فأدرکها فسمي مدرکة بن إلياس لبغاء إبل أبيه فأدرکها، وقعد الأخ الثالث يَطْبُخُ الْقَدْرَ فسمي طابخة^(٣).

ومن أشهر فرسان العرب في الجاهلية الذين ذكرهم ابن أبي الحديد عنترة بن شداد الذي تحدثت الكثير من الروايات عن شجاعته حتى أضيفت لها العديد من القصص الخيالية^(٤).

وعامر بن الطفيل^{(٥)(٦)} وعتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي الذي قال عنه أن

(١) شرح نهج البلاغة، ١٥ / ١٨٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٧ / ٢٣.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ٧ / ٣٦٧، (مادة قمع).

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٨ / ٦٣.

(٥) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب، من شعراء الجاهلية وفرسانها شاعر مشهور وفارس قومه (ت ١١ هـ) كان في الجاهلية يأمر مناديا في (عكاظ) ينادي: هل من راجل فنحمله؟ أو جائع فنطعمه؟ أو خائف فنؤمنه؟، وخاض المعارك الكثيرة وكان أعور أصيبت عينه في إحدى وقائعه، وأدرك الإسلام شيخا وهو ابن ثمانين سنة، فوفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في المدينة، بعد فتح مكة، يريد الغدر به، فلم يجرؤ عليه، فمات كافراً، ينظر الصفدي، صلاح الدين خليل بن ابيك (ت ٧٦٤ هـ)، الوافي بالوفيات، ٣٣٠ / ١٦ - ٣٣١: ابن حجر العسقلاني، ابو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد (ت ٨٥٢ هـ)، الاصابة في تمييز الصحابة، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٤١٥ هـ)، ٣ / ٤٤٧.

(٦) شرح نهج البلاغة، ٧ / ١٦٦.

العرب كانت تقول: (لو وقع القمر إلى الأرض لما التقفه إلا عتبية بن الحارث لثقافته بالرمح) وعتبية هذا هو المقدم على فرسان العرب كلها في كتاب طبقات الشجعان ومقاتل الفرسان^(١)، وقد انتقد ابن أبي الحديد الشاعر الفرزدق^(٢)، لأنه ذكر شجعان بني تميم في حضرة سليمان بن عبد الملك ولم يذكره فقال: (و لكن الفرزدق لم يذكره وإن كان تميميا لأن جريرا يفتخر به لأنه من بني يربوع فحملته عداوة جرير على أن عدل عن ذكره)^(٣).

ومن شجعان العرب بنو فراس بن غنم أنجد العرب، كان الرجل منهم يعدل بعشرة من غيرهم^(٤)، ذكرهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عند عتابه لأهل الكوفة لتخاذلهم في الخروج لحرب معاوية:

«أما والله لوددت أن لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم
هناك لو دعوت أباك منهم فوارس مثل أرمية الحميم»^(٥).

وعلق ابن أبي الحديد على كلام الإمام عليه السلام بأن بني فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة هو حي مشهور بالشجاعة منهم علقمة بن فراس وهو جذل الطعان

(١) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٠٠.

(٢) همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي (ت ١١٠هـ)، شاعر من أهل البصرة لقب بالفرزدق، لجهامة وجهه وغلظه، عظيم الأثر في اللغة، كان يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس، وكان لا ينشد بين يدي الخلفاء والأمراء إلا قاعدا، أبوه من الأجواد الاشراف، وكذلك جده، ينظر الزركلي، الاعلام، ٨/٩٣.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٠٠.

(٤) ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٧ هـ)، العقد الفريد، شرحه وضبطه وفهارسه أحمد أمين وآخرون، دار الكتاب العربي، (بيروت ١٩٩٠)، ١/١٣٦.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١/٣٠٣، خطبة (٢٥).

ومنهم ربيعة بن مكرم بن حرثان بن جذيمة بن علقمة بن فراس الشجاع المشهور حامي الظعن حياً وميتاً ولم يحم الحريم وهو ميت أحد غيره^(١).

ثانياً: الكرم والضيافة:

الكرم من العادات والتقاليد التي اشتهر بها العرب منذ القدم وتجلى كرمهم في نحر الجزور للضيف وإغاثة البائس الفقير^(٢)، فالبيئة الصحراوية التي يعيشون فيها شحيحة الرزق وطبيعة الحياة فيها تتطلب أن يكون المتنقل فيها معرضاً دائماً لنقص الزاد والماء مما جعله يلجأ لأقرب خيمة حتى لا يهلك جوعاً وعطشاً، وذكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الكثير من الخطب والحكم حول الكرم ودوره في حياة العرب منها قوله:

«الْكَرَمُ أَعْظَفُ مِنَ الرَّحِمِ»^(٣).

وقوله عليه السلام:

«أَوْلَى النَّاسِ بِالْكَرَمِ مَنْ عَرَقَتْ فِيهِ الْكِرَامُ»^(٤).

قال ابن أبي الحديد: أعرقت وعرقت في هذا الموضع بمعنى أي ضربت عروقه في الكرم أي له سلف وآباء كرام وقال المبرد أنشدني أبو محلم السعدي:

إننا سألنا قومنا فخيرهم
أعطى الذي أعطى أبوه قبله
من كان أفضلهم أبوه الأفضل
وتبخلت أبناء من يتبخل^(٥)

(١) شرح نهج البلاغة، ٣١٠/١، للتفاصيل ينظر يوم الكديد ص ٣٤٦ من الرسالة.

(٢) امين، احمد، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، (بيروت ١٩٧٥)، ص ٨٠.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٧٢/١٩، حكم ومواعظ (٢٤٤).

(٤) شرح نهج البلاغة، ٧٣/٢٠، حكم ومواعظ (٤٤٥).

(٥) شرح نهج البلاغة، ٧٣/٢٠.

وقوله عليه السلام:

«لا تَرْضَيْنَّ قَوْلَ أَحَدٍ حَتَّى تَرْضَى فِعْلَهُ وَلَا تَرْضَى فِعْلَهُ حَتَّى تَرْضَى عَقْلَهُ، وَلَا تَرْضَى عَقْلَهُ حَتَّى تَرْضَى حَيَاةَهُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَطْبُوعٌ عَلَى كَرَمٍ وَلَوْءٍ، فَإِنَّ قَوِيَّ الْحَيَاءِ عِنْدَهُ قَوِيَّ الْكَرَمِ وَإِنْ ضَعُفَ الْحَيَاءُ قَوِيَّ الْلَوْءِ»^(١).

وقوله عليه السلام:

«مَنْ قَبِلَ عَطَاءَكَ فَقَدْ أَعَانَكَ عَلَى الْكَرَمِ، وَلَوْ لَا مَنْ يَقْبَلُ الْجُودَ لَمْ يَكُنْ مِنْ يَجُودٍ»^(٢).

وكان العرب يتباهون بكثرة الأضياف وكان من عاداتهم المشهورة أنهم كانوا يوقدون النار في الليالي الباردة لتمكين الغرباء من الاهتداء بها والنزول ضيوفاً على أصحابها، وكانوا يوقدونها في الأماكن المرتفعة لتكون أشهر ويسمون تلك النار بنار القرى^(٣)، ولعل مراعاة الضيوف وانتظارهم هي من عادات العرب المألوفة كما نرى ذلك في أشعارهم وأخبارهم فقال قائلهم^(٤):

إني إذا خفيت نار لمرملة^(٥) ألقي بأرفع تل رافعاً ناري^(٦)

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٥٤/٢٠، الحكم المنسوبة (٥٥٤).

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢٥٤/٢٠، الحكم المنسوبة (٩٤٤).

(٣) القلقشندي، ابو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)، صبح الاعشى، دار الكتب المصرية، (القاهرة ١٩٢٢)، ٤٠٨/١؛ الجميلي، رشيد عبد الله، تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدعوة الاسلامية، ساعدت جامعة بغداد كلية الآداب في طبعه، (بيروت ١٩٧٢)، ص ٢٠٠.

(٤) البيت للاحوص، ينظر البغدادي، خزانة الادب، ٢٩١/١٠.

(٥) المرملة: الجماعة الفقيرة التي نفذ زادها، يقال أرمل، افتقر ونفذ زاده، ينظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠٨/٧.

(٦) الألوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، عنى بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٣١٤ هـ)، ٣٧١/١.

وكان حاتم الطائي^(١) إذا اشتد البرد في الشتاء أمر غلامه فأوقد ناراً في مرتفع من الأرض لينظر إليها من أضلّ الطريق ليلاً فيأتي نحوه، فقال في ذلك:

أوقد فإنّ الليل ليل قرئ
والريح يا موقد ريح صرئ
عسى يرى نارك من يمرئ
إن جليت ضيفاً فأنت حرئ^(٢)

وكان العرب يستخدمون المندلي الرطب وهي أعواد من العطر لتتهدي بها العميان^(٣)، وذكر ابن أبي الحديد أنّ العود المندلي منسوب إلى مندل قرية من قرى الهند، وأجوده أصلبه، وامتحان رطبه أن ينطبع فيه نقش الخاتم، واليابس تفصح عنه النار ومن خاصية المندلي أنّ رائحته تثبت في الثوب أسبوعاً، قال الشاعر^(٤):

كأن دخان الند ما بين جمره
بقايا ضباب في رياض شقيق^(٥)

وكان العربي يتفاخر بخدمة الضيف، فهذا اعرابي من بني سعد بن زيد مناة بن تميم،

(١) هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي الفحطاني، يكنى أبا عدي، الجواد المشهور وأحد شعراء الجاهلية يضرب المثل بجوده. كان من أهل نجد، وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية، ومات في عوارض (جبل في بلاد طيء)، وأخباره كثيرة متفرقة في كتب الأدب والتاريخ. وقيل إن وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ينظر البغدادي، خزانة الادب، ١٢١/٣؛ الزركلي، الاعلام، ١٥١/٢. □
(٢) الطائي، حاتم بن عبد الله (ت ٥٧٨ م)، الديوان، شرح أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه حنا نصر الجتي، دار الكتاب العربي، (بيروت ١٩٩٤)، ص ١١١.

(٣) عرفة، محمود، العرب قبل الإسلام، عين للدراسات والبحوث، (القاهرة ١٩٩٥)، ص ٢٩٣.

(٤) البيت ينسب إلى ابو علي الحسن بن محمد الضبيعي، ينظر الثعالبي، ابو منصور عبد الملك النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ)، يتيمة الدهر في محاسن العصر، شرح وتعليق مفيد محمد قمجة، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٨٣)،

وكان مملكاً^(١)، فنزل به أضياف، فقام إلى الرحا فطحن لهم فمرت به زوجته في نسوة فقالت لهن: هذا بعلي! فاعلم بذلك فقال:

تقول وصكت صدرها بيمينها
أبعلي هذا بالرحا المتعاس
فقلت لها لا تعجلي وتيني
بلاي إذا التفت علي الفوارس
ألست أرد القرن يركب رده
وفيه سنان ذو غرارين يابس
لعمر أيك الخير إنني لخادم
لضيبي وإني إن ركبت لفارس^{(٢)(٣)}

من خلال استقراءنا لهذه الاخبار نرى أنّ العرب مع شجاعتهم ورجولتهم يتواضعون لخدمة الضيف ويمارسون الاعمال التي كانوا يأنفون منها في الحياة الطبيعية لأن إكرام الضيف من أولى الفضائل عندهم، ولم تكن قيمة الكرم في مقدار العطاء فحسب بل في صفة السخاء نفسها، وهناك كثير من العرب ممن اشتهر بجوده وكرمه وضرب فيه المثل في السخاء منهم حاتم الطائي حتى قيل (أجود من حاتم)^(٤).

وذكر ابن أبي الحديد أبياتاً له في كتابه يقول فيها:

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك
ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له
أكيلا فإنني لست آكله وحدي

(١) مملكا: من الاملاك وهو عقد النكاح. ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٢٦٧/٨، (مادة ملك)

(٢) وقد نسبت هذه الايات إلى الهدول بن كعب العبدي، ينظر، ابو تمام، حبيب بن أوس بن الحارث الطائي (ت ٨٤٦ هـ) ديوان الحماسة، شرح العلامة التبريزي، دار العلم، (بيروت ٢٠٠٠)، ٢٨٩/١.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٤٤/٥؛ لتفاصيل القصة ينظر المبرد، ابو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ)، الكامل في اللغة والآدب، علق عليه محمد ابو الفضل ابراهيم، ط ٣، دار الفكر العربي، (بيروت ١٩٩٧)، ٣٣/١.

(٤) الميداني، أبو الفضل أحمد بن ابراهيم (ت ٥١٨ هـ)، مجمع الأمثال، المعاونة الثقافية للروضة الرضوية، (مشهد ١٤٠٧ هـ)، ١٩١/١.

كريما بعيدا أو قريبا فإنني
كفى بك عارا أن تبيت ببطنة
وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً

أخاف مذمات الأحاديث من بعدي
وحولك أكباد تحن إلى القد^(١)
وما في الاتلك من شيمة العبد^(٢)

وقال أيضا:

وما تشتكيني جارتي غير أنني
سيبلغها خيري ويرجع بعلمها

إذا غاب عنها بعلمها لا أزورها
إليها ولم يسبل علي ستورها^(٣)

وتبين لنا هذه الابيات صوراً للقيم الأخلاقية الجميلة التي كانت سائدة عند العرب قبل الإسلام من خدمة الضيف وحفظ شرف الجار المحتاج في غيابه إذ يصل لها عطاؤها من دون أن يחדش حياؤها ويهتك سترها وهي صور تزيل عن كاهل العرب بعض الصور السيئة التي كانت سائدة آنذاك والتي سوف نتحدث عنها في مكان آخر لاحقاً.

(١) استشهد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بهذا البيت عند ارساله كتاباً إلى عثمان بن حنيف الانصاري وكان عامله على البصرة، وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها فقال عليه السلام «وَلَوْ شِئْتُ لَأَهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَى هَذَا الْعَسَلِ وَكِبَابِ هَذَا الْقَمَحِ وَسَائِجِ هَذَا الْقَرْزِ وَلَكِنْ هِيَ هَاتِ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ وَيَقُودَنِي جَشْعِي إِلَى تَخْيِيرِ الْأَطْعَمَةِ وَكَعَلٍ بِالْحِجَازِ أَوْ بِأَيْمَامَةٍ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشَّيْعِ أَوْ أَيْتِ مَبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرَّتِي وَأَكْبَادٌ حَرَّتِي أَوْ أَكُونُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ عَاراً أَنْ تَبْتَ بِبَطْنَةٍ وَحَوْلُكَ أَكْبَادٌ تَحْنُ إِلَى الْقِدِّ»، ينظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦/٢٢٠.

(٢) الطائي، حاتم، الديوان، ص ١٤٣، هنالك اختلاف بسيط ببعض المفردات بين الديوان ومانقله ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، ١٦/٢٢١، علماً أن البيتين الأخيرين لم أجدهما في الديوان وإنما موجودات في نسخة محققة ثانية للديوان من منشورات دار الهلال، (بيروت ٢٠٠٢)، ص ٣٥، والبيت الاخير عند ابن أبي الحديد هو:

* وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً وما من خلالي غيرها شيمة العبد.

(٣) الطائي، حاتم، الديوان، ص ٨٩- ٩٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥/٣٦.

وممن اشتهر بالكرم وذكره ابن أبي الحديد كعب بن مامه الإيادي^(١) ، وكان إذا جاوره رجل قام له بما يصلحه وحماه ممن يقصده، وإن هلك له شيء أخلفه عليه، وإن مات وداه لأهله^(٢)، ومن حديثه أنه خرج في ركب فيهم رجل من النمر بن قاسط في أيام حارة (فضّلوا فتصافنوا ماءهم - وهو أن يطرح في القعب حصاة ثم يصب فيه من الماء بقدر ما يغمر الحصاة، فيشرب كل انسان بقدر واحد - فقعدوا للشرب فلما دار القعب فانتهى إلى كعب ابصر النمري يحدد النظر إليه فأثره بمائه وقال للساقي اسق أخاك النمري فشرب النمري نصيب كعب ذلك اليوم من الماء ثم نزلوا من غدهم المنزل الآخر فتصافنوا بقية مائهم فنظر إليه النمري، كنظره أمسه فقال كعب كقوله أمس وارتحل القوم وقالوا يا كعب ارتحل فلم يكن به قوة للنهوض وكانوا قد قربوا من الماء... فلما يسوا منه وضعوا عليه ثوب يمنعه من السبع أن يأكله وتركوه مكانه فمات)^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد قيس بن سعد بن عبادة كان مع شجاعته ونجدته جواداً مفضالاً، قيل له يوماً هل رأيت أسخى منك، قال: نعم نزلنا بالبادية على امرأة فحضرها زوجها فقالت له: عندك ضيوف فنحر جزوراً وأتاه بها، فلما كان الغد نحر لنا أخرى ثم حبستنا السماء في اليوم الثالث فنحر لنا ثلاثة ثم إن السماء أفلعت، فلما أردنا أن نرحل، وكان الرجل خارجاً، وضعنا عشرين ثوباً وأربعة آلاف درهم عند امرأة الرجل وقلنا لها إذا جاء صاحبك فادفعي هذه إليه ثم رحلنا فما أتت علينا إلا ساعة حتى لحقنا الرجل صاحب المنزل على فرس ومعه رمح والثياب والدراهم بين يديه فقال

(١) هو كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادي، أبو دؤاد، كريم، جاهلي. يضرب به المثل في حسن الجوار، فيقال، أجود من كعب بن مامة، وجار كجار أبي دؤاد، ينظر، الزركلي، الاعلام، ٢٢٩/٥، وكذلك ينظر المثل وقصته ص ٢٤٤ من الرسالة.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٠/١٧.

(٣) الميداني، مجمع الامثال، ١٩٢/١.

يا هؤلاء خذوا ثيابكم ودراهمكم فقلت له: انصرف أيها الرجل فإننا لم نكن لنأخذها، قال: والله لتأخذنها فقلت: لله أبوك ألم تكرمنا وتحسن ضيافتنا فكافأناك فليس بهذا بأس، فقال الرجل إنا لا نأخذ لقرى الأضياف ثمناً والله لا آخذها أبداً، فقلت لمن معي أما إذ أبي ألا يأخذها فخذوها فوالله ما فضلني رجل من العرب غيره^(١).

ولم يكن الكرم خاصاً بالضيف وإطعامه فقط بل تعدى كرم العرب إلى أبعد من ذلك فحملوا ديّات أقوام لا يعرفونهم وكان الناس يتناقلون أخبارهم وتتفاخر بها قبائلهم منهم غالب بن صعصعة وهو ابو الفرزدق الشاعر، إذ ذكر ابن أبي الحديد أنّ غالب بن صعصعة هو الذي قرى مائة ضيف واحتمل عشر ديّات لقوم لا يعرفهم^(٢).

ومن اشتهر بجوده وكرمه هاشم بن عبد مناف، وذكر ابن أبي الحديد أنّه كان رجلاً موسراً فكان إذا حضر الحج قام في قريش فقال: (يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته فهم لذلك ضيف الله، وأحق ضيف بالكرامة ضيف الله، وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره فأكرموا ضيفه وزواره، فإنهم يأتون شعثاً غبراً من كل بلد ضوامر كالدجاج وقد أرجفوا وتفلوا وقملوا وأرملوا^(٣) فأقروهم وأعينوهم^(٤)).

ويبدو أنّ هاشماً هنا ذكر بعض الصفات السيئة التي كان عليها الوافدون إلى مكة لكي يكسب أكبر قدر من المساعدات لهم، وقد تكون هي حالتهم الصحيحة أصلاً، ونقلت لنا

(١) شرح نهج البلاغة، ٥٢/٦.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٩٨/١٥، ينظر تفاصيل القصة في ص ١١٥ من رسالتنا.

(٣) أرجفوا: أكثروا من ذكر الاخبار السيئة، قملوا: كثر فيهم القمل، ارملوا: نفذ زادهم. ينظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥٨/١٥، هامش المحقق.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٥٨/١٥.

كتب التاريخ والادب مقتطفات من خطبة شبيهة بخطبة هاشم نسبت إلى قصي بن كلاب يدعو فيها أهل مكة إلى إخراج شيء مما عندهم ليصنع طعاماً للحاج ففعلوا^(١).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ قريشاً كانت تترافد على ذلك حتى إن كل أهل بيت ليرسلون بالشيء اليسير على قدر حالهم، أما أغنياؤهم فكان كل إنسان ربما أرسل بمائة مثقال ذهب هرقلية، وكان هاشم يأمر بجياض من آدم تجعل في مواضع زمزم من قبل أن تحفر يستقي فيها من البئر التي بمكة فيشرب الحاج ويطعمهم أول ما يطعم قبل يوم التروية بيوم بمكة وبمنى وعرفة وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر ويحمل لهم الماء فيسقون بمنى والماء يومئذ قليل إلى أن يصدر الحاج من منى ثم تنقطع الضيافة ويتفرق الناس إلى بلادهم، وإنما سمي هاشماً لهشمه الثريد^{(٢)(٣)}.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد حفظ لهاشم وقريش هذه العادات الجيدة وذلك الكرم لقبائل العرب جميعها عند فتح مكة فيذكر ابن أبي الحديد بسنده عن الواقدي (قيل له يوم الفتح قد أمكنك الله تعالى فخذ ما شئت من أقمار على غصون - يعنون النساء - فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«يأبى ذلك إطعامهم الضيف وإكرامهم البيت ووجوهم مناخر الهدى»^(٤).

وعلى الرغم من أن هذه الرواية تبدو غير صحيحة لأن الإسلام لم يجوز سبي المرأة العربية، إلا أنها تبين لنا مدى تأثير كرم قريش وضيافتها لقوافل الحجيج قبل البعثة.

(١) الإشبيلي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت ٨٥٠ هـ)، المستطرف في كل فن مستظرف، دار مكتبة الحياة،

(بيروت ٢٠١١)، ٢/٨٢.

(٢) كان اسم هاشم عمرو العلي.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٥٨.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٨/١٣.

ثالثاً: صلة الرحم:

وهي من القيم والعادات البارزة التي تميزت بها حياة العرب قبل الإسلام والتي توارثوها عن اجدادهم وما برحوا يوصون أبناءهم بها، ونقل ابن أبي الحديد مجموعة من الصور الخاصة بصلة الرحم تعليقاً على كلام الإمام عليه السلام إذ ذكرها في أكثر من مناسبة، منها قوله عليه السلام:

«فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ»^(١)

وقوله عليه السلام:

«وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاءٌ فِي الْمَالِ وَمَنْسَأَةٌ فِي الْأَجْلِ»^(٢).

وقال ابن أبي الحديد معلقاً: (صلة الرحم وهي واجبة وقطيعة الرحم محرمة قال فإنها مثرأة في المال أي تشريه وتكثره، ومنسأة في الأجل أي تنسؤه وتؤخره ويقال نسأ الله في أجلك)^(٣).

منها قوله عليه السلام:

«أَكْرَمُ عَشِيرَتِكَ فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ»^(٤).

منها قوله عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَسْتَعْنِي الرَّجُلُ وَإِنْ كَانَ دَا مَالٍ عَنِ عَشِيرَتِهِ وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ

(١) شرح نهج البلاغة، ٥٩/٩، خطبة (١٤٢).

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٧٣/٧، خطبة (١٠٩).

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٧٥/٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٩٤/١٦، كتب ورسائل (٣١).

بأيديهم وأنسيتهم، وهم أعظم الناس حِيطةً من ورأيه، وألمهم لشعته، وأعطفهم عليه عند نازلة إن نزلت به، وكسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يُورثه غيره»^(١).

ومنها قوله عليه السلام:

«ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يسدها بالذي لا يزيدُه إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه ومن يقبض يده عن عشيرته فإنما تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه أيد كثيرة ومن تلبن حاشيته يستدم من قومه المودة»^(٢).

ذكر ابن أبي الحديد أن عمرو بن كلثوم التغلبي أوصى بنيه فقال (صلوا أرحامكم تعمر داركم)^(٣).

وهو هنا يدعو إلى توثيق العلاقات بين أبنائه، فصلة الرحم تبعد الفرقة والتناحر وفي الحديث الشريف:

«صلة الرحم تزيد في العمر»^(٤).

وذكر ابن أبي الحديد أن قيس بن عاصم المنقري^(٥) أوصى بنيه فقال (يا بني خذوا

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٨٦/١، خطبة (٢٣).

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢٨٦/١، خطبة (٢٣).

(٣) شرح نهج البلاغة، ٩٤/١٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٣٠٠/١؛ العيني، بدر الدين محمود بن أحمد (ت ٨٥٥ هـ)، عمدة القارئ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (ب. ت)، ١١ / ١٨١.

(٥) قيس بن عاصم بن سنان المقرئ السعدي التميمي (ت ٢٠ هـ - ٦٤٠ م)، كان عاقلاً حليماً كريماً جواداً، شريفاً، وكان شاعراً، اشتهر وساد في الجاهلية. وهو ممن حرم على نفسه في الجاهلية شرب الخمر، وفد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في وفد تميم (سنة ٩ هـ) فأسلم، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رآه: هذا سيد أهل الوبر! واستعمله على صدقات قومه. ثم نزل البصرة في أواخر أيامه، وتوفي بها، ينظر ابن

عني فلا أحد أنصح لكم مني إذا دفتموني فانصرفوا إلى رحالكم فسودوا أكبركم فإنّ القوم إذا سودوا أكبرهم خلفوا أباهم وإذا سودوا أصغرهم أزرى ذلك بهم في أكفائهم وإياكم وقطيعة الرحم^(١).

ومن خلال قراءتنا لهذه الروايات التي ذكرها ابن أبي الحديد نلاحظ مدى تأكيد العرب على دعوة الأبناء للالتفاف حول بعضهم وترك الفرقة وتنظيم حياتهم باتباع العادات الطبيعية بتولية أكبر الأخوة بإدارة شؤونهم وهو سياق متّبع ومُنْفَق عليه في أغلب القبائل وعدم قطع صلة الرحم وقد أثرت تلك الوصايا في خلق العربي وسماته وكانت لها أبعاد واسعة في علاقة أصحاب القرابة داخل الأسرة الواحدة أو القبيلة، فكان الشخص ينصر أخاه حتى لو كان معادياً له ولذلك قالوا (لا تعدم من ابن عمك نصراً)، أي إن حميمك يغضب لك إذا رآك مظلوماً وإن كنت تعاديه^(٢).

ومن مزايا صلة الرحم تقديم المساعدة وبذل المال لسد حاجة المحتاج وكانت العرب تدم من يمتلك المال ولا ينفقه في قومه وذكر ابن أبي الحديد قول زهير بن أبي سلمى:

ومن يكُ ذا فَضْلٍ فيبخلُ بفضلهِ على قومهِ يُستغنَ عنه ويُذمَم^(٣)

خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ١٨٣/١؛ الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، دار الكتاب العربي (بيروت ١٩٨٧م)، ٤/١٠٥؛ الزركلي، الاعلام، ٥/٢٠٦.

(١) ابن أبي شرح نهج البلاغة، ٩٣/١٧.

(٢) الميداني، مجمع الأمثال، ١٦٥/٢.

(٣) بن أبي سلمى، زهير، الديوان، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠٣)، ص ١١٠؛ شرح نهج البلاغة، ٣٠٠/١.

وقال طرفة بن العبد^(١) يهجو إنساناً بأنه يصل الأبعاد ويقطع الأقارب:

فأنت على الأدنى شمال عريّة شاميةٌ تزوي الوجوه بليلاً
وأنت على الأقصى صبا غير قرّة تذاب منها مزرعٌ ومسيل^(٢)

رابعاً: الحلم:

الحلم هو ضبط النفس والطبع من هيجان الغضب^(٣)، وقد ذكر ابن أبي الحديد مجموعة من الروايات عن حلم العرب كتعقيب على كلام الإمام عليه السلام الذي أكد في كلامه على الحلم في أكثر من مناسبة وكان ابن أبي الحديد يقول: (كان علي عليه السلام كثير الحلم والصفح والتجاوز)^(٤). ومن كلامه عليه السلام عن الحلم قوله:

«الْحِلْمُ عَشِيرَةٌ»^(٥).

وقوله عليه السلام:

«ليس شيء أحسن من عقل زانه علم ومن علم زانه حلم ومن حلم زانه صدق»^(١).

(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي، أبو عمرو (ت ٥٦٤ م)، شاعر، جاهلي، من الطبقة الأولى، قال الشعر صغيراً، وله بعد المعلقة شعر حسن، وليس عند الرواة من شعره إلا القليل، قتل وهو ابن عشرين وقيل ست وعشرين سنة. ولد في بادية البحرين، وتنقل في بقاع نجد، واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه، ثم أرسله بكتاب إلى المكعب، عامله على البحرين وعمان، يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعب، ينظر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ٢/٣٧٠ - ٣٧٥، الزركلي، الاعلام، ٢٢٥/٣.

(٢) ابن العبد، طرفة، الديوان، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، (د.ت)، ص ٨٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٠١/١.

(٣) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥ هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي شيري، دار الفكر (بيروت ١٩٩٤ م)، ١٦١/١٦.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٠/١٦٦.

(٥) شرح نهج البلاغة، ٢٠/٥١، حكم ومواعظ (٤٢٦).

وقيل لقيس بن عاصم: ما الحلم؟ قال: (أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وتعفو عَمَّنْ ظَلَمَكَ)^(٢)، وهو من أجل الصفات التي كان يتمتع بها الإنسان العربي وأنبله الصّفح والمغفرة عند المقدرة وضرب به مثلاً (إذا ملكت فاسجح)^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ الأعمش^(٤) ضل طريقه فأصبح بديار علقمة بن علاثة^(٥)، فخرج فتیان الحّي فقبضوا عليه فأتوا به علقمة فقال له: الحمد لله الذي أظفرتني بك من غير ذمة ولا عقد، قال الأعمش: أو تدري لم ذلك جعلت فداك، قال: نعم لانتقم اليوم منك بتقوالك عليّ الباطل مع إحساني إليك^(٦)، قال: لا والله ولكن أظفرك الله بي ليلو قدر حلمك فيّ، فأطرق علقمة، فاندفع الأعمش فقال:

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٥٤/٢٠، الحكم النسوية (٩٩).

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٥٩/٢.

(٣) لمعرفة قصة المثل ينظر، الميداني، مجمع الأمثال، ٣٩/١.

(٤) هو ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ويكنى أبا بصير (ت ٧ هـ - ٦٢٩م) ولقب بالأعمش لضعف بصره. وعمي في أواخر عمره ويقال له أعشى بكر بن وائل، والأعمش الكبير، من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، كان كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس، أدرك الإسلام ولم يسلم، إذ رحل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليسلم. فقيل له: إنّه يجرّم الخمر والزنا، فقال: أمتّع منهما سنة ثم أسلم! فمات قبل ذلك بقرية باليمامة، ينظر الجمحي محمد بن سلام (ت ٢٣١ هـ - ٨٤٥م)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، (د.ت)، ٥٢/١؛ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦)، الشعر والشعراء، تحقيق مفيد قمجة، محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠٥)، ص ١٤٢؛ الزركلي، الاعلام، ٣٤١/٧.

(٥) علقمة بن علاثة بن عوف الكلابي العامري من بني عامر بن صعصعة من أشرف قومه في الجاهلية كان مقيماً بجوران، وهو من الأجواد المشهورين، وفد على قيصر، ونافر عامر بن الطفيل، ثم أسلم، وارتد في أيام أبي بكر، فأنصرف إلى الشام، فبعث إليه أبو بكر القعقاع بن عمرو، ففر علقمة منه. ثم عاد إلى الإسلام. وولاه عمر وكان كريماً، ينظر ابن خلكان، وفيات الاعيان، ١٩٢/٥؛ ابن حجر العسقلاني، الاصابة في تمييز الصحابة، ٤٥٥/٤ - ٤٥٩؛ الزركلي، الاعلام، ٢٤٧/٤.

(٦) ينظر ص ٧٥ من الرسالة موضوع الجوار لمعرفة سبب الخلاف بين الاعشى وعلقمة.

أعلقم قد صيرتني الأمور إليك وما كان بي منكص
كساكم علاثة أثوابه وورثكم حلمه الأحوص
فهب لي نفسي فدتك النفوس فلا زلت تنمي ولا تنقص^(١)

فقال: قد فعلت أما والله لو قلت في بعض ما قلته في عامر بن الطفيل لأغنيتك طول حياتك ولو قلت في عامر بعض ما قلته في ما أذاقك برد الحياة^(٢).

وفي هذه الرواية نجد ملامح العفو عند المقدرة بارزة في تصرف علقمة الذي نسي كل غضبه من تصرف الاعشى في وقت سابق وقد هجاه بشعره بما استوجب قتله ولكنه عفى عنه.

بعد أن أسمعه شعراً يطلب منه السماح والتقيد بصفة الحلم الموروثة عن آبائه من جهة ومن جهة أخرى تبين لنا مكر ودهاء الاعشى ادهاءه، فقد عرف كيف يخلص نفسه واستغل خياله الشعري في استغلال العادات والتقاليد العربية الاصيلية في وقت الشدة.

وفي أشعار العرب التي نقل ابن أبي الحديد قسماً منها الكثير من الصور التي تتحدث عن صفة الحلم عند العربي والذي لا يتم إلا بإمساك الجوارح كلها، اليد عن البطش، والعقل واللسان عن الفواحش، والعين عن النظر، قال شاعرهم:

وللكف عن شتم اللئيم تكرماً أضر له من شتمه حين يشتم^(٣).

(١) الاعشى، ميمون بن قيس (ت ٢٠هـ - ٦٤٠م)، ديوان الاعشى الكبير، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٨٧م)، ص ٩٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٦٦/١٨.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٥١/٢٠.

وقال لقيط بن زرارة^(١):

فقل لبني سعد ومالي وما لكم
أغرکم أني بأحسن شيمة
ترقون مني ما استطعتم وأعتق
بصير وأنني بالفواحش أخرج
هنيثا مريثا أنت بالفحش أحذق^(٢)
وأنك قد سايبتني فقهرتني

وهكذا نرى من خلال هذه الأبيات التي ذكرها ابن أبي الحديد أنهم كانوا ينكرون الشتم والرد بالمثل ويمسكون أنفسهم عند الغضب ويعدون لها منقبة لهم يفتخرون بها.

وذكر ابن أبي الحديد أنّ رجلاً شتم الأحنف بن قيس وجعل يتبعه ويشتمه، فلما قرب الحي وقف وقال يا فتى إن كان قد بقي في قلبك شيء فقله كيلاً يسمعك سفهاء الحي فيجيؤك^(٣)، وكان الأحنف حليماً موصوفاً بذلك وقد سئل مرة ممن تعلّمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقري، رأيتُه قاعداً بفناء داره مُحْتبياً بحمائل سيفه يُحدّث قومه حتى أتى برجل مكتوف ورجل مقتول، فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك؟ فوالله ما حلّ حبّوته، ولا قطع كلامه، ثم التفت إلى ابن أخيه فقال له: يا ابن أخي، أئمت برّبك، ورَميت نفسك بسهمك، وقتلت ابن عمك. ثم قال لابن له آخر: قم يا بني فوار أخاك، وحلّ كتاف ابن عمك، وسق إلى أمّه مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

(١) لقيط بن زرارة بن عدس الدارمي، من تميم (ت ٥٧١م) فارس وشاعر جاهلي، من أشرف قومه، كنيته (أبو دخنتوس) وهي ابنته، ولا عقب له غيرها، ويقال له: (أبو نهشل) وكان دينه المجوسية، له أخبار قتل يوم (شعب جيلة)، ينظر الزركلي، الاعلام، ٢٤٤/٥؛ كذلك ينظر تفاصيل يوم جيلة ص ٣٤٢ من الرسالة.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٦٦/١٨.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٦٧/١١.

إِنِّي امْرُؤٌ لَا شَائِنٌ حَسَبِي
 مَنْ مَنَقَرٍ فِي بَيْتٍ مَكْرُمَةٍ
 خُطْبَاءٌ حَيٌّ يَقُولُ قَائِلُهُمْ
 لَا يَفْطَنُونَ لِعَيْبِ جَارِهِمْ
 دَنَسٌ يَهْجُنُهُ وَلَا أَفْنٌ
 وَالْعُصْنُ يَنْبُتُ حَوْلَهُ الْعُصْنُ
 بَيْضُ الْوُجُوهِ أَعْفَى لُسْنُ
 وَهُمْ لِحْفَظِ جِوَارِهِ فُطْنٌ^(١)

وذكر ابن أبي الحديد أنّ قيس بن عاصم كان يُوصي أبناءه فيقول: (خذوا عني ثلاث خصال إياكم وكل عرق لثيم أن تلبسوه فإنه إن يسرركم اليوم يسؤكم غداً واكظموا الغيظ واحذروا بني أعداء آبائكم فإنهم على منهاج آبائهم)^(٢).

خامساً: الجوار:

الجوار لغة: مصدر من المجاورة^(٣)، والجار الذي يجاورك، والجار النقيح هو الغريب، والجار الشريك في العقار، والجار المقاسم، والجار الحليف، والجار الناصر، والجار الشريك في التجارة فوضى كانت الشركة أو عناناً، والجارة امرأة الرجل^(٤) والجار: الذي أجزته من أن يظلمه ظالم. قال الهذلي:

وكنت إذا جاري دعا لمضوفةٍ
 أشمر حتى ينصف الساق مئزري^(٥)

(١) العقد الفريد، ٢/٢٥٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٧/٩٤.

(٣) الفراهيدي، ابو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ)، العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ط ٢، دار الهجرة، (ايران ١٤٠٩هـ)، ٦/١٧٦.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ٢/٢٥٠، مادة (جور).

(٥) الجوهري، اسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣ هـ)، الصحاح، رتبه وصححه ابراهيم شمس الدين، دار الاعلمي للمطبوعات، (بيروت ٢٠١٢)، ص ٢٠٠، مادة (جور).

ووردت في معاجم اللغة ألفاظ ارتبطت معانيها اللغوية بمفهوم الجوار كالحلف والمعاهدة والميثاق والمواثقة والعهد والعقد والخفر والرباب والصارخ... الخ^(١).

كانت حرمة الجار والوفاء بالعهد من أهم الخصال التي دافع عنها العرب وحرصوا عليها حرصهم على شرفهم وأنفسهم وسئل اعرابي عن مبلغ حفاظ قومه للجار فقال: (يدفع الرجل منا عن استجار به من غير قومه كدفاعه عن نفسه)^(٢)، ونرى التأكيد على حسن الجوار من خلال الوصايا التي تركها لنا العرب لأبنائهم لزرع تلك القيم في نفوسهم وترسيخ حقوق الجار والضيف في أذهانهم فهذا عمرو بن كلثوم يوصي بنيه (أكرموا جاركم بحسن ثنائكم)^(٣).

وقد ساق ابن أبي الحديد مجموعة من روايات الجوار تعليقاً على كلمات الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبه ورسائله التي تحدثت عن أهمية الجوار وحسن معاملة الجار منها قوله عليه السلام:

«اللَّهُ اللَّهُ فِي جِيرَانِكُمْ فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَّنَّا أَنَّهُ سَيُورِثُهُمْ»^(٤)،

وقوله عليه السلام:

«جنبوا موتاكم في مدافنهم جار السوء فإن الجار الصالح ينفع في الآخرة كما ينفع في

(١) لتفاصيل المفردات ينظر عباس، مصطفى جواد، الجوار عند العرب قبل الإسلام حتى عصر الرسالة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة البصرة، ٢٠١١، ص ١٢ - ٥٥.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١/١٥٦.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٧/٩٤.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٧/١٧، كتب ورسائل (٤٧).

ال«دنيا»^(١).

وقوله عليه السلام:

«ليس من حسن الجوار ترك الأذى ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى»^(٢).

وقوله عليه السلام:

«سَلُّ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ»^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ كعب بن مامة كان يضرب به المثل في مصاحبة الجار وحمايته فجاوره أبو دواد الإيادي فزاره على العادة فبالغ في إكرامه وكانت العرب إذا حمدت جاراً قالت (جار كجار أبي دواد)، قال قيس بن زهير:

أطوف ما أطوف ثم آوي إلى جار كجار أبي دواد

ثم تعلم منه أبو داود وكان يفعل لجاره فعل كعب به^(٤).

على الرغم من أنّ ابن أبي الحديد ذكر قصة هذا المثل بأنه حالة إيجابية لحسن الجوار ونسب الجار الوفي إلى شخصية كعب بن مامة ولكن هناك من طرح بيت الشعر والمثل من وجهة نظر مختلفة فقال إنّ جار أبي دواد هو قيس بن زهير بن ربيعة الخير بن قرط بن غيلان بن أبي بكر بن كلاب، ويقال جار أبي دواد الحارث بن همام بن مرة بن زهل بن شيبان، وكان أبو دواد في جواره فخرج صبيان الحي يلعبون في غدير فغمسوا ابن أبي

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٠/٢٧٩، الحكم المنسوبة (٩٥٤).

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢٠/٢٤٤، الحكم المنسوبة (٣٧٨).

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٦/٨٨، كتب ورسائل (٣١).

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٧/٧.

دواد فمات، فخرج الحارث فقال: لا يبقى في الحيّ صبيّ إلا غرقته في الغدير، فودي ابن أبي دواد لذلك عدة ديات^(١).

وكانت حماية الجار والذود عنه من الامور التي ألفها العرب واستماتوا فيها ولم يتوقف الأمر عند الدفاع عنهم من المخاطر والعدو ولكن وفروا الحماية لجارهم حتى من الموت، فيذكر أن الأعشى أتى الأسود العنسي وقد امتدحه فأعطاه خمسمائة مثقال دهنًا وبخمسائة حلاًّ وعنبراً، فلما مرّ ببلاد بني عامر خافهم على ما معه فأتى علقمة بن علاثة، فقال: له أجرني، فقال: قد أجرتك، قال: من الجن والإنس، قال: نعم، قال: ومن الموت، قال: لا فأتى عامر بن الطفيل فقال: أجرني قال قد أجرتك قال من الجن والإنس قال: نعم، قال: ومن الموت، قال: نعم، قال: وكيف تجيرني من الموت، قال: إن مت وأنت في جوارِي بعثت إلى أهلِكَ الدية، فقال: الآن علمت أنك قد أجرنتني من الموت فمدح عامراً وهجا علقمة فقال:

تَيْبُتُونَ فِي الْمَشْتَى مِلاءً بَطُونُكُمْ وجاراتكم غرئى يَبْتَنَ خَمائِصاً

قال الكلبي: ولم يهج علقمة بشيء أشد عليه من ذلك^(٢).

ولم يكتف العرب بحماية بني الإنسان وإنما امتد حسن معاملتهم للجار حتى شمل الحيوان الجار حتى لو كلفه ذلك حياته فيذكر ابن أبي الحديد أنّ أبا حنبل حارثة بن مر الطائي أجار جراداً نزل به ومنع من صيده حتى طار من أرضه فسمي مجير الجراد.

(١) المفضل بن محمد (ت ١٧٨)، امثال العرب، قدم له وعلق عليه، احسان عباس، ط ٣، دار الرائد العربي، بيروت (١٩٨٣)، ص ٩١؛ الجكي، أحمد محمد أمين أحمد، قطوف الريحان من زهر الافنان شرح حديقة ابن الونان، ط ٢، الشنقيطي للنشر، مكة المكرمة (١٩٩٩)، ص ١٣٨.

(٢) الاصفهاني، الاغاني مج ٣، ٥٩٧/٩.

وقال هلال بن معاوية الطائي:

وبالجبلىن لنا معقل
ملكناه في أوليات الزمان
ومننا ابن مر أبو حنبل
أجار من الناس رجل الجراد^(١)

ومجبر أم عامر مثل يضرب للمحسن يكافأ بالإساءة، وأصل هذا المثل أن قوماً خرجوا إلى الصيد في يوم حار، فانهم لذلك إذ عرضت لهم أم عامر وهي الضبع، فطاردوها حتى ألقواها إلى خباء أعرابي فاقتمته، فخرج اليهم الأعرابي وقال: ما شأنكم، قالوا: صيدنا وطريدتنا، فقال: كلا والذي نفسي بيده لا تصلون إليها ما ثبت قائم سيفي بيدي، فرجعوا وتركوه، وقام إلى لقحة^(٢) فحلبها وماء فقرب منها، فأقبلت تلغ مرة في هذا ومرة في هذا حتى عاشت واستراحت، فبينما الإعرابي نائم في جوف بيته إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وشربت دمه وتركته، فجاء ابن عم له يطلبه فاذا هو بقير في بيته، فالتفت إلى موضع الضبع فلم يرها، فقال: صاحبتي والله فأخذ قوسه وكنانته وأتبعها فلم يزل حتى أدركها فقتلها: وأنشأ يقول:

ومن يصنع المعروف مع غير أهله
أدام لها حين استجارت بقربه
وأسمنها حتى إذا ما تكاملت
يلاق الذي لاقى مجبر أم عامر
لها محض ألبان اللقاح الدرائر
فرته بأنياب لها وأظافر^(٣)

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢١٦/٣.

(٢) لقحة: الناقة الحلوب. ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٧٩/٨، (مادة لقح)

(٣) الميداني، مجمع الامثال، ٩٠/٢.

لم تقتصر حماية الجار على الأفراد فقط بل نقل لنا ابن أبي الحديد صوراً جعلت بعض القبائل تتخذ من الإجارة سبباً لمواجهة غزو أجنبي وقد حاول كسرى النيل من قيمة الجوار فطلب من بني شيبان تسليم وديعة النعمان بن المنذر^(١) الذين أجاروه وقبلوا أمواله وديعة عندهم، فرفضوا فكان موقفهم هذا سبباً مباشراً للحرب التي دارت بين العرب والفرس وانتصر فيها العرب في المكان المعروف بذي قار^(٢).

وهناك صور أخرى عن وقوع الحروب الطويلة بين القبائل للسبب نفسه، فجساس بن مرة الشيباني كان يعرف عند العرب (حامي الذمار ومانع الجار)^(٣) ومن أجل حمايته لجاره حدثت حرب ضروس بين بكر وتغلب استمرت أربعين سنة^(٤).

وصور عن قيام بعض الاحلاف التي اشتركت فيها قبائل متعددة وكان حلف الفضول من تلك الاحلاف التي ذكرها ابن أبي الحديد وكان سببه حماية المظلوم ومن استجار بأهلها^(٥).



(١) ينظر تفاصيل حياته وحكمه ص ٣٥٦ من الرسالة.

(٢) الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط ٥، دار المعارف، (القاهرة ١٩٨٦)، ٢/٢٧٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٩/١٣.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥٦/٤.

(٤) ينظر تفاصيل اليوم ص ٣٤١ من الرسالة.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٥٤/١٥.

المبحث الثاني المعتقدات الشعبية والاجتماعية

زخرت حياة مجتمع قبل الإسلام بمجموعة من المعتقدات الاجتماعية التي غدت جزءاً منهم وتمسك بها الناس وعدّوها عقيدة راسخة لا يمكن تغييرها، وما زالت اغلب تلك العادات تمارس في مجتمعنا الحاضر بكل تفاصيله - كما سنرى من خلال الدراسة - وكأنها موروث حضاري فرضته الطبيعة والمجتمع منذ مئات السنين، وقد تحدث ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة عن جزء كبير منها وهو ما يتعلق بالعادات السيئة وتأثيرها على حياة العرب التي ذكر قسماً منها تعليقاً على كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، الذي ذكر مجموعة من عادات العرب قبل الإسلام ونظرة الإسلام لها حين قال عليه السلام:

«الْعَيْنُ حَقٌّ وَالرَّقَى حَقٌّ وَالسَّحْرُ حَقٌّ وَالْفَالُ حَقٌّ وَالطَّيْرَةُ لَيْسَتْ بِحَقٍّ وَالْعَدْوَى لَيْسَتْ بِحَقٍّ وَالطَّيْبُ نُشْرَةٌ وَالْعَسَلُ نُشْرَةٌ وَالرُّكُوبُ نُشْرَةٌ وَالنَّظْرُ إِلَى الْخُضْرَةِ نُشْرَةٌ»^(١).

وقد تكلم ابن أبي الحديد عن بعضها وتوسع فيها وأسهب فتناثرت بين أجزاء كتابه، وقد جمعناها ورتبناها وفق المحاور الآتية:

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٠٤/١٩، (حكم ومواعظ ٤٠٨).

أولاً: الهامة والصفر:

الهامة: ذكر ابن أبي الحديد أنّ الهامة هي ما كانت العرب تزعمه في المقتول لا يؤخذ بثأره^(١)، وكانوا يقولون ليس من ميت يموت ولا يقتل إلا ويخرج من رأسه هامة فإن كان قتل ولم يؤخذ بثأره نادى الهامة على قبره اسقوني^(٢)، قال ذو الإصبع:

يا عمرو وإلا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حيث تقول الهامة اسقوني^(٣)

وهي من العادات المنبوذة التي حاربها الإسلام بحديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا عدوى ولا هامة ولا صفر»^(٤).

وتعددت الآراء في تعريف الهامة فمنهم من يرى أنّ (النفس طائر ينسط في جسم الإنسان، فإذا مات أو قتل لم يزل مطيفاً به متصوراً إليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً)^(٥)، قال أبو دؤاد الإيادي:

سلط الموت والمنون عليهم فلهم في صدى المقابر هام^(٦)

(١) شرح نهج البلاغة، ٣١١/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢١٩/١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٢٨/١.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٢٨/١؛ ينظر الحديث عند النسائي، أبو عبد الله أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ)، السنن الكبرى، تح عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩١م)، ٣٧٦/٤.

(٥) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به يوسف البقاعي، ط ٢، دار احياء التراث العربي، (بيروت ٢٠١١م)، ٣٥٧/٢.

(٦) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣١٩/١٩؛ ينظر البيت والقصيد عند الاصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (٢١٦هـ)، ديوان الاصمعيات، تحقيق محمد نبيل طريفي، ط ٢، دار صادر، (بيروت ٢٠٠٥م)، ص ٢٠٨.

هذا الطائر يسمونه الهام، والواحدة هامة، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً، ثم يكبر حتى يصير كضرب من البوم، توجد في الديار المعطلة والنواويس، وهي مصارع القتلى وأجداث الموتى، وكانوا يتصورون الهامة تتردد على ولد الميت لترى ما يكون بعده فتخبره به، قال الصلت بن أمية لبنيه:

هامي تخبرني بما تستشعروا فتجنبوا الشنعاء والمكروها^(١)

وكانوا يعتقدون أن عظام الميت تصير هامة فتطير على شكل طائر يسمى الصدى يخرج من رأس المقتول وألهامة جُمجمة الرأس وهي التي يخرج منها الصدى فلا يزال يصيح اسقوني حتى يدرك بثأره^(٢).

قال طرفة:

كريم يروى نفسه في حياته ستعلم إن متنا غداً أينما الصدى^(٣)

على الرغم من أن اغلب الروايات تصورها على شكل طائر ولكن تخيلات العرب ذهبت أبعد من ذلك، إذ ذكر أن الرجل إذا قتل ولم يؤخذ بثأره خرّجت من رأسه هامة - وهي دودة - فتدور حول قبره فتقول: اسقوني اسقوني، فإن أدرك بثأره ذهبت وإلا بقيت وكانت اليهود تزعم أنها تدور حول قبره سبعة أيام ثم تذهب^(٤).

(١) المسعودي، مروج الذهب، ٣٥٠/٢.

(٢) الاصفهاني، الاغانى، مج ٣، ٤٦٢/٨؛ ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد

(ت ٨٥٢هـ)، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ٣٢٠/١٠.

(٣) ابن العبد، طرفة، الديوان، ص ٣٦.

(٤) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ٢٠٢/٧.

وقد تنبّه ابن أبي الحديد إلى تضارب الروايات حول الهامة وذكر آراء من يقولون أنّ الهامة -مشددة الميم - إحدى هوام الأرض وأنها هي المتلونة المذكورة. ثم ذكر اعتراض أبي عبيد على ذلك بقوله (قال ما أرى هذا وقد يسمونها الصدى والجمع أصداء قال: وكيف حياة أصداء وهام)^(١).

ولعلنا ندرك من خلال دراستنا لتلك الروايات أنّ العرب كانت تعطي لقضية الأخذ بالثأر أهمية كبيرة ورسخت تلك المفاهيم في أذهان الناس حتى أنّ أهل القتل كانوا محاطين بالعار حتى يأخذوا ثأرهم، ولكون قضية الثأر كانت من العادات البارزة في مجتمع عرب قبل الإسلام لذا فلا غرابة أن تحاط بطائفة من الروايات والقصص الخيالية لترسيخها في عقولهم وجعلها موروثاً عن السلف أو الآباء، والهام قد يكون طائراً اسطورياً خلقته العقلية الخرافية للعرب كما هو الحال في اختلاقيهم لمخلوقات وهمية أخرى كالعنقاء مثلاً وهي عندهم طائر من أحسن الطير له وجه إنسان وأربعة أجنحة فوقع بنجد والحجاز وهي تأكل كل الوحوش والصبيان وفيها يقال: (جاء فلان بعنقاء مغرب) أي جاء بأمر غريب^(٢).

وكذلك أفرزت لنا تلك العادات قضية أخرى وهي قضية تناسخ الأرواح، قال ابن أبي الحديد (كان من العرب من يعتقد التناسخ وتنقل الأرواح في الأجساد ومن هؤلاء أرباب الهامة)^(٣)، فإذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته فانصب طيراً هامة فيرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة^(٤).

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣١٩/١٩.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ٤٠٧/٢.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٢٨/١.

(٤) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٤٩٦.

على الرغم من أنّ الإسلام قد حاول إبعاد الناس عن تلك العادات وغيرها التي أصبح جزء كبير منها يسيء للمجتمع، ولكننا نرى أنّ هذه العادات ظلت متوارثة حتى بعد الإسلام، فذكر ابن أبي الحديد أنّ ليلى الأخيلية صاحبة توبة بن الحمير^(١) أقبلت من سفر فمرت بقبر توبة فقالت والله لا أبرح حتى أسلمّ على توبة، فصعدت أكمة عليها قبر توبة فقالت: السلام عليك يا توبة، ثم حوّلت وجهها إلى القوم فقالت: ما عرفت له كذبة قط قبل هذا، قالوا: وكيف؟ قالت: أليس القائل:

ولو أنّ ليلى الأخيلىّة سلّمتُ
لَسَلَّمْتُ تسليمَ البشاشةِ أوزقاً
وَأَغْبَطُ من ليلى بما لا أناله
عليّ ودوني جندل وصفائحُ
إليها صدّي من جانب القبر صائحُ
ألا كلّ ما قرّرت به العينُ صالحُ^(٢)

فما باله لم يسلم عليّ كما قال، وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة فلما رأت اليهودج واضطرابه فزعت وطارت في وجه الجمل فنفر فرمى بليلى على رأسها فماتت من وقتها فدفنت إلى جنبه^(٣).

وإذا سلّمنا بصحة الرواية إذ ورد ذكرها في الكثير من المصادر فقد تكون الصدفة هي التي جعلت ليلى الأخيلية تموت بالقرب من قبر حبيبها توبة فأصبح موتها في هذا المكان فرصة للمؤرخين للربط بين أبيات توبة وموتها فנסجت فصول تلك الرواية لتكون دليلاً

(١) ليلى الأخيلية من بني عامر بن صعصعة، شاعرة فصيحة اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير. وأبلغ شعرها قصيدتها في رثاء توبة، وكان توبة وهو من بني عقيل بن كعب بن ربيعة، شاعراً لصاً، يهوى الاخيلية فخطبها فردّه أبوها وزوجها غيره، قتل أثناء إحدى غاراته على بني عوف بن عقيل، ينظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢٧٠ - ٢٧٤، الزركلي، الاعلام، ٢٤٩/٥.

(٢) ابن الحمير، توبة الخفاجي (ت ٨٥هـ)، الديوان، تح: خليل إبراهيم العطية، مطبعة الارشاد، (بغداد ١٩٦٨)، ص ٤٨ - ٤٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١/٢٨٨؛ ينظر تفاصيل القصة عن الاصفهاني، الاغانى، مج ٤، ٣٩٢/١١.

على تقاليد العرب في الهامة.

أما الصفر فقد كان من العادات التي أبطلها الإسلام من حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا هامة ولا صفر»^(١).

وتعددت فيه الآراء واختلفت فيه الروايات فذكر ابن أبي الحديد أنّ الصفر (ما كانت العرب تزعمه من الحية في البطن تعض عند الجوع)^(٢)، وهي تكون في البطن تشنية الضربة زعموا أنّ الحية تموت في أول ضربة فإذا تشيت عاشت^(٣)، وقيل هو بالجوف يصيب الماشية والناس، وهو أعدى عندهم من الجرب^(٤)، وهناك من يرى أنّ الصفر هو الجوع بعينه^(٥)، قال أعشى باهلة^(٦):

ولا يغمرُ الساقِ من أينِ ولا وصبِ
ولا يتأرى لما في القدرِ يرقبهُ
ولا يعضُ على شرسوفه الصفرُ
ولا تراه أمامَ القومِ يقتفرُ^(٧)

(١) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، دار الفكر، (بيروت ١٩٨١م)، ١٧/٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٢٠/١٩.

(٣) الابشيهي، المستطرف، ٨٤/٢.

(٤) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠ هـ)، أدب الدنيا والدين، دار الفكر، (بيروت ٢٠٠٠م)، ص ٣١.

(٥) شرح نهج البلاغة، ٣٢٠/١٩.

(٦) أعشى باهلة: هو عامر بن الحارث بن رياح الباهلي، من همدان، شاعر جاهلي يكنى، أبا قحفان، أشهر شعره رائية له عدد أبياتها أربعة وثلاثون بيتاً في رثاء أخيه لأمه المنتشر بن وهب، ينظر البغدادي، خزنة الأدب، ١٩٢/١؛ الزركلي، الأعلام ٣/٢٥٠.

(٧) الاصمعي، ديوان الاصمعيات، ص ١٠٣ - ١٠٤؛ المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ٤/٥٤؛ وقد ذكر ابن أبي الحديد هذه الأبيات بشكل مختلف إذ ذكر بيتاً واحداً فقط وهو:

لا يتأرى لما في القدرِ يرقبهُ لا يعضُ على شرسوفه الصفرُ، ينظر: شرح نهج البلاغة، ٣٢٠/١٩.

في حين يرى آخرون أنّ المقصود بالصفّر هو الشهر وهو تأخيرهم المحرم إلى صفر في تحريمه^(١)، وكانوا إذا صدروا عن منى قام رجل من كنانة يقال له نُعيم بن ثعلبة فقال: أنا الذي لا أعاب ولا يُرد لي قضاء فيقولون له أنسنا شهراً أي أخرّ عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر، فيحلّ لهم المحرم ويُحرّم عليهم صفرًا فإذا كان في السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحلّ لهم صفرًا^(٢).

ولكن ابن أبي الحديد له رأي آخر إذ علّق على هذه الرواية بالقول (أبو عبيدة معمر بن المثنى قال هو صفر الشهر الذي بعد المحرم، قال نهى عليه السلام عن تأخيرهم المحرم إلى صفر يعني ما كانوا يفعلونه من النسيء، ولم يوافق أحد من العلماء أبا عبيدة على هذا التفسير)^(٣).

وعلى الرغم من معارضة ابن أبي الحديد لهذا التفسير، لكنه يبدو أقرب للواقع فقد ذكر الثعلبي أنّ العرب كانوا (أصحاب حروب وغارات فشقّ عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزون فيها، وقالوا: لئن توالى علينا ثلاثة أشهر حرم لا نصيب فيها شيئاً لنجوعن، وإنما نصيب على ظهر دوابنا فرما احتاجوا مع ذلك إلى تحليل المحرم أو غيره من الأشهر الحرم لحرب تكون بينهم فيكرهون استحلاله ويستحلون المحرم. وكانوا يمكثون بذلك زمانا يجرمون صفر، وهم يريدون به المحرم ويقولون: هو أحد الصفرين)^(٤) ولعل العرب كانت تتشاءم منه كونه يأتي بعد شهور التحريم - التي كان

(١) ابن سلام، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت ٢٢٤هـ)، غريب الحديث، تحقيق محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، (بيروت ١٣٨٤هـ)، ٢٦/١.

(٢) الانباري، أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار (ت ٣٢٨هـ)، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق، حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، (بيروت ١٩٩٢)، ٣٩٠/١.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٢٠/١٩.

(٤) الثعلبي، أبو اسحاق أحمد بن محمد بن براهيم النيسابوري (٤٢٧هـ)، الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، تح:

الناس ينشغلون بها في الحج والتجارة - لتبدأ الغزوات والحروب^(١).

ثانياً: الطيرة والفأل:

الطيرة: لغة تعني التشاؤم^(٢)، وهي لا تكون إلا فيما يسوء^(٣)، وقد نهى عنها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: (ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له)^(٤).

وقد حاول العرب إبعاد الطيرة عن تفكيرهم بتجاهلهم المسميات التي تبعث إلى التشاؤم بإيجاد رديفاتها من الكلمات الأخرى، فذكر ابن أبي الحديد (تطيرت العرب من لفظة البرص فكنوا عنه بالوضح فقالوا جذيمة الوضح)^(٥) يريدون الأبرص وكني عنه بالأبرش أيضاً، وكل أبيض عند العرب وضاح ويسمون اللبن وضحاً يقولون ما أكثر الوضح عند بني فلان^(٦).

ومن المرادفات الأخرى التي ذكرها ابن أبي الحديد أن العرب كانت تسمي اللديغ سليماً قال أحدهم:

أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق نظير الساعدي، دار احياء التراث العربي، (بيروت ٢٠٠٠)، ٤٤/٥.

(١) ولا زالت الناس إلى يومنا هذا تعتبر شهر صفر شهر شؤم وتؤجل الكثير من أعمالها حتى قضاء آخر أيامه.

(٢) الجوهري، الصحاح في اللغة، ص ٦٩٢، مادة [طير].

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ٧/٧، مادة [طير].

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٠٥/١٩؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)،

الجامع الصغير، دار الفكر، (بيروت ١٩٨١)، ٤٦٥/٢.

(٥) هو جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم التنوخي القضاعي (ت نحو ٢٦٨ م)، ثالث ملوك الدولة التنوخية في العراق، جاهلي، عاش عمراً طويلاً. وكان أعز من سبقه من ملوك هذه الدولة، وكان يقال له (الوضح) و(الأبرش) لبرص فيه، قتله الزباء بثأر أبيها، ينظر البغدادي، خزنة الأدب، ٤٣٣/١١؛ الزركلي، الاعلام، ١١٤/٢.

(٦) شرح نهج البلاغة، ٤٥/٥.

كأني من تذكر ما ألقى
إذا ما أظلم الليل البهيم
سليم ملّ منه أقربوه
وأسلمه المجاور والحميم^(١)

وَمِنْ خَبْرِ ضِرَارِ بْنِ حَمَزَةَ الضَّبَّائِيِّ عِنْدَ دُخُولِهِ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَمَسْأَلَتِهِ لَهُ عَنْ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ (فَأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ وَقَدْ
أَرَخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ وَهُوَ قَائِمٌ فِي مِحْرَابِهِ قَابِضٌ عَلَى لِحْيَتِهِ يَتَمَلَّمُ تَمَلُّمَ السَّلِيمِ
وَيَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ وَهُوَ يَقُولُ:

« يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا إِلَيْكَ عَنِّي أَبِي نَعَرَضْتُ أُمَّ إِلَيَّ تَشَوَّقْتُ لِأَحَانِ حِينِكَ هَيْهَاتَ غُرِّي
غَيْرِي»^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد مجموعة أخرى من التسميات التي كان العرب يعرضون عنها
ومنها (قولهم للأعور تمتع كأنهم أرادوا أنه قد تمتع ببقاء إحدى عينيه ولم يحرم
ضوءهما معا.

ومن كناياتهم على العكس قولهم للأسود يا أبا البيضاء وللأسود أيضا يا كافور
وللأبيض يا أبا الجون وللأقرع يا أبا الجعد)^(٣).

وفي حديث الأعشى مع علقمة بن علاثة ذكر ابن أبي الحديد أنّ صاحب الأعشى
عندما نظر إلى قباب الأدم قال (وا سوء صباحاه يا أبا بصير هذه والله أبيات علقمة)^(٤)،
 والمعروف أنّ الأعشى كان أعمى لذلك كانت العرب تُسمي الأعمى بصيراً.

(١) شرح نهج البلاغة، ٤٥/٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٧٩/١٨.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٤٦/٥.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٦٦/١٨.

وأصلهم في التطير أنّ الطيّرة من زجر الطيور ومراقبة حركاتها، فقد ذكر الجاحظ أنّ (زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير، ثمّ استعملوا ذلك في كلّ شيء)^(١).

يبدو أنّ مجتمع عرب ما قبل الإسلام قد ربطوا الطير بما يخافون من وقوعه ولهذا كان قريناً للموت وللمجهول وللحظ، وأنّ هذا الربط قد جاءهم من ملاحظتهم أنّ للطائر قدرة متفوقة للوصول إلى أماكن مجهولة وأنهم عاجزون بوسائلهم البسيطة عن أن يروا ما يرى ويعرفون ما يعرف، فخاصية الطيران جعلت الطير قادراً على الوصول إلى أماكن لا يستطيع إنسان ذلك العصر أن يصل إليها، لذلك هم نسبوا للطير معرفة فوق معرفتهم وتصوروا أنّ الاحداث التي تتعلق بمصائرهم تأتيهم مع هذه المعرفة القادمة مع الطير من المجهول، إذ يوحي للإنسان الذي ربط مصيره به بأحد الأمرين القادمين معه من المجهول الخير أم الشر وعلى هذا بنى العرب فكرة التطير أو عياقة الطير^(٢).

وكان أحدهم إذا أراد الخروج أو السفر نظر حتى يرى طائراً يطير فيزجر سنوحه أو بروحه^(٣)، وكان العرب يختلفون في ذلك (أهل نجد كانوا يتشاءمون بالبوارح وغيرهم من العرب تتشاءم بالسائح وتتمن بالبارح)^(٤). ومنهم من لا يرى ذلك شيئاً، إذ ذكر

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق ابراهيم شمس الدين، مؤسسة الاعلمي، بيروت ٢٠٠٣م، مج ١، ٤/٥٩٠.

(٢) الرباعي، عبد القادر، الطير والمعتقد في الشعر الجاهلي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مج ٨، العدد ٢٩، ١٩٨٨، ص ١٣٦.

(٣) السائح ما مرّ من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك والعرب تتيمّن به لأنه أمكن للرّمّي، والصيد والبارح ما مرّ من يمينك إلى يسارك والعرب تتطير به لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تحرف، ينظر ابن الاثير، مجد الدين أبي السعادات المبارك الشيباني (ت ٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، ط ٤، مؤسسة اسماعيليان (قم ١٣٦٥)، ١/١١٤.

(٤) الاصفهاني، الاغانى، مج ٤، ١١/٢٤٧.

ابن أبي الحديد قول أحدهم^(١):

لا ينعك من بُغَاء
ولقد غدوت وكنت لا
فإذا الأشائم كالأيامن
وكذاك لا خير ولا
الخير تعقأذ التمائم
أغدو على واقٍ وحاتم
والأيامن كالأشائم
شر على أحد بدائم^(٢)

فإذا لم يرَ طيراً عمد إلى الطير الواقف على الشجر فحركه ليطير ثم ينظر إلى أي جهة يأخذ فإذا طار على يمينه تيمن به واستمر وإن طار على يساره تشاءم به ورجع^(٣).

كانت العرب قبل الإسلام يتطيرون من أنواع معينة من الطيور أبرزها الغراب ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا من اسمه الغربية، والاغتراب، والغريب، واعتبروا أكل لحمه عاراً لأنه يأكل الجيف والقاذورات، قال وَعَلَّةَ الجَرْمِي:

فما بالعار ما عيرئموننا
فما لحم الغراب لنا بزاد
شواء الناهضات مع الخبيص
ولا سَرَطَانُ أنهارِ البريص^(٤)

(١) الابيات نسبت إلى المرقش، ينظر المرقش، عمرو بن سعد بن مالك (ت ٥٧ ق.هـ)، ديوان المرقشين، تحقيق = كارين صادر، دار صادر، (بيروت ١٩٩٨م)، ص ٧٥-٧٧؛ ابن قتيبة، محمد بن عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦)، تأويل مختلف الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص ١٠٠، مع اختلاف بسيط بين مانقله ابن أبي الحديد وما موجود في الديوان، إذ ورد البيت الأول عند ابن أبي الحديد بالشكل الآتي:

* لا يقعدنك عن بغاء
الخير تعقأذ العزائم

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٠٦/١٩.

(٣) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط ٢، جامعة بغداد، ١٩٩٣، ٧٨٩/٦.

(٤) الجاحظ، الحيوان، مج ١، ٥٩٨/٣.

واختلفت نظرة العرب للغراب من حيث التطير والتفاؤل فبعضهم يتطير من الغراب إذا صاح صيحة واحدة فإذا ثنى تفاءلت به وبعضهم ربطه بالكلمات فإذا صاح مرتين فهو شر، وإذا صاح ثلاث مرات فهو خير على قدر عدد الاحرف^(١).

ومن خلال هذه الروايات نستنتج أنّ العرب ليس لديهم قاعدة خاصة للتطير بل كل مجموعة تنظر لتأثير الطير حسب فهمها لطبيعة الاحداث السيئة والجيدة وقد جعلوا الغراب مادة للكثير من المواقف، فهذا أحد الشعراء يقول:

إذا حلّت بنو ليث عكاظا رأيت على رؤوسهم الغرابا^(٢)

وهو بهذا الوصف الجميل يعبر عن مدى تشاؤمه من رؤية قوافل بني ليث قادمة إلى سوق عكاظ - وهو على خلاف معهم - وتوقع أن يكون قدومهم يحمل معه الاحداث السيئة والشريرة وكأنه ربط بين شر ما يحملون والجانب السيئ الذي حمله بداخله لحقيقة وصورة الغراب وتطيره منه.

ومن الطيور الأخرى التي كان يتشاءم منها مجتمع قبل الإسلام البومة، وذكر جواد علي أنّ منظرها الكئيب وصوتها الحزين وظهورها في الليل، والليل هو رمز الشر، سبب في النظرة السيئة التي كان يراها العرب لها فوصفوها (أم الخراب) و(أم الصبيان)^(٣).

وكذلك تطيروا بالجمال (إذا رأى الجمل موقراً حملاً تشاءم فإن رآه واضعاً حمله

(١) الجاحظ، الحيوان، مج ١، ٥٩٨/٣.

(٢) الزمخشري، ابو القاسم جار الله محمد بن عمر (ت ٥٣٨)، الفائق في غريب الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت (١٩٩٦)، ١٢/١.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٧٩٧/٦.

تيمّن^(١).

لعلهم هنا يقصدون الرحيل فالسفر والترحال وترك الديار هي مواقف تبعث الحزن والفراق فهم ينظرون لأبعاد تلك المواقف وصفاتها، فهم يتطيرون (من الجراداة ذات ألوان)^(٢) لأنهم يعتقدونها كحوادث الزمان متعددة ومتغيرة، ويتطيرون من الشور الاغضب (المكسور القرن)، ومن الحية والثعلب، فلحركات هذه الحيوانات ولأصواتها أثر في التنبيه بوقوع الشر^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد من عادات العرب قبل الإسلام التشاؤم بالعطاس.

قال امرؤ القيس:

وقد اغتدى قبل العطاس بهيكلٍ شديدٍ مشكُ الجنبِ فعم المنطق^(٤)

وقال آخر:

وخرق إذا وجهت فيه لغزوة مضيت ولم يجسك عنه العواطس^(٥)

واشتهر عند العرب التطير بالمرأة والدار والفرس، فروي عن السيدة عائشة أن رجلين من بني عامر دخلا عليها فقالا إن أبا هريرة قال إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ١٠/١٨٠.

(٢) الجاحظ، الحيوان، مج ١، ٣/٥٩.

(٣) الألويسي، بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب، ٢/٣٣٨.

(٤) امرؤ القيس، بن حجر بن الحارث الكندي (ت ٥٦٥ م)، الديوان، مطبعة كرم، دمشق، (د.ت)، ص ٩٠، وكان ابن أبي الحديد قد ذكر الشطر الأول فقط من البيت في شرحه * وقد اغتدى قبل العطاس بهيكل.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٣٣.

قال: (الطَّيْرَةُ فِي الْفَرَسِ وَالْمَرْأَةِ وَالذَّارِ) فغضبت غضباً شديداً وقالت ما قاله وإنما قال:

«إِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَتَطَيَّرُونَ مِنْ ذَلِكَ»^(١).

وكانوا يتشاءمون من الافراس بالاشقر وكانوا يذبحون ذبيحة أو عدة ذبائح عند زفاف العروس إلى بعلها أو وصولها عتبة بيته طرداً للأرواح الشريرة وإرضاء لها كما جرت العادة بذبح الذبائح حين الانتقال إلى دار جديد أو حين الشعور بوجود أرواح فيها ويقال لهذه الذبائح (ذبائح الجان)^(٢).

وأورد ابن أبي الحديد في شرحه مجموعة من الأبيات الشعرية التي تحتوي على أشياء أخرى تطير العرب منها:

وأمنع الياسمين الغض من حذري عليك إذ قيل لي نصف اسمه ياس

وقال آخر:

أهدت إليه سفر جلا فتطيرا منه وظل مفكرا مستعبرا
خوف الفراق لأن شطر هجائه سفر وحق له بأن يتطيرا

وقال آخر:

يا ذا الذي أهدى لنا سوسنا ما كنت في إهدائه محسنا

(١) ابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧)، دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه، تحقيق حسن السقاف، ط ٣، دار الإمام النووي، (الاردن ١٩٩٢) ص ٣٧؛ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ٤٦/٦.

(٢) المفصل في تاريخ العرب، ٧٩٨/٦.

نصف اسمه سو فقد ساءني يا ليت إنني لم أر السوسنا

ومثله :

لا تراني طوال دهري أهوى الشقــــــــــــــــائقا
إن يكن يشبه الخدود فنصف اسمه شقا^(١)

على الرغم من أن التطير كان معتقداً عاماً في حياة العرب قبل الإسلام وسيطر على عقول الناس واستسلموا له إلا أننا نرى أن هناك نماذج أخرى رفضت الانقياد لتلك المخاوف وقررت المواجهة وأظهروا شجاعة وقوة في الخروج عليه، فذكر ابن أبي الحديد أن النابغة الذبياني^(٢) خرج للغزو واسمه زياد مع زبان بن سيار الفزاري فلما أراد الرحيل سقطت عليه جرادة فتطير وقال ذات لونين تجرد، غري من خرج، فأقام ولم يلتفت زبان إلى طيرته فذهب ورجع غانماً فقال^(٣) :

يلاحظ طيره أبداً زياد لتخبره وما فيها خبير
أقام كان لقمان بن عاد أشار له بحكمته مشير
تعلم إنه لا طير إلا على متطير وهو الثبور

(١) شرح نهج البلاغة، ٣١٠/١٩.

(٢) زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة، شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز. كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها. قيل انه كان من أحسن شعراء العرب ديباجة، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً، كان شعره كلاماً ليس فيه تكلف، وعاش عمراً طويلاً، ينظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٧٥؛ الزركلي، الاعلام، ٥٤/٣.

(٣) الذبياني، النابغة زياد بن معاوية بن ضباب (ت نحو ٦٠٤ م)، الديوان، جمعه وشرحه الطاهر بن عاشور، ط ٢، الشركة التونسية للتوزيع، (تونس ١٩٨٦)، ص ٥٦.

بلى شيء يوافق بعض شيء أحياناً وباطله كثير^(١)

وقال بعض العرب خرجت في طلب ناقة ضلّت لي فسمعت قائلاً يقول:

ولئن بعثت لها بغاة فمما البغاة بواجدين

لم أتطير ومضيت لوجهي فلقيني رجل قبيح الوجه به ما شئت من عاهة فلم أتطير
وتقدمت فلاحت لي أكمة فسمعت منها صائحا: والشر يلقي مطالع الأكم، فلم أكثرث
ولا اثنت وعلوتها فوجدت ناقتي قد تفاجت للولادة فنتجتها وعدت إلى منزلي بها
ومعها ولدها^(٢)، قال مزرد بن ضرار^(٣):

وإني امرؤ لا تقشعر ذؤابتي من الذئب يعوي والغراب المحجل^(٤)

على الرغم من أنّ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن التطير في
وصاياه، ومنها قوله عندما ذُكرت عنده الطيرة:

«من عرض له في هذه الطيرة شيء فليقل اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك
ولا إله غيرك ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٠٧/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة ٣٠٧/١٩.

(٣) مزرد بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذيباني الغطفاني (ت ١٠ هـ)، فارس شاعر جاهلي، له أشعار شهيرة
أدرك الإسلام في كبره وأسلم، كان هجاءً في الجاهلية، خبيث اللسان، حلف لا ينزل به ضيف إلا هجاه، ينظر
ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ٦٨/٦؛ الزركلي، الاعلام، ٢١١/٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٣١٠/١٩.

(٥) شرح نهج البلاغة، ٣٢٢/١٨؛ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ١٨١/١٠.

إلا أن المجتمع انقاد إلى تلك العادات والتقاليد ولم يتخلص منها إلى يومنا هذا، إذ مازال الناس يتطيرون من صوت البومة والعطاس وغيرها من العادات العالقة في أذهانهم على مر العصور.

والفأل من العادات الاجتماعية الجيدة وهو ضد الطيرة^(١)، والفرق بينه وبين الطيرة، أنّ الفأل تقوية للعزيمة، وإطماع في النية؛ والطيرة تكسر النية، وتصد عن الوجهة، وتثني العزيمة، وفي ذلك ما يعطل الإحالة على المقادير^(٢).

كان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يحب الفأل الصالح من حديثه:

«لا عدوى^(٣) ولا طيرة وأحب الفأل الصالح».

وإنما أحبّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم الفأل لأنّ الناس إذا أمّلوا فائدة الله ورجوا عائده عند كل سبب ضعيف أو قوي فهم على خير^(٤).

ذكر ابن أبي الحديد أن الرجل منهم كان إذا ضلّ في فلاة قلب قميصه وصفق بيديه كأنه يومئ بهما إلى إنسان فيهتدي، قال أعرابي:

(١) لسان العرب، ٧/٧، مادة (فأل).

(٢) ابن رشيق، أبو علي الحسن بن محمد القيرواني الأزدي (٤٥٦هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٣، مطبعة السعادة، (مصر ١٩٦٤)، ٢/٢٥٩.

(٣) والعدوى هي الجذام وقيل للرسول صلى الله عليه وآله وسلم: إن النقبة تقع بمشفر البعير، فيجرب لذلك الإبل. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«فما أعدى الأول»**. والنقبة تكون بالبعير، وهو جرب رطب، فإذا خالط الإبل أو حاكها وأوى في مباركها، وصل إليها بالماء الذي يسيل منه وبالنطف، نحو ما به، ينظر ابن قيم الجوزية، شمس الدين بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، (ت ٧٥١)، الطب النبوي، تحقيق عبد الغني عبد الخالق وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص ١١٨.

(٤) مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ)، صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ٣٣/٧، ابن منظور، لسان العرب، ٧/٧.

وترمي برحلي نحو كل سبيل
وأبصرت قصداً لم يصب بدليل

قلبت ثيابي والظنون تجول بي
فلأيا بلأبي ما عرفت جليتي

وقال أبو العمّس الطائي:

أصفق بالبنان على البنان
وأصرخ تارة بأبي فلان
من الجنان خالعة العنان

فلو أبصرتني بلوى بطن
فأقلب تارة خوفار دائي
لقلت أبو العمّس قد دهاه

والأصل في قلب الثياب التفاؤل بقلب الحال^(١).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ العرب إذا خرجوا إلى الأسفار أوقدوا ناراً بينهم وبين المنزل الذي يريدونه ولم يوقدوها بينهم وبين المنزل الذي خرجوا منه تفاؤلاً بالرجوع إليه^(٢). وكانوا يتفاءلون بالآس لدوامه ويتطيرون من النرجس لسرعة انقضائه ويسمونهم الغدار، قال العباس بن الأحنف^(٣):

بالنرجس الغدار ما أنصفا
وفيت إن الآس أهل الوفا^(٤)

إن الذي سماك يا منيتي
لو أنه سماك بالآسة

(١) شرح نهج البلاغة، ١٨/٣٢٢.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٢٨.

(٣) العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي، أبو الفضل، شاعر غزل رقيق جميع شعره في الغزل، لا يوجد في ديوانه مديح، وكان أغزل الناس. أصله من اليمامة (في نجد)، وكان أهله في البصرة، ونشأ هو ببغداد، وتوفي بها، وقيل بالبصرة، ينظر ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٢٠/٢ وما بعدها؛ الذهبي، سير اعلام النبلاء، ٩٨/٩؛ الزركلي، الاعلام، ٣/٢٥٩.

(٤) ابن الاحنف، العباس (ت ١٩٢ هـ)، الديوان، شرح وتعليق عاتكة الخزرجي، مكتبة دار الكتب المصرية، (القاهرة ١٩٥٤)، ص ١٩٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩/٣١٠.

ومما تفاءلوا به قولهم للفلاة^(١) التي يظن فيها الهلاك مفازة اشتقاقاً من الفوز وهو النجاة وقال بعض المحدثين:

أحب الفأل حين رأى كثيراً
فسماه لقلته كثيراً
أبوه عن اقتناء المجد عاجز
كتلقيب المهالك بالمفاوز^(٢)

ثالثاً: البلية والعقر على القبور:

البلية: ذكر ابن أبي الحديد أن البلية هي ناقة تعقل عند القبر (إذا مات منهم كريم بلو ناقته أو بعيره فعكسوا عنقها وأداروا رأسها إلى مؤخرها وتركوها في حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت وربما أحرقت بعد موتها وربما سلخت وملئ جلدتها ثماماً^(٣) وكانوا يزعمون أن من مات ولم يبيل عليه حشر ماشياً ومن كانت له بلية حشر ركباً على بليته^(٤).

قال جريرة بن الأشيم الفقعسي^(٥) لابنه:

يا سعد إما أهلكنَّ فإني
لا تتركنَّ أباك يعثرُ راجلاً
أوصيك إن أخوا الوصاة الأقربُ
في الحشرِ يصرعُ لليدين وينكبُ

(١) الفلاة: القفر من الأرض لأنها فُليت عن كل خير أي فُطمت وعُزلت وقيل هي التي لا ماء فيها وقيل هي الصحراء الواسعة والجمع فلاً وفلوات، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ١٢٦/٧، (مادة فلا).

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٢٨/١٩.

(٣) الثمام: نبت معروف في البادية ولا تجده النعم إلا في الجدوبة، ينظر، ابن منظور، لسان العرب، ٤٥/٢، مادة ثم.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٣١٦/١٩.

(٥) جريرة بن الأشيم بن عمرو بن وهب بن دثار بن فقعس، هو شاعر مخضرم عاش الشطر الأكبر من حياته في الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم، من فرسان بني أسد، بلغ مجموع شعره واحداً وثلاثين بيتاً، ينظر ابن الأشيم، جريرة، ديوان بني أسد أشعار الجاهلين والمخضرمين، جمع وتحقيق محمد علي دقة، دار صادر، (بيروت ١٩٩٩)، ٤٣٤/٢.

واحمل أباك على بعير صالح
ولعل لي مما جمعت مطية
وابغ المطية إنه هو أصوبُ
في الحشرِ أركبها إذا قيل اركبوا^(١)

ومما ورد عن العرب في البلية قول بعضهم:

أبني زودني إذا فارقتني
للبعث أركبها إذا قيل اركبوا
في القبر راحلة برحل فاتر
مستوثقين معا لحشر الحاشر^(٢)

وقال عويم النبهاني:

أبني لا تنسى البلية إنَّها
لأبيك يوم نشوره مركوب^(٣)

من خلال قراءتنا لتلك الروايات يتجلى لنا أن العرب كان عندهم اعتقاد بوجود الحياة بعد الموت وكانوا يضعون إلى جانب موتاهم حاجات يحتاجونها في حياتهم الأخرى فعثر في مقابر أهل اليمن وجنوب الجزيرة العربية على حلي وأحجار ثمينة وغيرها مدفونة مع موتاهم وكانوا يخلقون شعورهم أو بعضها ويرمونها على القبر، وحلق الضفيرتين تعظيماً، كما كانوا يفعلون مع الآلهة في مواسم الحج^(٤).

(١) ابن الاشيم، جربية، ديوان بني أسد اشعار الجاهلين والمخضرمين، ٤٣٧/٢ - ٤٣٨؛ وقد ذكر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣١٦/ ١٩، الأبيات مع بعض التغير في بعض المفردات غير أن البيت الثاني فيه تغييرات كثيرة، إذ ورد عند ابن أبي الحديد بالشكل التالي: * لا أعرفن أباك يحشر خلفكم تعبا يجر على اليدين وينكب .

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣١٨/ ١٩ .

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣١٨/١٩ .

(٤) عرفة، العرب قبل الإسلام، ص ٣٢٠ .

وكانوا يعقرون عند القبور، قال زياد الأعجم في المغيرة بن المهلب^(١):

إن السماحة والمروءة ضمنا
قبراً بمرور على الطريق الواضح
فإذا مررت بقبره فاعقر به
كوم الهجان وكل طرف سابح^(٢)

وذكر الآلوسي أنّ العرب اختلفوا في سبب عقرهم الإبل على القبور فقال قوم إنهم كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره من الإبل في حياته وبنحره للأضياف واحتجوا بقول الشاعر:

وانضح جوانب القبر بدمائها
فلقد يكون أحادم وذباح

ومن قال إنّما كانوا يفعلون ذلك إعظاماً للميت كما كانوا يذبحون للأصنام، وقيل إنهم كانوا يفعلونه لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى إذا بليت فكأنهم يثأرون لهم منها، وقيل إن الإبل أنفست أموالهم فكانوا يريدون بذلك أنّها قد هانت عليهم لعظم المصيبة^(٣). وقد أبطلت الشريعة العقر بمحدث الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، أبو فراس (ت ٨٢ هـ - ٧٠١ م)، أمير، من شجعان العرب المعدودين وكان من أبرع ولد المهلب وأوفاهم وأعفهم وأسخاهم، استخلفه أبوه على (خراسان) فمات فيها، وكان المهلب يقول: ما شهد معي حرباً قط إلا رأيت البشر في وجهه، ينظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٦٥/١٤؛ الزركلي، الاعلام، ٢٧٨/٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣١٧/١٩؛ للاطلاع على تفاصيل الابيات وقصتها ينظر ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي (ت ٥٧١ هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق علي شبري، دار الفكر، (بيروت ١٤١٥ هـ)، ١٤٩/١٩؛ الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤ هـ) فوات الوفيات، ٤١٧/١.

(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣١٠/٢.

«لا عقرب في الإسلام»^(١).

وقد اختلط الأمر عند بعضهم فلم يفرقوا بين البلية والعقرب على القبور، وانتقد ابن أبي الحديد هذا الخلط عند ذكره أبيات جريبة بن الاشيم:

فمن مبلغ عني يساراً ورافعاً
وإن أنت لم تعقر علي مطيتي
وأسلم إن الأوهنين الأقاربُ
فلا قام في مال لك الدهر حالبُ
فلا تدفني في ضرا وأدفنتني
الفلاة تنزو على الجنادب^(٢)

والتي ذكرها الخالغ^(٣) في كتابه المفقود (في آراء العرب وأديانها)، والذي كان يعتقد أنّ هذه الأبيات تؤيد ما ذهب إليه في البلية بأنها كانت تعقر للميت، أما ابن أبي الحديد فقد ذهب مذهباً آخر خالف فيه هذا الرأي منتقداً إياه، إذ قرر أنّ هذه الأبيات ليس لها دلالة على هذا المعنى وليس لها تعلق به، وإنما هي وصية لولده أن يعقر مطيته بعد موته، إما لكيلا يركبها غيره بعده، أو على هيئة القربان كالمهدي المعقور بمكة، أو كما كانوا يعقرون عند القبور، ومذهبهم في العقرب على القبور مشهور، وليس في هذا الشعر ما يدل على مذهبهم في البلية، فإن ظن ظان أن قوله أو يفوز راكب فيه إيماء إلى ذلك

(١) السيوطي، الجامع الصغير، ٧٥/٢.

(٢) بن الاشيم، جريبة، ديوان بني أسد ٤٣٩/٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣١٦/١٩، والبيت الأول لم يذكره ابن أبي الحديد، إنما ذكر بدلاً عنه بيتاً لم أجده في الديوان وهو:

* إذا مت فادفني بجداء ما بها سوى الأصرخين أو يفوز راكب

(٣) الحسين بن أبي جعفر بن محمد الخالغ الرافقي (ت ٤٢٢ هـ)، أديب، له شعر حسن. يقال إنه من ذرية معاوية بن أبي سفيان. أصله من الرافقة (بليدة كانت ملاصقة للرقعة، على الفرات، وقرية في البحرين، ولعله كان من الأولى) وسكن بغداد وله من المصنفات كتاب الشعراء وكتاب المواصلة والمفاصلة وكتاب الأمثال وكتاب الأودية والجبال وكتاب الرمال وكتاب تحييلات العرب وتفسير شعر أبي تمام وصناعة الشعر وغير ذلك، ينظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١٠٦/٨؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ٢١٤/١٢؛ الزركلي، الأعلام، ٢٥٤/٢.

فليس الأمر كما ظنه، ومعنى البيت ادفني بفلاة جداء مقطوعة عن الإنس ليس بها إلا الذئب والغراب أو أن يعتسف راكبها المفازة وهي المهلكة سموها مفازة على طريق الفأل، وقيل إنها تسمى مفازة من فوز أي هلك فليس في هذا البيت ذكر البلية، ولكن الخالغ أخطأ في إيراده في هذا الباب كما أخطأ في إيراده قول مالك بن الربيع:

وعطلّ قلوصي في الركاب فإنها ستبرد أكبادا وتبكي بواكيا

فظن أنها من باب البلية ولم يرد الشاعر ذلك وإنما أراد لا تركبوا راحلتي بعدي وعطلوها بحيث لا يشاهدها أعدائي وأصدقائي ذاهبة جائية تحت راكبها فيشمت العدو ويساء الصديق^(١).

رابعاً: الرُّقِي:

الرُّقِيَّة: العُوذَةُ التي يُرْقَى بها صاحبُ الآفَةِ كالحُمَى والصَّرَع وغير ذلك من الآفات قال رُوْبَةُ:

فما تَرَكا مِن عُوذَةٍ يَعْرِفانها ولا رُقِيَّةٍ إِلَّا بِها رَقِياني^(٢)

وهي من أشهر عادات العرب الاجتماعية في مداواة الامراض المستعصية ويتم ذلك بقراءة شيء على المريض ثم النفث عليه، لم يمنع الإسلام الرُّقِي بل شدد عليه، ذكر عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلت يا رسول الله ما ترى في ذلك فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٣١٧.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٤ / ١٦٦، (مادة رقا).

«أعرضوا على رقاكم فلا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك»^(١).

كأنه خاف أن يقع فيها شيء مما كانوا يتلفظون به ويعتقدونه من الشرك في الجاهلية وما كان بغير اللسان العربي مما لا يعرف له ترجمة ولا يمكن الوقوف عليه فلا يجوز استعماله، وقد أمر صلى الله عليه وآله وسلم غير واحد من أصحابه بالرُّقيةِ وسَمِعَ بجماعة يرُقون فلم يُنكِرْ عليهم^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد إن الرجل منهم إذا أراد دخول قرية فخاف وباءها أو جنَّها وقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق نهيق الحمار ثم علق عليه (كعب أرنب) كان ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن ويسمون هذا النهيق (التعشير) قال شاعرهم:

ولا ينفع التعشير أن حمَّ واقع
ولا زعزع ولا كعب أرنب^(٣)

وعلى الرغم من التزام العربي بتلك العادات والتقاليد إلا أنه في داخله كان رافضاً لها ويحمل في داخله المقت للكثير منها لأنها لا تتلائم مع عقليته البدوية الراضية لكل سبل الجزع من الموت، فذكر ابن أبي الحديد أن عروة بن الورد خرج إلى خيبر في رفقة فلما قربوا منها عشروا ورفض عروة أن يفعل فعلهم وقال:

(١) الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي (ت ٣٢١ هـ)، شرح معاني الآثار، تحقيق محمد زهري النجار، ط ٣، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٦)، ٤/٣٢٨؛ ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد السبتي، (ت ٣٥٤ هـ)، صحيح ابن حبان، بترتيب ابن بلبان الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت ٧٣٩ هـ)، تحقيق شعيب الارناؤوط، ط ٢، مؤسسة الرسالة، (بيروت ١٩٩٣)، ١٣/٤٦١؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٣٠٥/١٩.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٤/١٦٧، (مادة رقا).

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣٢١/١٩.

وقالوا أحب وأنهق ولا تضرك خيبر
ولعمري لئن عشت من خشية الردى
فلا وألت تلك النفوس ولا أتت
وذلك من دين اليهود ولوع
نهاق حمير إنني لجزوع
على روضة الأجداد وهي جميع^(١)

الولوع: بالضم الكذب، ولع الرجل إذا كذب، فيقال إن رفقته مرضوا ومات بعضهم ونجا عروة من الموت والمرض^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ من رقاهم للحب: (هوابه هوابه، البرق والسحابه، أخذته بمركن، فحبه تمکن، أخذته بإبره، فلا يزل في عبره، خليته بإشفى، فقلبه لا يهدا، خليته بمبرد، فقلبه لا يبرد)^(٣)، وترقي الفارك^(٤) زوجها إذا سافر عنها فتقول: (بأفول القمر، وظل الشجر، شمال تشمله، ودبوره تدبره، ونكباء تنكبه، شيك فلا انتعش، ثم ترمي في أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة وتقول: حصاة حصت أثره، نواة أنأت داره، روثة راث خبره، لقعته ببعرة)^(٥).

وذكر ابن أبي الحديد مجموعة من الأبيات الشعرية منها قول فارك في زوجها:

أتبعته إذ رحل العيس ضحى
بعد النواة روثة حيث انتوى
الروث للرشى وللنأي النوى

(١) ابن الورد، عروة (ت ٦١٦ م)، الديوان، تحقيق أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٨)، ص ٨٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٢١/١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣٤٧/١٩.

(٤) والفرك: بالكسر البغضة عامة، وقيل الفرك بغضة الرجل لامرأته، أو بغضة امرأة للرجل وهو أشهر، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٦٧/٧، (مادة فرك).

(٥) شرح نهج البلاغة، ٣٤٧/١٩.

وقال آخر:

رمت خلفه لما رأته وشك بينه
وقالت نأت منك الديار فلا دنت
وحصت لك الآثار بعد ظهورها
نواة تلتها روثة وحصاة
وراثت بك الأخبار والرجعات
ولا فارق الترحال منك شتات^(١)

وعلى الرغم من أن التعويذة تستخدمها المرأة الفارك المبغضة لزوجها لتتال منه - كما هو واضح من قراءتنا للروايات السابقة - إلا أن بعضهم أراد استخدامها بعكس معناها، فذكر ابن أبي الحديد قول أحدهم يخاطب امرأته:

لا تقذفي خلفي إذا الركب اغتدى
لن يدفع المقدار أسباب الرقى
روثة عير وحصاة ونوى
ولا التهاويل على جن الفلا

وقد تنبه ابن أبي الحديد إلى ذلك وانتقد استخدام هذا الرجز للدلالة على رقي المرأة الفارك فقال (هذا الرجز أورده الخالغ في هذا المعرض، وهو بأن يدل على عكس هذا المعنى أولى، لأن قوله (لن يدفع المقدار بالرقى ولا بالتهاويل على الجن)، كلام يشعر بأن قذف الحصاة والنواة خلفه كالعوذة له لا كما تفعله الفارك التي تتمنى الفراق)^(٢).

وقد استخدم العرب الخرز لاعتقادهم أنّ لها أثراً في إصلاح أمرهم من اجتذاب الخير ودفع المكروه ولاسيما المرأة التي كانت تقرأ عليها كلمات أعدها السحرة لهن^(٣).

وقد ذكر ابن أبي الحديد أهم تلك الخرزات ومنها:

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٤٨/١٩.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٤٨/١٩.

(٣) عرفة، العرب قبل الإسلام، ص ٢٠٨.

السلوانة ويقال السلوة وهي خرزة يسقى العاشق منها فيسقلو في زعمهم وهي بيضاء شفافة قال الراجز:

لو أشرب السلوان ما سليت ما بي غنى عنكم وإن غنيت

السلوان جمع سلوانة وقيل السلوانة تراب من قبر يسقى منه العاشق فيسقلو^(١).

ويبدو أنّ السلوانة ليست خرزة إنما هي تراب يدا ف بالماء ثم يسقى منها العاشق كما هو واضح من الرواية.

ومن الخرز الاخرى التي ذكرها ابن أبي الحديد الهنمة وتستخدم لتعطف قلوب الرجال ورقيتها، (أخذته بالهنمة، بالليل زوج وبالنهارة أمه). والفطسة والقبلة والدرديس كلها لاجتلاب قلوب الرجال قال الشاعر:

جمعن من قبل لهن وفطسة والدرديس تئاتما في منظم
فانقاد كل مشذب مرس القوى لخبالهن وكل جلد شيزم

وقيل الدرديس خرزة سوداء تحبب بها النساء إلى بعولتهن توجد في القبور العادية ورقيتها (أخذته بالدرديس، تدر العرق اليبس، وتذر الجديد كالدريس)^(٢).

ومن خرزاتهم القرزحلة وهي من خرز الضرائر إذا لبستها المرأة مال إليها بعلمها دون ضررتها. ومنها خرزة العقرة تشدها المرأة على حقوبها فتمنع الحبل ومنها الينجلب ورقيتها (أخذته بالينجلب فلا يرم ولا يغب ولا يزل عند الطنب)، ومنها كرار مبنية

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٤٦/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٤٦/١٩.

على الكسر ورقيتها (يا كرار كرية إن أقبل فسريه وإن أدبر فضريه من فرجه إلى فيه)، ومنها الهمرة ورقيتها (يا همرة اهمريه من استه إلى فيه وماله وبنيه)، ومنها الخصمة خرزة للدخول على السلطان والخصومة تجعل تحت فص الخاتم أو في زر القميص أو في حمائل السيف، ومنها الوجيهة وهي كالخصمة حمراء كالعقيق. ومنها العطفة خرزة العطف والكحلة خرزة سوداء تجعل على الصبيان لدفع العين عنهم والقبلة خرزة بيضاء تجعل في عنق الفرس من العين والفظسة خرزة يمرض بها العدو ويقتل ورقيتها (أخذته بالفظسة، بالثوباء والعطسة، فلا يزال في تعسة، من أمره ونكسة، حتى يزور رمسه)^(١).

خامساً: تخيلاتهم في السفر:

ذكر ابن أبي الحديد مجموعة من الروايات عن عادات العرب وتقاليدهم في السفر منها أنهم كانوا يزعمون (أن المسافر إذا خرج من بلده إلى آخر فلا ينبغي له أن يلتفت فإنه إذا التفت عاد فلذلك لا يلتفت إلا العاشق الذي يريد العودة)^(٢).

قال بعضهم:

دع التلُفَتَ يا مسعود وأرم بها وجه الهواجر تأمن رجعة البلد

وقال آخر أنشده الخالغ:

عِـلَ صـبـري بالثعلبية لما طال ليلي وملني قرنائي
كلما سارت المطايا بنا ميلا تنفست والتفتُ ورائي^(٣)

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٤٧/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٣٠/١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣٣٠/١٩.

وعلى الرغم من أن البيتين ذكرهما الخالع في كتابه ضمن تخيلات العرب في السفر والتفاؤل بالالتفاف لمن يحب بالعودة إلا أن ابن أبي الحديد اعترض على ذكرهما ضمن هذا الباب وعذره بأن الأبيات تدل على كثرة الشوق والتأسف على المفارقة وكون الراحل عن المنزل حيث لم يمكنه المقام فيه بجثمانه يتبعه بصره ويتزود من رؤيته، ويبدو أن ابن أبي الحديد قد ذهب بعيداً في اعتراضه، لأن ظاهر البيتين يمكن أن يدلان على فراق الحبيبة والديار والرغبة بالعودة وعدم تركهما، ولعل كثرة التفاتة دلالة على تفاؤله بالعودة كما كان يعتقد العرب.

ومن عاداتهم الأخرى التي ذكرها ابن أبي الحديد (أنهم كانوا يوقدون النار خلف المسافر الذي لا يحبون رجوعه يقولون في دعائهم "أبعده الله وأسحقه وأوقد ناراً أثره")^(١).

وذكر ابن أبي الحديد أيضاً أنهم (كانوا إذا خرجوا إلى الأسفار أوقدوا ناراً بينهم وبين المنزل الذي يريدونه ولم يوقدوها بينهم وبين المنزل الذي خرجوا منه تفاؤلاً بالرجوع إليه)^(٢).

ولعل تقديسهم للنار وولعهم بها جعلتهم يعتقدون بأن لها تأثيراً في عوارض الأحداث لديهم لأنها تمثل جزءاً من حياتهم، حتى القرآن الكريم حين خاطبهم قال:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾^(٣).

وكانت النار تستخدم عند العرب في العديد من عاداتهم وتقاليدهم فمنها: (نار القرى) وهي نار تستخدم لاستدلال الاضياف بها إلى المنزل، و(نار الضيافة) وكانوا

(١) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٢٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٢٨.

(٣) سورة الواقعة: الآية ٧١.

يوقدونها على الاماكن المرتفعة لتكون أشهر^(١)، ونار أخرى هي (نار التحالف) التي توقد عند التحالف؛ فلا يعقدون حلفهم إلا عندها، فيذكرون عند ذلك منافعها، ويدعون بالحرمان والمنع من منافعها، على الذي ينقض عهد الحلف، ويخيس بالعهد. وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم، ويهولون على من يخاف عليه الغدر، بحقوقها ومنافعها، والتخويف من حرمان منفعتها، قال الكُميت:

كهُولَة ما أوقد المحلُفون للحالفين وما هُولوا^(٢)

و(نار الأهبة) للحرب، وكانوا اذا توقعوا جيشاً أوقدوا نارا على جبلهم ليبلغ الخبر أهليهم أو أصحابهم فيأتونهم و(نار الغدر) كانوا إذا غدر الرجل بجاره أوقدوا النار بمنى أيام الحج على أحد الاخشبين^(٣) ثم صاحوا هذه غدره فلان ليحذر الناس^(٤)، و(نار الحباحب)، ويقال أيضا أنجل من نار أبي حباحب ومن حديثه أنه كان رجلاً من العرب فى سالف الدهر بخيلاً لا توقد له نار بليل مخافة أن يقتبس منها، فإن أوقدها ثم أبصرها مستضىء أطفالها، فضربت العرب بناره فى الخلف المثل وضربوا به المثل فى البخل^(٥).

(١) الألويسي، بلوغ الارب، ١٦١/٢.

(٢) الجاحظ، الحيوان، مج ٢، ١٠٢/٧.

(٣) أخشبا مكة، أولهما، أبو قبيس، وهو الجبل المشرف على الصفا وكان يسمى فى الجاهلية الأمين، لأن الركن الأسود كان فيها مستودعاً عام الطوفان، وإنما سمي أبو قبيس لأن أول من نهض البناء فيها رجل كان يقال له أبو قبيس ويقال اقتبس منه الركن فسمي أبو قبيس، والأول أشهرهما عند أهل مكة، والأخشب الآخر الجبل الذي يقال له الأحمر، وكان يسمى فى الجاهلية الأعراف وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان، ينظر الأزرقى، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٥٠ هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٩، ٢٦٥/٢.

(٤) الألويسي، بلوغ الارب، ١٦٣/٢.

(٥) الميداني، مجمع الامثال، ٢٦٣/١.

ذكر ابن أبي الحديد أنهم (كانوا إذا رحل الضيف أو غيره عنهم وأحبوا ألا يعود كسروا شيئاً من الأواني وراءه)، قال بعضهم:

كسرنا القدر بعد أبي سواح فعاد وقدرنا ذهبت ضياعاً^(١)

يبدو أنّ الكثير منهم لم يكن يجذب تلك العادات، بل كان ممقتاً لها، فخدمة الضيف من صفات العرب المميزة التي يتفاخرون بها في مجالسهم وأشعارهم وعلى الرغم من أنهم يؤمنون بأنّ كسر الأواني وراء الضيف يمنعه من العودة ولكنهم لا يفعلون ذلك لأنهم يعدّونها من العادات السيئة غير المرغوب فيها، وذكر لنا ابن أبي الحديد نماذج من تلك الصور منها قول بعضهم:

ولا نكسر الكيزان في إثر ضيفنا ولكننا نقفيه زادا ليرجعا

وقال آخر:

أما والله إن بني نفيّل لخالون بالشرف اليفاع
أناس ليس تكسر خلف ضيف أوانيهم ولا شعب القصاع^(٢)

ومن عاداتهم التي ذكرها ابن أبي الحديد (أنّ الرجل منهم كان إذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل عمد إلى وادي شجر فأناخ راحلته في قرارته وعقلها وخط عليها خطأ ثم قال أعوذ بصاحب هذا الوادي وربما قال بعظيم هذا الوادي)^(٣).

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٣٢/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٣٢/١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣٣٢/١٩.

وذكر ابن أبي الحديد أنّ رجلاً منهم استعاذ ومعه ولد فأكله الأسد فقال :

قد استعذنا بعظيم الوادي
من شرّ ما فيه من الأعداي
فلم يُجرنا من هزبرٍ عادٍ

وقال آخر :

قد بتّ ضيفاً لعظيم الوادي
المانعي من سطوة الأعداي
راحلتي في جاره وزادي

وقال آخر :

يا صاحب الشجرء هل أنت مانعي
وإنك للجنان في الأرض سيد
فإني ضيف نازل بفنائكا
ومثلك آوى في الظلام الصعالكا^(١)

وأغلب الظن هنا أنهم كانوا يعتقدون بأنّ هناك قوى خفية تحميهم فيلودون حولها
وهذا جزء من عقيدتهم، وقد خاطبهم القرآن الكريم :

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾^(٢).

سادساً: الأطمعة والاشربة:

كانت عادات العرب تتجه إلى البساطة في تديير مأكولاتها التي تتكون في الغالب من

(١) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٣٠.

(٢) سورة الجن: الآية ٦.

لحوم الصيد والالبان، وأحسن اللحوم عندهم لحوم الابل، وكانت لهم في هذا الباب عوائد مستحسنة ذلك أنهم كانوا يبكرون في الغذاء ويرون أن ذلك أقرب إلى راحة البدن وصحته، وكانوا يؤخرون العشاء رغبة في ورود الأضياف واجتماع الآكلة^(١).

وقد أشار ابن أبي الحديد إلى أسماء بعض الأطعمة عند العرب قبل الإسلام منها (الثريد)، فقد كانت لقريش تجارة ولا تعدو تجارتهم مكة، حتى رحل هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقيصر فكان يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة من ثريد ويدعو الناس فيأكلون، فدعا به قيصر فلما رآه وكلمه وأعجب به وجعل يرسل إليه فيدخل عليه فلما رأى مكانه سأله أن يأذن لقريش في القدوم عليه بالمتاجر وأن يكتب لهم كتب الأمان فيما بينهم وبينه ففعل، فبذلك ارتفع هاشم في قريش^(٢)، وعُدَّ أول من هشم الثريد بعد إبراهيم عليه السلام، الذي يعدُّ أول من فعل ذلك أي ثرد الثريد وأطعمه المساكين، وجده قصي بن كلاب^(٣).

والثريد من الأطعمة الأساسية عند العرب وهي ثرد الخبز أي فته ثم بله بمرقٍ ثم شرفه وسط القصعة^(٤)، والثريد غالباً لا يكون إلا من لحم، والعرب قلماً تتخذ طبيخاً ولا سيما بلحم^(٥)، ولغرض تأكيد أهمية الثريد عند العرب ذكر ابن أبي الحديد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام».

(١) الألويسي، بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب، ٣٧١/١.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٥٩/١٥.

(٣) الحلبي، علي بن برهان الدين الشافعي (١٠٤٤ هـ) السيرة الحلبية، دار المعرفة، (بيروت ١٤٠٠)، ٨/١.

(٤) الزبيدي، تاج العروس، ٣٧٢/٤، (مادة ثرد).

(٥) ابن منظور، لسان العرب، ١٦/٢، (مادة ثرد).

وأصحابنا^(١) يحملون لفظة النساء في هذا الخبر على زوجاته، لأن فاطمة عليها السلام عندهم أفضل منها لقوله صلى الله عليه وآله وسلم إنها سيدة نساء العالمين^(٢).

وعلى الرغم من أن ابن أبي الحديد أراد حصر إطار الحديث بين زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقط مع إن من وضع الحديث أراد على الجميع بما فيهن فاطمة عليها السلام، إلا إننا مع ذلك لا نتفق مع هذا الرأي لأن عائشة لم تكن أفضل نساء النبي، وهذا الحديث يحتاج إلى وقفة وتمحيص لعدة أسباب:

١- قد يكون هذا الحديث موضوعاً لغرض إعطاء فضائل لعائشة عن بقية نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مع مواقفها السلبية مع الأمة بعد وفاته.

٢- لم يثبت لدينا أن عائشة أفضلهن، إذ ذكر حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن فضل خديجة على عائشة وجميع النساء بقوله:

«لقد فضّلت خديجة على نساء أمّتي كما فضّلت مريم على نساء العالمين».

وهو حديث حسن الإسناد واستدل به على أن خديجة أفضل من عائشة^(٣)، كما إنه قد فضل خديجة بحديث آخر إذ قال لعائشة حين قالت له: قد رزقك الله خيراً منها فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) يريد المعتزلة.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠/١٤؛ ينظر حديث فضل عائشة على النساء عند ابن حنبل، الإمام أحمد الشيباني (ت ٢٤١ هـ)، مسند أحمد، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ١٥٩/٦؛ البخاري، صحيح البخاري، ٢٢٠/٤.

(٣) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠)، جامع البيان في تأويل أي القرآن، ضبط وتوثيق وتخريج، صدقي جميل العطار، دار الفكر، (بيروت ١٩٩٥)، ٣٥٩/٣، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ١١٠/٧؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ)، الدر المنثور في التفسير بالمشهور، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ٢٣/٢.

« لا والله ما رزقني الله خيراً منها، أمنت بي حين كذبتني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس »^(١).

٣- ألم يجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً يفضل به عائشة على غيرها سوى الطعام؟ وهل كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عاشقاً للطعام إلى الحد الذي يضرب به المثل؟ ومن قال أن الثريد هو أفضل الاطعمة عند العرب حتى يتباهى به النبي صلى الله عليه وآله وسلم!

ومن الأطعمة الأخرى التي ذكرها ابن أبي الحديد (السَّخِينَة)، هي طعام يتخذ من دقيق وسمن وقيل دقيق وتمر أغلظ من الحساء وأرق من العصيدة، وكانت قريش تكثر من أكلها فعيّرت بها حتى سُمّوا سَخِينَة، وإنما كانوا يأكلون السخينة في شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المال^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ معاوية والأحنف تمارحا فيما رئي مازحان أوقر منهما قال معاوية: يا أبا بحر ما الشيء الملفف في البجاد^(٣) فقال السخينة، وإنما كنى معاوية عن رمي بني تميم بالنهم وحب الأكل بقول القائل:

تراه يطوف في الآفاق حرصاً
بجُز أو بتمر أو بسمن
إذا مات ميتٌ من تميم
فسرّك أن يعيش فجيءٌ بزاد
أو الشيء الملفف في البجاد
ليأكل رأس لقمان بن عاد

(١) الارديلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح (ت ٦٩٣ هـ)، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ط ٢، دار الاضواء، (بيروت ١٩٨٥)، ٣٧/١؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٤٠١/٣؛ البهوتي، منصور بن يونس الحنبلي (ت ١٠٥١)، كشف القناع، تحقيق أبي عبد الله محمد حسن محمد حسن اسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٧)، ٣١/٥.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٣٩٠/٤، (مادة سخينة)؛ الزبيدي، تاج العروس، ٢٧٤/١٨.

(٣) البجاد كساء جمعه بجد يلف فيه وطب اللبن ليحمى ويدرك، ينظر الجوهري، الصحاح، ص ١٠١٥، [مادة لفف].

فقال الأحنف هو السخينة، لأن قريشا كانت تُعَيَّرُ بأكل السخينة قبل الإسلام لأن أكثر زمانها كان زمان قحط، والسخينة ما يسخن بالنار ويذر عليه دقيق وغلب ذلك على قريش^(١).

ومن الأطعمة الأخرى المركبة من الدقيق واللبن والسمن، الحريقة، الصحيرة، العكيسة، الرغيدة، الاصية، اللويقة، الألوقة، الخزيفة، التليينة، الوشيقة، العثيمة^(٢).

ومن أنواع الأطعمة الأخرى التي ذكرها ابن أبي الحديد (الكمأة)، وهو نبات (أبيض مثل الشحم ينبت من الأرض يقال له: شحم الأرض)^(٣) فيخرج كما يخرج الفطر^(٤) والعرب يرسلون أولادهم قبل الإسلام لجمعه وكان عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة الأبرش يجني الكمأة مع أتراك له فكان أتراكه يأكلون ما يجدون وكان عمرو يأتي به خاله ويقول: هذا جناي وخياره فيه^(٥).

وهناك (الطفيشل) وهو نوع من المرق معروف^(٦)، وكان الأوس والخزرج يشتهرون بتناوله وذكر ابن أبي الحديد أن معاوية بن أبي سفيان عيَّرَ به الأنصار في أثناء معركة صفين بقوله: (لقد غمّني ما لقيت من الأوس والخزرج واضعي سيوفهم على عواتقهم يدعون إلى النزال حتى لقد جنبوا أصحابي الشجاع منهم والجبان وحتى والله ما أسأل

(١) شرح نهج البلاغة، ١٤/٥.

(٢) للاطلاع على تفاصيلها، ينظر، الآلوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣٨٣/١.

(٣) الطريحي، الشيخ فخر الدين (ت ١٠٨٥ هـ)، مجمع البحرين، تحقيق، احمد الحسيني، مكتب ناشر للثقافة الاسلامية، (ايران ١٤٠٨ هـ) ٧/٤.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ٥٣١/٧، (مادة كمأ).

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٠٥ / ١٩ .

(٦) الزبيدي، تاج العروس، ٤٣٧/١٥.

عن فارس من أهل الشام إلا قيل قتله الأنصار أما والله لألقينهم بحدي وحديدي ولأعيين لكل فارس منهم فارساً ينشب في حلقة ولأرمينهم بأعدادهم من قريش رجال لم يغذهم التمر والطفيشل يقولون نحن الأنصار قد والله أووا ونصروا ولكن أفسدوا حقهم بباطلهم^(١)، وكان مع معاوية من الانصار النعمان بن بشير بن سعد ومسلمة بن مخلد الانصاريان، وذكر ابن أبي الحديد أنه لم يكن معه من الانصار غيرهما^(٢)، فغضب النعمان عند سماعه كلام معاوية وقال: (يا معاوية لا تلومن الأنصار في حب الحرب والسرعة نحوها فإنهم كذلك كانوا في الجاهلية، وأما دعاؤهم إلى النزال فقد رأيتهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفعلون ذلك كثيراً، وأما لقاءك إياهم في أعدادهم من قريش فقد علمت ما لقيت قريش منهم قديماً، فإن أحببت أن ترى فيهم مثل ذلك أنفاً فافعل، وأما التمر والطفيشل فإن التمر كان لنا فلما ذقتموه شاركتموننا فيه وأما الطفيشل فكان لليهود فلما أكلناه غلبناهم عليه كما غلبت قريش على السخينة)^(٣).

أما الآنية التي كان العرب يستخدمونها في طعامهم فإنها تتفاوت على وفق سعتها للطعام، وقيل أكبرها (الجفنة) وهي تسع السبعة إلى عشرة أنفار، وهي التي ذكرها الشعراء في شعرهم في الغالب كقول أحدهم:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحي وأسيفنا يقطرن من نجدة دما^(٤)

وذكر ابن أبي الحديد (سمعت أعرابية تقول في دعائها يا عريض الجفنة يا أبا المكارم

(١) شرح نهج البلاغة، ٦٨/٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٦٨/٨.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٦٩/٨.

(٤) الألويسي، بلوغ الأرب، ٣٨٧/١.

يا أبيض الوجه فزجرها رجل فقالت دعوني أصف ربي بما يستحقه^(١).

ولعلها هنا أرادت أن تعبر عن قيمة الله سبحانه وتعالى ومدى خيره على الناس وفضله عليهم فلم تجد - على فطرتها - سوى التعبير بما موجود عندها، ولعل الجفنة كانت هنا تمثل قيمة الوجود لديها - وهو مستوى ما وصل إليه تفكيرها - فكان اتساع تلك الاواني بما فيها من خير يمثل سبب وجود الخالق ومدحاً له.

ومن الأواني الاخرى (الدسيعة) وقيل إنَّها أكبر من الجفنة وقد استخدمها هاشم في هشم الثريد لقريش فرثاه مطرود الخزاعي:

وابكي خبيئة نفسي في الملمات
ضخم الدسيعة وهّاب الجزيلات^(٢)

يا عين جودي وأذري الدمع واحتفلي
وابكي على كل فياض أخي حسب

ومن آياتهم الأخرى (السكرجة)، وهي لاتشبع الرجل، و(الصحفة) وكانت تشبع الرجل، و(المكتلة) وكانت تشبع الرجلين والثلاثة، و(القصة)، تشبع الاربعة والخمسة^(٣).

والعرب تعبير بكثرة الأكل وتعيب الجشع والشره والنهم وقد كان فيهم قوم موصوفون بكثرة الأكل، وذكر ابن أبي الحديد أن عمرو بن معد يكرب أكل عنزا وفرقا من ذرة والفرق ثلاثة أصع وقال لامرأته عالجني لنا هذا الكيش حتى أرجع فجعلت توقد تحته وتأخذ عضواً عضواً فتأكله، فاطلعت فإذا ليس في القدر إلا المرق فقامت إلى كبش آخر فذبحته وطبخته ثم أقبل عمرو فثردت له في جفنة العجين وكفأت القدر عليها فمد

(١) شرح نهج البلاغة، ٦ / ١٥٣.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥ / ١٦٠.

(٣) الألويسي، بلوغ الإرب، ١ / ٣٨٧.

يده وقال يا أم ثور دونك الغداء قالت قد أكلت فأكل الكبش كله^(١).

أما شرب الخمر فهو من العادات الأخرى التي كانت منتشرة عند العرب قبل الإسلام، والخمر ما أسكر من عصير العنب لأنها خامرت العقل^(٢)، وعلى الرغم من وجود الكروم في جزيرة العرب، إلا أن الخمر كانت تجلب من بلاد الشام على وجه الخصوص - إذ يفضلها أغنياء قريش - وذلك لأن صناعة النبيذ تتطلب جهداً وعملاً كثيراً وتمثل تقدماً صناعياً لم يكن يعرفه العرب باستثناء مدينة الطائف، إذ كان العنب محصولاً رئيسياً، وعرفت فيها صناعة الخلّ والخمر^(٣).

كان شرب الخمرة من العادات السائدة عند العرب وقريش وقد ذكر ابن أبي الحديد مجموعة من الروايات عن تلك العادات في شرحه على النهج، فعن حذيفة بن اليمان قال: (كُنَّا نَعْبُدُ الْحِجَارَةَ وَنَشْرِبُ الْخَمْرَ وَعَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَبْنَاءِ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً قَائِمٌ يَصَلِّيُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَيْلاً وَنَهَاراً وَقَرَيْشٌ يَوْمئِذٍ تَسَافَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَا يَذُبُّ عَنْهُ إِلَّا عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ)^(٤).

وذكر ابن أبي الحديد أن النعمان بن المنذر ومعه عدي بن زيد في ظل شجرات موتقات يشرب، فقال عدي أبيت اللعن وأراد أن يعظه أتدري ما تقول هذه الشجرات قال ما تقول؟ قال:

يشربون الخمر بالماء الزلال
وكذاك الدهر يودي بالرجال

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا
ثُمَّ أَضْحَوْا عَصْفَ الدَّهْرِ بِهِمْ

(١) شرح نهج البلاغة، ١٨/٣٢٠.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٣/١٦٠.

(٣) عبد الحميد، سعد زغلول، في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، (بيروت ١٩٧٥)، ص ٣٣٤.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٣/١٧٥.

فتنغص النعمان يومه ذلك^(١).

من خلال هذه الرواية نرى أن النعمان كان يختار مجالس خاصة لشرب الخمر ويتنخب ندماءه وكانت تلك المجالس فترات راحة بعيدة عن الحكم وهي بذلك عادة غير مرفوضة من المجتمع.

كانت الخمر رفيق الناس حتى عند السفر، فذكر أنّ المغيرة بن شعبة وهو على دين الجاهلية كان مع قوم من بني مالك في تجارة إلى الاسكندرية وكان المقوقس ملك مصر أهدهم جوائز وهو أقصرهم، فأبت نفسه أن ينصرفوا إلى الطائف بما أصابوا ويخبروا قومه فيقل شأنه، فعند خروجهم حملوا معهم الخمر فكانوا يشربون في الطريق حتى دب الكأس فيهم فأهدمتهم الخمر حتى ناموا ما يعقلون فوثب عليهم وقتلهم جميعاً وأخذ ما كان معهم^(٢).

وعلى الرغم من أن هذه الرواية تدل على عادات سيئة كانت منتشرة عند العرب منها القتل على أبسط الأشياء ومن دون مراعاة حقوق القرابة وصداقة الطريق، وهي عادات كانت تنبذها الأخلاق البدوية الصحيحة إلا أنها تبين لنا أنّ الخمر كان الرفيق الدائم أثناء السفر، إذ يمثل جزءاً من شخصية الفرد حتى إنهم كانوا يعطونه الأهمية حتى في أثناء قتالهم، فذكر ابن أبي الحديد أنّ أبا جهل، وقبل معركة بدر قال:

(والله لا نرجع حتى نرد بدرًا تسمع بنا العرب وبمسيرنا فنقيم على بدر ثلاثًا ننحر الجزر ونطعم الطعام ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان فلن تزال العرب تهابنا أبداً)^(٣).

وهكذا ربط أبو جهل في هذه الرواية شرب الخمر ونحر الجزر بالغناء لتستكمل

(١) شرح نهج البلاغة، ٦٨/١٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٤١٣/٢٠.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٨٥/١٤.

مجالسهم المتعارف عليها حتى عند الحرب والقتال، وكان الخمر عندهم متعة الحياة ومن النادر أن نجد شاعراً في الجاهلية لا يذكر الخمر، فهي عندهم مظهر من مظاهر الفتوة والشباب والقوة وإلى ذلك ذكر ابن أبي الحديد قول طرفة:

فلولا ثلاثُ هنَّ من عيشة الفتى
فمنهنَّ سَبْقِي العاذلاتِ بِشَرِبَةٍ
وَكُرِّي إذا نادى المُضَافُ مُحَنِّباً
وتقصير يومِ الدَّجنِ والدجنُ معجبُ
وَجَدَكَ لم أَحْفِل متى قامَ عُوْدِي
كُمَيْتٍ متى ما تُعَلِّ بالماءِ تُزْبِدِ
كَسِيدِ العَضَا الطخِيَةِ المُتورِدِ
بِبَهْكَنَةٍ تحتِ الخبَاءِ المُعمَدِ^(١)

قول سالم بن عون الضبي:

لا يبعدن عصر الشباب ولا
والمشرفات من الخدور كإيماض
وطراد خيل مثلها التقنا
لذاته ونباته النضر
الغمام يجوز بالقطر
لحفيظة ومقاعد الخمر^(٢).

ومما ورد في كلام العرب وذكره ابن أبي الحديد أنّ لقيط بن زرارَةَ تزوج ابنة قيس بن خالد الشيباني فأحبهه فلما قتل عنها تزوجت غيره فكانت تذكر لقيطاً فسألها عن حبها له فقالت: (أذكره وقد خرج تارة في يوم دجن وقد تطيب وشرب الخمر طرد بقراً فصرع بعضها ثم جاءني وبه نضح دم وعبير فضمني ضمة وشمني شمة فليتني كنت مت ثمة)^(٣).

ومن هذه الرواية نرى مدى انتشار الخمر وولع الناس بها وتفاجرهم بها، فهذه هي زوجة لقيط تذكر شربه للخمر وخروجه للصيد ثم تستقبله استقبال الحبيب المتلهف من دون أن يشكل شرب الخمر فاصلاً أو عائقاً أمام عناقهما.

(١) شرح نهج البلاغة، ٦٣/١١؛ للاطلاع على الآيات والمعلقة كاملة ينظر ابن العبد، طرفة، الديوان، ص ٣٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٤٥/١٦.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٤١/١.

وعلى الرغم من كل ذلك فإن عقلاء العرب في الجاهلية عرفوا مضار الخمر وإن كثيراً منهم أقلع عن شربه لما فعله من ذهاب العقل والحلم والوقار، وذكر ابن حبيب عدداً من الشخصيات منهم عبد المطلب بن هاشم وقيس بن عاصم وعبد الله بن جدعان والعباس بن مرداس الذي قيل له لم لا تشرب الخمر فانها تزيد من جرأتك فقال: (لا أشرب شراباً أصبح سيد قومي وأمسي سفيهم)^(١).

ويبدو أن اسم عبد المطلب حشر معهم بطريق الخطأ لأنه لم يشربها قط حتى يتركها. وكانت العرب تحرم الخمر على نفسها في مدة طلب الثأر حتى تأخذ ثأرها فهذا امرؤ القيس بعد أن أخبر بقتل أبيه من قبل بني أسد حلف أن لا يشرب الخمر حتى يدرك ثأره، ثم تبع بني أسد فأدركهم وقتل فيهم قتلاً ذريعاً وأخذ بثأره فقال:

حَلَّتْ لِي الْخَمْرُ وَكُنْتُ امْرَأً
عَنْ شُرْبِهَا فِي شُغْلِ شَاغِلٍ
فَالْيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْتَبٍ
إِنَّمَا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ^(٢)

وقد حرم الإسلام شرب الخمر على المسلمين لما لها من تأثير على عقولهم فذكر ذلك في القرآن الكريم في عدة آيات منها قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^(٣).

(١) أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي (ت ٢٤٥ هـ)، المحبر، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، اعتنت بتصحيحه ايلزه ليختن شتير، منشورات المكتب التجاري، (بيروت ١٩٤١)، ص ٢٣٧.

(٢) امرؤ القيس، الديوان، ص ١١٨؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٤٨.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

وقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

وقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^(٢).

وقد ذكر الإمام علي عليه السلام مجموعة من الفضائل التي من الله عز وجل بها على المسلمين بمحمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، من ضمنها ترك الخمر فقال عليه السلام: «ونهاكم عن التناهب والتظالم والتحاسد والتباغي والتقاذف وعن شرب الخمر وبخس المكيال ونقص الميزان»^(٣).

سابعاً: العين:

أشار ابن أبي الحديد إلى مجموعة أخرى من العادات والتقاليد التي كانت سائدة في مجتمع قبل الإسلام منها العين، إذ كان يعتقدون أنّ بعض الناس يتحلّون بقدرة عجيبة في عيونهم فإذا نظروا إلى شيء نظرة ممزوجة بالاشتهاء والحسد فعلوا فيه فعلهم ولم يشمل هذا الإنسان فقط بل الحيوان أيضاً، فقال: (كان علماء الفرس والهند وأطباء اليونانيين ودهاة العرب وأهل التجربة من نازلة الأمصار وحذاق المتكلمين يكرهون الأكل بين يدي السباع يخافون عيونها للذي فيها من النهم والشره، ولما ينحل عند ذلك

(١) سورة المائدة: الآية ٩٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٩١.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٧٥/٦.

من أجوافها من البخار الرديء وينفصل من عيونها مما إذا خالط الإنسان نقض بنية قلبه وأفسده، وكانوا يكرهون قيام الخدم بالمذاب والأشربة على رؤوسهم خوفاً من أعينهم وشدة ملاحظتهم إياهم، وكانوا يأمرّون بإشباعهم قبل أن يأكلوا، وكانوا يقولون في الكلب والسَّنور^(١) إما أن يطرد أو يشغل بما يطرح له^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد مجموعة من الروايات عن أناس احترفوا هذه الخاصية وكانت لهم قصص هي أشبه بالخيالية منها ما نقله عن الأصمعي انه قال: رأيت رجلاً عيوناً كان يذكر عن نفسه أنه إذا أعجبه الشيء وجد حرارة تخرج من عينه، وقال أيضاً كان عندنا عيونان، فمّر أحدهما بحوض من حجارة فقال تالله ما رأيت كاليوم حوضاً فانصدع فلقطين، فمّر عليه الثاني فقال وأبيك لقلما ضررت أهلك فيك فتطير أربع فلق^(٣).

ومن عادات العرب التي ذكرها ابن أبي الحديد (أنهم كانوا يفتقون عين الفحل من الإبل إذا بلغت ألفاً كأنهم يدفعون العين عنها)^(٤) فإن زادت الإبل على الألف فقتوا العين الأخرى^(٥).

وذكر ابن أبي الحديد مجموعة من الأبيات الشعرية التي تتحدث عن تلك العادات منها قول الشاعر:

فقأنا عيوننا من فحول بهازر وأنتم برعي البهم أولى وأجدر

(١) السَّنور: الهرُّ.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٠٧/١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣٠٨/١٩.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٣١٥/١٩.

(٥) الجاحظ، الحيوان، مج ١، ٣٣/١.

وقال آخر:

تفقأ فيها أعين البعران

وهبتها وكنت ذا امتنان

وقال الآخر:

ففقأت عين فحيلها معتافاً^(١)

أعطيتها ألفا ولم تبخل بها

(١) شرح نهج البلاغة، ٣١٥/١٩.

المبحث الثالث

العقوبات والقوانين عند العرب قبل الإسلام

لم تكن القوانين عند العرب مدونة، بل هي وليدة الظروف وطبيعة الصحراء، فلم يكن هناك قانون مكتوب خاص بها ولم يكن هناك مؤسسات قضائية بل هي عبارة عن تقاليد وأعراف توارثها الخلف عن السلف لتطبيق قانون الثواب والعقاب لحفظ المجتمع وضمان استقراره، (ولم تكن هناك سلطة تنفيذية تقتص للفرد أو تنزل العقاب بالجاني فقد يترك للمجنى عليه أن يقتص لنفسه، وقد تعاونه العشيرة في ذلك، إلا أن الجرم كان يعتبر دائما حقا خاصا وليس هناك حق عام، فاذا عفى المجني عليه لم يكن على الجاني عقاب)^(١)، وكان للعرب حكام ترجع إليها في أمورها، وتتحاكم في منافراتها، ومواربثها، ومياهاها، ودمائها، لأنه لم يكن هناك دين يرجع إلى شرائعه، فكانوا يُحكّمون أهل الشرف، والصدق، والأمانة، والرئاسة، والسنن، والمجد، والتجربة^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد أن أكثم بن صيفي أحد رجال بني أسد بن عمرو بن تميم كان أكثر أهل الجاهلية حكما ومثلا وموعظة سائرة^(٣)، استشاره قومه في حرب قوم أرادوهم

(١) العلي، صالح احمد، محاضرات في تاريخ العرب، مؤسسة دار الكتب، (الموصل ١٩٥٤)، ص ٦٢.

(٢) اليعقوبي، أحمد بن اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح البغدادي (ت ٢٩٢)، تاريخ اليعقوبي، علق عليه ووضع حواشيه خليل المنصور، دار الزهراء، (قم ١٤٢٦ هـ)، ١/٢٢٠.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٠١/١٥.

وسألوه أن يوصيهم فقال: (أقلوا الخلاف على أمرائكم واثبتوا، فإن أحزم الفريقين الركين ورُب عَجَلَة تهب ريثاً^(١))^(٢)، وكان في قريش حكام منهم: عبد المطلب، وحرب بن أمية، والزبير بن عبد المطلب، وعبد الله بن جدعان، والوليد بن المغيرة المخزومي^(٣).

وتناول ابن أبي الحديد أهم العقوبات التي كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام على شكل روايات متناثرة ولم تكن هناك أسس متسلسلة للموضوع وربناها بالشكل الآتي:

أولاً: الخلع:

الخلع: تعني البراءة، والرجل الخَلِيعُ هو الذي يَجْنِي الجَنَايَاتِ يُؤْخَذُ بها أولياؤه فيتبرؤون منه ومن جنائته ويقولون إنا خَلَعْنَا فلاناً فلا نأخذ أحداً بجناية تُجْنِي عليه ولا نؤاخذ بجنایاته التي يَجْنِيها^(٤).

والخلع أقصى عقوبة يمكن أن تلجأ إليها القبيلة للحفاظ على أفرادها وعاداتها ضد من تجاوز الحدود منها لتجنب ما يشين من الاخلاق الذميمة الراضة لها وهذا دليل على ميل العرب للصفات الجميلة ومحاسن الاخلاق ورفض كل ما هو شاذ حتى لو أدى ذلك إلى درجة العقوق وعدم المبالاة بما يتعرض له الخليع من آثار نتيجة اعلان خلعه أمام الناس في المحلات العامة وفي المواسم بإشهاد شهود، والخلع يعني رفع كل أنواع المسؤولية عن القبيلة، فاذا ارتكب جناية صار وحده المسؤول عنها فلا يحميه أو يدافع عنه أحد فإذا قتل أو اعتدى عليه فلا أحد يسأل عن أهله أو يأخذ عندئذ بحقه، لسقوط

(١) الريث: الإبطاء. بنظر ابن منظور، لسان العرب، ٢٣٤/٤، (مادة ريث)

(٢) شرح نهج البلاغة، ٨٠/١٥.

(٣) البعقوبي، تاريخ البعقوبي، ٢٢٠/١.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ١٣٧/٣.

العصية عنه وعندئذ يكون معرضاً للقتل في أي لحظة، مطارداً من الناس لفرط جرائره^(١)، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره.

وقد ترتب على عقوبة الخلع نتائج سلبية إذ انظمَّ هؤلاء بعضهم إلى بعض وكونوا جماعات جمعتهم وحدة الهدف وغريزة حماية النفس، ومنهم الصعاليك، الذين تحولوا إلى سراق وقطاع طرق، وكانوا يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة إلى مكة، وعلى الرغم من أن الروايات تذهب إلى تحول الصعلكة في أواخر العصر الجاهلي إلى نظام يشبه نظام الفروسية، فهم يقومون بالسلب والنهب ولكنهم لا يسلبون ولا يهبون سيذا كريماً، وإن كان ذلك لا يمنع من أن فريقاً منهم عاش سفاحاً لا يرعى عهداً ولا ذمة^(٢).

ومن لطيف شعرهم الذي ذكره ابن أبي الحديد قول احدهم:

فما وجدُ صعلوكٍ بصنعاءَ موثقٌ	بساقيه من سمرِ القيودِ كبولُ
قليلُ الموالِي مسلّمٌ بجريرةٍ	له بعدَ نوماتِ العيونِ غليلُ
يقولُ له السوابُ أنتَ معذبٌ	غداةَ غدٍ أو رائجٌ فقتيلُ
بأكثرَ من وجدي بكم يومَ راعني	فراقُ حبيبٍ ما إليه سبيلُ ^(٣)

وقول عروة بن الورد:

لحا الله صعلوكا إذا جنَّ ليلُهُ	يحتُ الحصى عن جنبهِ المتعفرِ ^(٤)
يعدُّ الغنى من نفسه كلُّ ليلةٍ	أصابَ قراها من صديقٍ ميسرِ

(١) علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٥٩٠/٥.

(٢) ضيف، تاريخ الادب العربي (العصر الجاهلي)، دار المعارف، (مصر، ١٩٦١)، ص ٣٧٦.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٤٤/٥.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٢٠٨/٣؛ تنظر الابيات عند ابن الورد، عروة، الديوان، ص ٦٨.

ينامُ عشاءً ثم يصبحُ ناعساً مصافي المشاشِ ألفاً كلَّ مجزراً

وقد تعددت أسباب الخلع، فالبراض بن قيس^(١) برئت منه كنانة لخلاعه فكان سكيراً فاسقاً^(٢)، وخلع حجرُ بن الحارث^(٣) ابنه امرأ القيس لتهتكه ومجونه ومطاردته نساء القبيلة وإدمانه الخمر^(٤)، وقد سئل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عن أشعر الشعراء فقال:

«إِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَجْرُوا فِي حَلْبَةٍ تُعْرَفُ أَلْغَايَةَ عِنْدَ قَصَبَتِهَا فَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ فَالْمَلِكُ الضَّلِيلُ»^(٥).

وعلق ابن أبي الحديد فقال: (فأما قول أمير المؤمنين عليه السلام الملك الضليل فإنما سمي امرؤ القيس ضليلاً لما يعلن به في شعره من الفسق^(٦))، والضليل الكثير الضلال كالشريب والخمير والسكير، والفسيق لكثير الشرب وإدمان الخمر والسكر والفسق^(٧)).

وقد يكون سببُ الخلع الخوف من الدية ودفعها والقتل ودفع الشر، كما فعل العاص بن وائل لخلعه عمرأ، فيروي ابن أبي الحديد أنّ عمارة بن الوليد بن المغيرة وعمرو بن العاص بن وائل خرجا إلى أرض الحبشة على شركهما وكلاهما كان شاعراً عارماً

(١) فاتك جاهلي تبرأ منه قومه ففارقهم وقدم مكة وبسببه حدثت حرب الفجار، للتفصيل في دوره فيها ينظر ص ٣٤٩ من الرسالة.

(٢) الاصفهاني، الاغانى، مج ٣، ٣٩/٢٢.

(٣) أحد ملوك كندة لتفاصيل حكمه ووفاته ينظر ص ٣٢٥ من الرسالة .

(٤) الاصفهاني، الاغانى، مج ٣، ٥٧٥/٩.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٢٩/٢٠، (حكم ومواعظ ٤٦٤).

(٦) هناك رأي لظه حسين يقول فيه إن امرأ القيس سمي بالملك الضليل لأنه الملك المجهول الذي لا يعرف عنه شيء، ينظر في الادب الجاهلي، ط ١٠، دار المعارف، (مصر ١٩٦٩)، ص ٢١١.

(٧) شرح نهج البلاغة، ١٤٢/٢٠.

فاتكاً، وكان عمارة بن الوليد رجلاً جميلاً وسيماً تهواه النساء صاحب محادثة لهن فركبا البحر ومع عمرو بن العاص امرأته حتى إذا صاروا في البحر ليالٍ أصابا من خمر معهما فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص: قبليني، فقال لها عمرو: قبلي ابن عمك، فقبلته، فهويها عمارة وجعل يراودها عن نفسها، فامتنعت منه، ثم إن عمراً جلس على منجاف لسفينة يبول فدفعه عمارة في البحر فلما وقع عمرو سبح حتى أخذ بمنجاف السفينة، فقال له عمارة: أما والله لو علمت أنك سابح ما طرحتك، ولكنني كنت أظن أنك لا تحسن السباحة، فضغن عمرو عليه في نفسه وعلم أنه كان أراد قتله ومضيا على وجهتهما تلك، حتى قدما أرض الحبشة فلما نزلاها كتب عمرو إلى أبيه العاص بن وائل: أن اخلعني وتبرأ من جريرتي إلى بني المغيرة وسائر بني مخزوم، وخشي على أبيه أن يتبع بجريرته، فلما قدم الكتاب على العاص بن وائل مشى إلى رجال بني المغيرة وبني مخزوم فقال: إن هذين الرجلين قد خرجا حيث علمتم وكلاهما فاتك صاحب شر غير مأمونين على أنفسهما ولا أدري ما يكون منهما وإني أبرأ إليكم من عمرو وجريرته فقد خلعتهم، فقال عند ذلك بنو المغيرة وبنو مخزوم: وأنت تخاف عمرا على عمارة ونحن فقد خلعنا عمارة وتبرأنا إليك من جريرته فحل بين الرجلين، قال: قد فعلت فخلعوها وبرئ كل قوم من صاحبهم وما يجري منه^(١).

ثانياً: جز الناصية:

الناصية عند العرب منبتُ الشعر في مقدم الرأس وسمي الشعر ناصية لنباته من ذلك الموضع^(٢)، وهي من عقوبات العرب قبل الإسلام وكانت العرب إذا أسروا رجلاً ثم منوا عليه فأطلقوه، جزوا ناصيته ووضعوها في كنانة (وكانوا يفتخرون بجز نواصي

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٣٩/٦.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٤٢٩/٨، (مادة ناص).

الفرسان) قالت الخنساء^(١):

جَزَزْنَا نَوَاصِيَ فِرْسَانِهِمْ
وكانوا يظنُّون أن لا تجزا^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ عتبية بن الحارث بن شهاب اليربوعي (أسر بسطام بن قيس وهو فارس ربيعة وشجاعها ومكث عنده في القيد مدة حتى استوفى فداءه وجز ناصيته وخلي سبيله على ألا يغزو بني يربوع)^(٣).

كان العرب يحرصون على جز ناصية أسيرهم الشريف ذلة وتشهيراً به من جهة ولإثبات شجاعتهم وقدرتهم على العفو عند المقدرة من جهة أخرى، فقد تكون عقوبة جزّ الناصية تخفيفاً لعقوبة أكبر منها، فعندما مدح بجير بن أوس بن حارثة، ابن لأم الطائي، وكان أسيراً في يده، بقصيدة اولها:

إذا قيل: أيُّ الناسٍ خيرُ قبيلة؟
وأصبرَ يوماً لا تُوارى كواكبه؛
فإنّ بني لأم بن عمرو أرومة
علت فوق صعبٍ لا تُنالُ مراتبه!

(١) الخنساء تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع الأرنبة ولذلك قيل لها الخنساء لأنها كانت على هذه الصفة، أشهر شاعرات العرب، عاشت أكثر عمرها في العهد الجاهلي، وأدركت الإسلام فأسلمت، أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها (صخر ومعاوية) وكانا قد قتلا في الجاهلية، وكان لها أربعة بنين قتلوا بمعركة القادسية (سنة ١٦ هـ) فجعلت تحرضهم على الثبات حتى قتلوا جميعاً، ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٣٤/٦؛ الزركلي، الأعلام، ٨٦/٢.

(٢) الخنساء، تهاضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد الرياحية السلمية (ت ٢٤ هـ)، الديوان، تحقيق عباس إبراهيم، دار الفكر، (بيروت ١٩٩٤)، ص ٥٤؛ القلقشندي، صبح الاعشى، ٤٠٨/١.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٠٠/١٥.

أطلقه بعد أن جزّ ناصيته^(١).

وكان زيد الخيل بن مهلهل قد جمع طيئاً وأخلاقاً لهم فغزوا بهم بني عامر ومن جاورهم من قبائل العرب من قيس وسار إليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم انهزمت بنو عامر وفيهم يومئذ فرسان وشعراء، فملأت طيء أيديهم من غنائمهم وأسر زيد الخيل يومئذ الحطيئة الشاعر فجز ناصيته وأطلقه^(٢).

وقد يلجأ الأسير إلى تلك العقوبة عوضاً عن الموت، فقد استخدم المهلهل الحيلة والمكر لإنقاذ نفسه بعد أن أسر من قبل الحارث بن عباد، - وكان قد قتل ابنه بجيرا -^(٣)، وهو لا يعرفه، فقال له: دلني على عدي - وكان اسماً للمهلهل - وأنا أخلي عنك. فقال له المهلهل: عليك عهد الله بذلك إن دلتك عليه؟ قال: نعم. قال: فأنا عدي؛ فجز ناصيته وتركه، وقال في ذلك:

لهف نفسي على عديّ ولم
أعرف عديّاً إذ أمكنتني اليدان^(٤).

وقد تكون تلك العقوبة نتيجة المنافرات بين الأشراف، فذكر ابن أبي الحديد أن عبد المطلب راهن أمية بن عبد شمس على فرسين وجعل الخطر ممن سبقت فرسه مائة من الإبل وعشرة أعبد وعشر إماء واستعباد سنة وجز الناصية فسبق فرس عبد المطلب، فأخذ الخطر فقسمه في قريش وأراد جز ناصيته، فقال أو أفندي منك باستعباد عشر سنين

(١) النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، (القاهرة ١٤٢٣)، ١٨٣/٣.

(٢) الاصفهاني، الاغاني، مج ٦، ٤٥٥/١٧.

(٣) ينظر تفاصيل الحادثة وما قبلها في ص ٣٤٢ من الرسالة.

(٤) ابن الاثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠)، الكامل في التاريخ، تحقيق مكتب التراث، دار إحياء التراث العربي، (بيروت ٢٠٠٩)، ٣٤٦/٢.

ففاعل فكان أمية بعد في حشم عبد المطلب عشر سنين^(١). ويبدو لنا أنّ هذه الرواية فيها الكثير من الشك وهي تحتاج إلى وقفة وتأمل، فمن غير الممكن لرجل مثل عبد المطلب بكياسته وهدايته يراهن على سباق فرسين ويستعبد الناس من أجلهما.

ولا تستخدم هذه العقوبة قبل الإسلام مع ملوك العرب، فعندما بعث النعمان بن المنذر ابنه قابوساً لقتال بني يربوع التقوا بيوم طخفة^(٢) فانهزم قابوس ومن معه، وضرب طارق بن عميرة فرس قابوس فعقره، وأخذه ليجزّ ناصيته، فقال قابوس: إنّ الملوك لا تجزّ نواصيها، فجهّزه وأرسله إلى أبيه^(٣).

ثالثاً: القسامة:

القَسَامَة، وهي مشتقة من اليمين وتُقَسَّمُ على الأولياء في الدم^(٤)، وتفسير القسامات في الدم أن يقتل رجل فلا يشهد على قتل القاتل إياه بينة عادلة كاملة، فيجئ أولياء المقتول فيدعون قبل رجل أنه قتله، ويدلون بلوث من بينة غير كاملة، وذلك أن يوجد المدعى عليه متلطخا بدم القاتل في الحالة التي وجد فيها أو يشهد رجل عدل أو امرأة ثقة أن فلانا قتله أو يوجد القاتل في دار القاتل وقد كان بينهما عداوة ظاهرة قبل ذلك، فإذا قامت دلالة من هذه الدلالات سبق إلى قلب من سمعه أن دعوى الأولياء صحيحة فيستحلف أولياء القاتل خمسين يمينا - ولا يكون فيهم صبي ولا امرأة ولا مجنون ولا عبد - أن فلانا الذي ادّعوا قتله انفراداً بقتل صاحبهم ما شركه في دمه أحد فإذا حلفوا خمسين يمينا استحقوا دية قاتلهم، فإن أبوا أن يحلفوا مع اللوث الذي أدلوا به، حلف

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧٢/١٥.

(٢) وهو من أيام العرب المشهورة وكانت لبني يربوع على عساكر النعمان بن المنذر بعدما أراد أن يأخذ منهم الرادفة، وهي بمنزلة الوزارة، فرفضوا، ينظر تفاصيل اليوم عند ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٤٢٤/٢.

(٣) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٤١٣/١٥.

(٤) الجوهري، الصحاح، ص ٩١٥، [مادة قسم].

المدعى عليه وبرئ، وإن نكل المدعى عليه عن اليمين، خُير ورثة القتيل بين قتله أو أخذ الدية من مال المدعى عليه^(١).

وقد ذكر ابن أبي الحديد أن أبا طالب أول من سن القسامة في الجاهلية في دم عمرو بن علقمة ثم أثبتها السنة في الإسلام^(٢)، وكان أبو طالب قد أتاه فقال له:

«اخْتَرْنَا مِنْنا إِحْدَى ثَلَاثٍ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تُؤَدِّيَ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ، فَإِنَّكَ قَتَلْتَ صَاحِبِنَا، وَإِنْ شِئْتَ حَلَفَ خَمْسُونَ مِنْ قَوْمِكَ أَنَّكَ لَمْ تَقْتُلْهُ، فَإِنْ آبَيْتَ قَتَلْنَاكَ بِهِ فَأَتَى قَوْمَهُ، فَقَالُوا نَحْلِفُ. فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ كَانَتْ تَحْتَ رَجُلٍ مِنْهُمْ قَدْ وَكَلَتْ لَهُ. فَقَالَتْ يَا أَبَا طَالِبِ أَحِبُّ أَنْ تُجِيزَ ابْنِي هَذَا بِرَجُلٍ مِنَ الْخَمْسِينَ وَلَا تَصْبِرُ يَمِينَهُ حَيْثُ تُصْبِرُ الْأَيْمَانَ. فَفَعَلَ فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ يَا أَبَا طَالِبِ، أَرَدْتَ خَمْسِينَ رَجُلًا أَنْ يَحْلِفُوا مَكَانَ مِائَةِ مِنَ الْإِبِلِ، يُصِيبُ كُلُّ رَجُلٍ بَعِيرَانِ، هَذَانِ بَعِيرَانِ فَأَقْبَلُهُمَا عَنِّي وَلَا تَصْبِرُ يَمِينِي حَيْثُ تُصْبِرُ الْأَيْمَانَ. فَقَبِلَهُمَا، وَجَاءَ ثَمَانِيَةٌ وَأَرْبَعُونَ فَحَلَفُوا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا حَالَ الْحَوْلُ وَمِنَ الثَّمَانِيَةِ وَأَرْبَعِينَ عَيْنٌ تُطْرَفُ»^(٣).

من خلال استقراءنا لهذه الرواية يتبين لنا إن العرب قبل الإسلام كانوا يدركون أهمية القسم وتأثيره وإن القسم الباطل يؤدي إلى هلاك صاحبه بدليل أن المرأة الهاشمية طلبت أن يعفى ولدها من القسم وكذلك الرجل الذي دفع حصته من الدية ليتلافى وقوع العقاب إن كانت القصة صحيحة.

وهناك من يرى إن أول من حكم بالقسامة لقريش هو الوليد بن المغيرة المخزومي^(٤)،

(١) ابن منظور، لسان العرب، ٧، ٢٦٧، (مادة قسم)؛ الزبيدي، تاج العروس، ١٧/٥٧١.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٦٤.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، ٤/٢٣٧.

(٤) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٣٧.

وكان يجلس بذئ المجاز فيحكم بين العرب أيام عكاظ وكان رجل من بني عامر بن لؤي رافق رجلاً من بني عبد مناف بن قصي فجرى بينهما كلام في حبل فعلاه بالعصا حتى قتله فكاد دمه يطل فقام دونه أبو طالب بن عبد المطلب وقدمه إلى الوليد فاستحلفه خمسين يميناً أنه ما قتله ففي ذلك يقول أبو طالب:

أمن أجل جبل ذي رمام علوته
بمنسأة قد جاء حبل وأحبل
هلم إلى حكم ابن صخرة إنه
سيحكم فيما بيننا ثم يعدل^(١)

هنا نرى أنّ هناك تناقضاً واضحاً في من سنّ القسامة أول مرة، وقد أورد ابن أبي الحديد روايتين مختلفتين في الموضوع نفسه وقد تكون تلك الرؤيا نابعة من منهجية ابن أبي الحديد في إيراد وجهات النظر المختلفة وعدم التقييد بوجهة نظر واحدة ليعطي للقارئ فرصة الاستنتاج والحكم، أو قد تكون هي رواية واحدة وإن من سنّ القسامة وطلبها أبو طالب ولكن من حكم بها فهو الوليد بن المغيرة كونه من حكم في القضية.

والقسامة أثبتتها السنة في الإسلام^(٢)، فقد قضى بها الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين أناس من الانصار من بني حارثة في قتل ادعوه على اليهود، فيذكر أنّ عبد الله بن سهل ومحبيصة بن مسعود أتيا خيبر ففترقا في النخل فقتل عبد الله بن سهل فجاء عبد الرحمن بن سهل وحوبيصة ومحبيصة ابنا مسعود إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتكلموا في أمر صاحبهم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«أَسْتَحِقُّونَ قَتِيلَكُمْ، أَوْ قَالَ صَاحِبِكُمْ، بِأَيْمَانِ خَمْسِينَ مِنْكُمْ».

قالوا يا رسول الله أمر لم نره. قال صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٣٣/١٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٦٤/١٥.

«فَتَبْرُكُكُمْ يَهُودُ فِي أَيْمَانِ خَمْسِينَ مِنْهُمْ».

قالوا يا رسول الله قومٌ كفار.

فَوَدَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَبْلِهِ^(١).

رابعاً: الدية:

الأصل في الدية أخذها من القاتل إن كان قادراً فإن لم يكن قادراً على حملها وضع حملها على ذوي العصابة أي على أقربائه وذوي رحمه حسب رابطة الدم^(٢).

ويعبر عن الدية بلفظة أخرى هي العقل وسميت عقلاً، لأن الدية كانت عند العرب في الجاهلية إبلاً، لأنها كانت أموالهم فسميت الدية عقلاً لأن القاتل كان يكلف أن يسوق الدية إلى فناء ورثة المقتول فيعقلها بالعقل ويسلمها إلى أوليائه، وأصل العقل مصدر عقلت البعير بالعقل أعقله عقلاً وهو حبلٌ تُثنى به يد البعير إلى ركبته فتشدُّ به، والعاقلة هم العصابة وهم القرابة من قبل الأب الذين يعطون دية قتل الخطأ^(٣).

وتختلف الدية باختلاف مكانة القاتل أو المقتول، فإذا كان القاتل من سواد الناس ومن القبائل الصغيرة والضعيفة كانت دية المولى فيهم وهو الحليف خمساً من الإبل ودية الصريح عشر^(٤)، أما إذا كان القاتل من أشرف القبيلة فتزيد دية تبعاً لمنزلة القاتل ومكانته ثم سنَّ العرب دية النفس مائة من الإبل.

وذكر ابن أبي الحديد أن أول من سنّها عبد المطلب فجرت في قريش والعرب سنته^(٥).

(١) البخاري، صحيح البخاري، ١٠٦/٧.

(٢) علي، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٥٩٢/٥.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ٢٤٧/٦، (مادة عقل).

(٤) الاصفهاني، الاغانى، مج ١، ٥٧٦/٣.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٦٠/١٥.

وقيل إنَّ أول من سنّها أبو سيار العدواني الذي كان يفيض بالناس في المزدلفة^(١)، وكان الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد أقرها، إذ قال في خطبته التي ذكر قسمًا منها ابن أبي الحديد عند فتح مكة:

«وفي قتيل شبه العمد قتيل العصا والسوط الدية مغلظة مائة ناقه منها أربعون في بطونها أولادها، إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بأبائها، كلكم لآدم وآدم من تراب»^(٢).

أما دية الملوک، ففي الجاهلية تسمى دية المشعرة، وذكر ابن أبي الحديد أنَّ (الرجل إذا قتل وهو من أهل بيت المملكة ودي عشر ديات)^(٣)، واحتمل سيار بن عمرو بن جابر الفزاري للأسود دية ابنه ألف بعير، وهي دية الملوک، ورهنه بها قوسه فوفاه بها^(٤).

وعلى الرغم من أنَّ دية الملوک كانت كبيرة وثقيلة على صاحبها إلا أن القبائل كانت تدفعها اتقاء شر الحروب، وهناك من رفضها ووجد أنها لا تعادل أبداً حياة القتيل، فعندما قتل كليب أرسل أهله رجالاً منهم إلى بني شيان، فأتوا مرة بن زهل بن شيان وهو بين قومه فقالوا له: (إنكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كلييا بناقة وقطعتم الرحم، وانتهكتم الحرمه، وإنا نعرض عليك خلا لا أربعا لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع، إما أن تحيي لنا كلييا أو تدفع إلينا قاتله جساساً فنقتله به، أو هماماً فإنه كفؤ له، أو تمكنا من

(١) أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥ هـ)، الاوائل، وضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العالمية، (بيروت ١٩٩٧)، ص ١٥؛ علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٥٩٣/٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢١٢/١٧؛ تنظر الخطبة عند ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد ابو حاتم التميمي البستي (ت ٣٥٤ هـ)، الثقات، مؤسسة الكتب الثقافية، (الهند ١٣٩٣ هـ)، ٥٥/٢.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٠٣/١٥.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١٤٤/٥.

نفسك، فإن فيك وفاء لدمه، فقال لهم: أما إحيائي كليياً فلست قادراً عليه، وأما دفعي جساساً إليكم فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا أدري أي بلاد قصد، وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومهم فلن يسلموه بجريرة غيره، وأما أنا فما هو إلا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل فما أتعجل الموت، ولكن لكم عندي خصلتان، أما إحداها فهؤلاء أبنائي الباقون، فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم، وأما الأخرى فإني أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر، فغضب القوم وقالوا: قد أسأت ببذل هؤلاء وتسومنا اللبن من دم كليب؟ ونشبت الحرب بينهم^(١).

وعندما تكون الديات كبيرة ولا تستطيع القبيلة دفعها يذهبون إلى أشرف القبائل يطلبون العون في ذلك، وكان العرب يتفاخرون في قضاء حاجات الناس ودفع دياتهم حتى من دون أن يعرفوهم، فذكر ابن أبي الحديد أن بني كلب بن وبرة افتخرت بينها في أنديتها فقالت نحن لباب العرب وقلبها، ونحن الذين لا ننازع حسبا وكرما، فقال شيخ منهم إن العرب غير مقرة لكم بذلك إن لها أحسابا، وإن منها لبابا، وإن لها فعالا، ولكن ابعثوا مائة منكم في أحسن هيئة وبزة ينفرون من مروا به في العرب ويسألونه عشر ديات ولا يتسبون له، فمن قرأهم وبذل لهم الديات فهو الكريم الذي لا ينازع فضلا، فخرجوا حتى قدموا على أرض بني تميم وأسد، فنفروا الأحياء حياً فحيا وماء فماء لا يجدون أحدا على ما يريدون، حتى مروا على أكثم بن صيفي فسألوه ذلك، فقال: من هؤلاء القتلى ومن أنتم وما قصتكم فإن لكم لشأنا باختلافكم في كلامكم، فعدلوا عنه، ثم مروا بقتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي فسألوه عن ذلك فقال من أنتم قالوا من كلب بن وبرة فقال: إني لأبغي كلبا بدم فإن انسلخ الأشهر الحرم وأنتم بهذه الأرض

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٣٤٢/٢.

وأدرككم الخيل نكلت بكم وأثكلتكم أمهاتكم، فخرجوا من عنده مرعوبين فمروا بعطارد بن حاجب بن زرارة فسألوه ذلك، فقال: قولوا بيانا وخذوها، فقالوا أما هذا فقد سألكم قبل أن يعطيكم فتركوه، ومروا ببني مجاشع بن دارم فأتوا على وادٍ قد امتلأ إبلا، فيها غالب بن صعصعة يهنأ منها إبلا فسألوه القرى والديات فقال: هاكم البزل قبل النزول فابتزوها من البرك وحوزوا دياتكم ثم انزلوا فتنزلوا، وأخبروه بالحال وقالوا:

أرشدك الله من سيد قوم لقد أرحتنا من طول النصب ولو علمنا لقصدنا إليك^(١)،
وقد ذكر ابن أبي الحديد أبياتاً للفرزدق يثبت هذه الحادثة يقول فيها:

ألا هل علمتم ميثاً قبل غالب قرى مائة ضيفاً ولم يتكلم
وإذ نجت كلباً على الناس أيهم أحق بتاج الماجد المتكرم
فلم يجل عن أحسابهم غير غالب جرى بعناني كل أبلج خصرم^(٢)

ولم تكن الدية مقتصرة على قتيل القبائل فقط، فقد ذكر ابن أبي الحديد أن العرب كانوا إذا طالت علة الواحد منهم وظنوا أن به مساً من الجن لأنه قتل حية أو قنفذا عملوا جمالاً من طين وجعلوا عليها جوالق وملئوها حنطةً وشعيراً وتمرّاً وجعلوا تلك الجمال في باب جحر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم تلك، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال الطين فإن رأوا أنها مجالها قالوا لم تقبل الدية فزادوا فيها وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا قد قبلت الدية واستدلوا على شفاء المريض وضربوا بالدف قال بعضهم:

قالوا وقد طال عنائي والسقم احمل إلى الجن جمالاتٍ وضم

(١) شرح نهج البلاغة، ٩٨/١٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٩٨/١٥؛ تنظر الابيات عند الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية (ت ١١٤ هـ)، الديوان، شرحه وضبطه وقدم له علي فاعور، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٨٧)، ص ٥٢٩.

فقد فعلتُ والسقامُ لم يرم فبالذي يملك برئي أعتصم^(١).

وكانت العرب تعيب على من يأخذ الدية ويرضى بها وكانت عندهم من أشد العار فيلزم ذوي القتل بالأخذ بالثأر فإذا عجزوا كانت قبيلته ملزمة بثأره بقتل القاتل أو أقرب الناس إليه وهذا الأمر يؤدي إلى وقوع القتال والحروب، وذكر ابن أبي الحديد أنّ العرب تسمي آخر يوم من شوال فلتة فكل من لم يدرك ثأره فيه فاته لأنهم كانوا إذا دخلوا في الأشهر الحرم لا يطلبون الثأر وذو القعدة الذي يأتي بعده من الأشهر الحرم فسموا ذلك اليوم فلتة لأنهم إذا أدركوا فيه ثأرهم فقد أدركوا ما كان يفوتهم^(٢).

على الرغم من ذلك فإن بعضهم كان يقبل بالدية لتلافي تبعات الأخذ بالثأر فيلجأ بعضهم إلى التعقية، أو العقيقة وهي سهم الاعتذار، وأصل هذا أن يقتل رجل من القبيلة فيطالب القاتل بدمه فتجتمع جماعة من الرؤساء إلى أولياء القاتل ويعرضون عليهم الدية ويسألون العفو عن الدم فإن كان وليه قوياً حمياً أياً أخذ الدية وإن كان ضعيفاً شاور أهل قبيلته فيقول للطالين إن بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهي فيقول لهم الآخرون ما علامتكم؟ فيقولون نأخذ سهماً فنركبه على قوس ثم نرمي به نحو السماء فإن رجع إلينا ملطخاً بالدم فقد نهينا عن أخذ الدية ولم يرضوا إلا بالقود وإن رجع نقياً كما سعد فقد أمرنا بأخذ الدية وصالحوا قال فما رجع هذا السهم قطّ إلا نقياً ولكن لهم بهذا عذر عند جهّالهم^(٣).

سادساً: السجن:

السَّجْنُ لغة: الحَبْسُ والسَّجْنُ بالفتح المصدر سَجَنَهُ يَسْجُنُهُ سَجْنًا أي حبسه،

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٤٠/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢٤/٢.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ٢٤٦/٦.

والسَّجَانُ صاحبُ السِّجْنِ^(١).

السجن اصطلاحاً: هو المكان الذي جرى إعداده وتهيئته لتنفيذ الاحكام على الاشخاص المتهمين المراد حبسهم^(٢).

على الرغم من عدم ورود اشارات واضحة عن وجود السجون عند العرب قبل الإسلام إلا أن هذا لا يمنع من الاعتقاد بوجوده إذ إن ذكرها في القرآن الكريم دليلٌ على إن العرب كانوا على معرفة بهذا المفهوم قبل نزوله في القرآن الكريم منها قوله تعالى:

﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾^(٣).

كذلك وردت إشارات عن وجود السجن عند العرب حوتها اشعارهم وكتبهم في التاريخ والأدب كما سنيين لاحقاً، ولا نتعد عن الحقيقة إذا قلنا إن العرب في المدن كانوا قد عرفوا نوعاً من المدنية ساعدتهم على إيجاد اماكن لحجز أصحاب التهم والجنايات حين إنزال العقاب الرادع لسلوكهم المنحرف عن العرف عندهم، فقد كان في اليمن سجون يحبس بها أصحاب الجنايات وهي في قلاع الملوك وفي المباني المحصنة وقد وردت كلمة (خصق) وتعني السجَّان أو الحافظ للسجن في لغة أهل سبأ، وهذا يعني أنهم عرفوا السجن قبل الاسلام^(٤)، فضلاً عن ذلك فإن عرب قبل الإسلام لم يكونوا بمعزل عن حضارات البلاد المجاورة، وإثماً كان لهم اتصال وثيق بها وتعاملوا معها تجارياً وثقافياً، والسجون كانت ومعروفة لا سيما عند الفرس الذين كانت لهم سجون متعددة

(١) ابن منظور، لسان العرب، ٣٧٣/٤، (مادة سجن).

(٢) الطائي، رائد محمد حامد حسن، أوضاع السجون والسجناء في الدولة العربية الاسلامية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٩، ص ١٨.

(٣) سورة يوسف: الآية ٤٢، وردت كلمة السجن في هذه السورة (ست مرات).

(٤) علي، الفصل، ٥٨٨/٥؛ الصمد، واضح، السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الاموي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، (بيروت ١٩٩٥) ص ١٦.

وكانوا يستخدمون بعضاً منها للحبس مدداً طويلة، فقد حبس كسرى النعمان بن المنذر بساباط حتى هلك^(١)، وكانوا يستخدمون السجناء كمقاتلة، فعندما طلب سيف بن ذي يزن^(٢) مساعدتهم في قتال الحبشة أمدهم بالسجناء وكان عددهم (ثمانمائة رجل)، كان قد حبسهم للقتل، وحملهم في ثماني سفن في كل سفينة مائة رجل^(٣)، وذكر ابن أبي الحديد أن عدد السجناء (ثلاثة آلاف) مع قائدهم بوهرز الديلمي الذي كان سجيناً معهم وقد استهان ابن ذي يزن من قلة عددهم أول الأمر فقال لأنوشروان: أيها الملك أين تقع ثلاثة آلاف من خمسين ألفاً فقال يا أعرابي كثير الحطب يكفيه قليل النار^(٤).

ويبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه، فقد اتفقت أغلب الروايات على أن عددهم (ثمانمائة رجل) وقد يكون ابن أبي الحديد قد قصد الجيش بأكمله سجناء فارس مع ما موجود مع سيف بن ذي يزن من مقاتلين.

أما عرب المناذرة فقد عرفوا السجن وأعدوا أماكن خاصة لهذا الغرض وذكر ابن أبي الحديد أن عدي بن زيد العبادي كان قد زارته بنية له صغيرة اسمها هند وهو في حبس النعمان ويدها مغلولتان إلى عنقه فأنكرت ذلك وقالت: ما هذا الذي في يدك وعنقك يا أبت وبكت فقال:

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٤٥/٥.

(٢) سيف بن ذي يزن (ت ٥٧٤ م) من ملوك العرب اليمانيين ودهاتهم، ولد ونشأ بصنعاء، استعان بالفرس في تثبيت ملكه، فمكث في الملك نحو خمس وعشرين سنة، أو دون ذلك، قتله الأحباش، بعد أن جعل قسماً منهم خدماً في قصره وهو آخر من ملك اليمن من قحطان، ينظر ابن قتيبة، محمد بن عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦)، المعارف، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠١١ م)، ص ٣٥٣؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، ١٤٩/٣.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٤١/٢.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٢٩٩/٣.

ولقد ساءني زيارةُ ذي قُربى حبيبٌ لودنا بنا مشتاقٍ
ساءهُ ما بنا تين في الأيدي وإشـناقها إلى الأعناقِ^(١).

ويبدو لنا من خلال قراءتنا لهذه الرواية ان عدي بن زيد كان في أحد سجون المناذرة وانهم عرفوا السجن، بل أنهم استخدموا القيود في اليدين والعنق أثناء الحبس زيادة في إهانة السجين ووجود ظاهرة الضغط والتعذيب ضد السجناء، ولم تكن هناك مدة زمنية أو حكم معين، بل ينتظر شفاة الملك أو صاحب القرار، ويتجلى هذا لنا من خلال ابيات عدي بن زيد التي بعثها للنعمان من سجنه:

أبْلِغِ النُّعْمَانَ عَنِّي مالِكَاً أنه قد طال حَبْسِي واثْتِظَّارِي
لو بَغَيْرِ المَاءِ حَلْقِي شَرِقٌ كُنْتُ كَالغَصَّانِ بِالماءِ اغْتِصَّارِي^(٢).

أما في الحجاز ومكة فقد ذكر جواد علي (لما كان من الصعب بل من غير الممكن للقبائل الحكم بالسجن على المجرمين لعدم توفر السجون عندها لجأت إلى عقوبة الطرد، أي طرد المجرم إلى مكان ما يقرر لمدة معينة بحيث لا يسمح للمجرم بالهجرة إلى منازل القبيلة خلال مدة الطرد)^(٣).

وعلى الرغم من عدم وجود نص تاريخي يذكر فيه السجن وصفاته والشخصيات التي سجنت في تلك المدة إلا أن هذا لا يعني عدم معرفة العرب في الحجاز ومكة السجون مع ظهور بعض الاشارات عن وجود السجن والتعذيب في بداية الدعوة الاسلامية، إذ تناقلت الروايات تعذيب أهل مكة للمسلمين الذين آمنوا بالإسلام وطال

(١) شرح نهج البلاغة، ١/١٧٠؛ تنظر الابيات عند ابن زيد، عدي العبادي، الديوان، تحقيق وتجميع محمد جبار

المعيد، دار الجمهورية للنشر، (بغداد ١٩٦٥ م)، ص ١٥٠.

(٢) ابن زيد، عدي، الديوان، ص ٩٣؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ١٢٣.

(٣) الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٥/٥٨٧.

الحبس والتعذيب الكثير من الشخصيات المعروفة، ومنع قسم منهم من اللحاق بالمهاجرين إلى مكة، فذكر ابن هشام (وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو مجوس)^(١)، وقد تكون السجون بسيطة تتلائم مع بساطة أهل البادية، فقد يكون السجن مكاناً بسيطاً في بيوت كبار القبيلة وساداتها أو عن حفرة في الأرض، فلا بد أن يكون هناك مكان لتوقيف الجاني حتى يبت في أمره أو تنفيذ العقوبة المترتبة عليه وإلا كيف يظل طليقاً لا سيما إذا كانت جريمة الجاني تستوجب القصاص منه كالقتل أو قطع اليد أو غيرها من العقوبات كما بين أحد الباحثين المعاصرين^(٢).

وعرف العرب عقوبات أخرى مثل عقوبة السارق، فالسارق عندهم هو من جاء مستتراً إلى حرز فأخذ منه ما ليس له، فإن أخذ من ظاهر فهو مختلس ومستلب ومنتهب ومحترس فإن منع مما في يديه فهو غاصب^(٣)، وكان العرب يقطعون يد السارق اليمنى، ويصلبون قاطع الطريق، وقد صلب النعمان بن المنذر رجلاً من بني عبد مناف بن دارم من تميم كان يقطع الطريق، وقطعت قريش أيدي رجال في الجاهلية مارسوا السرقة منهم وابصة بن خالد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم سرق في الجاهلية فقطعت يده^(٤)، ودُكر أن عبد المطلب أول من سنّها ومنهم من يقول الوليد بن المغيرة^(٥).

(١) أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٢١٣ هـ)، السيرة النبوية، قدم لها وعلق عليها وضبطها، طه عبد الرؤوف، دار الجليل، (بيروت ١٩٨٧)، ١٠٤/٢.

(٢) الحصونة، رائد حمود عبد الحسين، نشأة السجون وتطورها في الدولة العربية حتى نهاية التسلط التركي ٣٣٤ هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البصرة، كلية التربية، ٢٠٠٢، فص ١ ص ٣٨.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ٤/٤٨، (مادة سرق).

(٤) ابن حبيب، المحبر، ص ٢٢٨.

(٥) علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦٠٥/٥.

المبحث الرابع الحياة الأسرية عند العرب قبل الإسلام

تعد الحياة الأسرية من المواضيع المهمة في حياة العرب قبل الإسلام وأفردوا لها الكثير من الروايات في قصصهم وأشعارهم، وقد أبرزوا الجانب الذكوري، إذ تكون السلطة والسيادة فيها للأب، فنظام الأبوية هو النظام الاجتماعي السائد بين القبائل البدوية العريقة، إذ كان يظن أنّ كل شعب منحدر من أب واحد ينسب إليه^(١)، وكانت المرأة تحتل فيه مكاناً وضيعاً لضراروة الحياة البدوية وخطرها واعتمادها على الرجال، إلّا أنّ ذلك لم يمنع أن تكون للمرأة مكانتها في العائلة ودورها في الحياة العامة.

وقد ذكر لنا ابن أبي الحديد صوراً مختلفة لدور المرأة في حياة الأسرة وتأثير العادات والتقاليد الاجتماعية على الكثير من تصرفاتها كما ذكر بعض أنواع الزواج والطلاق السائدة أيضاً، وتطرق إلى بعض العادات المنبوذة كالزنا ووآد البنات وغيرها من المواضيع التي سوف نتناولها على وفق المحاور الآتية:

أولاً: المرأة في مجتمع قبل الإسلام:

إنّ مكانة المرأة في مجتمع قبل الإسلام هي دون مكانة الرجل لأنهم المدافعون عن القبيلة وحمايتها، لذا كانت العرب - وكما ذكر ابن أبي الحديد - (تفتخر بكثرة

(١) جمعة، محمد محمود، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية، مكتبة الثقافة الدينية، مصر

الولد، وتمدح الفحل القبيس^(١) و تدم العاقر والعقيم، قال عامر بن الطفيل يعني نفسه:

لبئس الفتى إن كنتُ أعورَ عاقراً
جباناً فما عذري لدى كل محضِر^(٢).

وكانت المرأة التي لا تنجب ذكوراً تتعرض للهجر وفرار زوجها منها كما فعل أبو حمزة الضبّي عندما ترك خيمة امرأته، وكان يقيم ويبيت عند جيران له، حين ولدت امرأته بنتاً، فمرّ يوماً بجنائها وإذا هي ترقصها وتقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا
يظلُّ في البيت الذي يلينا
غضباناً ألا نلدُ البنينا
تالّله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذُ ما أعطينا
ونحن كالأرض لزارعينا
نبتُ ما قد زرعه فينا^(٣)

أمّا المرأة نفسها فقد كان ينظر لها نظرة تصغير واحتقار لأنها لا تغني في الحرب شيئاً بل هي عبء على القبيلة، لأنها مقصد الأعداء من أجل السبي، فسبي المرأة عندهم عار لا يسكت عنه، وتورث قبيلتها الدّل، وإذا تزوجت فليس أولادها لهم وإنّما لسواهم من الناس البعيدين، لذا عندما سُئل حكيم العرب أكثم بن صيفي عن النساء

(١) القبيس: الفحل السريع الإلقاح، ينظر الجوهري، الصحاح، ص ٨٨٦، [مادة قبس].

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٨٤.

(٣) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ)، الجامع لاحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي،

(بيروت ١٩٨٥)، ٧٠/١٦.

قال (إنَّهن يلدن الاعداء ويورثن البعداء)^(١)، وقال أحدهم:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعاد^(٢)

وليس أدل على بغضهم للمرأة قوله تعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٣).

وبعضهم يتخلص من البنات بوأدهن كما سنرى لاحقاً، و(كانوا لا يورثون البنات ولا النساء ولا الصبيان شيئاً من الميراث، ولا يورثون إلّا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل، فأول من ورّث البنات في الجاهلية فأعطى البنت سهماً والابن سهمين ذو المجاسد يشكري وهو عامر بن جشم بن حبيب)^(٤).

هذا بالنسبة للمرأة الحرة، أمّا الأمة فكان بعضهن يُستَعْلَن في بيوت الدعارة والملاهي وفي حوانيت الخمارين، كما منهنّ جوار يخدمن الشريقات، وكنّ في منزلة دانية وكان العرب اذا استولدوهنّ لم ينسبوا إلى أنفسهم أو لأدهن، إلّا اذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنتر بن شداد، فإنّ أباه لم يلحقه بنسبه إلّا بعد أن اظهر شجاعة فائقة ردت إليه إعتباره^(٥).

وعلى الرغم من تلك النظرة التشاؤمية للمرأة قبل الإسلام، فهذا لا يلغي دوراً

(١) شرح نهج البلاغة، ١١/٢٤.

(٢) أبو السعد، أحمد، أغاني ترقيص الأطفال عند العرب منذ الجاهلية حتى نهاية العصر الاموي، ط٢، دار العلم للملايين، (بيروت ١٩٨٢)، ص ٩١.

(٣) سورة النحل: الآية ٥٨.

(٤) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٢٤.

(٥) ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص ٧٢.

بارزاً آخر، إذ هناك بعض النساء اشتهرن بالعقل والحكمة والشعر كالمملكة الزَّباء^(١)، التي حيكت حولها القصص والروايات وهي صاحبة القصة المشهورة مع جذيمة في المثل العربي (لو كان يطاع لقصير أمر)^(٢)، وخديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت (ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث إلى الشام فيكون غيرها كعامة غير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربة)^(٤).

وعندما جاء الإسلام أكرم المرأة - حرة كانت أم أمة - فدعا إلى العناية بهنَّ والعطف عليهنَّ ومنح المرأة حق العلم والعمل فجاء قوله تعالى:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّا اللَّهُ كَانِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(٥).

ووصف الإمام علي بن أبي طالب عليه السَّلام المرأة فقال:

(١) الزَّباء بنت عمرو بن الظرب بن حسان ابن أذينة بن السميدع (ت ٢٨٥ م)، الملكة المشهورة في العصر الجاهلي، صاحبة تدمر ومملكة الشام والجزيرة، ملكت بعد مقتل زوجها وقيل أبها على يد جذيمة الأبرش الذي قتلته ثأراً له في حادثة مشهورة ثم قتلت نفسها بالسم بعد أن دخل عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة قصرها وهمَّ بقتلها وهناك من يقول إنهما انتتان، الأولى اسمها نائلة ولقبها الزَّباء، وهي صاحبة القصة مع جذيمة الأبرش، وقتلت نفسها بالسم، والثانية زينب المسماة عند الرومان (زنوبيا) وهي التي تولت الحكم بعد مقتل زوجها (أذينة) وماتت في سجن أورليان الروماني. ينظر، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١/١٧٨؛ البغدادي، خزنة الأدب، ٢٧٢/٧؛ الزركلي، الأعلام، ٤١/٣.

(٢) ينظر المثل والقصة في رسالتنا ص ٢٣١.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦٣/٢.

(٤) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري (٢٣٠هـ) الطبقات الكبرى، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، (القاهرة ٢٠٠١)، ١٧/١٠.

(٥) سورة النساء: الآية ٣٢.

«إِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ»^(١).

وكان كثيراً ما يتعرض إلى أحوال المرأة في الجاهلية والطرق التي تعامل بها ومن ذلك قوله عليه السلام:

«كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالهراوة أو الحديد فيعير بها عقبه من بعده»^(٢).

وقد أورد لنا ابن أبي الحديد في كتابه بعض العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية الخاصة بالنساء، وكانت جزءاً من تراث وحياة العرب قبل الإسلام منها:

إن المرأة المقلات _ وهي التي لا يعيش لها ولد - إذا وطئت القليل الشريف عاش ولدها، وقيل تتخطاه المقلات سبع مرات فذلك وطؤها له، وقيل إنما كانوا يفعلون ذلك بالشريف يقتل غدرا أو قودا^(٣). قال بشر بن أبي خازم^(٤):

تظل مقاليتُ النساءِ تطأنهُ يَقلُنَ أَلَا يلقى على المرءِ مئزراً

وقال الآخر:

تركنا الشعثينِ برمِلِ خبتِ تزورهُما مقاليتُ النساءِ^(٥).

وذكر ابن أبي الحديد أنَّ المرأة منهم كانت إذا عسر عليها خاطب النكاح نشرت جانباً

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٠/٢٥٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٦/٧٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٢٣.

(٤) ابن خازم، بشر بن عمرو بن عوف الاسدي (ت ٥٩٨ م)، الديوان، تحقيق ومراجعة صلاح الدين الهواري، وياسين الايوبي، دار ومكتبة الهلال، (بيروت ١٩٩٧)، ص ١١٧.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٢٣.

من شعرها وكحلت إحدى عينيها مخالفة للشعر المنشور وحجلت على إحدى رجليها ويكون ذلك ليلا وتقول (يا لكاح، أبغي النكاح، قبل الصباح) فيسهل أمرها وتتزوج عن قرب، قال أحدهم وقد رأى امرأة تفعل ذلك:

تصنعي ما شئت أن تصنعي وكحلي عينيكَ أولاً فدعي
ثم احجلي في البيت أو في المجمع ما لك في بعلٍ أرى من مطمع^(١).

ومن أفعالهم التي ذكرها ابن أبي الحديد (أنهم كانوا يزعمون أن الرجل إذا أحب امرأة وأحبه فشق برقعها وشقت رداءه صلح حبهما ودام فإن لم يفعل ذلك فسد حبهما)^(٢).

يبدو أن هذه التخيلات كانت عند عامة الناس والبسطاء منهم، وقد تنبه بعضهم إلى عدم فاعليتها ورفضها لأنها عبارة عن أوهام لا نفع منها. فقال سحيم عبد بني الحسحاس:

فكم قد شققنا من رداءٍ منيرٍ ومن برقعٍ عن طفلةٍ غير عابسٍ
إذا شقَّ بردٌ شقَّ بالبردِ برقعٌ دوايكَ حتى كلنا غير لابسٍ^(٣)

وقال آخر:

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٣٢/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٢٦/١٩.

(٣) عبد بني الحسحاس، السحيم، الديوان، تحقيق عبد العزيز الميمني، ط٣، دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، (القاهرة ٢٠٠٩)، ص ١٦، والبيتان المذكوران ضمن أربعة أبيات فقط في الديوان وأضاف إليهما ابن أبي الحديد بيتاً آخر غير موجود في الديوان وهو:

* نروم بهذا الفعل بقيا على الهوى وإلف الهوى يغري بهذي الوسوس، ينظر شرح نهج البلاغة ٣٢٦/١٩.

شقتُ ردائي يومَ برقةٍ عالجٍ
وأمكنني من شقِّ برقعكِ السحقا
فما بال هذا الودِّ يفسدُ بيننا
ويمحقُّ حبلَ الوصلِ ما بيننا محققاً^(١).

وذكر ابن أبي الحديد أن النساءَ كنَّ إذا غاب عنهن من يحببهن أخذن تراباً من موضع
رجله، كانت العرب تزعم أن ذلك أسرع لرجوعه، قالت امرأة:

أخذتُ تراباً من مواطئِ رجلِهِ
غداةَ غدا كيما يثوبَ مسلماً^(٢)

ومن عاداتهم التي ذكرها ابن أبي الحديد أن الرجل منهم إذا عشق ولم يسئل وأفرط
عليه العشق حمله رجل على ظهره كما يحمل الصبي وقام آخر فأحمى حديدة أو ميلا
وكوى به بين أليته فيذهب عشقه فيما يزعمون، قال أعرابي:

كويتم بين رانفتي جهلاً
ونارُ القلبِ يضرُّمها الغرامُ

وقال آخر:

شكوتُ إلى رفيقيَّ اشتياقي
وجاءا بالطيبِ ليكوياني
ولو أتيا بسلمي حين جاءا
فجاءاني وقد جمعا دواءً
ولا أبغي عدمتهما اكتواءً
لعاضاني من السقمِ الشفاء^(٣)

وذكر ابن أبي الحديد أن الخالع استشهد لهذا المعنى بقول كثير:

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٢٧/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٣٣/١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣٢٦/١٩.

أغاضر لو شهدت غداةً بُنْتُمْ
حنوءَ العائداتِ على وسادي
أويت لعاشقٍ لم تشكمينه
بواقدةٍ تلدِّعُ بالزنادِ^(١).

وعلى الرغم من أن ابن أبي الحديد درج أبياتاً كثيرة من الشعر كشاهد على اعتقاد العرب في الرجل الذي عشق ولم يسئل ولكنه عاد وانتقد الخالغ بإيراده هذا البيت ضمن هذا الباب بقوله (هذا البيت ليس بصريح في هذا الباب ويحتمل أن يكون مراده فيه المعنى المشهور المطروق بين الشعراء من ذكر حرارة الوجد ولذعه وتشبيهه بالنار إلا أنه قد روى في كتابه خبراً يؤكد المقصد الذي عزاه وادّعاه وهو عن محمد بن سليمان بن فليح عن أبيه عن جده، قال كنت عند عبد الله بن جعفر فدخل عليه كثير وعليه أثر علة فقال عبد الله: ما هذا بك؟ قال: هذا ما فعلت بي أم الحويرث ثم كشف عن ثوبه وهو مكوي وأنشد:

عفا الله عن أم الحويرث ذنبها
علام تعنيني وتكمي دوائيا
ولو آذنوني قبل أن يرقموا بها
لقلت لهم أم الحويرث دائيا)^(٢)

وهذه الرواية الأخيرة التي ذكرها الخالغ وابن أبي الحديد لهما دليل على أن هذه العادة لم يذهب بها الإسلام ما زالت تمارس وها هو كثير يكوي نفسه لما فعلت به أم الحويرث.

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٢٦/١٩؛ تنظر الابيات كاملة عند كثير، عبد الرحمن المعروف كثير عزة (ت ١٠٥ هـ)

الديوان، قدم له وشرحه مجيد طراد، دار الكتاب العربي، (بيروت ٢٠٠٤)، ص ٦٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٢٦/١٩؛ تنظر الابيات كاملة عند كثير، الديوان ص ٢٣٨.

ومن عاداتهم الأخرى أن صاحب الفرس المهقوع إذا ركبهُ فغرق تحته اغتلمت^(١) امرأته وطمحت إلى غيره، وقد عرف ابن أبي الحديد الهقعة فقال إنها دائرة تكون بالفرس وربما كانت على الكتف في الأكثر وهي مستقبحة عندهم، قال بعضهم لصاحبه:

إذا عرق المهقوعُ بالمرءِ أنعظتُ
حليتهُ وازداد حرُّ عجانها^(٢)

ولكثرة سفر الرجل وابتعاده عن الديار عدة أيام لغرض التجارة أو الحرب كان لا يأمن من خيانة زوجته له أثناء غيابه، لذلك ذكر ابن أبي الحديد أنّ الرجل منهم إذا سافر عمد إلى خيط فعقده في غصن شجرة أو في ساقها، فإذا عاد نظر إلى ذلك الخيط فإن وجده بحاله علم أن زوجته لم تحنه، وإن لم يجده أو وجده محلولا قال قد خاننتني وذلك العقد يسمى (الرتم)^(٣)، ويقال بل كانوا يعقدون طرفاً من غصن الشجرة بطرف غصن آخر وقال الراجز:

هل ينفعنك اليوم إن همّت بهم
كثرة ما توصي وتعاقد الرُّثم^(٤)

وأغلب الظن أنّ هذا الفعل لا يمارسه سوى الجهلة منهم الذين يؤمنون بالخرافات والتخيلات في حين رفضه آخرون وعلّقوا عليه، وفي أبيات الشعراء وسخريتهم التي ذكرها ابن أبي الحديد دليل على مخالفتهم له فقال احدهم:

(١) اغتلمت: رغبت بالنكاح. ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٤٦٤/٦، (مادة غلم).

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٢٨/١٩.

(٣) الرتيمة، خيط يشد في الاصبغ يستخدمه الإنسان ليستذكر به الحاجات، ينظر، ابن منظور، لسان العرب،

٤٦/٤، (مادة رتم).

(٤) شرح نهج البلاغة، ٣٢٢/١٩.

خائثُهُ لما رأتُ شيباً بمفرقِهِ وغرّة حلفُها والعقدُ للرثمِ

وقال آخر:

لا تحسبنَ رثائمًا عقدها تُنيك عنها باليقينِ الصادقِ

وقال آخر:

يعلُّ عمرو بالرتائمِ قلبَهُ وفي الحيّ ظبيُّ قد أحلّت محارمَهُ
فما نفعتُ تلك الوصايا ولا جنّت عليه سوى ما لا يُحبُّ رثائمُهُ

وقال آخر:

ما ذا الذي تنفك الرثائم
إذ أصبحت وعشقها مُلازم
وهي على لذاتها تداوم
يزورها طبُّ الفؤادِ عارم
بكل أدواء النساءِ عالم^(١).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ العرب كانوا يستخدمون الرتم لأموال أخرى كالمصاب بالحمى ويرون أنّ من حلها انتقلت الحمى إليه، قال الشاعر:

(١) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٢٢.

حللت رتيمةً فمكثت شهراً أكابد كلَّ مكروهِ الدواء^(١).

ومن غريب فعالهم التي ذكرها ابن أبي الحديد أنهم إذا كانوا في الحرب قد أخرجوا النساء فيلن بين الصفين ويرون أنّ ذلك يطفئ نار الحرب ويقودهم إلى السلم، قال بعضهم:

لقونا بأبوالِ النساءِ جهالةً ونحنُ نلاقيهم بيضِ قواضبِ

وقال الآخر:

هيهاتُ ردُّ الخيلِ بالأبوالِ إذا غدتُ في صورِ السَّعالي^(٢)

وقد استهجن بعضهم هذه العادة في الحرب ونسبها إلى الضعف والوهن والذعر والخوف من مواجهة العدو، وذكر ابن أبي الحديد قول أحدهم:

بالت نساءُ بني خراشة خيفةً منا وأدبرتِ الرجالُ شلالاً

وقال آخر:

بالت نساؤُهُم والبيضُ قد أخذتُ منهم ماخذُ يُستشفى بها الكلب^(٣).

ثانياً: النكاح:

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٢٢/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٤٢/١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣٤٢/١٩.

من أهم الملامح المميزة لعرب قبل الإسلام هو قوة القبيلة وتماسكها فهي تعيش معا وتدافع معا عن مصالحها، وقوة القبيلة تكمن في اتحاد أفرادها واعتقادهم بأنهم دم واحد تربطهم الأسرة الواحدة وأواصر النسب، تلك الأسرة التي تُعد (الوحدة الأساسية في نظام البدو الاجتماعي)^(١) للعرب قبل الإسلام، فالأبناء حين يتزوجون يقفون مع الأسرة، الأمر الذي يؤدي إلى اتساعها واتساع أواصر القوى بينها، فالزواج هو واحد من تلك الأسس الرئيسة المعتمدة في بناء الأسرة ثم القبيلة، لذلك كانت للعرب معايير وأسس في اختيار الزوجة، ففي وصية عمرو بن كلثوم التغلبي لبنيه التي ذكرها ابن أبي الحديد، قال: (زوجوا بنات العم بني العم فإن تعديتم بهن إلى الغرباء فلا تألوا بهن عن الأكفاء)^(٢)، وقد ذكر ابن أبي الحديد عدداً من أنواع النكاح التي كانت معروفة قبل الإسلام منها:

١. نكاح البعولة:

وهو النكاح السائد في مجتمع قبل الإسلام الذي يتماشى مع العادات والتقاليد الموروثة، وهو يعقد بالتراضي بين الطرفين وبصداق معلوم يحدد مقداره، فذكر ابن أبي الحديد أن أبا طالب عندما أراد تزويج الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم من السيدة خديجة قبل البعثة خطب خطبة النكاح وقال: (الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً وجعلنا الحكام على الناس ثم إن محمد بن عبد الله أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا وحزما وعقلا ورأيا ونبلا وإن كان في المال قل فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما أحببتكم من الصداق فعلي وله والله

(١) مهران، محمد بيومي، مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد الاول،

الرياض، ١٩٧٧، ص ١٣٢.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٩٤/١٧.

بعد نبأ شائع وخطب جليل)^(١).

وكان أهل الزوجة يوصونها قبل الزواج بإطاعة زوجها والتقيد برغبات الزوج، فذكر ابن أبي الحديد أنّ امرأة من نساء العرب أوصت ابنتها ليلة زواجها فقالت لها: (إنك قد خلفت العش الذي فيه درجت والوكر الذي منه خرجت إلى منزل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فكوني له أمة يكن لك عبداً)^(٢)، وأوصت امرأة أخرى ابنتها فقالت (كوني له فراشاً يكن لك معاشاً، وكوني له وطاء يكن لك غطاءً، وإياك والاكتتاب إذا كان فرحاً والفرح إذا كان كئيباً، ولا يطلعنّ منك على قبيح ولا يشمننّ منك إلا طيب ريح)^(٣).

ومن هنا نرى أنّ العرب كانوا يوصون بناتهم بالتقيد ببيت الزوجية وإطاعة المرأة للرجل، وما إن يختار الرجل المرأة زوجاً له صار هو بعلها وهي بعله أو بعلته، ومعناها أنّ المرأة هي في ملك الزوج^(٤).

٢. نكاح المقت:

وهو من أنواع النكاح غير الشائع عند العرب وذكر ابن أبي الحديد أنّ (الرجل إذا مات، قام أكبر ولده فالقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها فإن لم يكن له حاجة فيها، تزوجها بعض إخوته بمهر جديد)^(٥)، وكانت الوراثة في أهل يثرب أنّ الرجل يموت فيرث ابنه امرأة أبيه، لا تستطيع أن تمتنع، فإن أحبّ أن يتخذها اتخذها كما كان أبوه يتخذها، وإن كره فارقها، وإن كان صغيراً حبست عليه حتى يكبر، فإن شاء أصابها،

(١) شرح نهج البلاغة، ٥٦/١٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢٦٧/١٨.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٢٦٧/١٨.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ٣٥١/١، (مادة بعل).

(٥) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٢٥.

وإن شاء فارقتها^(١).

وقد يكون هذا النكاح سببه الميراث والأموال، فهم يحافظون على ثروة الأسرة حتى لا تذهب إلى رجل غريب عنها، أو يعود لفهمهم إن المرأة ملك الرجل فكان للابن أن يرثها كما يرث أموال أبيه وممتلكاته بعد وفاته.

وتدل تسميته بنكاح المقت على عدم انتشاره لأنه كان ممقوتاً من الاغلبية، فهو أشنع ما كانوا يفعلون، فكان يقال للذي يخلف على امرأة أبيه (الضيزن)، قال أوس ابن حجر:

والفارسيّة فيكم غير منكرة
فكلكم لأبيه ضيزنٌ سلف^(٢)

ومن خلال قراءتنا لهذا البيت من الشعر يبدو لنا أنّ هذا الزواج من أنواع الزواج الدخيلة على العرب، فهو من أصل فارسي وقد دخل الجزيرة العربية إما عن طريق العلاقات التجارية التي كانت تربطهم مع بلاد فارس، أو عن طريق القبائل المحاذية لهم.

وذكر ابن أبي الحديد أن ناجية بنت جرم خلف عليها الحارث بعد أبيه سامة بن لؤي بنكاح مقت^(٣)، وصنع أمية في الجاهلية شيئاً لم يصنعه أحد من العرب إذ زوج ابنه أبا عمرو امرأته في حياته منه فأولدها أبا معيط بن أبي عمرو بن أمية والمقيتون هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم، فإما أن يتزوجها في حياة الأب وهو يراه فإنه شيء لم

(١) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، ٤/٤٠٦.

(٢) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٢٥.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣/٩٥.

يكن قط^(١).

وعندما جاء الإسلام رفض العادات والتقاليد السيئة ومنها زواج المقت، (فقد كان محسن بن أبي قيس بن الأسلت ألقى ثوبه على امرأة أبيه كيشة بنت معن، من بني خزيمة، فورث نكاحها. ثم تركها لا يدخل بها ولا ينفق عليها، فأنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته، فقالت:

تركني لا ينفق عليّ ولا يخليّ سبيلي فألحق بأهلي، فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«ارجعي إلى بيتك فإن يحدث الله في شأنك شيئاً أعلمتك».

فأنزل الله جل وعز:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا

وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٢).

فأمره صلى الله عليه وآله وسلم فخلّى سبيلها^(٣).

ويبدو أن نكاح المقت استمر حتى بعد ظهور الإسلام، ثم إن التحريم جاء متأخراً، إذ إن ممارسته كانت على مستوى ضيق لذا تأخر تحريمه لحين وقوع الحادثة.

٣. نكاح الرهط:

وهذا النوع من النكاح كان موجوداً عند العرب قبل الإسلام وبموجبه (يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيها، فإذا حملت ووضعت ومرّ ليالٍ بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجلٌ منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول

(١) شرح نهج البلاغة، ١٥٦/١٥.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٢.

(٣) ابن حبيب، المحبر، ٢٢٦.

لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت وهو ابنك يا فلان فتسمي من أحبت منهم باسمه فيلحق به ولدها^(١).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ النابغة أم عمرو بن العاص كانت أمة لرجل من عنزة فسبيت فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمي بمكة ثم أعتقها فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب وأمّية بن خلف الجمحي وهشام بن المغيرة المخزومي وأبو سفيان بن حرب والعاص بن وائل السهمي في طهر واحد، فولدت عمرا فادّعاه كلهم فحكمت أمه فيه فقالت هو من العاص بن وائل وذلك لأن العاص بن وائل كان ينفق عليها كثيراً^(٢).

ويلاحظ في هذا النوع من النكاح أن القرابة بين الرجال لم تكن تشترط وأن المرأة تختار الرجل الغني حتى يتولى رعايتها ومولودها والانفاق عليها.

٤. نكاح السبي (الأسر):

كان النكاح بالأسر من أنواع الزواج المشهور عند العرب وذلك بسبب تاريخهم الحافل بالغزوات والحروب، فقد كان السبي قديماً أحد الاغراض، وكانوا يطلقون على المرأة المأخوذة في السبي اسم (النزيعَة) وهي التي انتزعت من أهلها وفصلت عنهم، والنزيع ولد الاسيرة وقد بلغ من كثرة السبي في الحروب أن قامت سوق منظمة في مكة لبيع السبي بيع العبيد^(٣).

ويسمى هذا النوع من النكاح بنكاح الضعينة لأن الرجل إذا سبى المرأة فله أن يتزوجها إن شاء وليس لها أن تأبى عليه ذلك لأنها في سبائه، وعليه يكون النكاح من

(١) أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥ هـ)، سنن أبي داود، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار الفكر (بيروت ١٩٩٠)، ٥٠٧/١.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢٢٢/٦.

(٣) جمعة، النظم الاجتماعية والسياسية، ص ٣٣.

دون خطبة أو مهر^(١)، وكان العرب يفتخرون بسبي النساء ويتعاملون معهن بفروسية ويذكرون بأشعارهم ذلك الزواج وفي ذلك يقول حاتم:

وما أنكحونا طائعين بناتهم
ولكن خطبناها بأسيا فإنا قسراً
فما زادها فينا السباء مذلةً
ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدراً
ولكن خلطناها بخير نساءنا
فجاءت بهم بيضاً وجوههم زهراً^(٢)

وعندما سبى النعمان نساء بني تميم واستعطفوه أن يرد عليهم السبي كل امرأة اختارت أباهما إلا ابنة قيس بن عاصم فإنها اختارت من سبها وفضلت البقاء معه^(٣).

وعندما جاء الإسلام نظر للمرأة السبية نظرة خاصة وعاملها معاملة حسنة فتزوج الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم جويرية بنت الحارث، وكانت من سبي بني المصطلق، واصطفى صفية بنت حيي بن أخطب النضرية وكانت تحت رجل من يهود خيبر قتل فأعتقها وتزوجها^(٤)، ولما شكت إليه أن أزواجه يعيرنها باليهودية، قال لها:

«أما إنك لو شئت لقلت فصدقت وصدقت: أبي إسحاق، وجدي إبراهيم، وعمي إسماعيل، وأخي يوسف»^(٥).

ويضرب لنا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً خلقياً في معنى العدالة بين النساء سواء كانت حرة أم أمة أم سبية فكلهن لجد واحد هو إبراهيم عليه السلام، وكل واحدة منهن هي أم المؤمنين كما جاء في القرآن الكريم:

(١) مهرا، مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة، ص ١٥٤.

(٢) الطائي، حاتم، الديوان، ص ١٣٣؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٦/١٣٧.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣/١٣٢.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٤/٢٣٧.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٦/١٣٣.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾^(١).

٥. نكاح البغاة:

في هذا النوع من النكاح (يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع من جاءها وهنّ البغايا كنّ ينصبن على أبوابهنّ رايات يكنّ علماً لمن أرادهنّ دخل عليهنّ فإذا حملت فوضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثمّ الحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه^(٢) ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك)^(٣)، وكان ابن جدعان يبيع الرقيق ويأمر جواريه أن يكتنّ رجال قريش من أنفسهم ليكثر رقيقه فيبيعه، فكانت رجالات قريش يقعن عليهن فيلدن، فاذا سُئلت الجارية من ابو ولدك قالت فلان؟ فيبيعه إلى أبيه^(٤).

وذكر ابن أبي الحديد أن أبا مريم السلولي كان خمّاراً في الجاهلية فقال: قدم علينا أبو سفيان بالطائف فأتاني فاشتريت له لحماً وخمراً وطعاماً فلما أكل قال: يا أبا مريم أصب لي بغياً، فخرجت فأتيت بسمية، فقلت لها: إن أبا سفيان ممن قد عرفت شرفه وجوده وقد أمرني أن أصيب له بغياً فهل لك، فقالت نعم يجيء الآن عبيد بغنمه وكان راعياً فإذا تعشى ووضع رأسه أتته، فرجعت إلى أبي سفيان فأعلمته، فلم نلبث أن جاءت تجر ذيلها فدخلت معه فلم تزل عنده حتى أصبحت^(٥)، وكان نتيجة هذا النكاح ولادة زياد بن أبيه.

وعلى الرغم من أن الإسلام هدم نكاح أهل الجاهلية كله إلا نكاح أهل الإسلام

(١) سورة الاحزاب: الاية ٦.

(٢) فالتاط به: أي التصق به، ينظر، ابن منظور، لسان العرب، ١١٦/٨، (مادة لوط).

(٣) ابو داود، سنن أبي داود، ٥٠٧/١.

(٤) ابن الكلبي، أبو منذر هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤ هـ)، مثالب العرب والعجم، تحقيق محمد حسن

الدجيلي، دار الاندلس، (بيروت ٢٠٠٩)، ص ٩٤.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٦/١٤٤.

اليوم، وحديث الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقين ماءه زرع غيره».

أراد النهي عن نكاح الحبائل لأنه إذا وطئها فقد سقى ماءه زرع غيره^(١)، إلا أن معاوية بن أبي سفيان ألحقَ زياد ابن أبيه بأبي سفيان وزعم أنه ابنه بنكاح الجاهلية من نطفة أقرها في رحم أمه سمية^(٢).

وهناك مجموعة من أنواع النكاح الأخرى لم يتطرق ابن أبي الحديد لها في كتابه وهي متعارف عليها في مجتمع العرب قبل الإسلام^(٣).

ثالثاً: الطلاق:

الطلاق لغة تعني: التخلية والارسال، والطلاق اصطلاحاً: حل عقدة النكاح التي تربط الرجل والمرأة^(٤)، وكان الطلاق مباحاً عند العرب ويعني عقدهم تنازل الرجل عن كل حقوقه التي كانت على زوجته ومفارقتها لها^(٥)، وكان من أشهر صيغ الطلاق (حبلك على غاربك) وذكر ابن أبي الحديد أنها كناية من كنايات الطلاق أي اذهب

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩/٥؛ ينظر الحديث عند ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ابراهيم بن عثمان الكوفي (ت ٢٣٥ هـ)، المصنف في الاحاديث والآثار، تحقيق سعيد اللحام، دار الفكر، (بيروت ١٩٨٩)، ٤٣٦/٣.

(٢) أبو حنيفة الدينوري، أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ)، الاخبار الطوال، قدم له ووثق نصوصه ووضع حواشيه، عصام محمد الحاج علي، دار الكتب العلمية، بيروت (٢٠٠١)، ص ٣٢٥.

(٣) منها نكاح الاستبضاع، ونكاح البدل، ونكاح الشغار، ونكاح المتعة، ونكاح الشراء، ونكاح الصديقة، ونكاح الاغتراب، ونكاح بالميراث، ينظر الملاح، هاشم يحيى، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠٨)، ص ٣٥٠ - ٣٥٤؛ زيدان، سلامة عبد السلام، نظام الزواج عند العرب قبل الإسلام وعصر الرسالة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٤، ص ٢٠.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ٤٦٠/٥، (مادة طلق).

(٥) الجميلي، تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدعوة الاسلامية، ص ٢٠٧.

حيث شئت لأن الناقة إذا ألقى حبلها على غاربها فقد فسح لها أن ترعى حيث شاءت وتذهب أين شاءت لأنه إنما يردّها زمامها فإذا ألقى حبلها على غاربها فقد أهملت، والغارب ما بين السنام والعنق، والمداحض المزلق^(١).

وهكذا فإنها تعني تسريح المرأة وإخلاء سبيلها من دون أن يكون هناك أي مجال للعودة، وقد وظّف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هذه المفردة واستخدمها في مكان آخر وهو طلاق الدنيا فقال عليه السلام:

«إِلَيْكَ عَنِّي يَا دُنْيَا فَحَبْلُكَ عَلَيَّ غَارِبِكَ قَدْ اِسْتَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكَ وَأَقَلْتُ مِنْ حَبَائِلِكَ
وَاجْتَنَبْتُ الدَّهَابَ فِي مَدَا حِضِّكَ أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَزْتَهُمْ بِمَدَاعِيكَ أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ
فَتَنَّتَهُمْ بِزَخَارِفِكَ فَهَا هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ وَمَضَامِينُ اللَّحُودِ»^(٢).

وقد استخدم الرجل عبارات أخرى لتسريح زوجته منها (الحقي بأهلك) أو (ارجعي إلى بيت أبيك)، وذكر ابن أبي الحديد أنّ الفاكهة بن المغيرة أحد فتيان قريش تزوج هند بنت عتبة وكان له بيت ضيافة يغشاه الناس فيدخلونه من غير إذن فخلا ذلك البيت يوماً فاضطجع فيه الفاكه وهند ثم قام الفاكه وترك هنداً في البيت لأمر عرض له ثم عاد إلى البيت فإذا رجل قد خرج من البيت فأقبل إلى هند فركلها برجله وقال من الذي كان عندك فقالت لم يكن عندي أحد وإنما كنت نائمة فقال (الحقي بأهلك) فقامت من فورها إلى أهلها^(٣).

وقد ذكر ابن أبي الحديد عدداً من أنواع الطلاق المعروفة عند العرب قبل الإسلام منها:

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٢٥/١٦؛ ابن منظور، لسان العرب، ٤١٠/٦، (مادة غرب).

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٢٤/١٦، كتب ورسائل (٤٥).

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣٠٦/١.

١. طلاق البائن^(١):

وهو من أنواع الطلاق الشائعة عند العرب قبل الإسلام وهو طلاق المرأة ثلاثاً على التفرقة، قال ابن عباس: (أول من طلق ثلاثاً على التفرقة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وكان العرب يفعلون ذلك؛ فيطلقها واحدة وهو أحق الناس بها، حتى إذا استوفى الثلاث: انقطع السبيل عنها)^(٢) فتصبح طالقة طلاقاً بائناً، ومعنى ذلك عدم الرجوع إلى الزوجة بعد وقوع الطلاق الثالث مهما أوجد المطلق له من أعدار^(٣).

وقد اقتبس الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هذا المعنى في طلاقه للدنيا فقال عليه السلام:

«يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا إِلَيْكَ عَنِّي أَبِي تَعَرَّضْتُ أُمَّ إِلَيَّ تَشَوَّقْتُ لَأَحَانَ حِينَكَ هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي لَا حَاجَةَ لِي فِيكَ قَدْ طَلَّقْتِكِ ثَلَاثًا لَا رَجْعَةَ فِيهَا فَعَيْشُكَ قَصِيرٌ وَخَطْرُكَ يَسِيرٌ وَأَمْلُكَ حَقِيرٌ، آه مِنْ قَلَّةِ الزَّادِ وَطُولِ الطَّرِيقِ وَبُعْدِ السَّفَرِ»^(٤).

وقال آخر وقد طلق امرأته فتلفتت إليه:

تَلَفْتُ تَرْجُو رَجْعَةً بَعْدَ فَرْقَةٍ وهيهاتَ مِمَّا تَرْتَجِي أُمَّ مَازِنِ
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنِّي جَمُوحٌ عَنَّاؤُهُ إذا كَانَ مِنْ أَهْوَاهُ غَيْرُ مَلَائِنِ^(٥)

(١) بانت المرأة عن الرجل فهي بائن، انفصلت عنه بطلاق. وتطبيقه بائنة، والطلاق البائن: الذي لا يملك الرجل فيه

استرجاع المرأة إلا بعقد جديد، ينظر، الزبيدي، تاج العروس، ٧٨/١٨.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٥٠٦.

(٣) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٠٩؛ علي، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٥٤٩/٥.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٧٩/١٨، حكم ومواعظ (٧٥).

(٥) شرح نهج البلاغة، ٣٣١/١٩.

ولكون هذا الطلاق من الانواع الصعبة التي لا رجعة فيه فكان العرب (يقولون لمن طلق ثلاثاً قد نحرها بمثلته)^(١) كدليل على صعوبة العودة.

ولكن على الرغم من ذلك فالعرب أوجدوا ما يعرف بـ(المحلل) وهو الرجل الغريب يعقد على المطلقة ثم يطلقها بعد العقد مباشرة لإعادتها إلى زوجها الأول وهو حل مذموم عند العرب ومحرم في الإسلام، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ألا أخبركم بالتيس المستعار؟».

قالوا بلى يا رسول الله، قال:

«هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له»^(٢).

٢. طلاق الخلع:

الخلع - بالضم - : طلاق المرأة ببدل منها، وهذا النوع من الطلاق يقضي بأن تدفع المرأة أو أقرباؤها مبلغاً من المال للزوج يتفقان عليه مقابل تخلية سبيلها^(٣)، وذكر ابن أبي الحديد أن أول خلع كان في العرب هو خلع عامر بن الظرب الذي كان قد زوج ابنته من ابن أخيه (فلما أراد تحويلها قال لأمها مري ابنتك ألا تنزل مفازة إلا ومعها ماء فإنه للأعلى جلاء وللأسفل نقاء ولا تكثر مضاجعته، فإذا مل البدن مل القلب ولا تمنعه شهوته فإن الخطوة في الواقعة فلم يلبث إلا شهراً حتى جاءته مشجوجة فقال لابن أخيه يا بني ارفع عصاك عن بكرتك فإن كان من غير أن تنفرك فهو الداء الذي ليس له دواء وإن لم يكن بينكما وفاق ففراق الخلع أحسن من الطلاق وأن تترك أهلك ومالك. فرد

(١) شرح نهج البلاغة، ١٦١/٢٠.

(٢) العيني، عمدة القارئ، ٢٣٦/٢٠.

(٣) الزبيدي، تاج العروس، ١٠٠/١١.

عليه صداقتها وخلعها منه^(١).

ويشمل ذلك ما تدفعه زوجة الأب المتوفي إلى ابنه الذي يتزوجها بعد وفاة أبيه من مال مقابل فراقه لها وتطليقه إياها^(٢)، واشترط أن يكون أمرهن بأيديهن إن شئن أقمن وإن شئن تركن معاشرتهم وأوقعن الطلاق وذلك لشرفهن وقدرهن، وطريقة طلاقها للرجل طريقة لا كلام فيها ولا خطاب، فقد كان طلاقهن أنهن إن كن في بيت من شعر حوّلن الخباء؛ فإن كان بابه قبل المشرق حولنه قبل المغرب، وإن كان بابه قبل اليمن حولنه قبل الشام؛ فإذا رأى ذلك الرجل علم أنها قد طلقت فلم يأتها^(٣). وهناك أنواع أخرى من الطلاق لم يذكرها ابن أبي الحديد في كتابه ويمكن متابعتها في الكتب والدراسات الأخرى^(٤).

رابعاً: الزنا:

الزنا هو أن يظأ الرجل المرأة المحصنة الغربية عنه^(٥)، ويسمى سفاحاً لأنه يكون عن غير عقد كأنه بمنزلة الماء المسفوح الذي لا يجبسه شيء، وقيل سمي الزنا سفاحاً لأنه ليس ثم حرمة نكاح ولا عقد تزويج وكل واحد منهما سفح منيته أي دققها بلا حرمة أباحت، دققها ويقال هو مأخوذ من سفحت الماء أي صببته، وكان أهل الجاهلية إذا

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٨/٢٦٨.

(٢) الجميلي، تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدعوة العباسية، ص ٢٠٩.

(٣) الاصفهاني، الاغانى، ١٧/٥٣٧.

(٤) منها طلاق الظهر، وطلاق الايلاء، وطلاق العضل، ينظر الترماني، عبد السلام زيدان، الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام دراسة مقارنة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (الكويت ١٩٩٨)، ص ٢٣٠ - ٢٣٤؛ زيدان، سلامة عبد السلام، نظام الزواج عند العرب قبل الإسلام وعصر الرسالة، ص ٢٠٤ - ٢٢٤.

(٥) علي، المفصل في تاريخ العرب، ٥/٥٥٩.

خطب الرجل المرأة قال: أنكحيني، فإذا أراد الزنا قال: سافحيني^(١).

وقد ذكر ابن أبي الحديد أن خوات بن جبير كان في الجاهلية يغشى البيوت ويقول شرذ جملي وأنا أطلبه وإنما يطلب النساء والخلوة بهن، وقد سأله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما فعل جملك يا خوات يمازحه فقال قيده الإسلام يا رسول الله^(٢).

ويبدو لنا من خلال قراءتنا لهذه الرواية أن هذا العمل كان منبوذاً في المجتمع، إذ لا يذهب إلى المواخير^(٣) سوى سفلة الناس، ولا يكون إلا تحت جناح الظلام حتى لا تراه العيون أو يتحجج كما تحجج خوات بأعذار واهية حتى يغطي عليهم وجهته الحقيقية.

وذكر ابن أبي الحديد مجموعة من ذوات الرايات والبغاة المشهورات قبل الإسلام مثل (أم طحال) امرأة بغي في الجاهلية ويضرب بها المثل فيقال (ازنى من أم طحال)^(٤).

ومنهن (النابغة) أم عمرو بن العاص كان اسمها سلمى وكانت أمة لرجل من عنزة فسبيت فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمي بمكة فكانت بغياً ثم أعتقها فوق عليها خمسة في طهر واحد، فولدت عمراً فنسبته إلى العاص بن وائل^(٥)، قال الإمام الحسن عليه السلام في مجلس معاوية في مفاخرة بينه وبين رجالات من قريش، موجهها كلامه لعمر بن العاص:

«أما أنت يا ابن العاص فإن أمرك مشترك وضعتك أمك مجهولاً من عهر وسفاح فيك

(١) ابن منظور، لسان العرب، ٤/٤٤٠، (مادة سفح).

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩/٥.

(٣) المواخير: جمع ماخور وهو مجلس الريبة ومجمع أهل الفسق والفساد وبيوت الخمارين، ينظر ابن منظور،

لسان العرب، ٨/١٦٤، (مادة مخر).

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٦/١٦٦.

(٥) شرح نهج البلاغة، ٦/٢٢٢.

أربعة من قريش فغلب عليك جزارها، الأهمهم حسبا، وأخبثهم منصبا»^(١).

ومنهن (سمية) أم زياد بن أبيه ذكر ابن أبي الحديد أن أبا سفيان بن حرب ذكر زياد ابن سمية هو يومئذ غلام فقال أنا ابوه أتيت أمه في الجاهلية سفاحاً^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد ان (هند بنت عتبة) كانت تذكر في مكة بفجور وعهر، وأن معاوية يعزى إلى أربعة إلى مسافر بن أبي عمرو وإلى عمارة بن الوليد بن المغيرة وإلى العباس بن عبد المطلب وإلى الصباح مغن كان لعمارة بن الوليد، وقد كان أبو سفيان دميماً قصيراً وكان الصباح شاباً وسيماً فدعته هند إلى نفسها فغشيها. وقالوا إن عتبة بن أبي سفيان من الصباح أيضاً وقالوا إنها كرهت أن تدعه في منزلها فخرجت إلى أجياد فوضعت هناك وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت أيام المهاجرة بين المسلمين والمشركين في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل عام الفتح:

لمن الصبيُّ بجانب البطحا في الترب ملقى غير ذي مهدِ
نجلتُ به بيضاءً أنسةً من عبدِ شمسٍ صلته الخدِ^(٣)

ويقال إن مسافر بن عمرو كان من أشد الناس حباً لهند، فلما حملت منه خاف أن يظهر أمره فرحل إلى عمرو بن هند ملك الحيرة فأقام عنده حتى مات ثم تزوج أبو سفيان هنداً فولدت معاوية على فراشه^(٤).

وذكر ابن أبي الحديد (حمامة) جدة معاوية أم أبي سفيان كانت بغياً في الجاهلية

(١) شرح نهج البلاغة، ٦/٢٢٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٦/١٤٠.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١/٣٠٦.

(٤) ابن الكلبي، مثالب العرب، ص ٨٠.

صاحبة راية^(١)، وكانت ممن لهن راية منصوبة في سوق ذي المجاز فيأتيها الناس فيفجرون بها^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد (صهاك) أمة الزبير بن عبد المطلب وقضيتها مع عبد العزى^(٣)، وقيل هي أمة حبشية لهاشم بن عبد مناف فوقع عليها فجاءت بنضلة بن هاشم، ثم وقع عليها عبد العزى بن رباح فجاءت بنفيل جد عمر بن الخطاب، ثم وقع عليها ربيعة بن الحارث بن حبيب بن جذيمة فجاءت بعمر بن ربيعة^(٤).

وقد نبذ الإسلام هذه الخصال وحاربها وذكر ابن أبي الحديد ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«ما مسني عرق سفاح قط وما زلت أنقل من الأصلابِ السليمة من الوصوم^(٥) والأرحام البريئة من العيوب»^(٦).

وقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يدعونا إلى القول إن السفاح كان منتشرًا ويشغل مساحة واسعة من العادات الجاهلية، لذلك أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى طهارة أرحامه التي تنقل بها من دون أن يمسه من عاداتهم سوء.

خامساً: وأد البنات:

كان الوأد من أقبح العادات التي عرفها العرب قبل الإسلام، وذكر ابن أبي الحديد

(١) شرح نهج البلاغة، ٢/١٠٠.

(٢) ابن الكلبي، مثالب العرب، ص ٩١؛ ابن حبيب، المحبر، ص ٣٤٠.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١١/٥٤.

(٤) ابن الكلبي، مثالب العرب، ص ٩٥، وأفرد ابن الكلبي في كتابه باباً سماه ذوات الرايات وأمهاتهن ومن ولدن سلسل فيه جميع صاحبات الرايات والبغايا عند العرب قبل الإسلام، ص ٨٤.

(٥) الوصوم: العيوب. ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٩/٢٤٠، (مادة وصم).

(٦) شرح نهج البلاغة، ١١/٥٥.

أن الوأد هو دفن البنت وهي حية بعد أن يخنقها في التراب ويثقل وجهها به حتى تموت^(١)، واختلفوا في فترة وأد البنات فمنهم من قال عن ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة، وتمخضت على رأسها، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وردت التراب عليها، وإن ولدت غلاما حبسته، ومنه قول الراجز:

سَمَّيْتُهَا إِذْ وَلَدْتُ تَمُوتُ والقَبْرُ صَهْرٌ ضَامِنٌ زَمِيْتُ^(٢)

في حين كان بعضهم يند ابنته في السادسة من عمرها فيقول لأمها طيبها وزينها ثم يذهب بها إلى الصحراء بعد أن يحفر لها بئراً فيها، فيبلغ بها البئر، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض^(٣).

في بعض الاحيان كان الرجل ينقل حمل وأد البنت على الأم من باب أنه يعتقد انها السبب في ولادة البنت دون الولد وهو اعتقاد خاطئ ويصر عليه الرجل حتى لا يجرح رجولته^(٤)، فيجبر الأم على الرغم من معارضتها إذ كان الرجل يشترط على امرأته أن تستحيي جارية وتند أخرى. فإذا كانت الجارية التي تند، راح من عند امرأته، وقال لها: أنت علي كظهر أمي إن رجعت إليك ولم تنديها، فتخُدُّ لها في الأرض خدًّا، حتى إذا أبصرته راجعاً دستها في حفرتها، ثم سوّت عليها التراب^(٥).

وأورد ابن أبي الحديد الأسباب التي دعت العرب إلى وأد بناتها إذ أرجع ذلك إلى عاملين:

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣/١٣٢.

(٢) القرطبي، الجامع لاحكام القرآن، ١٩/٢٣٣.

(٣) اللوسي، بلوغ الارب في معرفة احوال العرب، ٣/٤٣.

(٤) ولا زال هذا الاعتقاد سائداً على الرغم من أن الطب الحديث أثبت أن الرجل هو صاحب الجينات المسؤولة عن نوعية الولادة ولداً أم بنتاً وما المرأة الا حاضنة لها.

(٥) الطبري، جامع البيان، ٨/٦٨.

العامل الاول: هو العامل الاقتصادي، إذ ذكر أنّ العرب كانت تتد البنات خوف الإملاق^(١)، معناها الفقر والحاجة، (وذكر أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دعا على أقوام من العرب، هم تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل فقال: **«اللهم اشدّد وطأتك على مضرٍ واجعل عليهم سنينَ كسنيّ يوسفٍ»**.

فأجدبوا سبع سنين حتى أكلوا الوبر بالدم وكانوا يسمونه العلهز فوآدوا البنات لإملاقهم وفقرهم وقد استدل على ذلك بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾^(٢)^(٣).

وهذه الرواية غير دقيقة وفيها الكثير من المتناقضات:

١- ليس من أخلاق النبي أن يدعو على قومه بالهلاك، فتذكر لنا كتب التاريخ والسير أن أهل الطائف كانوا يرمونه بالحجارة حتى أدميت قدماه، فلم يدعُ عليهم أو يسوءهم بشيء بل كان يقول:

«اللهم إني أشكو إليك غرّيتي وكُرّيتي وهَوّاني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، أنت ربُّ المكروبين، اللهم إن لم يكن لك عليّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي الثناء عليك أنتَ كما أثنيت على نفسك، لك الحمد حتى ترضى، ولا

(١) شرح نهج البلاغة، ٩٨/١٥.

(٢) سورة الاسراء: الآية ٣١.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٣٢/١٣.

حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»^(١).

٢- المعروف في أغلب المصادر التي تحدثت عن حياة العرب قبل الإسلام أن الوأد كان موجوداً قبل الإسلام وبمدة ليست بالقصيرة ودليلنا على ذلك هو قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يصف حال العرب قبل الإسلام إذ قال عليه السلام:

« أَمَلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشْتِيهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ..... فَالْأَحْوَالُ مُضْطَّرِبَةٌ وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ فِي بِلَاءِ أَزْلِ وَأَطْبَاقِ جَهْلِ مِنْ بَنَاتِ مَوءُودَةٍ وَأَصْنَامِ مَعْبُودَةٍ وَأَرْحَامِ مَقْطُوعَةٍ وَغَارَاتِ مَشْنُونَةٍ»^(٢).

٣- أراد ابن أبي الحديد أن يحصر الوأد في قبائل معينة على الرغم من أن المتعارف عليه إنه موجود في جميع قبائل العرب وذكر الإبيشيهي^(٣) أن بمكة جبلاً يقال له ابو دلامة كانت قريش تتد فيه البنات.

أما العامل الثاني: الذي ذكره ابن أبي الحديد فهو العامل الاجتماعي مخافة إلحاق العار بهم من ورائهن، وذكر أن قيس بن عاصم المنقري وهو أول من وأد البنات في الجاهلية، عندما قام الريان بن المنذر أخو النعمان وجل من معه من بكر بن وائل فاستاق النعم وسبى الذراري بعد أن منعت تميم النعمان الإتاوة سنة من السنين، فوفدت بنو تميم إلى النعمان واستعطفوه فرقَّ عليهم وأعاد عليهم السبي وقال كل امرأة اختارت أباهاً رُدَّت إليه وإن اختارت صاحبها تركت عليه فكلهن اخترن آباءهن إلا ابنة قيس بن عاصم فإنها اختارت من سبأها وهو عمرو بن المشمرخ اليشكري، فنذر قيس بن عاصم

(١) ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، السيرة النبوية، تحقيق

مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، (بيروت ١٩٧٦ م)، ١٥٠/٢.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٣/١٢٩.

(٣) المستطرف في كل فن مستظرف، ٨٢/٢.

المنقري التميمي ألا يولد له بنت إلا وأدها^(١).

وعلى الرغم من اعتقادنا أنّ الوأد كان موجوداً قبل قصة قيس بن عاصم، ولكن يبدو أنّ هذا العامل هو العامل الحقيقي، فليس من الصحيح أن يقوم العرب بقتل بناتهم من أجل الفقر والحاجة مع أنّ هناك بعض الروايات التي تؤيد ذلك، ولا نستبعد ان تكون هناك حالات استثنائية ولكنها ليست السبب الرئيس، فنحن نعلم أنّ قسوة الصحراء والحروب والغزوات ولدت الظواهر السلبية التي بدت فيها المرأة الحلقة الأضعف في حلقات التكوين الاجتماعي للعرب لأنها تحتاج دائماً للحماية وغالباً ما تقع فريسة بيد الأعداء فيلحق بهم العار والذلة، لذلك فهم يفضلون الذكور على الاناث كما بيّنا سابقاً.

وقد أراد بعضهم أن يعطي تفسيراً آخر للوأد بعيداً عما ذكرناه فقبل إن العرب كانت تئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء^(٢)، تشاؤماً منهم بهذه الصفات^(٣)، وقيل سئل قيس بن عاصم: ما حملك على الوأد فقال: (خشيت أن يخلف عليهن غير كفاء)^(٤).

وهذه تبريرات ليس لها علاقة بالوأد أراد منها واضعوها أن يضعوا لها إطاراً آخر بعيداً عن الحقيقة المعروفة التي بيّناها سابقاً.

وكان كثيرٌ من عقلاء العرب لا يقبل بهذا العمل ووقف بوجه الوأد، وذكر لنا ابن

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣/١٣٢.

(٢) الشيماء: السوداء، البرشاء: من البرش وهو بياض يظهر في الجسد مثل البرص، الكسحاء: العرجاء.

(٣) الآلوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٤٣/٣.

(٤) ابن بكار، ابو عبد الله الزبير بن بكار القرشي الاسدي (ت ٢٥٦ هـ)، الاخبار الموقفيات، تحقيق سامي مكّي

العاني، ط ٢، عالم الكتب، (بيروت ١٩٩٦)، ص ٥٠٣.

أبي الحديد أن صعصعة بن ناجية بن عقال هو أول من أحيا المؤودة، وقد اشترى (ثلاثمائة موءودة) فأعتقهن ورباهن^(١)، ولما قام الإسلام وفد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له:

يا رسول الله إني كنت أعمل في الجاهلية عملا صالحا فهل ينفعني ذلك اليوم؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم:

«وما عملت».

قال: ضللت ناقتين عشراوين فركبت جملا ومضيت في طلبهما فرفع لي بيت منعزل فقصدته فوجدتهما عند شيخ فجلست معه ليخرجهما إليَّ فإذا عجوز قد خرجت من البيت فقال لها: ما وضعت إن كان سقبا شاركنا في أموالنا وإن كان حائلا^(٢) وأدناها، فقالت العجوز وضعت أنثى، فقلت له أتبيعها؟ قال: وهل تبيع العرب أولادها؟، قلت: إنما أشتري حياتها ولا أشتري رقها، قال: فبكم قلت احتكم، قال: بالناقتين والجمال، قلت: ذلك لك على أن يبلغني الجمال وإياها، قال: بعتك، فاستنقذتها منه بالجمال والناقتين، وآمنت بك يا رسول الله وقد صارت لي سنة في العرب أن أشتري كل موءودة بناقتين عشراوين وجمال، فعندي إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة قد أنقذتهن، قال صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا ينفك ذلك لأنك لم تبغ به وجه الله، وإن تعمل في إسلامك عملا صالحا ثب عليه»^(٣).

وهذه الرواية فيها بعض التناقض، فمن غير المعقول أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٩٨/١٥.

(٢) السقب: ولد الناقة ساعة يولد، وهو خاص بالذكر، والحائل: الانثى من ولد الناقة ساعة تولد. ينظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣/١٣، هامش المحقق.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣/١٣.

وسلم يقول هذا الكلام لرجل كان يعمل الخير وينقذ أرواح المؤذات وهو ما نهى عنه الإسلام بعد ذلك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد يكون الرقم الذي ذكره ابن أبي الحديد مبالغاً فيه بعض الشيء، إذ ذكر ابن حبيب أن العدد حين بعث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، كان (مائة جارية وأربع جوار) أخذهن من آبائهن لئلا يؤذن^(١).

ومن حارب الوأد زيد بن عمرو بن نفيل، وذكر ابن أبي الحديد انه كان من المتألهين أصحاب الورع والتحرج عن القبائح^(٢)، وكان يحیی المؤودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها انا أكفيكها مؤوتها فيأخذها فإذا ترعرت قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤوتها^(٣).

إن شيوع ظاهرة الوأد لا يعني أن المرأة كانت موضع احتقار وسخرية بل هي كانت في بعض الاحيان تتمتع بنفوذ ومزايا جعلتها في مكانة مرموقة عند العرب قبل الإسلام كما وضحنا سابقاً.

وقد حارب القرآن ظاهرة الوأد كما حارب العديد من الظواهر السلبية التي كانت منتشرة قبل الإسلام فمن آياته:

قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهْتَانٍ يُفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي

(١) المحبر، ص ١٤١.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١/١٢٩.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، ٤/٢٣٣.

مَعْرُوفٍ قَبَائِعَهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾.

وقوله تعالى:

﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (٢).

(١) سورة الممتحنة: الآية ١٢.

(٢) سورة التكوير: الآية ٩.

المبحث الخامس الأنساب عند العرب قبل الإسلام

النسب لغة: القَرابة^(١)، وعلم الانساب: هو علم يتعرف به أنساب الناس، وكانت عناية العرب بالأنساب ومعرفة أصوله تشكل قاعدة رئيسية في حياتهم لأنها كانت تجعلهم متحدين متعاونين فيما بينهم للدفاع عن بعضهم وكف الاذى عنهم، وجعلتهم العصبية القبلية يحفظون بدقة كل ما يتعلق بأنسابهم وأخبارهم، إذا ما أضافوا عليه بعض القصص التي جعلوا فيها بعض الأنساب تصل إلى جد واحد، والشك في هذه الانساب كبير، وهو شيء طبيعي لأن العرب لم يدونوا أنسابهم في كتب ولا نقشوها على آثار وإنما تناقلوها رواية بلسان والمنقول باللسان عرضة للكثير من الخطأ والتغيير^(٢).

وسواء صحت هذه الانساب أم لم تكن صحيحة فقد استمسك بها العرب وبنوا عليها عصبياتهم وانقسموا في كل مكان فرقاً وطوائف كل قبيلة لها جد تنتمي إليه وتتباهى به وتتفاخر وتدعي أنها من صلبه وأن دماءه تجري في عروق القبيلة.

وذكر الماوردي أن العرب رتبت الانساب ست مراتب، فجعلت طبقات أنسابهم هي: شعب، ثم قبيلة، ثم عمارة، ثم بطن، ثم فخذ، ثم فصيلة، فالشعب النسب

(١) ابن منظور، لسان العرب، ٣٩١/٨، مادة (نسب).

(٢) حسن، تاريخ الإسلام، ١٤/١؛ اللوسي، بلوغ الارب، ١٨٢/٣.

الأبعد مثل عدنان وقحطان^(١)، ولاهتمام العرب بالأنساب فقد ظهر عدد كبير من النسابة بينهم، وذكر ابن أبي الحديد أن في قريش أربعة يتحاكم إليهم في علم النسب وأيام قريش ويرجع إلى قولهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل الزهري وأبو الجهم بن حذيفة العدوي وحويط بن عبد العزى العامري، وكان عقيل بن أبي طالب أنسب قريش وأعلمهم بأيامها وكان مبغضا إليهم لأنه كان يعد مساوئهم^(٢).

ويبدو أن عمل عقيل استمر حتى بعد ظهور الإسلام، إذ ذكر ابن أبي الحديد أنه (كانت له طنفسة^(٣)) تطرح في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيصلي عليها ويجتمع إليه الناس في علم النسب وأيام العرب وكان حينئذ قد ذهب بصره وكان أسرع الناس جوابا وأشدهم عارضة^(٤).

ومن نساب العرب دغفل بن حنظلة السدوسي وكان أعلم أهل زمانه في الانساب، أدرك النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ولم يسمع منه شيئاً^(٥)، وذكر له ابن أبي الحديد روايتين؛ الأولى عندما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن مكة

(١) سُمِّيَ شَعْبًا؛ لِأَنَّ الْقَبَائِلَ مِنْهُ تَشَعَّبَتْ، ثُمَّ الْقَبِيلَةُ، وَهِيَ مَا انْقَسَمَتْ فِيهَا أَنْسَابُ الشَّعْبِ مِثْلُ رَيْبَعَةٍ وَمُضَرٍّ، سُمِّيَتْ قَبِيلَةً لِتَقَابُلِ الْأَنْسَابِ فِيهَا. الْعِمَارَةُ: وَهِيَ مَا انْقَسَمَتْ فِيهَا أَنْسَابُ الْقَبَائِلِ مِثْلُ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ الْبَطْنِ: وَهُوَ مَا انْقَصَمَتْ فِيهِ أَنْسَابُ الْعِمَارَةِ مِثْلُ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَبَنِي مَحْزُومٍ. الْفَخْدُ: وَهُوَ: مَا انْقَسَمَتْ فِيهِ أَنْسَابُ الْبَطْنِ مِثْلُ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي أُمَيَّةَ. الْفَصِيلَةُ: وَهِيَ مَا انْقَسَمَتْ فِيهَا أَنْسَابُ الْفَخْدِ مِثْلُ بَنِي أَبِي طَالِبٍ وَبَنِي الْعَبَّاسِ، فَالْفَخْدُ يَجْمَعُ الْفَصَائِلَ، وَالْبَطْنُ يَجْمَعُ الْأَفْحَادَ، وَالْعِمَارَةُ تَجْمَعُ الْبَطُونَ، وَالْقَبِيلَةُ تَجْمَعُ الْعِمَائِرَ، وَالشَّعْبُ يَجْمَعُ الْقَبَائِلَ، وَإِذَا تَبَاعَدَتْ الْأَنْسَابُ صَارَتْ الْقَبَائِلُ شُعُوبًا وَالْعِمَائِرُ قَبَائِلَ، ينظر، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب

البصري البغدادي (ت ٤٥٠ هـ)، الاحكام السلطانية، دار الكتاب العربي، (بيروت ٢٠١١)، ص ٢٥٥

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١١/١٩٢.

(٣) الطنفسة: هي البساط الذي له حَمْلٌ رقيق، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٥/٤٧٥.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١١/١٩٢.

(٥) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٩٧.

يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج إلى ربيعة ومعه علي بن أبي طالب عليه السلام وأبو بكر فدفعوا إلى مجلس من مجالس العرب فتقدم أبو بكر وكان نسابة فبدأ يسألهم عن أنسابهم فأكثر في سؤالهم فقام إليه غلام اسمه دغفل فقال:

إن على سائلنا أن نسأله والعبد لا تعرفه أو تحمله

ثم بدأ يسأل أبا بكر عن أصل قريش وفروعها حتى اجتذب أبو بكر زمام ناقته ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هاربا من الغلام^(١)، والرواية الثانية حين سأله معاوية عن بني هاشم فقال هم أطعم للطعام وأضرب للهام وهاتان خصلتان يجمعان أكثر الشرف^(٢).

ومن أبرز من اشتهر من العرب في معرفة النسب، زيد بن الكيس النمري، والنخار بن أوس بن الحرث بن هزيم القضاعي، وصعصعة بن صوحان، وعبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان^(٣).

أنساب القبائل:

إن ابن أبي الحديد لم يكن لديه أسلوب ثابت في الأنساب، فالمعروف أن كتابه ليس كتاب أنساب، إنما ذكر أنساب الشخصيات والقبائل التي وردت في خطب الإمام عليه السلام مع التوسع فيها، فهو لم يذكر التقسيمات التي اعتاد عليها من كتب في هذا المجال، ونحن ارتأينا أن نعتمد منهجاً اعتاد عليه المؤرخون في تقسيم أنساب العرب على ثلاث فئات؛ العرب البائدة، والعاربة، والمستعربة، لكي تسهل علينا مهمة إحصاء

(١) شرح نهج البلاغة، ٩٥/٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٥٧/١٥.

(٣) للمزيد من التفاصيل عن اخبارهم، ينظر الالوسي، بلوغ الأرب، ٢٠٧/٣.

الشخصيات والقبائل التي ذكرها ابن أبي الحديد، وتماشياً مع السياق التاريخي قسمناها على محورين:

أولاً: العرب البائدة

وهي تلك الاقوام التي عاشت في الماضي البعيد ولم يعد لأحد فيهم وجود بينما وجدت اثارهم فقط، وذكر ابن أبي الحديد نسب العمالقة أولاد لاوذ إرم بن سام بن نوح وكان الملك باليمن والحجاز وما تاخم ذلك من الأقاليم، منهم عملاق بن لاوذ ومنهم طسم بن لاوذ أخوه. ومنهم جديس بن لاوذ أخوهما وكان العز والملك بعد عملاق بن لاوذ في طسم^(١).

ويبدو أنَّ الملك كان مستقراً حتى ملكهم عملاق بن طسم الذي بغى وأكثر الفساد في الارض، وذكر ابن أبي الحديد أنه من جبروته كان يطاءً العروس ليلة إهدائها إلى بعلها وإن كانت بكرًا افتضها قبل وصولها إلى البعل، ففعل ذلك بامرأة من جديس يقال لها غفيرة بنت غفار فخرجت إلى قومها وهي تقول: لا أحد أذلَّ من جديسٍ أهكذا يفعلُ بالعروس فغضب لها أخوها الأسود بن غفار وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته، فصنع الأسود طعاماً ودعا عملاق الملك إليه ثم وثب به وبطسم فأتى على رؤسائهم ونجا منهم رياح بن مرة فصار إلى ذي جيشان بن تبع الحميري ملك اليمن فاستغاث به واستنجده على جديس فسار ذو جيشان في حمير فأتى بلاد جو وهي قسبة اليمامة فاستأصل جديسا كلها وأخرب اليمامة فلم يبق لجديس باقية ولا لطسم إلا اليسير منهم^(٢).

وذكر المسعودي الرواية بتفاصيل أدق وأشمل وأضاف إليها قصة زرقاء اليمامة التي

(١) شرح نهج البلاغة، ٦٠/٩.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦٠/٩.

تبصر الراكب على مسيرة ثلاث ليالٍ أخت رباح بن مرة المتزوجة من جديس والتي أرادت أخبارهم بقدوم الجيش فلم يصدقوها وبعد ذلك حبست وقلعت عينها وصلبت^(١).

وذكر ابن أبي الحديد نسب عاد فهو عاد بن عويص بن إرم بن سام بن نوح كان يعبد القمر ويقال إنه رأى من صلبه أولاد أولاد أربعة آلاف وإنه نكح ألف جارية وكانت بلاده الأحقاف المذكورة في القرآن^(٢)، وهي من شحر عمان إلى حضرموت ومن أولاده شداد بن عاد صاحب المدينة المذكورة^(٣)، وعلى الرغم من أن الرقم فيه نوع من المبالغة إلا أنه يدل على الكثرة والتسلط والاستبداد.

وذكر المسعودي أن عاداً بَعَثَ في الأرض وملكها الخلجان بن الوهم، فكانوا يعبدون ثلاثة أصنام، وهي: صمود، وصداء، والهباء، فبعث الله إليهم نبي الله هوذا فكذبوه، فدعا عليهم فمنعوا المطر ثلاث سنين، وأجدبت الأرض فلم يدرّ عليهم صرْع^(٤).

أما ثمود فذكر ابن أبي الحديد أنه ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح وكانت دياره بين الشام والحجاز إلى وادي القرى، وقيل سُمِّيَت ثمود لقلعة مائها من الثمد وهو الماء القليل^(٥)، وذكر ابن أبي الحديد أيضاً أن عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوهم

(١) المسعودي، مروج الذهب، ٣٤٨/٢.

(٢) ﴿وَأذْكُرْ آخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتْ التَّنْزِيلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، سورة الأحقاف: الآية ٢١، الأحقاف المذكور في الكتاب العزيز واد بين عمان وأرض مهرة عن ابن عباس، قال ابن إسحاق الأحقاف رمل فيما بين عمان إلى حضرموت، وقال قتادة الأحقاف رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن وهذه ثلاثة أقوال غير مختلفة في المعنى، ينظر ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ)، معجم البلدان، ١٠١/١ - ١٠٢.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٦٠/٩.

(٤) مروج الذهب، ٣٥١/٢.

(٥) شرح نهج البلاغة، ٦٠/١٠.

في الأرض وكثروا وعمروا أعماراً طويلاً حتى إنَّ الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته ففتحوا البيوت في الجبال، وكانوا في سعة ورخاء من العيش فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان فبعث الله إليهم صالحاً^(١) فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية فأخرج لهم من الجبل ناقة، ولكنهم عقروها فأتتهم صيحة من السماء وخسف شديد وزلزال فتقطعت قلوبهم فهلكوا^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد نسب أصحاب الرس فقال: (قيل إنهم أصحاب شعيب النبي وكانوا عبدة أصنام ولهم مواش وآبار يسقون منها)^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد مجموعة من الروايات المختلفة عن أصحاب الرس وأصلهم وبلادهم ولم يتقيد برواية محددة، فقال إنَّ الرس بئر عظيمة جدا انحسفت بهم وهم حولها فهلكوا وخسفت بأرضهم كلها وديارهم، وقيل الرس قرية باليمامة كان بها قوم من بقايا ثمود بغوا فأهلكوا، وقيل قوم من العرب القديمة بين الشام والحجاز وكانت العنقاء تحتطف صبيانهم فتقتلهم فدعوا الله أن ينقذهم منها فبعث إليهم حنظلة بن صفوان فدعاهم إلى الدين على أن يقتل العنقاء فشارطوه على ذلك فدعا عليها فأصابتها الصاعقة فلم يفوا له وقتلوه فأهلكوا، وقيل هم أصحاب الأخدود والرس هو الأخدود وقيل الرس أرض بأنطاكية قتل فيها حبيب النجار، وقيل بل كذب أهلها نبينهم ورسوله في بئر أي رموه فيها، وقيل إن الرس نهر في إقليم الباب والأبواب مبدؤه من مدينة طراز وينتهي إلى نهر الكر، فيختلط به حتى يصب في بحر الخزر، كان هناك ملوك

(١) شرح نهج البلاغة، ١٠/٢٠٢.

(٢) ابو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الاندلسي، (ت ٧٤٥) تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠١)، ٣٣/٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٠/٧٦.

أولو بأس وقدرة فأهلكهم الله ببيغهم^(١).

وقد أورد ابن أبي الحديد تلك الروايات تعليقاً على كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي يذكر فيه للناس الموت ومصير القرون السابقة وفناهم قال فيه:

«إِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرِّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيَّ وَأَطْفَأُوا سُنْنَ الْمُرْسَلِينَ وَأَحْيَوْا سُنْنَ الْجَبَّارِينَ»^(٢).

ثانياً: العرب الباقية:

وهي التي سكنت اليمن والحجاز وكافة أنحاء الجزيرة العربية وتزايد أفرادها وهي مقسمة على العرب العاربة والعرب المستعربة^(٣)، وقد ذكر ابن أبي الحديد نسب قريش من خلال جملة من الروايات الخاصة بنسب الصحابة والشخصيات المؤثرة في قريش ولعل أبرزها ذكر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم سلسلة نسبه الشريف من خلال قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنَ الْعَرَبِ مَعَدًا وَاصْطَفَى مِنْ مَعَدٍ بَنِي النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٧٦/١٠، للتفاصيل ينظر الطبرسي، ابو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨ هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الاعلمي، بيروت (١٩٩٥)، ٢٦٩/٧؛ القرطبي، الجامع لاحكام القرآن، ١١/٢٧٤.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٧٥/١٠، [خطبة ١٨٤].

(٣) العرب العاربة: هم العرب الذين انحدروا من نسل قحطان وهو ليس من نسل اسماعيل عليه السلام ويعيدون نسبه الى سام بن نوح وأطلق عليهم النسابون اسم العاربة أو العرب العاربة اي (العرب الحقيقيين)، وهم عرب الجنوب قبائل اليمن الذين نشأوا في الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة، اما العرب المستعربة: فهم العرب من نسل عدنان ويرجعون الى اسماعيل عليه السلام وسموا بالعرب المستعربة أو المتعربة اي (لم يكونوا عرباً واستعربوا) وهم عرب الشمال قبائل مضر وقيس عيلان وما يتبعها من قبائل هوازن وسليم، ينظر، عاقل، نبيه، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دار الفكر، (دمشق ١٩٨٣)، ص ٣٧.

هاشما من بني النضر واصطفاني من بني هاشم^(١).

ففي هذا الحديث ذكر لنا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سلسلة نسبه الشريف، فكنانة هو ابن خزيمه بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وعدنان من ولد اسماعيل^(٢)، وقد اختلف النسابون في النسب بين عدنان واسماعيل، وقيل بينهما ثلاثون جدًّا^(٣)، أما قريش فهو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة^(٤)، أما سبب تسميته بقريش فهناك عدة آراء منها أنه اسم دابة في البحر، وقيل من التقريش فكان يقرش عن خلة كل ذي خلة فيسدّها بفضلها: فمن كان محتاجاً أغناه، ومن كان عارياً كساه، ومن كان طريداً آواه، ومن كان خائفاً حماه، ومن كان ضالاً هداه. قال الحارث بن حلزة الشكريّ:

أيّها الناطقُ المقرّشُ عنا عندَ عمرو، وهل لذاك بقاء؟

وقيل المقرّش: التجمّع، وسمّيت قريش لتجمّعها، فإنها لما تجمّعت بمكة وجمعت

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٤٩/٧؛ ينظر الحديث عند ابن عبد البر، ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري (ت ٤٦٣ هـ)، الاستذكار، تحقيق سالم محمد عطا، ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠٠)، ٦١٤/٨.

(٢) الزبيرى، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب (ت ٢٣٦ هـ)، نسب قريش، عني بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ليفي بروفنسال، ط ٣، دار المعارف، (القاهرة ١٩٨٢)، ص ٣؛ ابن حزم، ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الاندلسي (ت ٤٥٦ هـ)، جمهرة انساب العرب، راجع النسخة وضبط اعلامها عبد المنعم خليل ابراهيم، ط ٥، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠٩)، ص ١١.

(٣) ابن الكلبي، ابو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي (٢٠٤ هـ)، جمهرة النسب، رواية محمد بن حبيب عنه، تحقيق محمد فردوس العظم، ط ٢، دار اليقظة العربية، (دمشق ١٩٨٣)، ١/١.

(٤) الزبيرى، نسب قريش، ص ١٢؛ الفلقشندي، أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ت ٨٢١ هـ)، نهاية الأرب في معرفة انساب العرب، ط ٢، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠١٢)، ص ٣٣.

خصائل الخير سميت بقريش، وقيل من القرش، والقرش التجارة والاكْتساب^(١).

أما هاشم فهو ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن مضر^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد من قريش بني أمية وقال إنهما صنفان؛ الأعياص والعنابس قال الشاعر:

من الأعياصِ أو من آل حربٍ أغرُّ كغرةِ الفرسِ الجوادِ

سموا بذلك في حرب الفجار حين حفروا لأرجلهم الحفائر وثبتوا فيها وقالوا نموت جميعاً أو نظفر وإنما سموا بالعنابس لأنها أسماء الأسود وإنما سموا الأعياص لأنها أسماء الأصول، فالعنابس حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو والأعياص العيص وأبو العيص والعاص وأبو العاص وأبو عمرو ولم يعقب من العنابس إلا حرب وما عقب الأعياص إلا العيص^(٣)، فبنو مروان وعثمان من الأعياص ومعاوية وابنه من العنابس^(٤).

أما ما يتعلق بنسب أمية فقد ذكره ابن أبي الحديد تعليقاً على قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من كتاب أرسله إلى معاوية جواباً على كتاب منه إليه قال فيه عليه السلام:

«أما قولك إنا بنو عبد منافٍ فكذلك نحن ولكن ليس أمية كهاشم ولا حرب كعبدٍ»

(١) الجوهري، الصحاح، ص ٩٠٥؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٢/٣٥٢؛ الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد المكي (ت ٨٣٢ هـ)، الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، (مصر ٢٠٠١)، ص ٢٤٦.

(٢) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥)، نسب عدنان وقحطان، تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (الهند ١٩٣٦) ص ٢؛ ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ١٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٥/٢٠٢.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١/٣٠٦.

الْمُطَلَّبِ وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيْقِ وَلَا الصَّرِيْحُ كَاللَّصِيْقِ»^(١).

وذكر فيه أن معنى قوله ولا الصريح كالصيق لا يعني أن هناك شبهة في نسب معاوية، إنما أراد الصريح بالإسلام واللصيق في الإسلام، فالصريح فيه هو من أسلم اعتقاداً وإخلاصاً واللصيق فيه من أسلم تحت السيف أو رغبة في الدنيا^(٢).

ولا نتفق مع ابن أبي الحديد في هذا الرأي لأن الإمام عليه السلام لو كان رأيه اللصيق من أسلم تحت السيف لاكتفى بالعبارة السابقة من نفس النص (ولا المهاجر كالطليق)، فالمعروف أن الطلقاء هم ممن أسلموا بعد فتح مكة تحت السيف وليس اعتقاداً وإخلاصاً، ولكن يبدو أن هناك شكاً في نسب معاوية دفع الإمام عليه السلام لأن يشهد هذه الشهادة الخطيرة، فقد ذكر بعضهم أن أمية لم يكن من صلب عبد شمس وإنما هو عبد من الروم فاستلحقه عبد شمس ونسبه إلى نفسه وكانت العرب في الجاهلية إذا كان لأحدهم عبد وأراد أن ينسبه إلى نفسه أعتقه وزوجه كريمة من العرب فيلحق بنسبه فبنو أمية قاطبة ليسوا من قريش وإنما لحقوا ولصقوا بهم^(٣).

ويبدو أن بني أمية حاولوا إبعاد الشبهة عن أمية فقالوا ان العبد ذكوان هو ابنٌ لأمية وليس أمية نفسه، وذكر ابن أبي الحديد ذلك عند تطرقه إلى نسب الوليد، فقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو واسمه ذكوان بن أمية بن عبد شمس وقد ذكر جماعة من النسابين أن ذكوان كان مولياً لأمية بن عبد شمس من صفورية قرية من قرى الروم فتنهه وكناه أبو عمرو فبنوه موال وليسوا من بني أمية لصلبه^(٤). ولكن هناك بعض

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٨٩/١٥، كتب ورسائل (١٧).

(٢) شرح نهج البلاغة، ٨٩/١٦.

(٣) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ١٠٧/٣٣؛ الشاهرودي، علي النمازي (ت ١٤٠٥ هـ)،

مستدرک سفینه البحار، تحقیق حسن بن علی النمازی، مؤسسة النشر الاسلامي، (قم ١٤١٨ هـ)، ٢٢٨/١.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٩٤/٢.

الدلائل التي استتجناها من روايات ابن أبي الحديد وغيره تؤكد عكس ذلك منها:

أولاً: إنّ صورة أمية التي نقلت عن طريق معاصريه تؤكد أنه عبدٌ، فقد ذكر ابن أبي الحديد أنّ عثمان بن عفان قال: إني رأيت رجلاً قد أدرك الملوكة يحدثني عما مضى، فذكر له رجل بمضرموت فبعث إليه فحدثه حديثاً طويلاً ثم قال رأيت أمية بن عبد شمس؟ قال نعم رأيت رجلاً آدم دميماً قصيراً أعمى يقال إنه نكد وإن فيه نكداً، فقال عثمان يكفيك من شر سماعه وأمر بإخراج الرجل^(١)، وأمّية كان مشهوراً بالزنا وروى ابن أبي الحديد^(٢) أن أمية بن عبد شمس كان معاهراً^(٣) ضعيف النفس يدل على ذلك قول نفيل بن عدي حين تنافر إليه حرب بن أمية وعبد المطلب بن هاشم فنفر عبد المطلب وتعجب من إقدام حرب عليه وقال له:

أبوك مُعاهِرٌ وأبوهُ عَفٌّ
وذاذَ الفيلِ عن بلدٍ حرامِ

وعندما كان أمية غلاماً كان يسرق الحاج فسمي حارساً^(٤). ولعل تلك الصفات بعيدة كل البعد عن أخلاق الملوكة واصحاب الرئاسة.

ثانياً: إنّ بني أمية لا يجدون أي حرج في استخدام التبني والإلحاق بالنسب اذا احتاجوها ففعلوها بالاسلام بعد أن ألحق معاوية زياد بن أبيه بنسبه بالقضية المعروفة التي سبق أن شرحناها في ثنايا البحث^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٧٦.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٥٦.

(٣) العهار: النزق والخفة والطيش والفجور. ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٦، ٣٣٩، [مادة عهر]

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥/١٧٦.

(٥) ينظر ص ١٣٢ من الرسالة.

ثالثاً: ذكر المؤرخون أن عبد شمس وهاشم توأمان وأن أحدهما ولد قبل صاحبه واصبع

له ملتصقة بجهة صاحبه فنحيت عنها فسال من ذلك دم فتطير وقيل تكون بينهما دماء^(١).

فاذا سلّمنا بأن الرواية صحيحة وأن هاشماً كما ذكر المؤرخون توفي وله عشرون سنة وقيل خمس وعشرون سنة بغزة، وهو أول من مات من ولد عبد مناف ثم مات عبد شمس بمكة، وكان لهاشم السقاية والرفادة بعد ابيه فحسده أمية بن عبد شمس على رياسته وإطعامه فدعاه إلى المنافرة فنافره على خمسين ناقة والجلاء من مكة عشر سنين، فقضي لهاشم بالغلبة، فغاب أمية عن مكة بالشام عشر سنين^(٢)، فهنا حق لنا أن نسأل وباستغراب؟، إذا كان أمية ابناً لعبد شمس، فكيف وخلال خمس وعشرين سنة على أعلى الروايات، يتزوج عبد شمس ويولد أمية ويكبر وينافر عمه في ملأ قريش فينفيه إلى بلاد الشام؟، فالمنطق يقول إنَّ عمر أمية حينئذ بين (٥-١٠ سنوات)، وهل هذا العمر يسمح لهاشم سيد مكة أن ينافر غلاماً صغيراً وينفيه خارج مكة؟ وأين كان أبوه عبد شمس من هذه الاحداث؟، لا يمكننا التسليم بهذه الرواية إلا إذا أسلمنا بأن أمية كان فعلاً عبداً لعبد شمس وتبناه وليس من صلبه.

رابعاً: ذكر ابن أبي الحديد أبياتاً شعرية لأبي طالب أثناء حصار قريش لبني هاشم في

شعب أبي طالب فقال:

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢/٢٥٢؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ١٤؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٢/٤٥٧؛ المقرئ، تقي الدين ابو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الشافعي (ت ٨٤٥ هـ)، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، المطبعة الابراهيمية، (مصر ١٩٣٦)، ص ١٨.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، (ت ٢٧٩ هـ)، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، (القاهرة ١٩٥٩)، ١/٦٣؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٦/٣٨٨، [مادة غزة]؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٢/٤٥٧.

توالى علينا موليانا كلاهما
 بلى لهما أمرٌ ولكنّ تراجمنا
 أخصُّ خصوصاً عبدَ شمسٍ ونوفلاً
 هما أغمضاً للقومِ في أخويهما
 قديماً أبوهم كانَ عبداً لجدِّنا
 إذا سُئلا قالوا إلى غيرنا الأمرُ
 كما ارتجمت من رأسِ ذي القلعِ الصخرُ
 هما نبذانا مثلَ ما تُنبذُ الحمُرُ
 فقد أصبحتُ أيديهما وهما صفرُ
 بني أمةٍ شهلاءَ جاشَ بها البحرُ^(١)

ويبدو لنا من خلال قراءتنا لهذه الابيات أن أبا طالب يلمح إلى نسب أمية الذي كان عبدا لعبد شمس وهو من أمة جاء بها البحر مع تجارة الرقيق إلى مكة، وهو غير ما ذهب إليه ابن أبي الحديد الذي ذكر الابيات كدليل على استعباد عبد المطلب لأمية في القصة التي سبق أن ناقشناها ورفضناها^(٢).

خامساً: إن كلمة لصيق التي ذكرها الإمام عليه السلام في وصفه لمعاوية هي عند علماء اللغة تعني ادعاء النسب فالمُلصِقُ: الدَّعِيُّ. وفي قول حاطب: إني كنتُ امرأً مُلصِقاً في قُرَيْشٍ. قيل: هو المقيمُ في الحيِّ وليسَ منهم بنسبٍ^(٣).

ومما زادنا يقيناً، أنّ معاوية لم يعقب على كلام الإمام عليه السلام فكأنه رضي به ولا يجد اي رد له.

وقد يسأل البعض لماذا نعت الإمام عليه السلام معاوية بهذا اللفظ مع أخلاق الإمام عليه السلام السامية والنبيلة وهل يحاسب الشخص على ما سلف، وقد أجاب ابن أبي الحديد على هذا التساؤل بقوله: (نعم إذا تبع آثار سلفه، واحتذى حذوهم، وأمير

(١) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٧٦.

(٢) ينظر ص ١١٢ من الرسالة.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ٨/٥٨، [مادة لصق]؛ الزبيدي، تاج العروس، ١٣/٤٨٢.

المؤمنين عليه السلام ما عاب معاوية بأن سلفه كفار فقط، بل بكونه متبعاً لهم^(١).
 وذكر ابن أبي الحديد مخزوماً وأفرد لهم باباً سماه في نسب بني مخزوم وطرف من أخبارهم، ذكر فيه أنهم بعد بني هاشم وبني أمية أفرح قريش وأعظمها شرفاً، وكانت قريش وكنانة ومن والاهم من الناس يؤرخون بثلاثة أشياء زمن بناء الكعبة، ويوم الفيل، ويوم مات هشام بن المغيرة^{(٢)(٣)}.

وَقَالَ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وقد سُئِلَ عن قريش فقال:

«أَمَّا بَنُو مَخْزُومٍ فَرِيحَانَةٌ قُرَيْشٌ نُحِبُّ حَدِيثَ رِجَالِهِمْ وَالنِّكَاحَ فِي نِسَائِهِمْ»^(٤).

وذكر ابن أبي الحديد بعض المطاعن في نسب بعض البطون التي ادعت النسب إلى قريش، فذكر آل الزبير بن العوام وقال: يقال إنهم من أرض مصر من القبط وليس من بني اسد بن عبد العزى^(٥)، ونقل عن الهيثم بن عدي (أنَّ خويلد بن أسد بن عبد العزى كان أتى مصرًا ثم انصرف منها بالعوام فتبناه)^(٦)، وذكر الهيثم بن عدي (انه نبطي من أهل قهقهاء)^(٧)، ويزعمون أن أمه مازنية، مازنية هوازن)^(٨). وذكر ابن أبي الحديد قول حسان بن ثابت يهجو آل العوام بن خويلد:

(١) شرح نهج البلاغة، ٩١/١٥.

(٢) من سادات العرب في الجاهلية من أهل مكة، وكان ممن شهد حرب الفجار رئيساً على بني مخزوم، كانوا يؤرخون بوفاته تسع سنين حتى تم بناء الكعبة فأرخوا بها، ينظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ٣١/١؛ الزركلي، الاعلام ٨٨/٨.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٢٩/١٨.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٢٢٩/١٨، (حكم ومواعظ ١١٦).

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥٣/١١.

(٦) الطائي، الهيثم بن عدي (ت ٢٠٩ هـ)، المثالب، تحقيق، نجاح الطائي، ملحق لكتاب مثالب العرب والعجم لابن الكلبي، دار الاندلس، (بيروت ٢٠٠٩)، ص ١٤٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥٣/١١.

(٧) ورد اسمها (قَهْقُوه) عند ياقوت الحموي وهي كورة بصعيد مصر، ينظر معجم البلدان، ١٠٥/٧.

(٨) الطائي، المثالب، ص ١٤١.

بني أسدٍ ما بالُ آلِ خويلدٍ يحنونَ شوقاً كلَّ يومٍ إلى القبطِ
متى يذكروا قَهَقَى يحنوا لذكِرها وللرَمَثِ المقرونِ والسَمَكِ الرَقَطِ^(١)

وذكر ابن أبي الحديد أنّ وقاصاً أبا سعد وإخوته أدياء في قريش، وعلق عند ذكره أبيات حسان بن ثابت التي ذكرها ذمّاً لعتبة بن أبي وقاص الذي كسر رباعية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد وشج وجهه:

إذا الله حيّاً معشراً بفعالهم ونصرهمُ الرحمنَ ربَّ المشارِقِ
فأخزأكَ ربي يا عتيبُ بن مالكٍ ولقّأكَ قبلَ الموتِ إحدى الصواعِقِ
بسَطتَ يميناً للنبِيِّ محمدٍ فأدميتَ فاهُ قُطّعتَ بالبوارِقِ
فهلّا خشيتَ اللهَ والمنزَلَ الذي تصيرُ إليه عندَ إحدى الصفائِقِ
فمنَ عاذري من عبدٍ عذرةً بعد ما هوى في دجوجيٍّ شديدِ المضايِقِ
وأورثَ عاراً في الحياةِ لأهلِهِ وفي النارِ يومَ البعثِ أمَّ البوائِقِ

(وإنما قال عبد عذرة لأن عتبة بن أبي وقاص وإخوته وأقاربه في نسبهم كلام ذكر قوم من أهل النسب أنهم من عذرة وأنهم أدياء في قريش ولهم خبر معروف وقصة

(١) شرح نهج البلاغة، ٥٣/١١، ولم يكن ابن أبي الحديد دقيقاً في نقل أبيات حسان بن ثابت حيث كان هناك اختلاف في بعض المفردات بين ما نقله وبين ما موجود في كتاب المثالب للهيثم بن عدي ص ١٤١، الذي ذكر ثمانى أبيات كان مطلعها:

لقد أصبح العوأم فينا ونسله يحنونَ شوقاً كل يومٍ إلى القبطِ
إذا ذكروا قَهَقَى حنوا لذكِرها وللرَمَثِ المقرونِ والسَمَكِ الرَقَطِ

أما في الديوان فهي * بني أسد ما بال آل خويلد يحنون شوقاً كل يوم إلى القبط

إذا ذكرت قهقاء حنوا لذكِرها وللرَمَثِ المقرونِ والسَمَكِ الرَقَطِ

ينظر ابن ثابت، حسان بن ثابت الانصاري (ت ٥٠ هـ)، الديوان، ضبط الديوان وصححه عبد الرحمن البرقوقي،

مذكورة في كتب النسب^(١). وذكر ابن أبي الحديد أيضاً (تنازع عبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص أيام عثمان في أمر فاختصما فقال سعد لعبد الله أسكت يا عبد هذيل، فقال له عبد الله أسكت يا عبد عذرة)^(٢).

ولم نجد في كتب النسب والتاريخ ما ذهب إليه ابن أبي الحديد، بل حتى الايات التي ذكرها حسان بن ثابت فهي عندما تذكر لا نرى ذكراً لآخر بيتين من الشعر المتعلقة بالنسب مع اختلاف بسيط في بعض المفردات في الايات الاولى^(٣)، ولكن الهيثم بن عدي ذكر عن رجل من بني زهرة قال: اختلف الناس في الهلال في زمن عثمان إما الصوم أو الفطر، فجاء هاشم بن عتبة بن أبي وقاص^(٤)، فقال: أشهد لقد رأيته، فقال له عثمان: بأمر عينيك الصحيحة أم العوراء؟ فقال: وما تعيرونني بعين ذهبت في سبيل الله، اما والله ما كنت مثلك حين فررت يوم الزحف، فغضب عثمان فضربه ضرباً وجيعاً، وقال: يا ابن مسك الذنب أم والله إني لأعرف فيك انخزال بني عذرة^(٥).

وذكر لنا ابن أبي الحديد نسب بني ناجية ونقل لنا روايتين منفصلتين الاولى عن أبي الفرج الاصفهاني، قال فيها إنهم ينسبون أنفسهم إلى سامة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن

(١) شرح نهج البلاغة، ٤٦/٦.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٤٦/٦.

(٣) ابن ثابت، حسان، الديوان، ٣٤٦؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٥٩٨/١.

(٤) صحابي، خطيب من الفرسان، يلقب بالمرقال لأنه كان يرقل في الحرب، وهو ابن أخي سعد بن أبي وقاص. أسلم يوم فتح مكة. ونزل الشام بعد فتحها، وشهد القادسية مع "سعد" وأصيبت عينه يوم اليرموك فقبل له "الأعور" وفتح جلولاء، وكان مع علي بن أبي طالب عليه السلام في حروبه، وتولى قيادة الرجالة في صفين، وقتل في آخر أيامها (ت ٣٧ هـ)، ينظر الطوسي، ابو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ)، رجال الطوسي، تحقيق جواد القمي الاصفهاني، مؤسسة النشر الاسلامي، (قم ١٤١٥ هـ)؛ الزركلي، الاعلام، ٦٦/٨.

(٥) المثالب، ص ١٦٥.

عدنان وقريش تدفعهم عن هذا النسب ويسمونهم بني ناجية وهي أمهم وهي امرأة سامة بن لؤي بن غالب، ويقولون إنَّ سامة خرج إلى ناحية البحرين مغاضبا لأخيه فطأطأت ناقته رأسها لتأخذ العشب فعلق بمشفرها أفعى نهشت ساق سامة فقتلته فقال أخوه كعب بن لؤي يرثيه :

عينُ جودي لسامةِ بن لؤي علقَت ساق سامة العِلاقة
ربُّ كأسٍ هَرَقتَها ابن لؤي حَدَرَ الموتِ لم تكنْ مِهرَاقَة

قالوا وكانت معه امرأته ناجية فلما مات تزوجت رجلا في البحرين فولدت منه الحارث ومات أبوه وهو صغير فلما ترعرع طمعت أمه أن تلحقه بقريش فأخبرته أنه ابن سامة بن لؤي بن غالب فرحل من البحرين إلى مكة ومعه أمه فأخبر كعب بن لؤي أنه ابن أخيه سامة فعرف كعب أمه ناجية فظن أنه صادق في دعواه، فقبله ومكث عنده مدة حتى قدم مكة ركب من البحرين فرأوا الحارث فسلموا عليه وحدثوه فسألهم كعب بن لؤي من أين يعرفونه، فقالوا هذا ابن رجل من بلدنا يعرف بفلان وشرحوا له خبره فنفاه كعب عن مكة ونفى أمه فرجعا إلى البحرين فكانا هناك وتزوج الحارث فأعقب هذا العقب^(١).

وقد ذكر ابن أبي الحديد روايةً أخرى مخالفة للرواية الأولى عن ابن الكلبي قال فيها بأن سامة بن لؤي أعقب فولد له الحارث وأمّه هند بنت تيم و غالب وأمّه ناجية بنت جرم بن بابان من قضاة فهلك غالب بعد أبيه وهو ابن اثنتي عشرة سنة فولد الحارث بن سامة لؤيا وعبيدة وربيعة وسعدا وأمهم سلمى بنت تيم بن شيبان بن محارب بن فهر وعبد البيت وأمّه ناجية بنت جرم خلف عليها الحارث بعد أبيه بنكاح مقت فهم الذين

(١) شرح نهج البلاغة، ٩٣/٣؛ ينظر تفاصيل الرواية عند الاصفهاني، الاغانى، مع ٤، ١٠/١٥٥.

قتلهم الإمام علي عليه السلام^(١).

ولعل ذكر ابن أبي الحديد للروايتين دليل على منهجيته في عرض كل الآراء الخاصة بالموضوع، وذكر أيضاً إنهم كانوا يسمون (قريش العازية) لأنهم عزبوا عن قومهم ففسبوا إلى أمهم ناجية وكان الزبير بن بكار قد أدخلهم في قريش لإجماعهم على بغض الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حسب المشهور المأثور من مذهب الزبير في ذلك^(٢).

كما جاء في كتاب شرح نهج البلاغة ذكر نسب ثقيف، فمن كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام للمغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي الذي قال لعثمان أنا أكفيكه بعد أن وقعت بينه وبين عثمان مشاجرة فقال أمير المؤمنين عليه السلام للمغيرة:

«يَا ابْنَ اللَّعِينِ الْأَبْتَرِ^(٣) وَالشَّجَرَةَ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا فَرْعَ»^(٤).

وقد علق ابن أبي الحديد على كلام الإمام عليه السلام بقوله وإنما قال له والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع لأن ثقيفا في نسبها طعن فقال قوم من النسابين إنهم من هوازن وهو القول الذي تزعمه الثقفيون، قالوا هو ثقيف واسمه قسي بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر وعلى هذا القول

(١) شرح نهج البلاغة، ٩٥/٣؛ ينظر تفاصيل الرواية عند ابن الكلبي، جمهرة انساب العرب، ج ١/١٦٩.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٩٥/٣؛ ينظر كذلك الزبيري، نسب قريش، ص ١٣؛ الاصفهاني، الاغانى، مج ٤، ١٠/١٥٦.

(٣) - قال له الإمام عليه السلام يا ابن اللعين لأن الأخنس بن شريق كان من أكابر المنافقين ذكره أصحاب الحديث كلهم في المؤلفات الذين أسلموا يوم الفتح بألسنتهم دون قلوبهم وأعطاه رسول الله صماعة من الإبل من غنائم حنين يتألف بها قلبه وابنه أبو الحكم بن الأخنس قتله أمير المؤمنين ع يوم أحد كافرا في الحرب وهو أخو المغيرة هذا والحقد الذي في قلب المغيرة عليه من هذه الجهة، وإنما قال له يا ابن الأبترا لأن من كان عقبه ضالا خبيثا فهو كمن لا عقب له، بل من لا عقب له خير منه، ينظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٣١/٨.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٣١/٨، [خطبة ١٣٥].

جمهور الناس^(١).

ويزعم آخرون أنّ ثقيفا من إباد بن نزار بن معد بن عدنان وأن النخع أخوه لأبيه وأمه ثم افترقا فصار أحدهما في عداد هوازن والآخر في عداد مذحج بن مالك بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان^(٢).

وقال آخرون إن ثقيفا من بقايا ثمود من العرب القديمة التي بادت وانقرضت وإن ثقيفاً كان عبداً لأبي رغال، وكان أصله من قوم نجو من ثمود، فانتفى بعد ذلك إلى قيس. وروي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه مرّ بثقيف، فتغامزوا به؛ فرجع إليهم فقال لهم: يا عبيد أبي رغال، إنما كان أبوكم عبداً له فهرب منه، فثقفه^(٣) بعد ذلك، ثم انتفى إلى قيس^(٤).

كما ذكر ابن أبي الحديد بنى تميم وقال إن لهم مأثر لم يشركهم فيها غيرها وذكر منها ثلاثة: أولها: كثرة العدد إذ ملأت السهل والجبل ومنها بنو سعد بن زيد مناة الذين ضرب فيهم المثل (من كل واد بنو سعد)^(٥).

وعلى الرغم من أنّ ابن أبي الحديد كان قد أورد المثل هنا كدليل على كثرة العدد، إلا أن قصة المثل كما أوردتها الضبي تختلف تماماً عن ما ذهب إليه إذ تذكر أن الاضطرب بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم كان يرى من قومه وهو سيدهم

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٣٣/٨؛ ينظر كذلك ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٤٨٢.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٣٣/٨؛ ينظر كذلك المبرد، الكامل في اللغة والادب، ٢٣٤/١.

(٣) ثقفه: أصلحه وقومه، وثقيف الرمح قوم أعوجاجه، وقيل ظفر به، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٣١/٢، (مادة ثقف).

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٣٤/٨؛ كذلك ينظر الاصفهاني، الاغانى، ٢٠٧/٤؛ القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة انساب العرب، ص ١٨٦.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٩٧/١٥.

بغياً عليه وتنقصاً له فقال: ما في مجاعة هؤلاء خير، ففارقهم وسار بأهله حتى نزل بقوم آخرين، فإذا هم يفعلون بأشرافهم كما كان يفعل به قومه من التنقص له والبغي عليه، فارتحل عنهم وحلّ بآخرين، فإذا هم كذلك، فلما رأى ذلك انصرف وقال: ما أرى الناس إلا قريبا بعضهم من بعض، فانصرف نحو قومه وقال: أينما أوجّه ألق سعدا فأرسلها مثلاً. ألق سعدا أي أرى مثل قومي بني سعد^(١).

والثانية: الإفاضة إلى منى في الجاهلية، والثالثة منهم اشرف بيت في العرب الذي شرفته ملوك لحم، قال المنذر بن المنذر بن ماء السماء ذات يوم وعنده وفود العرب ودعا ببردي أبيه محرق بن المنذر فقال ليلبس هذين أعز العرب وأكرمهم حسباً فأحجم الناس، فقال أحيمر بن خلف بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم أنا لهما، قال الملك بماذا؟ قال بأن مضر أكرم العرب وأعزها وأكثرها عديداً وأن تميماً كاهلها وأكثرها وأن بيتها وعددها في بني بهدلة بن عوف وهو جدي، فقال هذا أنت في أصلك وعشيرتك فكيف أنت في عترتك وأدانيك؟ قال أنا أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة فدفعهما إليه وإلى هذا أشار الزبيرقان بن بدر في قوله:

بردا ابن ماء المزن عمي اكتسأهما
بفضلٍ معدٍ حيثُ عُدَّتْ محاصِلُهُ^(٢)

وذكر القلقشندي أنّ بني تميم (بطن من طابجة^(٣) وطابجة من العدنانية وهم بنو تميم بن مر بن أد بن طابجة)^(٤).

وقد ذكرهم الإمام علي بن أبي طالب، فمن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن

(١) الضبي، أمثال العرب، ص ٢٧.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٩٨/١٥.

(٣) انظر قصة طابجة وسبب تسميته ص ٦١ من الرسالة (موضوع الشجاعة والفروسية).

(٤) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص ١٧٧.

عباس وهو عامله على البصرة:

«وَقَدْ بَلَّغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ وَغِلْظَتِكَ عَلَيْهِمْ وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخِرُ وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسَبِّقُوا بِوَعْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ»^(١).

وعلق ابن أبي الحديد، أي لم يهدر لهم دم في جاهلية ولا إسلام يصفهم بالشجاعة والحمية^(٢).

كما ذكر ابن أبي الحديد نسب بني بكال الحميريين بعد ذكر نوف البكالي أحد رواة خطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وانتقد الجوهري والقطب الراوندي بقوله قال الجوهري في الصحاح نوف البكالي _ بفتح الباء - هو منسوب إلى قبيلة بكالة، وقال القطب الراوندي في شرح نهج البلاغة بكال وبكيل شيء واحد وهو اسم حي من همدان وبكيل أكثر. والصواب غير ما قاله وإنما بنو بكال حي من حمير منهم هذا الشخص هو نوف بن فضالة صاحب الإمام علي عليه السلام والرواية الصحيحة الكسر لأن نوف بن فضالة بكالي بالكسر من حمير وهو بكال بن دعيمي بن غوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهيمسع بن حمير^(٣).

والغريب أن ابن أبي الحديد وفي مكان آخر من الشرح وعند تطرقه للشخصية نفسها ذكر تعليق الجوهري والقطب الراوندي ولكنه لم يعلق عليهما بل أنكر معرفته بنسب بكالة واكتفى بقوله (فأما البكالي في نسب نوف فلا أعرفه)^(٤).

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٩٦/١٥، الكتب والرسائل (١٥).

(٢) شرح نهج البلاغة ٩٦/١٥.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦٢/١٠؛ ينظر النسب أيضاً عند القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب

العرب، ص ١٧٧

(٤) شرح نهج البلاغة، ٢١٠/١٨.

ولعل طولَ فترة كتابة الشرح التي استمرت (أربع سنين وثمانية أشهر)^(١) قد أنسته بعض التفاصيل التي ذكرها في مكان آخر من الكتاب، أو قد يكون قد حصل على المعلومة متأخرا بعد ذكره الرواية الأولى فألحق المعلومات بالرواية الثانية ونسي الأولى.

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦٢/٢٠.



الفصل الثالث

الحياة الفكرية عند العرب قبل الإسلام

المبحث الأول: المعتقدات الدينية عند العرب قبل الإسلام

المبحث الثاني: الطقوس الدينية عند العرب قبل الإسلام

المبحث الثالث: معارف العرب قبل الإسلام

المبحث الرابع: الأمثال

المبحث الأول

المعتقدات الدينية عند العرب قبل الإسلام

لقد عاش العرب قبل الإسلام حياة دينية مختلفة نتيجة النضج الفكري وتطوره ، فعقيدة البدوي العربي في الأصل بدائية فهو لا يهتم بالدين كثيراً ، لأن حياته القاسية في الصحراء تحتاج إلى توفير كل طاقاته لغرض العيش وتوفير قوت يومه ، لذلك لم نسمع عن حدوث حروب بين القبائل - مع كثرتها - بسبب الدين^(١) ، وكان لتأثير البيئة التي يعيش فيها دور في اختيار ديانتها ، إذ وجد لكل قبيلة معتقد خاص بها ، آمنت من خلاله بوجود روح كامنة مؤثرة في العالم مسببة ذلك المعتقد الذي اتخذ صورة من واقعه في بعض الحيوانات والطيور والكواكب المحيطة به فربط بينهم وبين الظواهر الطبيعية ورسم لها خطوطاً تأثيرية وعدّها المحرك لها فنسج حولها القصص والأساطير^(٢) ، وجعلها محوراً لحياته اليومية ، فأرضائها يجلب له الخير والسعادة وغضبها يجر عليه الويلات ، وبعضهم تأثر بالمؤثرات الخارجية المحيطة به والتي كان لها دور كبير في اتجاه بعض العرب نحو دياناتهم كالمسيحية واليهودية والمجوسية ، فتعددت الديانات ، وإلى هذا أشار الامام علي ابن أبي طالب عليه السلام إلى حياتهم الدينية قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله

(١) ماجد، عبد المنعم، التاريخ السياسي للدولة العربية عصور الجاهلية والنبوة والخلافة، ط٧، مكتبة الانجلو المصرية، (القاهرة ١٩٨٣)، ص٥٦.

(٢) الجميلي، تاريخ العرب، ص٢١٨.

بقوله عليه السلام:

«وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَّةٌ مُتَّفَقَةٌ وَأَهْوَاءٌ مُتَشَبِهَةٌ وَطَرَائِقُ مُتَشَبِّهَةٌ بَيْنَ مُشَبِّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحَدٍ فِي اسْمِهِ أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ»^(١).

وقبل الدخول في أديان العرب لا بد من تعريف المعتقد والدين تعريفاً لغوياً، فالمعتقد لغة مشتق من عقد، وعقد الحبل بمعنى شده وربطه، واعتقد بالشيء، أي اشتد وصلب^(٢)، فالاعتقاد هو عقد القلب على شيء لم ينتزع عنه^(٣)، وهو يتناول كل ما يعتقد الإنسان في مسائل الدين وغيره وفيما هو حق وباطل.

أما الدين فهو عند علماء اللغة، العادة والشأن، تقول العرب: ما زال ذلك ديني وديدي أي عادتي، والدين: ما يتدين به الرجل. وهي بمعنى: الطاعة والتعبد^(٤).

اديان العرب

قسّم ابن أبي الحديد في شرحه أديان العرب قبل الإسلام على صنفين: معطلة وغير معطلة^(٥).

أولاً: المعطلة:

وصنفهم إلى عدة أصناف منهم:

١. الدهرية: □

الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، وعلى ذلك قوله

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٢٦/١، [خطبة ١].

(٢) الجوهري، الصحاح، ص ٧٦٨، [مادة عقد].

(٣) الفراهيدي، العين، ١٤/١.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ٣/٣٤٩، [مادة دين]؛ الزبيدي، تاج العروس، ١٨/٢١٨.

(٥) وصنفهم الشهرستاني إلى معطلة ومحصلة، ينظر الملل والنحل، ص ٤٩٤ - ٥٠٤.

تعالى:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾^(١).

ثم يُعبرُّ به عن كل مدة كثيرة، وهو خلاف الزمان، فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد أن الدهرية من (أنكر الخالق والبعث والإعادة، وقالوا ما قال القرآن العزيز عنهم:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(٣).

فجعلوا الجامع لهم الطبع والمهلك لهم الدهر^(٤) إذ كانوا يقولون لا يُميتنا إلا الأيام والليالي أي مرور الزمان، وطول العمر، إنكارا منهم للصانع أي إنما ينسبون ذلك إلى الدهر لجهلهم، ولو علموا أن الذي يميتهم هو الله، وأنه قادر على إحيائهم، لما نسبوا الفعل إلى الدهر^(٥)، فالحياة عندهم ماهي إلا الحياة الدنيا التي يعيشون فيها وما يهلكهم إلا الزمان الذي بمروره يبلى كل جديد ويفسد كل كائن ويموت كل حي.

وكان العرب ينسبون النوازل التي تنزل بهم من موت أو هرم إلى الدهر فيقولون أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه وأبادهم الدهر فيجعلون الدهر الذي يفعل ذلك فيذمونه ويسبونه^(٦)، وقد روي عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (لا تسبوا

(١) سورة الانسان: الآية ١.

(٢) الزبيدي، تاج العروس، ٤٢٧/٦.

(٣) سورة الجاشية: الآية ٢٤.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١/١٢٧.

(٥) الطبرسي، مجمع البيان، ١٣١/٩.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، ٣/٣٢٠، [مادة دهر].

الدهر، فإن الله هو الدهر) أي إن فاعل هذه الأمور هو الله تعالى، فلا تسبوا فاعلها^(١)، وذكر البلاذري أن من نسب إليهم القول بالدهرية (الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم بن عمرو أحد المستهزئين المؤذنين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو ابن الغيطة، وهي من ولد شنوق بن مرة بن عبد مناف بن كنانة، وكان يقول: لقد غرَّ محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث)^(٢).

٢. من اعترف بالخالف وأنكر البعث والإعادة:

وقد ذكرهم ابن أبي الحديد من ضمن المعطلة وقال (وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٣) (٤)

إذ كانت عقلية البدوي البسيطة قد رفضت تصور أن يكون هناك حياة أخرى بعد الموت، فقد ذكر ابن أبي الحديد أن بعضهم^(٥) يرثي قتلى بدر فقال:

فماذا بالقلوبِ قليبِ بدرٍ منَ الفتيانِ والقومِ الكرامِ
أيخبرنا ابن كبشة^(٦) أن سنجيا وكيف حياةُ أصداءِ وهامِ

(١) ابن حنبل، مسند احمد، ٤٥/٢؛ البخاري، صحيح البخاري / ١١٥/٧؛ مسلم، صحيح مسلم، ٤٥/٧؛ الطبرسي، مجمع البيان، ١٣١/٩.

(٢) أنساب الاشراف، ١٣٢/١.

(٣) سورة يس: الاية ٧٨.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٢٧/١.

(٥) الابيات لشداد بن الاسود بن عبد شمس، ينظر الحوفي، أحمد محمد، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، دار القلم، (بيروت ١٩٧٢)، ص ٤٣٢.

(٦) كانت قریش تنسب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى أبي كبشة فيقولون " قال ابن أبي كبشة " و" فعل ابن أبي كبشة ". فكان (وهب) بن عبد مناف بن زهرة، أبو آمنة، يكنى بأبي كبشة. و (عمرو) بن زيد بن لبيد النجاري

إذا ما الرأسُ زالَ بمنكبيهِ
فقد شَبَعَ الأنيسُ مِنَ الطعامِ
أَيقتلني إذا ما كنتُ حَيَا
ويُحييني إذا رَمَّتْ عظامي^(١)

وهنا يستغرب الشاعر كيف يبعث الإنسان من جديد بعد أن صار طائراً حسب اعتقاده، فهو يؤمن بأن الإنسان يتحول إلى طائر ولكنه يرفض أن يعود الإنسان من جديد.

على الرغم من أن هناك من أنكر البعث إلا أن هذا لا يعني أن العرب لم يعتقدوا به، فقد سبق أن بينا أن فكرة البلية هي من بين الافكار التي تعزز ايمان العرب بالبعث^(٢).
٣. من اعترف بالخالق وجعل معه شريكاً وأنكر الرسل:

هم من قال عنهم ابن أبي الحديد الذين (عبدوا الأصنام وزعموا أنها شفعاء عند الله في الآخرة وحجوا لها ونحروا لها الهدي وقربوا لها القربان وحللوا وحرموا وهم جمهور العرب، وهم الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾^(٣) (٤).

وقد قسمهم ابن أبي الحديد على قسمين:

يكنى أبا كبشة. وهو جد عبد المطلب، أبو أمه سلمى. وكان وجيز بن غالب بن عامر بن الحارث بن عمرو بن بؤى بن ملكان بن افضى بن حارثة يكنى أبا كبشة. وهو جد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من قبل إمه أم وهب بن عبد مناف ابن زهرة، وكان (الحارث) بن عبد العزى بن رفاعة بن ملان اخو بني سعد بن بكر بن هوازن حاضن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكنى أبا كبشة وامراته حليلة بنت الحارث بن عبد الله بن شجنة بن جابر بن ناصرة ظئر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). ينظر ابن حبيب، المحبر، ص ١٢٩.

(١) شرح نهج البلاغة، ١ / ١٢٧.

(٢) يراجع ص ٩٠ من الرسالة موضوع البلية.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١ / ١٢٧.

أ - منهم من أطلق على الاصنام لفظة شريك ومن ذلك قوله في التلبية:

لِيَّيْكَ اللَّهُمَّ لِيَّيْكَ لِيَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ
إلا شَرِيكاً هُوَ لَكَ تَمَلُّكُهُ وَمَا مَلَكَ^(١)

فهم يوحدون الله في التلبية ويدخلون معه آلهتهم، ويجعلون ملكها بيده وقد ذكرهم القرآن الكريم بقوله:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٢).

أي ما يوحدونني لمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكا من خلقي^(٣)، وذكر أن أول من لبي هذه التلبية عمرو بن لحي واتبعه العرب بعد ذلك^(٤).

ب - منهم من لا يطلق على الأصنام لفظة شريك، بل يجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه^(٥)، وهم الذين قال عنهم القرآن الكريم:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾^(٦).

فهم كانوا يعتقدون أنهم بعبادتهم للأصنام يعبدون الله سبحانه وتعالى ويتقربون إليه ولتكون تلك الاصنام واسطة بينهم وبينه وشفعاء عنده، قال تعالى:

(١) شرح نهج البلاغة، ١/ ١٢٨.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٦.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣/ ١٨٨.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣/ ١٨٩.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١/ ١٢٨.

(٦) سورة الزمر: الآية ٣.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١).

انتشرت عبادة الاصنام انتشاراً واسعاً حتى كان لكل بيت وحيّ أو قبيلة آلهتها الخاصة بها، وقد تشترك طائفة من القبائل في عبادة آله معين وتَعْظِيمه^(٢)، وكانت الاصنام على اشكال مختلفة، فمنها ما كان على صورة إنسان مثل ود والعزى وسواع، ومنها كان على صورة حيوان، فيغوث كان على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير، ومنها ما كان جماداً لا صورة له كاللات وكانت صخرة مربعة^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ هناك (ثلاثمائة وستون صنماً) حول الكعبة عند فتح مكة^(٤).

يظهر من وجودها في الكعبة أنّ قريشاً رأت أن تنتفع من قدوم القبائل العربية في موسم الحج وغيره فوضعت أصنام القبائل الشهيرة حول الكعبة حتى إذا جاء الناس وزاروا الحرم وجدوا معبوداتهم فأولوها احترامهم وتقديسهم فذبجوا وقربوا لها القرابين^(٥).

وقد كانت كلمة (وثن) مرادفة لكلمة (صنم)، فالوثن كما يذكر ابن أبي الحديد صنم يعبد وجمعه أوثان وسمي وثناً لانتصابه وبقائه على حالة واحدة من قولك وثن

(١) سورة يونس: الآية ١٨.

(٢) ابن الكلبي، أبي منذر هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤ هـ)، الاصنام، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب، (القاهر ١٩٩٥)، ص ٣٣.

(٣) طقوش، محمد سهيل، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس، (بيروت ٢٠٠٩)، ص ٢٤٥.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٧/٢٢٠.

(٥) حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، (القاهرة ٢٠٠٩)، ١/٦١.

فلان بالمكان فهو واثن وهو الثابت الدائم^(١).

وهناك من فرق بين الصنم والوثن، فمنهم من قال الصنم ما كان معمولا من خشب أو ذهب أو من فضة على صورة إنسان، وإن كان من حجارة، فهو وثن^(٢)، ومنهم من قال الوثن (كلُّ ما له جُثَّةٌ مَعْمُولَةٌ من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمي تُعمل وتُنصب فتُعبد. والصنم الصورة بلا جُثَّة، ومنهم من لم يُفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين)^(٣).

عبدت العرب حجراً بلا جثة فسُمته نصباً يطوفون بها ويعتمرون عندها ويسمون الطواف بها الدوار، وكانوا يَنْصبونه ويذبحون عليه فيحمرّ بالدم^(٤)، ومن حديث أبي ذرٍّ في إسلامه قال: (فَحَرَرْتُ مَعْشِيًّا عَلَيَّ ثُمَّ ارْتَفَعْتُ كَأَنِّي نُصِبْتُ أَحْمَرَ، يريد أنهم ضربوه حتى أدموه فصار كالنصب المحمرّ بدم الذبائح)^(٥).

يمكن القول أن العرب كان لها نوعان من الحجارة التي عبدوها؛ منها ما كان مصنوعاً على صورة ومنقوشاً عليه وهو الصنم والوثن، ومنه ما كان حجراً اعتيادياً لا يحمل أي مزية تميزه عن بقية الاحجار لكن بأشكال هندسية يسمى النصب، استخدم أول الامر كمكان لنحر الأضاحي والقرابين ثم أخذ نوعاً من القدسية عندهم.

وارتبطت عبادة الاصنام بشخصية عمرو بن لحي ف قيل انه أول من غير الحنيفية، فعند سفره إلى الشام رأى العمالق يعبدون الأصنام فأعجبه ذلك، فقال ما هذه الأصنام

(١) شرح نهج البلاغة، ٨١/٩.

(٢) ابن الكلبي، الاصنام، ص ٥٣.

(٣) ابن الاثير، النهاية في غريب الحديث، ١٥١/٥.

(٤) ابن الكلبي، الاصنام، ص ٤٢؛ ابن الاثير، النهاية في غريب الحديث، ٦٠/٥.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، ٤١٩/٨، [مادة نصب].

التي أراكم تعبدونها؟ قالوا هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا نستنصرها فتنصرنا، فقال أعطوني منها صنما أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنما يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه^(١).

وأغلب الظن أن هذه الرواية لم تكن الوحيدة، بل هناك من أراد أن يعطي للأصنام بعداً زمنياً أقدم فأعادها إلى أيام آدم (عليه السلام)، فقيل إن بني شيث بن آدم وبعد وفاة آدم (عليه السلام)، جعلوه في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه بأرض الهند، وكانوا يأتون جسده في المغارة فيعظمونه ويترحمون عليه، فحسداهم بنو قاييل بن آدم ففتحوا لهم صنما وعبدوه^(٢)، وهناك من ذكر أن كتابات الآشوريين التي رسمت قبل ظهور المسيح بسبعمئة سنة أو ثمانمئة سنة تدل على ان العرب كانوا مشركين وأنهم كانوا يقيمون لآلهتهم تماثيل، إذ تشير إحدى الكتابات إلى عودة اسرحدون من غزوه لجزيرة العرب الصحراوية وكان من ضمن غنائمه تماثيل لآلهتهم^(٣).

وهناك رواية أخرى تقول إنَّ أول ما كانت عبادة الأبحار في بني إسماعيل وسبب ذلك لأنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم وتفرقوا في البلاد وما من أحد إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسناه من الحجارة ثم نسوا ما كانوا عليه من دين إسماعيل فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم

(١) ابن الكلبي، الاصنام، ص ٨؛ ابن حبيب، ابو جعفر محمد بن حبيب بن امية بن عمرو الهاشمي (ت ٢٤٥)، المنق في اخبار قریش، صححه وعلق عليه خورشيد أحمد فاروق، ط ٢، عالم الكتب، (بيروت ٢٠١٠)، ص ٣٢٨؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٤٩٢، الابشيهي، المستطرف، ٨٣/٢.

(٢) ابن الكلبي، الاصنام، ص ٥٢.

(٣) غوستاف، حضارة العرب، ص ٩٨.

قبلهم من الضلال^(١).

ومن خلال قراءتنا للروايات السابقة نستنتج أنَّ للأصنام امتداداً تاريخياً وأن العرب عبدوا الاصنام بدافع ذاتي فيهم بعد أن وصلتهم عن طريق الاقوام الوثنية المحيطة بهم، إما عن طريق التجارة أو عن طريق شغف العرب بالعادات والتقاليد الخارجية وطبيعته الفطرية البسيطة في تقبل الاشياء وعكسها على واقعه.

أهم الأصنام التي ذكرها ابن أبي الحديد:

من خلال دراستنا لكتاب شرح نهج البلاغة وجدنا أنَّ ابن أبي الحديد قد أشار إلى بعض هذه الأصنام التي عبدها العرب قبل الإسلام منها:

١- هبل: ▢

هو من الأصنام التي ذكرها صاحب شرح نهج البلاغة^(٢) وعده من أعظم أصنام قريش وكان لهم خاصة، يعظمونه ويعبدونه، وكان موقعه في مكة اتجاه الكعبة على بابها^(٣). جاء به عمرو بن لحي، ونصبه على الجب وهو الذي حفره ابراهيم عليه السلام في بطن البيت على يمين من دخله ليكون خزانة للبيت يلقي فيه ما يهدى للكعبة^(٤)، فيما يذكر جرجي زيدان أنه من آلهة الفينيقيين أو الكنعانيين وهو عندهم يسمى (هبل) ويعني الإله الأكبر^(٥)، وهبل مصنوع من عقيق أحمر على صورة إنسان، مكسور اليد

(١) ابن الكلبي، الاصنام، ص ٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٨٧/٣، الابشيهي، المستطرف، ٨٣/٢.

(٢) ابن أبي الحديد، ١٢٨/١.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٢١٠/١٧.

(٤) العاقولي، ابو المكارم غياث الدين محمد بن صدر الدين محمد بن محيي الدين عبد الله البغدادي الشافعي (ت ٧٩٧م)،

عرف الطيب في اخبار مكة والمدينة، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، (مصر ١٩٨٩)، ص ٣٧.

(٥) تاريخ التمدن الاسلامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، مج ٣، ٢٧٥/٢.

اليمنى. أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يداً من ذهب^(١)، وكانت له مكانة مقدمة عندهم يتبركون ويستجيرون به عند الشدائد في الحروب وفي التجارة فذكر ابن أبي الحديد أن قريشاً استقسمت بالأزلام عند هبل عند خروجها لقتال المسلمين قبل واقعة بدر^(٢)، وكان أبو سفيان في معركة أحد تحت الجبل ينادي مراراً (أعل هبل)^(٣)، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب عليه السلام بعد فتح مكة فاقتلعه من أعلى الكعبة وكان عظيماً جداً وألقاه إلى الأرض^(٤).

٢- أساف ونائلة: □

ذكر ابن أبي الحديد أنهما كانا على الصفا والمروة^(٥) وكانت قريش اليهما تتقرب إذ ينحرون ويذبحون الذبائح^(٦)، فلما خرقت قريش وحلفاؤها الهدنة مع الرسول قبل فتح مكة ذهب أبو سفيان للمدينة للتفاوض مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعندما عاد اتهم بأنه آمن بالإسلام فنقل عن الواقدي عن (عبد الله بن عثمان عن أبي سليمان عن أبيه قال لما أصبح أبو سفيان حلق رأسه عند الصنمين أساف ونائلة وذبح لهما وجعل يمسح بالدم رؤوسهما ويقول لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبي، قال فعل ذلك ليبرئ نفسه مما اتهمته قريش به)^(٧).

هذه الرواية تبين لنا مدى تعلق أهل مكة بالصنمين، فأبو سفيان اختارهما دون بقية

(١) ابن الكلبي، الاصنام، ص ٢٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٧٨/١٤.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٢٧/٦.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٤٦/١.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٢٨/١.

(٦) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦٤/١٧.

(٧) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠٠/١٧.

الاصنام ليبين موقفه من الإسلام أمامهم، إذ يشكلان تجمعاً كبيراً للناس من جهة ومن جهة اخرى هي دليل على عدم إيمان أبي سفيان بالإسلام كما يذكر بعضهم فهو لم يؤمن وإنما كان من الطلقاء الذين دخلوا الإسلام طمعاً وخوفاً بعد فتح مكة.

وللإخباريين قصصٌ في أساف ونائلة فذكروا أنّ أساف رجل يقال له أساف بن يعلى، وأنّ نائلة هي بنت زيد، وهما من جرهم أتيا حجاجاً، وقد كان أساف يعشق نائلة في بلاد اليمن، لما دخلا الكعبة وجدا غفلة من الناس، اختليا، ففجر بها، فمسخا حجرتين، وضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما. فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام، عبدا معها^(١).

يبدو لنا أنّ أكثر هذه الروايات هي أساطير خلقتها العقلية الجاهلية عند العرب قبل الإسلام، فجواد علي يقول إنّ مرد القصص الذي أورده أهل الاخبار عن الصنمين إنما هو يعود إلى شكلهما. إذ كان أساف بهيأة تمثال رجل كما يظهر من الروايات ونائلة تمثال امرأة، ويظهر أنهما جلبا من بلاد الشام فنصبا في مكة فتولد من كونهما صنمين لرجل وامرأة هذا القصص المذكور ولعله من عمل القبائل الكارهة لقريش التي لم تر حرمة لهذين الصنمين^(٢).

وقد تخرّج المسلمون أول الأمر من الطواف بين الصفا والمروة لوجود الصنمين أساف ونائلة، لأن الطواف بهما في الجاهلية إنما كان للصنمين اللذين كانا عليهما، وقد جاء الله بالإسلام، ولا سبيل إلى تعظيم شيء مع الله بمعنى العبادة له^(٣) فأنزل الله تعالى ذكره ليبين ما هم عليه:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾

(١) ابن الكلبي، الاصنام، ص ٢٩؛ ابن حبيب، المحبر، ص ٣١١؛ دغيم، سميح، اديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، دار الفكر، (بيروت ١٩٩٥)، ص ١١٩.

(٢) المفصل، ٦/ ٢٦٧.

(٣) الطبري، جامع البيان، ٦٢/٢.

وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ^(١).

٣- مناة: □

ذكر ابن أبي الحديد أنه صنم كان لغسان والأوس والخزرج^(٢)، وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد^(٣)، بين المدينة ومكة، والعرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله، وكانت الأوس والخزرج وما حولها من عرب أهل يثرب وغيرها يجنون فيقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يخلقون رؤوسهم. فإذا نفرُوا أتوه، فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك. فلاعظام الأوس والخزرج يقول احدهم:

إِنِّي حَلَفْتُ يَمِينِ صَدَقِ بَرَّةً بمناة عند محل آل الخزرج!

وكانت العرب جميعاً في الجاهلية يسمون الأوس والخزرج جميعاً: الخزرج. فلذلك يقول: عند محل آل الخزرج^(٤).

والاخباريون على خلاف فيما بينهم حول هيئة مناة وشكلها، فمنهم من يقول إنها على هيئة تمثال منحوت من الحجارة^(٥)، ومنهم من يقول إنها صخرة تراق عليها دماء

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١/١٢٨.

(٣) المشلل وهو جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر، والمشلل والقديد اسماء مواضع قرب مكة ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٨/ ٢٧١، ٧/ ٢٢٢.

(٤) ابن الكلبي، الاصنام - ص ١٣ - ١٤.

(٥) ابن الكلبي، الاصنام، ص ١٣؛ الطبري، جامع البيان، ٢٧/ ٧٩؛ العيني، عمدة القاري، ١٩/ ٢٠٣؛ الزبيدي، تاج العروس، ٢٠/ ٢٠٧.

الأضاحي^(١)، وقد حاول جواد علي التوفيق بين الرأيين فقال إن الصخرة التي تراق عندها الدماء للتبرك بإرسال الرياح وحلول الامطار عند الساحل لإغاثة الناس قد تكون مذبحاً أقيم عند الصنم أو عند معبده لتذبح عليه من يهمل للصنم^(٢).

ومناة من الاصنام التي ذكرت في القرآن الكريم:

﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾^(٣).

فلما خرج رسول صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة سنة ثمانٍ من الهجرة، وهو عام الفتح بعث علي بن أبي طالب عليه السلام فهدمها وأخذ ما كان لها^(٤).

٤ اللات: □

ذكر ابن أبي الحديد أنها صنم كان لثقيف بالطائف^(٥)، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾^(٦).

ويرى ابن الكلبي إنها كانت عبارة عن صخرةٍ مربعةٍ. وكان سدنتها من ثقيف بني عتاب بن مالكٍ. وقد بنوا عليها بناءً. وكانت قريش وجميع العرب تعظمها وهي تعود إلى يهودي يبيع السمن واللبن للحجاج^(٧)، وأضاف ياقوت الحموي أن اللات رجلٌ من

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣٢٥/٨، [مادة مناة]؛ أبو حيان، تفسير البحر المحيط، ١٥٩/٨.

(٢) أبحاث في تاريخ العرب قبل الإسلام، دراسة ومراجعة نصير الكعبي، دار المحجة البيضاء، (بيروت ٢٠١١)، ١٣٩/١.

(٣) سورة النجم: الآية ٢٠.

(٤) ابن الكلبي، الاصنام - ص ١٥.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٢٨/١.

(٦) سورة النجم: الآية ١٩.

(٧) الاصنام، ص ١٦.

ثقيف فلما مات قال لهم عمرو بن لحي: لم يمت ولكن دخل في الصخرة ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بنيانا يسمى اللات^(١).

ويبدو أن هذا الكلام فيه نوع من الخيال والخرافة التي تعودت عليها العرب في الكثير من رواياتها لإضافة نفحة أسطورية على الاصنام التي تعبدها وتتقرب إليها، وهنا تبرز شخصية عمرو بن لحي مرة أخرى، فمرة هو أول من أدخل الاصنام لبلاد العرب، ومرة هو من صنع الخرافات والقصص لعبادة الصنم اللات، وكأن أعباء عبادة الاصنام لا تجد من يحملها سواه، ونحن نعتقد أن شخصية عمرو بن لحي إما أن تكون شخصية اسطورية لا وجود لها، أو شخصية موجودة ومعروفة وارتبط اسمه بإدخال صنم واحد مشهور ولكنّ الاخباريين نسبوا إليه بعد ذلك كل رواية عن وصول صنم للجزيرة العربية لم يستطيعوا الحصول على معلومات معروفة عنه.

وقيل إنما هي على صورة أنثى، وكانوا يعظمونها ويسمونها الربة، وقد بلغ من تمسكهم الشديد وحبهم لها أنهم طلبوا من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حينما ذهب وفداهم ليفاوضه على الإسلام أن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين فأبى رسول صلى الله عليه وآله وسلم ذلك عليهم فما برحوا يسألونه سنة ويأبى عليهم حتى سألوا شهرا واحدا بعد مقدمهم فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها، فهدماها^(٢).

(١) معجم البلدان، ١٦٨/٧، [مادة اللات].

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٣٧؛ الصواط، عيضة بن عبد الغفور، شعراء ثقيف في العصر الاموي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة ام القرى، السعودية، ١٩٨٣، ص ٣٦.

٥- العزى:

ذكر ابن أبي الحديد أنها لكنانة وقريش وبعض بني سليم^(١)، وهي تعني لغة القوة والغلبة والصلابة^(٢)، والعزى كانت شجرةً، عندها وثن^(٣)، وكانت قريش تخصها بالهدايا والزيارة ويتقربون عندها بالذبائح وعندما كانت تطوف بالكعبة تقول:

وَاللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ
فَأَيْنَهُنَّ الْغَرَائِقُ الْعُلَىٰ وَإِنْ شَفَاعَتُهُنَّ لَتُرْتَجَىٰ

كانوا يقولون: بنات الله (عز وجل عن ذلك) وهن يشفعن إليه^(٤).

فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أنزل عليه:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهَدَىٰ﴾^(٥).

٦- أصنام قوم نوح:

هي خمسة من أصنام العرب المشهورة التي ذكرها القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَا تَدْرُبُ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾^(٦).

(١) شرح نهج البلاغة، ١/١٢٨.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٦/١٤١، [مادة عزى]؛ الزبيدي، تاج العروس ٨/١١١.

(٣) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٩١.

(٤) ابن الكلبي، الاصنام، ص ١٩.

(٥) سورة النجم: الآيات ١٩ - ٢٣.

(٦) سورة نوح: الآية ٢٣.

وهي الأصنام التي كانت يعبدها قوم نوح، وقد أخذها عمرو بن لحي من ساحل جدة ودعا العرب إلى عبادتها^(١)، وقد ذكر ابن أبي الحديد أن ود كان لكلب بدومة الجندل وسواعاً لهذيل ونسر لحمير ويغوث لهمدان^(٢).

وكان ود (عبارة عن تمثال رجلٍ كأعظم ما يكون من الرجال، قد ذبر عليه حلتان، متزر بحلة، مرتدٍ بأخرى. عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً، وبين يديه حربة فيها لواء، ووفضة أي جعبة فيها نبل)^(٣)، أما سواع فهو صنم على صورة امرأة دفعه عمرو بن لحي إلى رجل من هذيل يدعى الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل المضري فنصبه في رهاط من بطن نخلة^(٤) بعيدة عن مضر وكان سدنته بني لحيان^(٥)، أما يغوث فكان صنماً على صورة أسد وكان بأكمة مذحج باليمن فعبدته مذحج ومنَ والها وظن بعضهم إنه يمثل الإله الأسد، وهو طوطم^(٦) قبيلة مذحج^(٧).

أما يعوق فكان صنماً على هيئة فرس وعبدته همدان ومنَ والها من أهل اليمن^(٨)

(١) ابن الكلبي، الاصنام، ص ١٣؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٨٩/٥، [مادة سواع].

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٢٨/١.

(٣) ابن الكلبي، الاصنام، ص ٥٦.

(٤) موضع على ثلاث ليال من مكة، وقال قوم: وادي رهاط في بلاد هذيل، وقيل: هو جبل قرية يقال لها رهاط بقرب مكة على طريق المدينة، ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤٥٠/٤.

(٥) ابن الكلبي، الاصنام، ص ١٠؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٨٩/ ٥، [مادة سواع]؛ طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٥.

(٦) الطوطمية: وهو لفظ يراد به كائنات كانت تحترمها بعض القبائل العربية ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يعتقدون أنه جدتهم الأعلى يتسمون باسمه ويعبدونه ويقدمونه وقد يكون الطوطم حيواناً أو نباتاً، ينظر زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الاسلامي، مج ٢، ٢٦٠/٣.

(٧) علي، المفصل، ٢٦١/٦.

(٨) ابن الكلبي، الاصنام، ص ٥٧؛ دغيم، سميح، اديان ومعتقدات العرب، ص ١١٨.

واسمه يدل على الإعاقاة والمنع ولعل المقصود منع الشر، وهو الحارس من الشرور^(١).
أما نسر فكان موضعه في أرض سبأ يقال له بلخع، تعبده حمير ومن والاه^(٢) وجاء ذكره في قصائد الشعراء:

أما ودماء لا تزال كأنها على قنّة العزّي والنسرِ عندها^(٣)

ولم يشر ابن الكلبي إلى صورة الصنم نسر، ولكننا يمكن أن نستنتج أنه كان على هيئة الطائر المسمى باسمه ويؤيد هذا الرأي ما نقل عن الطبرسي في أشكال الاصنام بإسناده إلى الواقدي قال: (كان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر)^(٤).

وهناك الكثير من الاصنام التي لم يذكرها ابن أبي الحديد التي عبدها العرب قبل الإسلام وقدسوها نصبت بعضها في مكة عند الكعبة فضلا عن وجودها في مدن أخرى محيطة بها^(٥).

٤ أصحاب التجسيم والتناسخ □

ذكر ابن أبي الحديد أنّ من العرب من شبّهوا الله (سبحانه وتعالى) بخلقه فجعلوا له

(١) البكر، منذر عبد الكريم، معجم أسماء الالهة والاصنام لدى العرب قبل الإسلام، مجلة أبحاث البصرة، كلية التربية، ١٩٨٨، ص ٤٩.

(٢) ابن الكلبي، الاصنام، ص ٥٧.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ٨ / ٣٩٤، لمادة نسر.

(٤) مجمع البيان، ١٠ / ١٣٨.

(٥) للمزيد من المعلومات والتفاصيل حول الاصنام، ينظر الحديشي، أثمار نزار عبد اللطيف، الديانة الوضعية عند العرب قبل الإسلام، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الاداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٣، فص ٣ ص ٩٧ - ١٢٢؛ البكر، منذر، معجم اسماء الالهة والاصنام لدى العرب قبل الإسلام.

يداً ورجلاً وعيناً وأطلق عليهم اسم (المشبهة والمجسمة)^(١)، وهم الذين قالوا إن الله على صورة آدم فشبهوه بالأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها وأعطوه حلية المخلوقين لما اقتضت أوهامهم ذلك من حيث لم يألّفوا أن يكون القادر الفاعل العالم إلا جسماً، وجعلوه مركباً ومتجزئاً كما تتجزأ الأجسام وقدروه على هذه الخلقة يعني خلقة البشر المختلفة القوى لأنها مركبة من عناصر مختلفة الطباع^(٢)، ومن أبرز هؤلاء أمية بن أبي الصلت وهو القائل:

من فوق عرشٍ جالسٍ قد حطَّ
رجليّهِ إلى كرسِيّهِ المنصوبِ^(٣)

وقد ذكرهم ابن أبي الحديد بعد ذكره خطبة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يذكرهم فيها إذ قال (عليه السلام):

«كَذَّبَ الْعَادِلُونَ بِكَ إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ وَنَحَلُوكَ حَلِيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ
وَجَزَّءُوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخَلْقَةِ الْمُخْتَلَفَةِ الْقَوَى بِقَرَائِحِ
عُقُولِهِمْ وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ وَالْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا
تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ»^(٤).

وعلق ابن أبي الحديد بقوله أما أصحاب التناسخ وتنقل الارواح في الاجساد فمنهم أصحاب أرباب الهامة^(٥)، الذين يعتقدون بأن الإنسان اذا قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء

(١) شرح نهج البلاغة، ١/١٢٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٦/٣٢٠.

(٣) بن أبي الصلت، أمية، الديوان، تحقيق بهجت عبد الغفور الحديشي، ط ٢، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد

١٩٩١)، ص ١٦٤؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١/١٢٨.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٦/٣٢٠، [خطبة ٩٠].

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١/١٢٧.

بنيته فانتصب طيراً يحوم حول القبر^(١).

واعتقد العرب أنّ في كل شيء حياة فعبدوا وقدسوا الاشياء المادية كالحجارة والاشجار والكهوف، فالروح هي المعبودة لا الحجر الذي تحل فيه الروح وما الحجر والمواد الاخرى إلا بيتٌ تحل فيه الروح (فكان الرجل، إذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجارٍ فنظر إلى أحسنها فاتخذها رياً، وجعل ثلاث أثافي لقدره؛ وإذا ارتحل تركه. فإذا نزل منزلاً آخر، فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها)^(٢).

وكانوا يختارون الاحجار الغريبة والجديدة فيعبدونها فإذا رأوا حجراً أفضل وأحسن منه تركوا القديم وأخذوا الحجاره الجديدة وعبدوها، ويؤيد ذلك ما قاله القرطبي عند تفسيره الاية:

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾^(٣).

قال: (وكان أحدهم يعبد الحجر فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر)^(٤).

٥- عبادة الجن:

الجنُّ نوعٌ من المخلوقات سمّوا بذلك لاجْتِنَانِهِمْ عن الأبصار ولأنهم اسْتَجَنُّوا من الناس فلا يُروْنُ والجمع جنانٌ وهم الجنّة^(٥)، ويرى الدميري انهم (أجسام هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، لها عقول وأفهام وقدرة على الأعمال الشاقة. وهم

(١) ينظر موضوع الهامة ص ٧٨ من الرسالة.

(٢) ابن الكلبي، الاصنام، ص ٣٣.

(٣) سورة الفرقان: الاية ٤٣.

(٤) القرطبي، الجامع لاحكام القرآن / ١٦ / ١٦٧.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، ٢ / ٢٣٠، [مادة جنن].

خلاف الإنس)^(١)، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾^(٢).

وذكر المفسرون وأصحاب اللغة أنّ المارج هو اللهب الخالص الذي لا دخان فيه خلقت منه الجان^(٣).

ولأن الاعتقاد السائد عند العرب قبل الإسلام بوجود قوى خفية تحرك الكثير من الظواهر، فقد صور العرب الجن بأشكال تشبه بعض الحيوانات المحيطة بهم، فاعتقدوا أنها قادرة على الظهور والاختفاء، ولها القدرة على تغيير أشكالها، وذكر ابن أبي الحديد أبرز تلك الحيوانات مثل (الديك والغراب والحمامة وساق حر وهو الهديل والحية، فمنهم من يعتقد أن للجن بهذه الحيوانات تعلقات، ومنهم من يزعم أنها نوع من الجن)^(٤).

أما عبادة العرب للجن فقد تطرق لها ابن أبي الحديد عند ذكره الآية القرآنية:

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ

مُؤْمِنُونَ﴾^(٥).

وقال: إنهم عبدة الشيطان المضلة لهم وإنهم ما أطاعوا الله^(٦)، وذكر ابن الكلبي أنّ

(١) الديميري، محمد بن موسى بن عيسى بن علي كمال الدين المصري الشافعي (ت ٨٠٨ هـ)، حياة الحيوان الكبرى، دار احياء التراث العربي، (بيروت ٢٠١١)، ١ / ٣١٤.

(٢) سورة الرحمن: الآية ١٥.

(٣) الطبري، جامع البيان، ١ / ٢٩٠؛ الجوهرى، الصحاح، ص ١٠٤٥، لمادة مرج؛ القرطبي، الجامع لاحكام القرآن، ١٠ / ٢٤.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٣٣٦.

(٥) سورة سبأ: الآية ٤١.

(٦) شرح نهج البلاغة، ١١ / ٢١٨.

(بني مليح من خزاعة - وهم رهط طلحة الطلحات - يعبدون الجن وفيهم نزلت:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَالِكُمْ﴾^(١) (٢).

وهناك من حاول أن يبعد الجن إلى خارج الجزيرة العربية وعدّها كما عدّت الاصنام وافدة من خارجها، حيث ذكر أحد الباحثين المعاصرين (أنّ فكرة الجن خارجية ادخلها إلى الجزيرة العربية جيرانها الشماليون بدليل شيوع قصص بناء جن اسماعيل مدينة (تامار) التي فسرها العبرانيون بانها تدمر، كما أنّ فكرة الجن هي نوع من الارواحية كانت منتشرة بين العبرانيين في المجتمعات الشرقية القديمة)^(٣).

وسواء أكانت الجن عبادة أو فكرة خارجية، أو ظهرت من قلب الجزيرة العربية نتيجة التراكمات الفكرية المنتشرة هناك، فقد عرف العرب الجن معرفة واسعة حتى جعلوا عالمهم شبيهاً بعالمهم يتكون من عشائر وقبائل ومن قبائلهم (درهش، العسل، بنو هبام، العسر، دهرش)^(٤)، وغالباً ما تكون تلك المناطق، أماكن موحشة ومقفرة ومظلمة ومهجورة لتلائم مع تصورات العرب التي رسموها للجن المتواجد في المناطق التي لا يصلها الإنسان والتي يسمونها المناطق المسكونة^(٥).

وألفوا قصصاً خيالية وحواراً للجن مع الإنسان، فقد ذكر ابن أبي الحديد أكثر من رواية عن ذلك منها قصة عمرو بن يربوع الذي تزوج من الجن، فكانت تقول له إذا لاح البرق من جهة بلادي وهي جهة كذا فاستره عني وإن لم تستره عني تركت ولدك عليك

(١) سورة الاعراف: الآية ١٩٤.

(٢) الاصنام، ص ٣٤.

(٣) طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٢٦.

(٤) حمودي، أحمد، جولة مع الجاهلية في عالم الجن، مجلة التراث الشعبي، العدد الثامن والتاسع، السنة السابعة، بغداد، ١٩٧٩، ص ٦.

(٥) طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٢٦.

وطرت إلى بلاد قومي، فغفل عنها ليلة وقد لمع البرق فلم يستر وجهها فطارت، ومنهم من يقول ركبت بعيرا وطارت عليه أي أسرع فلم يدركها وعن هذا فبنو عمرو بن يربوع إلى اليوم يدعون بني السعلاة ولذلك قال الشاعر يهجوهم:

يا قَبَّحَ اللهُ بني السعلاةِ
عمرو بن يربوع شرار الناتِ
ليسوا بأبطالٍ ولا أكياتِ

فأبدل السين تاء وهي لغة قوم من العرب^(١).

وذكر في موضع آخر رواية عن زواج شخص يدعى البهراني تزوج غولاً وهي نوع من أنواع الجن وكان صداقها خمراً وغزلاً، قال البهراني:

وتزوجتُ في الشيبيةِ غولاً
بغزالٍ وصَدقتي زقِ خمرٍ^(٢)

وقال الجاحظ أصدقها الخمر لطيب ريحها والغزال لأنه من مراكب الجن^(٣).

ذكر ابن أبي الحديد أنّ أحدهم خرج وصاحباً له يسيران فإذا غلام على الطريق فقالا له من أنت؟ قال أنا مسكين قد قطع بي، فقال أحدهما لصاحبه أردفه خلفك فأردفه فالتفت الآخر إليه فرأى فمه يتأجج ناراً فشد عليه بالسيف فذهبت النار فرجع عنه ثم التفت فرأى فمه يتأجج ناراً فشد عليه فذهبت النار ففعل ذلك مراراً فقال ذلك الغلام قاتلكما الله ما أجلكما والله ما فعلتها بآدمي إلا وانخلع فؤاده ثم غاب عنهما فلم يعلما

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٣٤/١٩.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٣٨/١٩.

(٣) الحيوان، مج ٢ / ٦ / ٤٣٩.

خبره^(١).

يبدو أنّ العرب لكثرة حديثهم عن الجن، ولأنهم كانوا يهابونه كثيراً ويعدونهم مصدر خوف وقلق، فقد حاول بعضهم أن يرسم لنفسه صورة البطل الشجاع الذي لا يهاب هذا المخلوق، حتى إن المخلوقات نفسها تقر له بذلك لشجاعته وصموده وقوة قلبه على تحمل رؤيته للجن دون أن يرعبه أو يخيفه.

وهناك رواية أخرى عن رجل من كلب يدعى عبيد بن الحمارس الكلبي الذي نزل وادياً مع أهل بيته فقتل أنثى قنفذ، فلما جن الليل جرت بينه وبين الجن مخاطبة طويلة أثبت من خلالها شجاعته فتركوه على أن يدفع الدية ففعل^(٢).

وعلى الرغم من أنّ ابن أبي الحديد كان يعلم إنها قصص خرافية، وإنها وضعت من نسج خيالهم إلا أنه كان يبرر وجودها في كتابه لأغراض تخص محتوى ما موجود فيه، إذ يقول عند الانتهاء من سرد روايته السابقة (وهذه الحكاية وإن كانت كذبا إلا أنها تتضمن أدبا وهي من طرائف أحاديث العرب فذكرناها لأدبها وإمتاعها)^(٣).

أنواع الجن:

كان للجن أنواع ومراتب وأسماء متعارف عليها ذكرها ابن أبي الحديد بسنده إلى الجاحظ، فقال (كانوا يسمون من يجاور منهم الناس عامرا والجمع عمّار، فإن تعرض للصبيان فإنه روح، فإن خبث وتعرم فهو شيطان، فإن زاد على ذلك فهو مارد فإن زاد على ذلك في القوة فهو عفريت، فإن طهر ولطف وصار خيرا كله فهو ملك)^(٤)، وهكذا

(١) شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٣٣٧.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٣٤٣.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٣٤٤.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٣٣٥؛ لمزيد من التفاصيل ينظر الجاحظ، الحيوان، مج ٢، ٤٢٤/٦.

نرى أنّ للجن أشكالاً وأنواعاً حسب نوع الاعمال المكلف بها ولعل من أشدهم، الخبل أو الخابل، وهو المكلف بالفساد والمس^(١) وذكر في الكثير من اشعار العرب كقول المهلهل:

لو كنت أقتلُ جنَّ الخابِلينَ كما أقتلُ بكَراً لأضحى الجنَّ قد نفذوا^(٢)

وقال أوس بن حجر^(٣):

ليلي بأعلى ذي معاركٍ منزلٍ خلاءٍ تنادى أهلُهُ فَتَحَمَلُوا
تبدلَ حالاً بعدَ حالٍ عهدُته تناوحَ جنّانٌ بهنٍ وخبلُ

ويبدو لنا من خلال ما ذكر أن (الخبيل) من الجن المتخصص بمس البشر ولذلك قيل الخبيل هو المس أو الجنون أو فساد العقل^(٤).

أما أصوات الجن فذكر ابن أبي الحديد أنّ العرب تسميها العزيف وأنهم يسمعون الهاتف بذلك^(٥). ذكر زهير بن أبي سلمى أصواتها المخيفة بقوله:

(١) الجاحظ، الحيوان، مج ٢، ٤٢٦/٦؛ جمعة، حسين، الحيوان في الشعر الجاهلي، دار ارسلان، (دمشق ٢٠١٠م)، ص ٢٠٩.

(٢) ابن ربيعة، المهلهل، الديوان، شرح وتقديم طلال حرب، الدار العالمية، بيروت، (د.ت)، ص ٢٨.

(٣) ابن حجر، اوس، الديوان، تحقيق محمد يوسف نجم، ط ٣، دار صادر، (بيروت ١٩٧٩)، ص ٩٤.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ١٦/٣، [مادة خبل].

(٥) شرح نهج البلاغة، ٣٣٥/١٩.

وبلدةٍ لا تُرامُ خائفةٌ زوراءَ مقبرةِ جوانبها
تسمعُ للجن عازفينَ بها تضحُ من رهبةِ ثعالبها^(١)

ذكر ابن أبي الحديد أنَّ العرب قد جعلوا للجن مراكبٍ يمتطوها مثل (الورل)^(٢) والقنفذ والطبي واليربوع والنعام والديك والغراب والحية)^(٣)، ومن الشعر المنسوب للجن الذي ذكره ابن أبي الحديد:

وكلُّ المطايا قد ركبنا فلم نجد ألدَّ وأشهى من ركوب الأرانب
وقول بعضهم في قنفذ رآه ليلاً:

فما يعجبُ الجنانُ منكَ عدمتَهُمُ وفي الأسدِ أفراسٌ لهم ونجائبُ
أيسرُجُ يربوعُ ويلجَمُ قنفذُ لقد أعوزتكم ما علمتُ النجائبُ
فإن كانت الجنانُ جنَّت فبالحرى لا ذنبَ للأقوامِ والله غالبُ^(٤)

وذكر ابن أبي الحديد أنَّ العرب كانوا يعتقدون أنَّ لكل شاعر شيطاناً يلقي إليه، قال بعضهم:

(١) الديوان، ص ٢٨.

(٢) الورل: بفتح الواو والراء المهملة، دابة على خلقة الضب إلا أنه أعظم منه، وقيل إنه العظيم من الوزغ، طويل الذنب سريع السير، خفيف الحركة، وهو لا يتخذ بيتاً لنفسه ولا يحفر له جحراً بل يخرج الضب من جحره صاغراً، ويستولي عليه، وإن كان أقوى برائن منه لكن الظلم يمنعه من الحفر، ولهذا يضرب بالورل المثل في الظلم، ينظر الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ٥٥٤/٢.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣٣٤/١٩.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٣٦/١٩.

وكان في العينِ نبؤٌ عني
يذهب بي في الشعرِ كلُّ فنٍ^(١)

إني وإن كنتُ صغيرَ السنِ
فإنَّ شيطاني أميرُ الجنِ

قال حسان بن ثابت :

ولي صاحبٌ من بني الشيبانِ
فطورا أقولُ وطورا هوه^(٢)

وهم لم يكتفوا بنسبة شعرهم إلى الشياطين وتقاسمهم الشعر فيما بينهم بل سموها واشتهروا بها، فكان لكل شاعر شيطانه المسمى، فشيطان الاعشى (مسحل) وشيطان المخبل (عمرو). فقال الأعشى :

دعوتُ خليلي مسحلا ودعوا له
جهنم جدعا للهجينِ المذمم^(٣)

وقال آخر :

لقد كان جنيُّ الفرزدقِ قدوةً
ولا في القوافي مثل عمروٍ وشيخه

وما كان فينا مثل فحلِ المخبلِ
ولا بعد عمروٍ شاعرٌ مثل مسحل^(٤)

وهناك من حاول أن يعكس العادات والتقاليد البدوية على واقع وخيال شيطان الشعر، فلم يرضَ ان يكون شيطانه مثل باقي الشعراء فادعى أن شيطانهم أنثى وهي

(١) شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٣٤٥.

(٢) الديوان، ص ٤٨٤.

(٣) الديوان، ص ١٨٤.

(٤) ذكر الجاحظ إنها لأعشى سليم، ينظر الحيوان، مج ٢، ٤٤٠/٦.

تمثل الضعف في مجتمع العرب قبل الإسلام بينما نسب لنفسه أن يكون شيطانه ذكراً وهو يمثل الرجولة والقوة فقال:

إني وكلُّ شاعرٍ من البشرُ
شيطانهُ أنثى وشيطاني ذكرٌ^(١)

اعتقاد العرب بالجن

على الرغم من أن العرب قد نقلوا الكثير من القصص والحكايات والاشعار عن الجن التي كان قسم كبير منها محاطاً بهالة من الأسطورة والخيال كما بيّنا حتى طبعت في أذهان الناس على أنها جزء من الواقع إلا أن هناك من شكك فيها وانتقدها:

أولاً: إن ابن أبي الحديد قد أدرك هذه الحقيقة فنقل لنا رأي الجاحظ واتفق معه بقوله (إن القوم لما نزلوا بلاد الوحش عملت فيهم الوحشة ومن انفرد وطال مقامه في البلاد الخلاء استوحش ولا سيما مع قلة الأشغال وفقد المذاكرين، والوحدة لا تقطع أيامها إلا بالتمني والأفكار وذلك أحد أسباب الوسواس)^(٢)، وزاد عليها الجاحظ مما لم ينقله ابن أبي الحديد وهو يمثل تحليلاً علمياً جميلاً لعالم الجن عند العرب قبل الإسلام (وإذا استوحش الإنسان تمثّل له الشّيء الصغير في صورة الكبير، وارتاب، وتفرّق ذهنه، وانتقضت أخلاطه، فرأى ما لا يرى، وسمع ما لا يسمع، وتوهم على الشيء اليسير الحقير، أنه عظيمٌ جليل، ثم جعلوا ما تصوّر لهم من ذلك شعراً تناشدوه، وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك إيماناً، ونشأ عليه الناشئ، ورُبّي به الطّفل، فصار أحدهم حين يتوسّط الفيافي، وتشتملُ عليه الغيطان في الليالي الحنادس - فعند أوّل وحشةٍ وفرّعة، وعند صياح بُومٍ ومجاوبة صدّى، وقد رأى كلّ باطل، وتوهم كلّ زور، وربما كان في

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٤٥/١٩.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٣٥/١٩.

أصل الخلق والطبيعة كذاباً نفاقاً، وصاحب تشنيع وتهويل، فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة، فعند ذلك يقول: رأيت الغيلان وكلمت السعلاة ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلتها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: رافقتها ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: تزوجتها^(١).

لعل هذا الوصف يعطي تصوراً دقيقاً لكيفية توغل قصص الجن في نفوس العرب مع الاخذ بعين الاعتبار أن بيئة مجتمع ما قبل الإسلام المحاطة بالصحراء والوحدة والخيال كانت تمثل مناخاً واسعاً وهكذا تصورات.

ثانياً: ذكر المسعودي في معرض حديثه عن الهواتف والجان (أن الإنسان إذا صار في مثل هذه الأماكن وتوحد، تفكر، وإذا هو تفكر وجل وجبن، وإذا هو جن داخلته الظنون الكاذبة، والأوهام المؤذية، والسوداوية الفاسدة، فصورت الأصوات، ومثلت له الأشخاص، وأوهمته المحال، بنحو ما يعرض لذوي الوسواس، وقطب ذلك، وأسه سوء التفكير، وخروجه على غير نظام قوي، أو طريق مستقيم سليم؛ لأن المتفرد في القفار والمتوحد في المروراة مستشعر للمخاوف، متوهم للمتالف، متوقع للحثوف؛ لقوة الظنون الفاسدة على فكره، وانغراسها في نفسه، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف به واعتراض الجان له)^(٢).

من خلال قراءتنا لهذا النص والنص الذي قبله تنكشف لنا الصورة الحقيقية عن أسباب تعلق العرب بقصص الجان وظهورها في أسفارهم وخلواتهم وتوهماتهم.

وقد أورد لنا ابن أبي الحديد مجموعة من الروايات حول اعتقادات العرب بالجان وتأثيرها على حياتهم الاجتماعية منها:

(١) الحيوان، مج ٢، ٤٥٠/٦.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٣٦٢/٢.

من تقاليدهم تعليق كعب الارنب، يقولون إن من علق عليه كعب أرنب لم تقربه جنان الدار، وكانوا يعلقون على الصبي سن ثعلب وسن هرة خوفا من الخطفة والنظرة، ومن أساطيرهم إن جنية أرادت صبي قوم فلم تقدر عليه فلامها قومها من الجن في ذلك فقالت تعتذر إليهم:

كأن عليه نَفَرَه ثَعَالِبٌ وَهَرَرَه
والحَيْضُ حَيْضُ السَّمْرَةِ

و السمره شيء يسيل من السمر كدم الغزال^(١)، وكانت العرب إذا ولدت المرأة أخذوا من دم السمر وهو صمغه الذي يسيل منه ينقطونه بين عيني النفساء وخطوا على وجه الصبي خطأ وتسمى هذه الأشياء التي تعلق على الصبي النفرات^(٢).

ومن عادات العرب قبل الإسلام تسمية اطفالهم بأسماء الحيوانات لتجنبهم خطر التعرض للجن، فذكر ابن أبي الحديد أن أحد الاعراب ولد له ولد فسماه قنفذا وكناه أبا العداء وأنشد:

كالخمرِ مزجٌ دوائها منها بها
تشفي الصداعُ وتبرئ المنجودا

قال يريد أن القنفذ من مراكب الجن فداوى منهم ولده بمراكبهم^(٣).

من تقاليد العرب الأخرى التي ذكرها ابن أبي الحديد والمتعلقة بالبقر أنهم (إذا أوردوها فلم ترد، ضربوا الثور ليقتمح الماء فتقتمح البقر بعده، ويقولون إن الجن تصد

(١) السمره: وهي شجرة يسيل منها شيء كالدّم شبه الدّم يخرج من السمره وخاصته مذكورة في باب الصموغ، ينظر الجوهري، الصحاح، ص ٢٨٧، مادة (حيض).

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٢٩/١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣٢٩/١٩.

البقر عن الماء وإن الشيطان يركب قرني الثور^(١)، وذكر ابن أبي الحديد ان العجيب في الامر إن البقر قد تمتنع من الورود حتى يرد الثور، كما تمتنع الغنم من سلوك الطرق أو دخول الدور والأخبية حتى يتقدمها الكبش أو التيس، وكالحنبل تتبع اليعسوب، والكراكي تتبع أميرها، ولكن الذي تدل عليه أشعارهم أن الثور يرد ويشرب ولا يمتنع، ولكن البقر تمتنع وتعاف الماء وقد رأيت الثور يشرب فحينئذ يضرب الثور مع إجابته إلى الورود فتشرب البقر عند شربه وهذا هو العجب. قال الشاعر:

فإني إذن كالثورٍ يضربُ جنبُهُ إذا لم يعفُ شرباً وعافتُ صواحبُهُ

وقال آخر:

فلا تجعلوني كالبقيرٍ وفحلها يكسُرُ ضرباً وهو للوردِ طائعُ
وما ذنبُهُ إن لم يردِ بقراتِهِ وقد فاجأتها عندَ ذاكِ الشرائعُ^(٢)

لعل هذه الاسطورة (أسطورة الثور والبقر) من القصص التي فتحت أفقاً للشعراء قبل الإسلام لاستخدامها بنماذج وأشكال مختلفة تلتقي بنقطة واحدة هي المشاعر المتألمة لمن يتحمل أعباء نتيجة عمل فرض عليه ولم يفعله، فهذا نهشلُ بنُ حرِّيَّ يشعر بظلامه قبيلة تترك فيها قبائل اقترفت إثماً وتؤخذ بجريرتها قبيلة وهي منها براء:

أثْرَكَ عَارِضٌ وَبَنُو عَادِيٍّ وَتَغَرَّمَ دَارِمٌ وَهُم بَرَاءُ
كِدَابِ الثَّوْرِ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي إِذَا مَا عَافَتِ الْبَقْرُ الظَّمَاءُ^(٣)

(١) شرح نهج البلاغة، ٣١٣/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣١٣/١٩.

(٣) الجاحظ، الحيوان، مج ١، ٣٥/١.

وقد حاول أحد الباحثين المعاصرين تفسير القضية فقال إن الثور (يضرب بقوة اذا امتنعت البقر عن شرب الماء، لأن البقر لا تضرب لأنها ذات لبن، وإنما يضرب هو لتفزع هي، فهو يتحمل الأذى والضرب من أجل أن ترجع البقر إلى الماء في حالة نفورها، ولا بد أن يكون هذا الضرب موجعاً ومؤلماً بالنسبة للثور)^(١).

ومن تقاليدهم الأخرى التي ذكرها ابن أبي الحديد أنهم كانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره فيأخذون روثه ويفتونها على رأسه ويقولون: لروثة راث ثائرِك] وقال بعضهم:

طرحنا عليه الروثَ والزجرُ صادقٌ فراثَ علينا ثأرُهُ والطوائِلُ

وقد يذُرُّ على الحية المقتولة يسير رماد ويقال لها: قتلك العين فلا ثأرك، وفي أمثالهم لمن ذهب دمه هدرا وهو قتيل العين قال الشاعر:

ولا أكنُ كقتيلِ العينِ وسطَكُمُ ولا ذبيحةَ تشريقٍ وتنحارٍ^(٢)

وذكر ابن أبي الحديد (أنهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنون وتعرض الأرواح الخبيثة له نجسوه بتعليق الأقدار عليه كخرقة الحيض وعظام الموتى)^(٣).

يبدو أن بعضهم قد رفض تلك الخرافات وحاربها وقام بالرد عليها ونبه الناس إلى عدم فائدتها فذكر ابن أبي الحديد أن منهم من قال إن التنجيس يشفي إلا من العشق قال أعرابي:

(١) القيسي، نوري حمودي، دراسات في الشعر الجاهلي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، (بغداد ١٩٧٢)، ص ٢٠٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٤٥/١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣٢٥/١٩.

يقولون علق يا لك الخير رمةً وهل ينفع التنجيس من كان عاشقاً

وقالت امرأة وقد نجست ولدها فلم ينفعه ومات :

نجسته لو ينفع التنجيس والموت لا تفوته النفوس

وقال بعضهم وقد ترك الأمر برمته إلى الله وطرده الخرافات :

أتوني بأنجاس لهم ومنجس فقلت لهم ما قدر الله كائن^(١)

ثانياً: غير المعطلة:

ذكر ابن أبي الحديد (أنّ الذين ليسوا بمعطلة من العرب فالقليل منهم، وهم المتألهون أصحاب الورع والتحرّج عن القبائح)^(٢)، وهم الذين تبناوا فكراً دينياً توحيدياً بين العرب على الرغم من اختلاف المذاهب الدينية الأخرى وتّنعوها، فاعتزلوا الاصنام واتجهوا لاتباع الديانة الحنيفية التوحيدية^(٣).

والحنيفُ الذي يتحنّف عن الأديان، أي يميلُ إلى الحقّ، وكان في الجاهلية يقال لمن اختتن وحج البيت حنيفٌ لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين إبراهيم غير الحتان وحج البيت، فكلُّ من اختتن وحج قيل له حنيف، ومعنى الحنيفية في اللغة الميلُ، والمعنى أنّ إبراهيم حنّف إلى دين الله ودين الإسلام، وتحنّف الرجلُ، أي عمِلَ عمَلَ

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٢٥/١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٢٨/١.

(٣) جابر، عادل شابث، اتباع الديانة الحنيفية، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد ٨٢، بغداد، ٢٠٠٨، ص ١٧٢.

الْحَنِيفِيَّةِ، ويقال: إَعْتَزَلَ الْأَصْنَامَ وَتَعَبَّدَ^(١). قال جرّان العود^(٢):

وَمَا رَأَيْنَا الصُّبْحَ بَادِرًا ضَوْءَهُ رَسِيمَ قَطَا الْبَطْحَاءِ أَوْ هُنَّ أَقْطَفُ
وَأَدْرَكْنَ أَعْجَازًا مِنَ اللَّيْلِ بَعْدَ مَا أَقَامَ الصَّلَاةَ الْعَابِدُ الْمُتَحَنِّفُ^(٣)

وقيل بل أن تاريخهم يعود للقرن الاول قبل الميلاد، فقد عبد أهل اليمن إليها أطلقوا عليه (ذوي سموي) أو (رب السماوات)، واعتقدوا أن لا شريك له، وسموا بالأحناف أو المتحنفين، ويعتقد أن حنيفة عبد المطلب كانت استمراراً لديانة (ذوي سموي) اليمنية القديمة^(٤).

وذكر ابن أبي الحديد جماعة منهم، أبرزهم عبد المطلب وولده عبد الله وأبو طالب^(٥)، وكان عبد المطلب من الشخصيات العظيمة في مكة فقد أعطي من الكرامات ما لا يعرف مثله في زمانه احد، منها كلامه لأبرهة صاحب الفيل وتوعده إياه برب الكعبة وتحقيق قوله من الله تعالى ونصره ووعيده بحبس الفيل، وقتل أصحابه بالطير

(١) الجوهري، الصحاح، ص ٢٧٦، [مادة حنف]؛ ابن منظور، لسان العرب، ٢ / ٥٢٧، [مادة حنف].

(٢) عامر بن الحارث النميري: شاعر وصاف. أدرك الإسلام، وسمع القرآن، واقتبس منه كلمات وردت في شعره ومعنى (جران العود): مقدم عنق البعير المسن، كان يلقب نفسه به في شعره *

بدا لجران العود والبحر دونه وذو حذب من سرو حمير مشرف

من آثاره، ديوان شعر رواه وشرحه سعيد السكري، ينظر الزركلي، الاعلام، ٣ / ٢٥٠؛ كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار احياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ٥٣ / ٥.

(٣) جرّان العود، عامر بن الحارث النميري، الديوان، رواية ابو سعيد السكري، ط ٣، دار الكتب والوثائق، مركز تحقيق التراث، (القاهرة ٢٠٠٩)، ص ٢٢.

(٤) طوغان، وليد، مدعو النبوة في التاريخ الاسلامي، دار الخيال، (القاهرة ٢٠٠٤)، ص ٢٢.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١ / ١٢٨.

الأبائيل، وحجارة السجيل حتى تركوا كالعصف المأكول^(١).

وهذا إنما كان تمهيدا لنبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتأسيسا لما يريد الله به من الكرامة، وكان عبد المطلب مجاباً في دعوته ومسداً في أفعاله من عند الله في ما ينوي القيام به، وحصل الالهام في رؤيا حفر زمزم، فذكر ابن أبي الحديد أنه قيل له في المنام احفر زمزم خبيثة الشيخ الأعظم، فاستيقظ فقال اللهم بين لي الشيخ، فأري في المنام مرة أخرى احفر تكتم بين الفرث والدم، في مبحث الغراب، في قرية النمل، مستقبلة الأنصاب الحمر، فقام عبد المطلب فمشى حتى جلس في المسجد الحرام ينتظر ما سمي له من الآيات، فنحر بقرة فأفلتت من جازرها حتى غلب عليها الموت في المسجد في موضع زمزم فاحتمل لحمها من مكانها وأقبل غراب يهوي حتى وقع في الفرث فبحث عن قرية النمل فقام عبد المطلب فحفر بئر زمزم حتى ظهر الماء ثم بنى حوضاً يشرب منه الحاج^(٢).

وفي هذه الرواية ذكر ابن أبي الحديد أن عبد المطلب نحر بقرة، وهذا مستغرب في مجتمع مكة حيث البيئة الصحراوية التي لا يعيش فيها سوى الإبل والأغنام، فمن المحتمل أنها جاءت من خارجها وعلى الأرجح من اليمن، إذ كان أهل اليمن يتاجرون بها ويحضرون البقر إلى سوق عكاظ للتجارة، فقد ذكر المرزوقي انه (لما دخلت سنة خمس وثلاثين من عام الفيل وذلك قبل المبعث بخمس سنين حضر السوق من نزار واليمن - ما لم يروا أنه حضر مثله في سائر السنين، فباع الناس ما كان معهم من إبل وبقر ونقد، وابتاعوا أمتعة مصر والشام والعراق)^(٣)، أما كيف وصلت إلى هناك وقطعت الصحراء والمعروف أن الماء فيها شحيح، فلا نستغرب ذلك فقد وصل من قبل

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥/١٥٢؛ للتفصيل حول قصة اصحاب الفيل، ينظر ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ص ٧١- ٧٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٦٣.

(٣) ابو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١ هـ)، الازمنة والامكنة، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٤١٧ هـ)، ص ٣٨٧.

فيل أبرهة إلى مكة وهو يحتاج إلى ماء أكثر منها بكثير.

وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قد انتسب إلى عبد المطلب في مواقف عصيبة كما حدث في غزوة حنين (٨هـ) بعدما فرَّ عنه أغلب المسلمين، إذ هتف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ
أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

ولعل هذا من الدلائل المهمة في إيمان عبد المطلب فهو من انتسب إليه الرسول الأعظم في ذلك اليوم العصيب وهو يعلم مكانته وإيمانه عند أهل مكة، فلو كان غير ذلك لانتقده المنافقون ولهتف الرسول بغيره، وعليه فإن عبد المطلب من الموحدین الأحناف، وهو من قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ جَدِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أُمَّةً وَاحِدَةً فِي هَيْئَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَزِيَّ الْمُلُوكِ»^(١).

أما فيما يخص ولد عبد المطلب فأغلبهم ساروا على نهج أبيهم على ملة التوحيد أحنافاً، فإن أبا طالب بن عبد المطلب كان من الموحدین والمؤمنين ولا غبار على إيمان أبي طالب، فقد كثرت الدراسات والكتب التي كتبت وأثبتت إيمانه، فتوجد هناك أكثر من (٩٩) دراسة حول هذا الموضوع عند مختلف المذاهب^(٢)، وذكر ابن أبي الحديد انه (إنما لم يظهر أبو طالب الإسلام ويجاهر به لأنه لو أظهره لم يتهياً له من نصره النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما تهياً له وكان كواحد من المسلمين الذين اتبعوه نحو أبي بكر

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٠/٢.

(٢) للتفاصيل، ينظر الهندي، محمد علي لفصيح اللكنهوي (ت ١٣١٠ هـ)، القول الواجب في إيمان أبي طالب،

تحقيق محمود الغريفي، دار المتقين، (بيروت ٢٠١٢)، الصفحات ٣١ - ٥٤.

وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما ممن أسلم ولم يتمكن من نصرته والقيام دونه حينئذ وإنما تمكن أبو طالب من المحاماة عنه بالثبات في الظاهر على دين قريش وإن أبطن الإسلام^(١).

ولكي يثبت ابن أبي الحديد صدق ما ذهب إليه نقل لنا أن ابا طالب لما مات جاء علي عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره بموته فتوجع وحزن حزناً شديداً ثم قال له :

«امض فتول غسله فإذا رفعته على سريره فأعلمني».

ففعل فاعترضه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو محمول على رؤوس الرجال فقال :

«وصلتك رحم يا عم وجزيت خيراً فلقد ريبت وكفلت صغيراً ونصرت وأزرت كبيراً».

ثم تبعه إلى حفرتة فوقف عليه فقال :

«أما والله لأستغفرن لك ولأشفعن فيك شفاعة يعجب لها الثقلان».

ثم قال : (والمسلم لا يجوز أن يتولى غسل الكافر ولا يجوز للنبي أن يرق لكافر ولا أن يدعو له بخير ولا أن يعده بالاستغفار والشفاعة، وإنما تولى علي عليه السلام غسله لأن طالباً وعقياً لم يسلم بعد وكان جعفر بالحبشة ولم تكن صلاة الجنائز شرعت بعد)^(٢)، وقد أفرد ابن أبي الحديد موضوعاً كاملاً حول إيمان أبي طالب سماه (اختلاف الرأي في إيمان أبي طالب)^(٣).

(١) شرح نهج البلاغة، ٦٥/١٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٦١ / ١٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٥٢ / ١٤ - ٦٧.

أما عبد الله بن عبد المطلب المميز بين ولد عبد المطلب والد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيذكر ابن أبي الحديد أن امرأة ذات جمال دعت عبد الله بن عبد المطلب إلى نفسها لما كانت ترى على وجهه من النور فأبى وقال:

أَمَّا الْحَرَامُ فَالْمَمَاتُ دَوْنَهُ وَالْحَلُّ لَا حَلَّ فَاسْتَيْنَهُ
فَكَيْفَ بِالْأَمْرِ الَّذِي تَبَغَيْنَهُ يَحْمِي الْكَرِيمُ عَرْضَهُ وَدِينَهُ^(١)

وعلى الرغم من قلة الروايات عن والد النبي إلا أنه هنا يثبت معرفته الحلال من الحرام واجتنابه المعاصي، وهناك من الأدلة ما يثبت حقيقة إيمان آباء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى آدم وأنهم كلهم كانوا موحدين منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين، إلى أرحام المطهرات، حتى أخرجني في عالمكم هذا، لم يدنسني بدنس الجاهلية».

ولو كان في آباءه كافر، لم يصف جميعهم بالطهارة، مع قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾^{(٢)(٣)}.

وذكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في أحد خطبه تأكيد هذا القول بقوله عليه السلام:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَسَيِّدُ عِبَادِهِ، كُلَّمَا نَسَخَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَرَفَقْتَيْنِ، جَعَلَهُ

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٠ / ١٩٦.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان، ٩٠ / ٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ٢٨.

فِي خَيْرِهِمَا، لَمْ يُسْئَمْ فِيهِ عَاهِرٌ، وَلَا ضَرْبَ فِيهِ فَاجِرٌ، أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ
لِلْخَيْرِ أَهْلًا، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا»^{(١)(٢)}.

ومن الذين ذكرهم ابن أبي الحديد من الحنيفية زيد بن عمرو بن نفيل^(٣) وكان قد تأله في الجاهلية لم يتنصر ولم يتهود وترك عبادة الأصنام والذبائح التي تذبح على الاوثان^(٤) ، وكان يقول : (يا معشر قريش، أرسل الله قطر السماء، وأنبت بقل الأرض، وخلق السائمة ورعت فيه، وتذبحونها لغير الله؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبراهيم غيري)^(٥).

وهذا الكلام غير صحيح لوجود الكثير من المتألهين قبله وقبل زمانه، وكان زيد أول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الاوثان، ثم خرج يلتمس دين ابراهيم عليه السلام، فجال أرض الشام حتى أتى البلقاء، فقال له راهب بها عالم: قد أظلك زمان نبي يخرج في بلادك يدعو إلى دين ابراهيم (عليه السلام)، فأقبل بسبب قول الراهب مسرعاً يريد مكة فقتل قبل وصوله^(٦).

ذكر ابن أبي الحديد قس بن ساعدة الإيادي^(٧) وكان من المعمرين عاش أكثر من

(١) شرح نهج البلاغة، ١١ / ٥١، [خطبة ٢٠٧].

(٢) ولزيد من التفصيل عن آل عبد المطلب ودورهم الفكري والديني، ينظر القريشي، علي كريم عباس أمرة، آل عبد المطلب وأثرهم في الحياة العامة حتى نهاية العصر الراشدي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٧م، فص ٤ ص ٢٢٧ - ٢٧٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١ / ١٢٩.

(٤) ابن الكلبي، الاصنام، ص ١٢١، ابن حبيب، لمخبر، ص ١٧١؛ ابن قتيبة، المعارف، ٣٥.

(٥) الزبير، نسب قريش، ص ٣٦٤.

(٦) ابن حبيب، لمخبر، ص ١٧١؛ ابن قتيبة، المعارف، ٣٥.

(٧) شرح نهج البلاغة، ١ / ١٢٩.

ثلاث مائة سنة^(١)، وكان حكيم العرب ومقرأً بالبعث وقد ذكره الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فقال:

«ما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام وهو على جمل أحمر وهو يخطب بالناس»^(٢).

وقد ذكر قسماً من الخطبة ابن أبي الحديد ومنها:

«ما لي أرى الناس يذهبون ثم لا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا، أقسم قسماً، إن في السماء خبراً، وإن في الأرض لعبراً، سقف مرفوع، ومهاد موضوع، ونجوم تمور وبحار لا تغور، اسمعوا أيها الناس وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت»^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد أيضاً عامراً بن الضرب العدواني^(٤)، وكان ممن اشتهر بالقضاء وكان من حكماء العرب، وله وصية طويلة يقول في آخرها: (إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء، ثم قال: إني أرى أموراً شتى وحتى، قيل له: وما حتى؟، قال: حتى يرجع الميت حياً، ويعود لا شيء شيئاً، ولذلك خلقت السموات والأرض)^(٥).

وهناك عدد كبير من المتألمين ممن لم يذكرهم ابن أبي الحديد وكانوا من كافة أرجاء جزيرة العرب ومن قبائل شتى، مما يؤكد لنا أن هناك من كان يؤمن بالله ويغض الاصنام

(١) علي، المفصل، ٤١٤/٦.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ٤٧/١؛ القلقشندي، صبح الاعشى، ٢١٢/١.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٧ / ٨٤؛ ينظر تفاصيل الخطبة عند الطبراني، ابو القاسم سليمان بن أحمد بن ايوب (ت ٣٦٠هـ)، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط ٢، مكتبة الزهراء، (الموصل ١٩٨٣)، ٨٨ / ١٢.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١ / ١٢٩.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٥٠٢.

وتمسكاً بدين إبراهيم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم^(١).

ديانات أخرى

من الديانات الأخرى التي تحدث عنها ابن أبي الحديد الديانة اليهودية وقال (كان من العرب من يميل إلى اليهودية منهم جماعة من التبابعة وملك اليمن)^(٢)، ويذكر أن هناك مجموعتين من اليهود في الجزيرة العربية:

النوع الاول: ممن هاجروا على شكل جماعات متعاقبة من بلاد الشام بعد أن غلبتهم الروم في عهد القيصر طيطوس وهدمه للهيكل سنة (٧٠م)، وصادمهم بالقيصر هدريان سنة (١٣٢م)، فاستقروا في الواحات الخنصبة من الحجاز كوادى القرى وتيماء وخيبر وفدك ويثرب ثم انتقل قسم منهم إلى اليمن والبحرين^(٣).

النوع الثاني: هم عرب تهودوا، وتشير المصادر العربية أن بداية دخول اليهودية إلى اليمن في عهد أحد التبابعة، التبّع (اسعد الكامل)، إذ دعا قوماً إلى الدخول في اليهودية بعد أن مرّ بيثرب فأقنعه حبران من أحبار اليهود من بني قريظة فاتبعهما على دينهما^(٤)، ثم انتشرت بشكل واسع في عهد الملك (ذو نواس)^(٥)، الذي تسمى باسم يوسف بعد أن

(١) لمزيد من التفاصيل، ينظر العوادى، صلاح غلام غضيب، التوحيد عند العرب قبل الإسلام دراسة في الحنيفية وعبادة الرحمن، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١/١٢٨.

(٣) الجميلي، تاريخ العرب، ص ٢٣٣؛ ضيف، تاريخ الادب العربي في العصر الجاهلي، ص ٩٧.

(٤) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٦٧، ابن خلدون؛ تاريخ ابن خلدون، ٢ / ٦٢؛ غضبان، ياسين، مدينة يثرب قبل الإسلام، مؤسسة الرسالة، (بيروت ١٩٩٣)، ص ٦٩.

(٥) آخر ملوك حمير في اليمن وهو صاحب الأخدود المذكور في القرآن الكريم. وكان لذي نواس بأرض اليمن نار يعبدها هو وقومه ثم دان باليهودية، وهو من حفر أخاديد وملاًها جمراً وجمع النصرى فعرضهم على النار، فمن رجع إلى اليهودية نجا، ومن أبى هوى، ينظر ابو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٠٩؛ ابن كثير،

السيرة النبوية، ١/٣٦؛ الزركلي، الأعلام، ٣/٨

دان باليهودية ودعا الناس إليها وخير أهل نجران بين الحرق أو اعتناق اليهودية، وخذَّ بنجران أخايد فأوقد فيها النار ودعا أهلها إلى اليهودية وكانوا على إرث دين من دين عيسى، فلما ابوا عليه القاهم في النار وحرق الانجيل وقتل منهم زهاء عشرين ألفاً بالسيف سوى من أحرق بالنار ومن مثل به منهم، وبسببه جاءت الحبشة إلى اليمن فغلبت عليها لما فعل بالنصارى^(١).

وعلى الرغم من أن قصة أصحاب الأخدود قد ذكرها القرآن الكريم:

﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ * النَّارِذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ

بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾^(٢) وأغلب المصادر التاريخية ربطتها بالملك ذو نواس، إلا أن أحد الباحثين المعاصرين تصدى لتلك الروايات ووصفها بالاساطير التي تمتلئ بها الكتب العربية من الاسرائيليات التي صاغها كعب الأخبار ووهب ابن منبه وغيرهم من مسلمة أهل الكتاب، وذكر أنه لم يعثر على مصدر يثبت يهودية (التبع اسعد الكامل او ذو نواس) سوى الروايات المشكوك فيها، أما النقوش العائدة إلى عصره فهي تشير إلى أنه كان يعبد (إله السماء والارض)، ولا تدل هذه النقوش على أن الملك ذو نواس قد اعتنق اليهودية، وقد ذكر الآثاري الفرنسي (هالفي) انه لم يوجد ملك يهودي في حمير في أي وقت من الاوقات^(٣)^(١).

(١) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٦٨؛ الاصفهاني، الاغانى، ١٧/٤٨٣؛ ابن خلدون؛ تاريخ ابن خلدون، ٢ / ٦٩.

(٢) سورة البروج: الايات ٤ -٧.

(٣) الحجاج، محسن مشكل فهد، دولة التبابعة في اليمن أبان القرنين الرابع والخامس الميلادي دراسة في الاحوال السياسية والاقتصادية والدينية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٩، فص ٣،

أما الديانة المسيحية فقد ذكر ابن أبي الحديد أن في العرب من يميل إلى النصرانية^(٢) كبني تغلب والعباديين رهط عدي بن زيد ونصاري نجران^(٣)، وإذا كانت اليهودية قد دخلت جزيرة العرب بالهجرة والتجارة، فإن دخول النصرانية إليها كانت بالتبشير وبدخول بعض المبشرين الذين تمكنوا من اكتساب بعض سادات القبائل فادخلوهم إلى دينهم^(٤)، وكذلك عن طريق تجارة الرقيق التي كانت منتشرة في مكة والطائف ويثرب، وكان الرقيق النصراني يقرأ ويكتب ويفسر للناس ما جاء في التوراة والإنجيل ويقص عليهم قصصاً نصرانية ويتحدث عنها، ومنهم من تمكن من إقناع بعض العرب بالدخول فيها^(٥).

وذكر ابن قتيبة أن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض قضاة^(٦)، وهم الغساسنة الخاضعين للروم، أما من تنصر من أحياء العرب الأخرى (فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى، منهم: عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وورقة بن نوفل بن أسد، ومن بني تميم بنو امرئ القيس بن زيد مناة، ومن ربيعة بنو تغلب، ومن اليمن طيء، ومذحج، وبهراء، وسليح، وتنوخ، وغسان، ولخم)^(٧)، وقد اعتنق أهل الحيرة النصرانية بعد اعتناق أفراد الأسرة الحاكمة لها مثل، هند بنت الحارث زوجة المنذر

(١) لمزيد من التفاصيل عن الديانة اليهودية في الجزيرة العربية قبل الإسلام، ينظر الجبر، محمد ذياب فيصل، روايات أهل الكتاب للسيرة النبوية حتى عهد البعثة، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة البصرة، ٢٠١٢، ص ٥١ وما بعدها.

(٢) النصرانية: لفظة تطلق في العربية على أتباع المسيح وهي من الالفاظ المعربة، ويرى بعضهم أن لها صلة بـ (الناصرة) التي كان منها يسوع حيث يقال يسوع الناصري. ينظر، علي، جواد، المفصل، ٦ / ٥٨٢.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١ / ١٢٧.

(٤) علي، المفصل، ٦ / ٥٨٧.

(٥) علي، المفصل، ٦ / ٥٨٩.

(٦) المعارف، ص ٣٣٩.

(٧) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١ / ٢٢٠.

الثالث، التي بنت ديراً وكنيسة^(١)، وكانت الحيرة قد تنصرت في عهد النعمان الثالث ابن المنذر أبي قابوس (٥٨٥م - ٦١٣م) على يد عدي بن زيد العبادي الذي كان نصرانياً هو وأبوه وأمه وأهله^(٢).

ومما يدل على انتشار المسيحية في الحيرة هو كثرة الأديرة المشيدة هناك، التي تجاوز عددها (عشرين ديراً)^(٣) مثل دير هند ودير الجماجم اللذان ذكرهما ابن أبي الحديد في أكثر من موضع، ومن أشهر مدن النصرانية نجران وهي الموطن الرئيسي للنصرانية في العربية الجنوبية ولعلها الموطن الوحيد الذي توطدت فيه هذه الديانة في اليمن^(٤)، وقد بنيت فيها كنيسة كبيرة سميت (كعبة نجران) تطاولاً على الكعبة ذات المكانة السامية عند العرب^(٥).

أما الصابئة فقد ذكرهم ابن أبي الحديد عند الحديث عن ديانات العرب قبل الإسلام بقوله (ومنهم من كان يميل إلى الصابئة ويقول بالنجوم والانواء)^(٦)، وقد اختلف الناس فيهم اختلافاً كبيراً وقسموهم على طائفتين:

الاولى:

هم الصابئة الحنفاء وهم في نظرهم أصحاب ابراهيم ممن كانوا بجرّان أو ممن كان على دعوته^(٧)، وقد ذكرهم القرآن الكريم في أكثر من آية مع ذكره لليهود والنصارى مما

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤ / ٣٦٨.

(٢) الاصفهاني، الاغانى، مج ١، ٣٣١/٢.

(٣) علي، ابراهيم محمد، المناذرة دراسة سياسية حضارية (٢٦٨م - ٦٠٢م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٢، فص ٥، ص ١٠٢.

(٤) دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص ٦١٤.

(٥) دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص ٦١٥.

(٦) شرح نهج البلاغة، ١/ ١٢٨.

(٧) الألوسي، بلوغ الارب، ٢/ ٢٢٤؛ علي، جواد، الفصل، ٦/ ٧٠٢.

يجعلنا نفهم أنهم كانوا يعبدون إلهاً يتوجهون إليه، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢).

الثانية:

صابئة مشركون وهم من فسدوا من الصابئة فأشركوا واعتقدوا بالكواكب، وكانوا يعتقدون بوجود الله لكنهم يتوسطون لديه بمتوسط، وذلك المتوسط يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً^(٣)، ولكل روحاني هيكل ولكل هيكل فلك، وعليه فهم يعتقدون أن الروحانيين يسكنون الكواكب فعبده^(٤)، تكون هذه الديانة منتشرة عند عرب الجنوب اقوى منها عند عرب الشمال^(٥)، ويبدو لنا أنّ هناك تشابهاً كبيراً بين عبادة الكواكب وعبادة الاصنام من حيث كونها واسطة للتقرب إلى الله كما يعتقدون.

وذكر ابن صاعد الأندلسي، أنّ حميراً تعبد الشمس، وكنانة تعبد القمر، وتميماً

(١) سورة البقرة: الآية ٦٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٩.

(٣) الاصفهاني، الملل والنحل، ص ٢٣٢؛ الالوسي، بلوغ الارب، ٢/٢٤٤.

(٤) الاصفهاني، الملل والنحل، ص ٢٦٤.

(٥) جمعة، مذكرات في تاريخ العرب الجاهلي وصدور الإسلام، ص ٤٦.

تعبد الدبران^(١)، ولخم جذام المشتري، وطيثاً سهيلاً، وقيس الشعري العبور^(٢)، وأسدأ عطارد^(٣).

إن عبادة العرب للنجوم نابعة من حاجتهم الفعلية إليها للاهتداء بالنجوم في أسفارهم، وضبط مواسم المطر، وقد تصوروا أنّ للشمس قدرة خارقة كامنة فيها فهي مصدر النور والحرارة ولها تأثير على الإنسان والحيوان والنبات فعبدوها واقاموا لها المعابد وقدموا لها القرابين^(٤)، وكان للقمر تأثير على الكثير من معتقدات عرب الجنوب الذين استخدموا رموزاً أخرى ذات دلالات دينية في تصورهم له مثل رسم الهلال وغيره، إلى جانب عبادتهم للثور والوعل والنسر التي يظن إنها ترمز إلى القمر^(٥).

أما المجوسية فهي من الديانات المنتشرة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان ابن أبي الحديد قد ذكر كلاماً للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يذكر فيه ابتداء خلق السماء والأرض قال فيه عليه السلام:

(١) الدبران: كوكب احمر سمي بذلك لأنه دبر بعد الثريا أي جاء خلفها، ويقال له الراعي والتالي والتابع، عبده العرب رهبة منه لارغبة فيه، فهو كوكب مشؤوم عندهم لا يمطرون بنوئه إلا وستهم جدبة ففي نوئه يشتد الحر وتهب السمائم، ينظر دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص ٥٦٠، دغيم، سميح، أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، ص ١٤٦.

(٢) الشعري: كوكب نير يطلع بعد الجوزاء وطلوعه في شدة الحر وسمي الشعري العبور لأنها عبرت السماء عرضاً ولم يعبرها عرضاً غيرها، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٩٦/٥، [مادة شعرا].

(٣) ابو القاسم صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢)، طبقات الامم، نشره وذيله بالخواشي لوبس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، (بيروت ١٩١٢)، ص ٤٣.

(٤) دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص ٥٥٧.

(٥) لا يزال بعض سكان الريف اليميني يعلقون على رقاب اطفالهم تميمة هي عبارة عن سن الثعلب لو تأملتها لوجدت أنها ربما ترمز الى الهلال، كما يلفت الانظار أيضاً وجود عادة قديمة عبارة عن تركيب قرني الوعل في زوايا المنازل من الخارج، وقرنا الوعل كقرني الثور يذكران بالهلال، ينظر بافقيه، محمد عبد القادر، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت ١٩٨٥)، ص ٢٠٤ - ٢٠٦.

«أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِشْءًا، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً، بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا، وَلَا تَجْرِبَةَ اسْتَفَادَهَا، وَلَا حَرَكَةَ أَحَدِكْهَا، وَلَا هَمَامَةَ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا، أَحَالَ الْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا، وَلَا عَمَّ لَأَمَّ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا، وَغَرَزَ غَرَائِزَهَا، وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا، عَالِمًا بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، مُحِيطًا بِحُدُودِهَا وَابْتِهَائِهَا، عَارِفًا بِقَرَائِنِهَا وَأَحْنَائِهَا»^(١).

ثم علّق عليها بقوله: (وقوله ولا همامة نفس اضطرب فيها فيه رد على المجوس والثنوية القائلين بالهمامة، ولهم فيها خبط طويل يذكره أصحاب المقالات، وهذا يدل على صحة ما يقال إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين، ويعلم العلوم كلها وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه)^(٢).

والمجوسية عبدة النار وهم القائلون بالأصلين النور والظلمة، وقد عرف العرب المجوسية عن طريق اتصالهم بالفرس في الحيرة، وعن طريق اتصالهم بهم باليمن عندما استوطنوا، فيها فاستعان بهم سيف بن ذي يزن لطرده الاحباش^(٣)، وذكر ان المجوسية كانت في تميم، وأن زرارة بن عدس وابنه حاجب^(٤) هما من سادات تميم كانا قد اعتنقا المجوسية، كما اعتنقها الاقرع بن حابس^(٥)، وأبو أسود جد وكيع بن حسان^{(١)(٢)}.

(١) شرح نهج البلاغة، ٩٦/١، [خطبة ١].

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٩٨/١.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٤٤/٢.

(٤) زرارة بن عدس، جد جاهلي وكان حكما من قضاة تميم، أما ابنه حاجب فهو من سادات العرب في الجاهلية. كان رئيس تميم في عدة مواطن. وهو الذي رهن قوسه عند كسرى على مال عظيم ووفى به وأدرك الإسلام وأسلم. وبعثه النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات بني تميم، ينظر البغدادي، خزنة الأدب، ٣٤٥/١؛ الزركلي، الأعلام، ٤٣/٣، ١٥٣/٢.

(٥) الأقرع بن حابس بن عقال المجاشعي الدارمي التميمي (ت ٣١هـ) من حكام وسادات العرب في الجاهلية. قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد من بني دارم (من تميم) فأسلموا. وشهد حينما وفتح مكة والطائف. وسكن

وقد ورد ذكر المجوس في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ
اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٣).

المدينة. وكان من المؤلفات قلوبهم، كان مع خالد بن الوليد في أكثر وقائعه حتى اليمامة. واستشهد بالجوزجان وقيل اسمه فراس وإنما لقب الأقرع لقرع كان برأسه، ينظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٨٠/٩؛ الزركلي، الاعلام، ٤٣/٣.

(١) أبو سود التميمي هو حسان بن قيس بن أبي سود بن كلب بن عدي بن مالك بن عدانة بن يربوع كان مجوسيا فأسلم، وهو جد وكيع بن حسان بن أبي سود، صاحب الفتنة بخراسان الذي قتل قتبية بن مسلم أمير خراسان صاحب الفتوح وولي خراسان بعدها أول خلافة سليمان بن عبد الملك ثم عزل عنها، ينظر ابن الاثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠)، اسد الغابة، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت)، ٢٢٢/٥ - ٢٢٣.

(٢) ابن قتبية، المعارف، ص ٣٣٩؛ الآلوسي، بلوغ الارب، ٢٣٥/٢.

(٣) سورة الحج: الاية ١٧.

المبحث الثاني الطقوس الدينية عند العرب قبل الإسلام

أولاً: الاستقسام بالأزلام:

الأزلامُ: جمع زلم، وهي السهام^(١) التي كان أهلُ الجاهليَّة يستقسمون بها، مكتوب على بعضها أمرني ربي وعلى بعضها نهاني ربي، فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً ضرب تلك القداح فإن خرج سهم الذي عليه أمرني ربي مضى لحاجته، وإن خرج الذي عليه نهاني ربي لم يمض في أمره^(٢)، وقيل كانت حصى بيض وقيل حجارة مكتوباً عليها^(٣). أما الاستقسام فهو الطلب من جهة الأزلام ما قُسم لكم من أحد الأمرين أي معرفة الخير والشر بواسطة ضرب القداح^(٤).

ويعد الاستقسام بالأزلام إحدى طرق التنبؤ التي عرفت طرقها إلى عادات الناس الاجتماعية، ولإضفاء القدسية عليها كان الاستقسام يتم أمام الاصنام حتى يكون تعبيراً

(١) وهو السهم الذي الذي يرمى به عن القوس يقال للسهم أول ما يقطع قطع ثم ينحت ويبرى فيسمى برياً ثم يقوم فيسمى قدحاً ثم يراش ويركب نصله فيسمى سهماً، ينظر ابن الاثير، النهاية في غريب الحديث، ٢٠/٤.

(٢) الجوهري، الصحاح، ص ٤٧٩، [مادة زلم]؛ ابن منظور، لسان العرب، ٤ / ٢٩٥، [مادة زلم].

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٢٠٨/٨؛ العيني، عمدة القاري، ٩ / ٢٤٧.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ٧ / ٢٦٨، [مادة قسم]،

عن مشيئة الالهة وإرادتها، وكان له مردودات مالية للعاملين عليه، إذ يعطي الناس اجراً لسدنة الاصنام القائمين بالاستقسام يسمونه (حلوان الكاهن)، وقد بلغ الحلوان في حالة الاحتكام إلى هبل مائة درهم^(١).

ونسب العرب الاستقسام بالأزلام إلى ابراهيم وولده اسماعيل (عليهما السلام)، فقد ذكر ابن أبي الحديد أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في عام الفتح (لما دخل الكعبة رأى صورة ابراهيم شيخاً كبيراً يستقسم بالأزلام)^(٢)، وهذا افتراء لأنّ ابراهيم عليه السلام لم يكن يفوض أمره إلا إلى الله سبحانه وتعالى) وما حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (قاتلهم الله جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام)^(٣) إلا تصدّ لذلك الافتراء ونصرة لجدّه ابراهيم عليه السلام.

وعلى الرغم من أن الاستقسام بالأزلام عقيدة راسخة عند العرب يرجعون إليها في أمور حياتهم اليومية ولا يتجاوزنها، إلا اننا نرى في بعض الأحيان أنّ هناك من خالفها عند تعارضها مع رغباته، فيذكر لنا ابن أبي الحديد أنّ قريشاً استقسمت بالأزلام عند هبل للخروج لقتال المسلمين قبل معركة بدر، وقد استقسم أمية بن خلف وعتبة وشيبة بالامر والناهي؛ فخرج القدح الناهي فأجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل فقال: ما استقسمت ولا نتخلف عن عيرنا، وكان زمعة بن الأسود خارجاً فكان بذى طوى أخرج قداحه واستقسم بها فخرج الناهي عن الخروج فلقي غيظاً ثم أعادها الثانية فخرج مثل ذلك فكسرهما وقال ما رأيت كاليوم قدحا أكذب^(٤).

(١) عبد اللطيف، مصطفى، أثر العقائد الدينية في القيم الاجتماعية والخلقية في العصر الجاهلي، مجلة المريد، كلية الآداب، جامعة البصرة، السنة الثانية، العدد الثاني والثالث، ١٩٦٩، ص ٢١٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢١١/١٧.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢١١/ ١٧؛ ينظر الحديث عند البخاري، صحيح البخاري، ١٦/٢؛ ابن الاثير، النهاية في غريب الحديث، ٢١٧/٤؛ المجلسي، بحار الانوار، ١٠٦/٢١.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٧٨/ ١٤.

وذكر لنا ابن الكلبي، أنّ امرأ القيس بن حجر، كان يريد الغارة على بني أسد، فمر بندي الخلصة وكان صنماً بتبالة^(١) وكانت العرب جميعاً تعظمه، وكانت له ثلاثة أقدح: الأمر، والناهي، والمتربص فاستقسم عنده ثلاث مراتٍ فخرج الناهي. فكسر القداح، وضرب بها وجه الصنم، وقال: لو كان أبوك قتل، ما عوقنتي. ثم غزا بني أسد، فظفر بهم^(٢).

وهذه الرواية تبين لنا أن الاستقسام بالأزلام كان منتشرًا بين سائر العرب، وكان يستخدم في بعض الأحيان كذريعة للقيام بالأعمال، لذلك فما إن يخالف الأمر رغبة طالبه حتى نراه يرفض العمل به ويتشدد في رفضه.

أنواع الأزلام عند العرب:

النوع الأول: كان الإنسان يستخدمه بنفسه، إذا أراد سفراً، أو حاجة لمعرفة نسب شخص ما، أو تجارة أو زواج، عمد إلى (ثلاثة سهام) على أحدها مكتوب إفعال وعلى الثاني لا تفعل والثالث غفل^(٣)، وقيل كان على الواحد، أمرني ربي وعلى الثاني نهاني ربي وعلى الثالث غفل، فإذا أراد أحدهم الأمر أخرج واحداً فإن طلع الأمر فعمل أو الناهي ترك أو الغفل أعاد^(٤).

النوع الثاني: للأحكام وهي التي عند الكعبة وكانت عند الصنم هبل وهي (سبعة اقداح) مكتوب في أولها: صريح، والآخر: ملصق فإذا شُك في مولود، أهدوا له هدية، ثم ضربوا بالقداح. فإن خرج: صريح أحقوه؛ وإن خرج: ملصق، دفعوه. وقدح على

(١) تبالة: موضع ببلاد اليمن بينها وبين مكة اثنان وخمسون فرسخاً نحو مسيرة ثمانية أيام، ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤٠/٢.

(٢) الاصنام، ص ٤٧.

(٣) قَدْحٌ غُفْلٌ: لا خير فيه ولا نصيب له. ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٦ / ٤٥٣، (مادة غفل).

(٤) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٢٠٨/٨؛ العيني، عمدة القاري، ٩ / ٢٤٦؛ بلوغ الأرب، ٦٧/٣.

الميت؛ وقدح على النكاح؛ وثلاثة للديات وغير ذلك^(١).

وكان اليعقوبي قد ذكر أسماءً تختلف للأقداح فواحد عليه: الله عز وجل، والآخر: لكم، والآخر: عليكم، والآخر: نعم، والآخر: منكم، والآخر: من غيركم، والآخر: الوعد، فكانوا إذا أرادوا أمراً رجعوا إلى القداح، فضربوا بها، ثم عملوا بما يخرج من القداح لا يتعدونه، ولا يجوزونه، وكان لهم أسماء على القداح لا يثقون بغيرهم^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ عبد المطلب ضرب بالقداح عند هبل على ابنه عبد الله بعد أن نذر ذبح أحد أبنائه إذا ولد له عشرة أبناء، فأراد أن يفني بنزله فجمع أبناءه عند هبل وطلب إلى صاحب القداح أن يضرب عليهم فخرج القدح على عبد الله، فهمّ أن يذبحه ثم شاور عليه بأن يفديه بالإبل فلجأ إلى القداح ثانية فضربت حتى بلغت مائة ناقة فنحرها مكانه^(٣).

هذه الرواية على الرغم من تكرارها في أغلب الكتب والمعاجم إلا أنها تحتاج إلى وقفة طويلة لعدة أسباب:

١- من غير المعقول لرجل مثل عبد المطلب بكياسته وهدايته ودينه أن ينذر ذبح أحد أبنائه لقضية ما، مهما كان حجمها، فلو قدر له وذبح لكانت من أبشع الجرائم في حق البشرية، فما ذنب عبد الله يذبح على نذر لا دخل له فيه، وإذا كان هناك من يقول

(١) ابن الكلبي، الاصنام، ٢٨، ابن حبيب، المحبر، ص ٣٣٢، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٢٠٨/٨.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ١ / ٢٢١.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٥ / ١٦٤؛ يراجع تفاصيل القصة عند ابن الكلبي، الاصنام، ص ٢٨، الطبري، تاريخ

الرسول والملوك، ١ / ٢١٤، ابو هلال العسكري، الاوائل، ص ١٥؛ حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني

والتقاني، ١ / ٦٠.

إن جده ابراهيم عليه السلام قد اراد فعلها قبله فالقضية، تختلف تماماً، فالأمر مع ابراهيم عليه السلام جاء عن طريق الرب كاختبار للطاعة والنبوة، أما عبد المطلب فقد حكم الأمر للأزلام وإمام الأصنام وبرعايتها.

٢- ذكر ابن حبيب أن عبد المطلب كان ممن حرّم على نفسه السكر والخمر والازلام في الجاهلية من قريش^(١)، فكيف يتعامل مع الازلام وهو حرّمها على نفسه والقرآن كان قد حرّمها بعد ذلك إذ قال الله (سبحانه وتعالى) في كتابه:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ كَفَرْتُمْ﴾^(٢).

٣- ذكرنا سابقاً^(٣) أنّ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قد افتخر به في واقعة حنين في ذلك اليوم العصيب دون غيره من السلسلة المباركة للنسب الشريف وما كان ذلك إلا لكونه امتداداً للنور والنبوة الصادقة، لاسيما أنّ هناك عدداً من الاحكام التي كان قد أقرها بين قومه وثبّتها الإسلام كقطع يد السارق، والدية مائة ناقة وغيرها من الاحكام، وهذا دليل على عدم اعترافه بالأصنام والازلام والابتعاد عنها.

النوع الثالث: هو قداح الميسر، وقد ذكر ابن أبي الحديد أنّ العرب كانوا يستعيرونه ويدخلونه في قداحهم يتيمينون به ويثقون بفوزه^(٤)، وهو عشرة أقداح سبعة فيها حظوظ

(١) المحبر، ص ٢٣٧.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

(٣) ص ١٨٤ من الرسالة

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٢/١٣٤.

وثلاثة اغفال^(١)، وكان أهل الثروة والأجود من العرب يتقامرون بها في الشتاء لإطعام المساكين، فإذا قمر أحدهم جعل أجزاء الجزور لذوي الحاجة وأهل المسكنة، وكانوا يشترون بعيراً فيما بين عشرة اشخاص فيستقسمون عليها بالأقداح بينهم، فمن خرج باسمه سهم من التي لا أنصباء لها إلزم ثلث ثمن البعير، فلا يزالون بذلك حتى تقع السهام الثلاثة التي لا أنصباء لها إلى ثلاثة منهم فيلزمونهم ثمن البعير، ثم ينحرونه ويأكله السبعة الذين لم ينقدوا في ثمنه شيئاً، ولم يطعموا منه الثلاثة الذين نقدوا ثمنه شيئاً^(٢)، وقد حرّمه الإسلام لما فيه من مفساد من المقامرة ومخاطرة الرجل بأهله وماله، ويجلب العداوة والبغضاء فقال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣).

(١) فالسبعة التي لها أنصب يقال لأولها الفذ، وله جزء، والتوأم، وله جزءان، والرقيب، وله ثلاثة أجزاء، والجلس، وله أربعة أجزاء، والنفاس، وله خمسة أجزاء، والمسبل، وله ستة أجزاء، والمعلّى، وله سبعة أجزاء، والثلاثة التي لا أنصب لها إغفال ليس عليها اسم يقال لها: المنيح، والسفيح، والوغد، وكانت الجزور تشتري بما بلغت، ولا ينقد الثمن، ثم يدعى الجزار، فيقسمها عشرة أجزاء، فإذا قسمت أجزاءها على السواء أخذ الجزار أجزاءه، وهي الرأس والأرجل، وأحضرت القداح العشرة، واجتمع فتیان الحي، فأخذ كل فرقة على قدر حالهم ويسارهم، وقدر احتمالهم، فيأخذ الأول الفذ، وهو الذي فيه نصيب واحد من العشرة أجزاء، فإذا خرج له جزء واحد أخذ من الجزور جزءاً، وإن لم يكن يخرج له غرم ثمن جزء من الجزور، ويأخذ الثاني التوأم، وله نصيبان من أجزاء الجزور، فإن خرج أخذ جزئين من الجزور، وإن لم يخرج غرم ثمن الجزين، لمزيد من التفاصيل، ينظر اليعقوبي، ١/ ص ٢٢١- ٢٢٢.

(٢) الصدوق، ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١)، من لا يحضره الفقيه، تصحيح وتحقيق علي اكبر الغفاري، ط ٢، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، (قم ١٤٠٤ هـ)، ٣/ ٣٤٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

ثانياً: الحلف:

الحلف هو القَسَم واليَمين وسمي يميناً لأن العرب قبل الإسلام كانوا إذا حلفوا أو تحالفوا أو تعاقدوا أو تبايعوا ضرب كل امرئٍ منهم يمينه على يمين صاحبه^(١)، وقد تنوعت صيغة القسم عند العرب بتنوع عباداتها:

أولاً: ذكر ابن أبي الحديد أن منهم من كان يقسم بالله، إذ إنَّ العرب كانت تحلف باليمين فتقول (يمين الله لا أفعل) أو (أيمين الله)، قال امرؤ القيس:

فقلتُ يمينَ اللهِ أبرحُ قاعِداً ولو قطعوا رأسي لذيكَ وأوصالي^(٢)

ولعلمهم كانوا من العرب الذين هم على دين الحنيفية ورثة ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام مع ما فيهم من شوائب الوثنية، وكانت عندهم صيغ بالحلف بالله مختلفة ذكرها النجيري منها:

(لا والذي يراني من فوق سبعة أرفعة.

لا ورب البيت والحجر.

لا والذي يراني من حيث لا أنظر.

لا والذي أخرج الماء من الحجر، والنار من الشجر.

لا ورب النور والظلام)^(٣).

ثانياً: من كان يحلف بالاصنام ويزعم أنها تقربهم إلى الله عز وجل فكثر عندهم

(١) الجوهري، الصحاح، ص ١٢٥٤، [مادة يمين]؛ ابن منظور، لسان العرب، ٩ / ٣٤٤، [مادة يمين].

(٢) شرح نهج البلاغة، ٤٣/٧.

(٣) ابو اسحاق ابراهيم بن عبدالله بن محمد الكاتب (ت نحو ٣٥٥ هـ)، ايمان العرب في الجاهلية، نسخه وصححه

محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، (القاهرة ١٣٤٣ هـ)، ص ١٤ - ٢٢.

الحلف باللات والعزى، وذكر ابن أبي الحديد قول الكاهن عندما رأى الرسول صغيراً فقال (يا للعرب اقتلوا هذا الغلام فهو واللات والعزى لئن عاش ليدلن دينكم وليخالفن أمركم)^(١)، والقسم بالأنصاب والاصنام نراه بارزاً في أبيات شعراء قبل الإسلام، منها قول طرفة:

فأقسمتُ عند النصبِ إني لهالكُ
بمتلفَةٍ ليست بغبطٍ^(٢) ولا خفضٍ^(٣)

وقال أوس بن حجرٍ يحلف باللات:

وباللاتِ والعزى ومن دانَ دينَها
وباللهِ، إن الله منهنَّ أكبرُ^(٤)

أما طرق الحلف واليمين فقد اختلفت عندهم وكانت غالباً ما تتم في مكان ذي قدسية في النفوس وبمضور كهان أو ناس أصحاب نفوذ، والغالب عند عقد الأيمان أنهم يوقدون ناراً وكان السدنة يطرحون فيها ملحاً من حيث لا يشعرون ويدنون منها حتى تكاد تحرقهم ليلقي الروح في نفس الحالف، فلا يحلف كذباً ولا يتجرأ على الإثم بأداء اليمين باطلاً وتسمى هذه النار (الهولة)، قال أوس: كما صد عن نار المهول حالف^(٥)

وكانت لهم مراسيم خاصة كالذي كان في حلف الفضول، إذ ذكر ابن أبي الحديد أنهم عمدوا إلى ماء زمزم فجعلوه في جفنة ثم بعثوا به إلى البيت فغسلوا به أركانه ثم جمعوه وأتوهم به فشربوه ثم انطلقوا وتحالفوا وبذلك عقد الحلف وصار واجباً على

(١) شرح نهج البلاغة، ١٣/١٥٥.

(٢) غبط: أرض مستوية يرتفع طرفاها. ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٦ / ٣٩٣، (مادة غبط).

(٣) الديوان، ص ٦٥.

(٤) الديوان، ص ٣٦.

(٥) الجوهري، الصحاح، ص ١١٨٨، [مادة هول]؛ علي، المفصل، ٥ / ٥١٩.

المتحالفين، كما استعملوا عبارات لتوكيد أيمانهم ومنها عبارة (ما بل بحر صوفه)^(١)، التي استخدمتها قريش حين قالت هلموا فلنحتلف حلفاً جديداً لنصرنّ المظلوم على الظالم ما بل بحر صوفه^(٢).

ثالثاً: الاستسقاء:

الاستسقاء هو الاستمطار ومنه قول الفرزدق: **واستمطروا من قريش كل منخدع**
أي سلوه أن يعطي كالمطر مثلاً^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ (العرب إذا أجدبت وأمسكت السماء عنهم وأرادوا أن يستمطروا عمدوا إلى السلع^(٤)، والعشر^(٥)، فحزموهما وعقدوهما في أذنان البقر وأضرموا فيها النيران، وأصعدوها في جبل وعر واتبعوها يدعون الله ويستسقونه وإنما يضرمون النيران في أذنان البقر تفاقؤلاً للبرق بالنار)^(٦).

وهناك رأي آخر لأحد الباحثين المعاصرين يقول فيه إنّ سبب استخدامهم للبقر يعود للصلة التي يعقدونها بين الثور ومعاني الحياة والخصب والنماء، فهم يعتقدون أنّ الكون

(١) ينظر المثل وقصته في رسالتنا ص ٢٣٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٧٠.

(٣) الجوهري، الصحاح، ص ١٠٥٩، [مادة مطر].

(٤) السَّلْعُ: نبات وقيل شجر مرّ وقيل أنه يرتقي جبلاً خضراً لا ورق لها ولكن لها فُضْبَان تلتف على الغصون وتَشْبِكُ وله ثمر مثل عنقايد العنب صغار فإذا أبيض اسودّ فتأكله القُرود فقط، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٤/٤٧٩، [مادة سلع].

(٥) العُشْر وهو من كبار الشجر وله صمغ حُلُوّ وهو عريض الورق ينبت صُعداً في السماء وله سُكَّر يخرج من شَعْبِهِ ومواضع زَهْرِهِ يقال له سُكَّرُ العُشْرِ وفي سُكَّرِهِ شيءٌ من مرارة، وقيل قُرْصٌ بُرِّيٌّ بلبنٍ عُشْرِيٌّ، أي لبنٍ إبلٍ ترعى العُشْرَ، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٦/١٦٧، [مادة عشرا].

(٦) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣١٢.

يستند على ظهر ثور^(١).

وقد أورد ابن أبي الحديد مجموعة من الابيات الشعرية التي تتحدث عن هذه الطقوس منها قول لأمية بن أبي الصلت:

ويسقون باقر السهل للطود
عاقدين النيران في ثكن الأذنان
سَلْع ما ومثله عشر ما
مهازيل خشية أن تبورا
منها لكي تهيج البحورا
عامل ما وعالت البيقورا

وقال آخر:

لما كسونا الأرض أذنان البقر
بالسَلْع المعقود فيها والعُشْر

وقال آخر:

يا كحلُّ قد أثقلت أذنان البقر
بسَلْع يعقدُ فيها وعُشْر
فهل تجودين ببرقٍ ومطر^(٢)

وكان هناك من هو رافض لتلك التقاليد، بل كانوا يعيبون العرب بفعلتهم، هذه فذكر ابن أبي الحديد بعضاً من أشعارهم منها قول أحدهم:

لا درُّ درُّ رجالٍ خابَ سعيهمُ
يستمترون لدى الإعسارِ بالعُشْر

(١) عجينة، محمد، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، (بيروت ١٩٩٤)، ص ٢٩٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣١٢/١٩.

أَجَاعِلُ أَنْتَ بَيِّقُورًا مَسْلَعَةً ذَرِيعَةً لَكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطْرِ

وقال آخر:

قُلْ لِبَنِي نَهْشَلٍ أَصْحَابِ الْحَوْرِ أَتَطْلِبُونَ الْغَيْثَ جَهْلًا بِالْبَقْرِ
وَسَلْعٍ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ وَعُشُرٍ لَيْسَ بِنَا يَجْلُلُ الْأَرْضَ الْمَطْرُ^(١)

أما من كان يؤمن بالله ويدين بدين الحنيفية فقد اتخذ بالاستسقاء منحى آخر، فيذكر ابن أبي الحديد أن قريشاً قد تتابعت عليها سنون أمسك فيها السحاب فالتف القوم حول عبد المطلب ثم ارتقوا أبا قبيس، فقام فاعتضد ابن ابنه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فرفعه على عاتقه وهو يومئذ غلام ثم قال: (اللهم ساد الخلة، وكاشف الكربة، أنت عالم غير معلّم، ومسؤول غير مبخل، وهذه عبداؤك وإماؤك بعذارات^(٢) حرّمك، يشكون إليك سنّهم التي أذهبت الخُف والظلف، فاسمعن اللهم وأمطرن علينا غيثاً، مُغْدِقاً مَرِيحاً سَحَا طَبَقًا دَرَاكًا)، فما إن انتهى حتى انفجرت السماء بمائها واكتظ الوادي بثجيجه^(٣)، وانصرف الناس يقولون لعبد المطلب هنيئاً لك سيد البطحاء، وقال شاعر من قريش وقد روي هذا الشعر لرقيقة:

بشبية الحمد أسقى الله بلدتنا وقد فقدنا الحيا واجلوذ المطر
فجاد بالماء وسمي له سُبُلٌ سحا فعاشت به الأنعام والشجر^(٤)

(١) شرح نهج البلاغة، ٣١٢/١٩.

(٢) العذرات: جمع عذرة، وهي الفناء.

(٣) الثَّجُّ: الصَّبُّ الكثيرُ وخص بعضهم به صَبَّ الماء الكثير. ينظر ابن منظور، لسان العرب، ١٢ / ٢، (مادة ثجج).

(٤) شرح نهج البلاغة، ٢١٢/٧.

وقد ذكر الشهرستاني الرواية بطريقة مختلفة فقال أمسك السحاب عنهم سنتين فأمر عبد المطلب ابنه أبا طالب أن يحضر المصطفى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فأحضره وهو رضيع في قماط فوضعه في يديه واستقبل الكعبة ورماه إلى السماء وقال: يا رب بحق هذا الغلام ورماه ثانيا وثالثا وكان يقول: بحق هذا الغلام اسقنا غيثا مغيثا دائما هطلا، فلم يلبث ساعة أن طبق السحاب وجه السماء وأمطر حتى خافوا على المسجد.. وأنشد أبو طالب ذلك الشعر اللامي منه^(١):

وأبيضٌ يستسقى الغمامُ بوجهه
ثمّال اليتامى عصمةً للأراملِ
يطيفُ به الهلاكُ من آلِ هاشمٍ
فهُم عندَهُ في نعمةٍ وفواضلِ^(٢)

وكان أبو طالب قد شارك أباه الزعامة ورعاية الرسول الكريم في حياته، لينفرد أخيراً بكلتا المهمتين الزعامة والرعاية بعد وفاته^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عام جذب فقال: أتيناك يا رسول الله ولم يبق لنا صبي يرضع ولا شارف يجترثم أنشده:

أتيناك والعذراءُ تدمى لبانها
وقد شُغِلتُ أمُّ الرضيعِ عن الطفلِ

فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجرداءه حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال:

(١) أبو طالب، عبد مناف بن عبد المطلب، الديوان، تحقيق محمد حسن ال ياسين، دار ومكتبة الهلال، (بيروت ٢٠٠٠)، ص ٧٥.

(٢) الملل والنحل، ص ٤٩٩.

(٣) الحنيزي، عبد الله الشيخ علي، أبو طالب مؤمن قريش، ط ٥، مؤسسة النبراس، (النجف ١٩٩٧)، ص ٩٨- ٩٩.

«اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، مريئاً هنيئاً، مريعاً سحاً سجالاً، غدقاً طبقاً قاطباً دائماً، درأً تحيي به الأرض، وتثبت به الزرع، وتدر به الضرع، واجعله سقياً نافعاً عاجلاً غير راث». .

فوالله ما رد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده إلى نحره حتى ألقى السماء أرواقها^(١) وجاء الناس يضحون: الغرق الغرق يا رسول الله! فقال:

«اللهم حوالينا ولا علينا».

فانجذب السحاب عن المدينة حتى استدار حولها كالإكليل، فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى بدت نواجذه، ثم قال:

«لله در أبي طالب لو كان حياً لقرت عينه، من ينشدنا قوله».

فقام علي عليه السلام فقال:

«يا رسول الله: لعلك أردت: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه».

قال صلى الله عليه وآله وسلم:

«أجل».

فأنشده أبياتا من هذه القصيدة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر لأبي طالب على المنبر^(٢).

رابعاً: الحج:

الحج لغة تعني: القصد أو القدوم، يقال: حج علينا فلان، أي قدم، وقيل حج

(١) ألقى السحابة على الأرض أرواقها ألحَّت بالمطر والوَيْل. ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٤ / ٢٢٥، (مادة روق).

(٢) شرح نهج البلاغة، ٦٤/١٤.

البيت لأنهم كانوا يأتون كل سنة إليه ثم تعارف استعماله في القصد إلى مكة^(١).
 واصطلاحاً: هو قصد البيت الحرام لأداء أفعال مخصوصة مثل الاحرام والطواف
 بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات وغيرها من الاعمال^(٢).
 وقصد عرب قبل الإسلام المحجرات المقدسة للتبرك بها والتقرب إليها، إذ لم يكن
 الحج حصراً إلى مكة وحدها، بل كانت هناك محجرات اخرى مثل بيت اللات بالطائف،
 وبيت العزى، وبيت مناة، وبيت ذي الخلصة، وبيت نجران، وبقية بيوت الجاهلية
 المعظمة عندهم^(٣).

ولكن الذي يميّز الكعبة عن غيرها من محجرات العرب هو مجموعة من العوامل:

- ١ - اقتران بنائها بنبي الله ابراهيم عليه السلام.
- ٢ - كونها حوت بعد ذلك جميع أصنام القبائل المهمة التي كان يحج الناس إليها
 قبل الإسلام فكانت (ثلاثمائة وستين صنماً)^(٤).
- ٣ - لأنها أول بيت تم بناؤه في الارض ليعبد الله فيه كما جاء في القرآن الكريم:
﴿إِن أَوْلَٰى بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٥).

٤ - ازدادت اهمية مكة وتأثيرها وقدسيتها بعد أن أهلك الله تعالى أبرهة الحبشي
 صاحب الفيل وسلط عليه الطير الأبايل، وعظمت جميع العرب قريشاً وأهل مكة

(١) ابن منظور، لسان العرب، ٣١٠/٢، [مادة حجج]، الزبيدي، تاج العروس، ٣١٤/٣، [مادة حجج].

(٢) الطبري، جامع البيان، ٧٦٩/١.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن محجرات العرب، ينظر جاسم، حنان عيس، الحج عند العرب قبل الإسلام، رسالة
 ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة تكريت، ٢٠٠٥، فص ١، ص ٢٥-٤٢؛ يوسف، شريف،
 الكعبات المقدسة عند العرب قبل الإسلام، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ٢٩، بغداد، ١٩٧٨، ص ١٨٨.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧ / ٢١٠.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٩٦.

وقالوا: أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم فازدادوا في تعظيم الحرم والمشاعر الحرام والشهر ووقروها ورأوا أنّ دينهم خير الأديان وأحبها إلى الله تعالى^(١).

٥ - الأثر الاقتصادي الذي تنامي بمرور الزمن في مكة إذ أصبحت بفعل وجود الكعبة فيها مركزاً للنشاط التجاري والاقتصادي في جزيرة العرب.

٦ - بناء الكعبة: وردت أخبار عديدة عن بناء الكعبة عند ابن أبي الحديد في شرحه منها أن البيت موجود أيام آدم عليه السلام، وقال نقلاً عن ابن عباس إنّ الله تعالى أوحى إلى آدم عليه السلام لما أهبطه إلى الأرض أنّ لي حرماً حيال عرشي فانطلق فابن لي بيتاً فيه ثم طف به كما رأيت ملائكتي تحف بعرشي، فهناك أستجيب دعائك ودعاء من يحف به من ذريتك ثم أقدمه مكة فبنى البيت من خمسة جبال، طور سيناء، وطور زيتون، ولبنان، والجودي، وبنى قواعده من حراء، فلما فرغ خرج به الملك إلى عرفات فأراه المناسك كلها التي يفعلها الناس اليوم، ثم قدم به مكة وطاف بالبيت أسبوعاً ثم رجع إلى أرض الهند فمات، وكان آدم عليه السلام قد حج من أرض الهند إلى الكعبة أربعين حجة على رجليه^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ الكعبة أنزلت من السماء على شكل ياقوتة أو لؤلؤة على اختلاف الروايات^(٣)، فيما يرى آخرون أنّ الذي أنزل هو الحجر الأسود وهو ياقوته من ياقوت الجنة بدليل قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:

«إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولو لم يطمس نورهما

(١) الأزرق، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ١/ ١٣٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٣ / ١٢٢.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣ / ١٢٣.

لأضءءا ما بين المشرق والمغرب»^(١).

فلما أغرق الله تعالى قوم نوح رفعه وبقي أساسه فبوأه الله لإبراهيم فبناه^(٢)، وقيل بل رفع الحجر الاسود فقط وكان وديعة عند جبل أبي قبيس وقت الطوفان^(٣). وقد ذكر الخربوطلي أن بناء الكعبة ارتبط بابراهيم واسماعيل عليهما السلام فقط وما يصوره بعضهم من وجود إمتداد وجذور قبل هذه الفترة ما هو إلا خيال واسع ارتبط ببعض الروايات معللاً ذلك بعد ورود روايات صريحة عن بناء الكعبة قبل هذه الفترة في القرآن الكريم^(٤).

على الرغم من أن تلك القصص حول بناء البيت ربما امتزجت بنوع من الحكايات القصصية، إلا أن الثابت أن الله سبحانه وتعالى قد وضعها كاختبار للناس كما ذكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في احد خطب نهج البلاغة وفقد أشار إلى أن الإختبار كان منذ آدم عليه السلام، مما نستدل من خلاله على عدم صحة رأي الخربوطلي، إذ قال عليه السلام:

«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا وَأَقْلَّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدْرًا وَأَضْيَقَ بَطُونِ الْأَوْدِيَةِ قَطْرًا، بَيْنَ جِبَالٍ خَشْنَةٍ وَرِمَالٍ دَمِيَّةٍ وَعُيُونٍ وَشِلَّةٍ وَقَرَى مُنْقَطِعَةً لَا يَزْكُو بِهَا خُفٌّ وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً

(١) الازرقبي، اخبار مكة، ١/ ٢٥٦؛ الترمذي، ابو عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي (الجامع

الصحيح)، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، ط٢، دار الفكر، (بيروت ١٩٨٣)، ١٨٢/٢.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣ / ١٢٢.

(٣) القرطبي، الجامع لاحكام القرآن، ١٢٢/٢.

(٤) علي حسني، الكعبة على مر العصور، ط٢، دار المعارف، (القاهرة ١٩٨٦)، ص ٧.

لِمُتَّجِعِ أَسْفَارِهِمْ وَغَايَةَ لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْنِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ وَجَزَائِرِ بَحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ حَتَّى يَهْزُوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلًّا يُهَلَّلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْنًا غَبْرًا لَهُ قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَشَوْهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ إِبْتِلَاءً عَظِيمًا وَإِمْتِحَانًا^(١).

ولم يورد ابن أبي الحديد روايات عن مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين لعدم ورود ذلك في النصوص التي تم الحصول عليها ما عدا الحج إلى مكة، إذ حفظت الموارد الإسلامية شيئاً من ذلك بسبب فرض الحج في الإسلام وإقراره لبعض شعائره التي لم تتعارض مع مبادئه.

الوظائف الإدارية المتعلقة بالحج:

١- السدانة:

السادن هو خادم الكعبة وبيت الأصنام، والحجابه والسدانة مصطلحان مترادفان والفرق بينهما أن الحاجب يَحْجُبُ وإِذْنُهُ لغيره والسَادِنُ يَحْجِبُ وإِذْنُهُ لنفسه، وكان القائم بها يمتلك مفاتيح الكعبة وفتح بابها وإغلاقه^(٢).

وهي من الوظائف الدينية التي تسموا بصاحبها إلى منزلة رفيعة في المجتمع لأنه الوسيط بين الآلهة والناس، وهي لا تتطلب أن يكون صاحبها عالماً بالدين فضلاً عن أنها مصدر رزق للقائمين عليها، وقد يكون مصدره الهدايا والندور التي يقدمها الناس.

وعرفت السدانة عند خزاعة إلى أن صار أمر الكعبة إلى قصي فورثها من بعده ابنه عبد الدار، ثم عثمان بن عبد الدار، ثم ابنه عبد العزى وبقيت في ولده^(٣) حتى انتهت

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣ / ١١٨، [خطبة ٢٣٨].

(٢) الجوهري، الصحاح، ص ٥٠٩، [مادة سدن]؛ ابن منظور، لسان العرب، ٤ / ٤٠٠، [مادة سدن].

(٣) العلي، صالح احمد، محاضرات في تاريخ العرب، ص ١١٥.

إلى عثمان بن طلحة الذي شهد فتح مكة (سنة ٨هـ)، فقد ذكر ابن أبي الحديد أنّ الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم دعا عثمان وقال له:

«خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا بالمعروف»^(١).

وكانت الكعبة تفتح قبل الإسلام يومين من كل أسبوع، ذكر أنهما يومي الاثنين والخميس^(٢).

٢- الرِّفَادَةُ:

هي العطاء والصلة، وهي مشتقة من الرَفَدِ، وهي الإعانة، ترافدوا أي أعان بعضهم بعضاً، وهو شيءٌ تترافدُ به قريشٌ في الجاهليّة، تُخْرِجُ فيما بينها مالاً، تشتري به للحُجَّاجِ طعاماً وزبيياً للنبيد^(٣).

وكان الهدف من هذه الوظيفة هو استضافة الحجاج في مكة وتوفير الطعام لهم في موسم الحج، وظهرت هذه الوظيفة اول الامر في عهد (عمرو بن لحي) الذي عدَّ أول من أطعم الحاج بمكة لحم الإبل على الثريد^(٤).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ وظيفة الرفادة ذهبت إلى بني عبد الدار بعد وفاة قصي بن كلاب، ثم أخذها منهم هاشم بن عبد مناف، وفي فترة تسلّم هاشم وظيفة الرفادة أصاب الناس جذباً شديداً، فخرج هاشم إلى الشام فاشترى بما اجتمع عنده من ماله دقيقاً وكعكاً فقدم به إلى مكة في موسم الحج، فهشم ذلك الكعك ونحر الجزر وطبخه

(١) شرح نهج البلاغة، ١٧/٢١٢.

(٢) الازرقعي، أخبار مكة، ١/١٧٤.

(٣) الجوهري، الصحاح، ص ٤٣٧، [مادة رفا]؛ ابن منظور، لسان العرب، ٤/١٤٤، [مادة رفا].

(٤) الازرقعي، اخبار مكة، ١/٧١.

وجعله ثريداً وأطعم الناس وكانوا في مجاعة شديدة حتى أشبعهم^(١)، وبعد أن قام بالرفادة المطلب بن عبد مناف، عادت إلى ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم الذي زاد في سنة أبيه فكان في أيام الحج يضع الطعام للحجاج والأعلاف للوحوش وكان يسمى (مطعم الناس في السهل، والوحوش والسباع في الجبل)^(٢)، ثم أبي طالب الذي أدرك الإسلام^(٣).

٣- السقاية:

ذكر ابن أبي الحديد أنها من اشرف خصال قريش في الجاهلية^(٤) التي ارتبطت بموسم الحج إلى الكعبة كون مكة تقع في بيئة صحراوية يكون الماء فيها عزيزاً جداً لندرته، إذ يعتمد فيه على مياه الآبار، لذلك قام قصي بن كلاب بوضع حياض من الأدم بفناء الكعبة ويسقى فيها الماء العذب من الآبار على الإبل^(٥)، ثم حفر قصي بمكة بئرا يقال لها (العجول)، وكانت العرب إذا قدمت مكة يردونها، فيسقون منها ويتراجزون عليها. قال قائل فيها:

أروى من العجول ثمتَ أنطلقُ
إنَّ قصيا قد وفى وقد صدقُ
بالشبع للحيِّ وريِّ المغتبقِ

(١) شرح نهج البلاغة، ١٥٠/١٥ - ١٥٨.

(٢) ابن حبيب، المنمق، ص ٢٨.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ١٥٠/١.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٤٩/١٥.

(٥) الازرقى، أخبار مكة، ٨٠/١.

وكانوا يمزجون الماء بالزبيب والتمر ليكون أكثر حلاوة لكون مياه الآبار مالحة^(١).
 أعقب قصي بن كلاب على هذه الوظيفة ابنه عبد مناف ثم هاشماً وجاء بعده
 أخوه المطلب، ثم عبد المطلب بن هاشم الذي أعاد حفر بئر زمزم، وهو أول من
 سقى بمكة ماءً عذباً^(٢)، ولث عبد المطلب يسقي الناس حتى توفي، ثم كانت بيد
 أبي طالب الذي سلمها إلى أخيه العباس بن عبد المطلب^(٣)، فلم تنزل في يده،
 وللعباس كرم بالطائف، يحمل زبيبه إليها، فكان يقرض أهل الطائف، ويقتضي
 منهم الزبيب، فينبذ ذلك كله ويسقيه الحاج أيام الموسم حتى ينقضي، في الجاهلية
 وصدر الإسلام^(٤).

طقوس الحج عند العرب قبل الإسلام

١- الأشهر الحرم:

هي الأشهر التي حُرِّم فيها القتال لغرض تفرغ الناس للحج لذا سميت الأشهر
 الحرم، وهي اربعة، ثلاثة منها متصلة وهي (ذو القعدة، ذو الحجة، محرّم) وشهر منفرد
 هو (رجب)^(٥)

وعلى الرغم من أن شهر رجب يأتي بعد شهر محرم بعدة شهور إلا انه كان من
 الأشهر الحرم، ويبدو لنا أنّ العرب أو قريشاً وهي التي كانت قد حددت الأشهر الحرم
 أرادت وقف القتال والحرب أكثر من مرة في السنة لفتح المجال لطردهم البغضاء والعداوة بين

(١) الازرقعي، أخبار مكة، ١/ ٨٣ - ٨٤.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥/ ١٥٩.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥/ ١٦٦.

(٤) الازرقعي، أخبار مكة، ١/ ٨٤.

(٥) المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٣٩٣.

المتحاربين من جهة، ولانشغالهم بالتجارة وتأمين طرق وصولها من جهة اخرى مع رغبتهم في الحصول على وقت آخر لترويج تجارتهم والحصول على الاموال، وكان سائر العرب يراعون حرمة هذه الأشهر فهم (لا يعدون في الأشهر الحرم على أحد، ولو لقي أحدهم قاتل أبيه أو أخيه، ولا يستاقون مالا، إعظاما للشهور الحرم)^(١).

وذكر ابن أبي الحديد أنهم كانوا يسمون آخريوم من شوال فلتة، لأن كل شخص عنده ثأر لم يدرك ثأره إذا دخلوا في الأشهر الحرم^(٢)، وفي رواية قتبية بن الحارث اليربوعي الذي مرَّ به قوم من كلب في الاشهر الحرم لطلب الديات وكان بينهم دم، فقال لهم (إن انسلخ الأشهر الحرم وأنتم بهذه الأرض وأدرككم الخيل نكلت بكم وأثكلتكم أمهاتكم)^(٣)، لدليل واضح على حرمة هذه الاشهر عند العرب، إلا أن ذلك لم يمنع من وقوع الحرب في هذه الأشهر، إذ وقع القتال بين قريش وخزاعة، وسميت بحرب الفجار لوقوعها في الأشهر الحرم^(٤)، وقد ورد ذكر الأشهر الحرم في القرآن في قوله تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٥).

٢- الإجازة (الإفاضة):

الإجازة من جاز وجازَه، سار فيه وسلكه، وقولهم: جعل فلان ذلك الأمر مجازاً

(١) الازرقى، اخبار مكة، ١ / ١٤٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢ / ٢٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٥، ٩٨.

(٤) ينظر حرب الفجار ص ٣٤٩ من الرسالة.

(٥) سورة التوبة: الآية ٣٦.

إلى حاجته، أي طريقاً ومسلكاً^(١)، والإفاضة تعني الزحف والدفع في السير بكثرة ولا يَكُونُ إِلَّا عَنْ تَفَرُّقٍ وَجَمْعٍ^(٢)، إذن الكلمتان مترادفتان وقد وردت لفظة الإفاضة في القرآن الكريم في قوله:

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ الإفاضة في الجاهلية في بني عطاردهم يتوارثون ذلك كابراً عن كابر حتى قام الإسلام، وكانوا إذا اجتمع الناس أيام الحج بمنى لم يبرح أحد من الناس ديناً وسنة حتى يجوز القائم بذلك من آل كرب بن صفوان، قال أوس بن مغراء:

ولا يريمون في التعريف موقفهم حتى يُقالَ أجزوا آلَ صفوانا^(٤)

وقال الفرزدق:

إذا هبطَ الناسُ بالمحصبِ من منى
ترى الناسَ ما سرنا يسيرونَ حولنا
عشيّةَ يومِ النحرِ من حيثُ عرفوا
وإنْ نحنُ أو مانا إلى الناسِ وقفوا^(٥)

وقد ورد أنّ هناك إفاضتين من عرفة ومن المزدلفة (المشعر الحرام)^(٦)، وكان الغوث بن مر بن أد بن طابجة بن إلياس بن مضر يلي الإجازة للناس بالحج من عرفة، وولده من

(١) الجوهري، الصحاح، ص ٢١٠، [مادة جوز]؛ ابن منظور، لسان العرب، ٢٥١/٢، [مادة جوز].

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ١٥٤/٧، [مادة فيض]، الزبيدي، تاج العروس، ١٣/١٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٩.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٩٧/١٥.

(٥) الديوان، ص ٣٩٢-٣٩٣.

(٦) المشعر الحرام هو مُزْدَلِفَةٌ وهي جمعٌ تسمى بهما جميعاً والمشعرُ المَعْلَمُ والمُتَعَبِّدُ من مُتَعَبِّدَاتِهِ والمَشَاعِرُ المعالم التي ندب الله إليها وأمر بالقيام عليها ومنه سني المشعر الحرام، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٩٥/٥، [مادة شعر].

ابن حبيب أن لكل صنم تلبية خاصة به، فكانت تلبية من نسك للعزى :

(ليك اللهم ليك، ليك وسعديك، ما أحبنا إليك).

وكان تلبية من نسك اللات :

(ليك اللهم ليك، ليك، كفى بيتنا بنية، ليس بمهجور ولا بلية، لكنه من تربة

زكية، أربابه من صالحى البرية).

وكانت تلبية من نسك لسواع :

(ليك، اللهم ليك، ليك، ابنا اليك، إن سواع طلبن إليك).

وكانت تلبية من نسك لود :

(ليك الله ليك ليك معذرة إليك).

وكانت تلبية من نسك ذا الخلصة :

(ليك اللهم ليك ليك، بما هو أحب إليك)^(١).

٤ الطواف:

هو الدوران حول الكعبة وهو جزء من طقوس الحج المهمة، فعندما بنى ابراهيم

عليه السلام الكعبة جعل الحجر الاسود علامة يبدأ الطواف منها بقوله لابنه اسماعيل

(عليه السلام): (ابغى حجراً أضعه هاهنا يكون للناس علماً يتدئون منه الطواف)^(٢)،

وكان العرب في طوافهم ينقسمون على ثلاثة أقسام :

أ - الحمس :

(١) المحبر، ص ٣١١ - ٣١٥.

(٢) الازرقى، اخبار مكة، ٤١/١.

كلمة تعني التشدد في الدين، تحمسوا في دينهم أي تشددوا^(١)، والحمس عند أهل مكة قريش وكنانة وخزاعة ومن دان بدينهم ممن ولدوا من حلفائهم وإن كان من ساكني الحل^(٢)، وكان الانتساب إلى الحمس مدعاة للفخر، فذكر ابن أبي الحديد الزبير بن عبد المطلب وهو من سادات قريش كان يتفاخر بكونه من الحمس بقوله:

ولولا الحمسُ لم يلبسُ رجالٌ	ثيابَ أعزَّةٍ حتى يموتوا
ثيابُهُمُ شمالٌ أو عباءٌ	بها دنسٌ كما دنس الحميتُ
ولكنَّا خلُقنا إذا خلُقنا	لنا الحبراتُ والمِسكُ الفتيتُ
وكأسٌ لو تبينُ لهم كلاما	لقلتُ إنمَّا لهمُ سييتُ ^(٣)

وقالت قريش وأهل مكة: نحن أهل الله وبنو إبراهيم خليل الله وولاية البيت الحرام وسكان حرمه فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا، فابتدعوا عند ذلك أحداثاً في دينهم فقالوا: لاتعظمون شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم، فتركوا الوقوف على عرفه، والإفاضة منها وهم يعرفون ويقرون انها من شعائر الحج ودين إبراهيم، ويقرون لسائر العرب أن يقفوا عليها، وأن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا: نحن الحمس أهل الحرم فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرم ولا نعظم غيره، ثم جعلوا لمن ولدوا من سائر العرب من سكان الحل والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياهم يحل لهم ما يحل لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم^(٤).

(١) الجوهري، الصحاح، ص ٢٦٩، [مادة حمس]؛ ابن منظور، لسان العرب، ٢/٤٩٨، [مادة حمس].

(٢) الازرقى، اخبار مكة، ١/١٤٠.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٥٤.

(٤) الازرقى / اخبار مكة، ١/١٤٠.

وقد ابتدع الحمس أموراً كانت خاصة بهم قد شددوا على انفسهم في دينهم، فكانوا إذا نسكوا لم يسألوا^(١) أسمناً^(٢)، ولم يطبخوا أقطاً^(٣)، ولم يدخروا لبناً، ولم يحولوا بين مرضعة ورضاعها حتى يعافه، ولا يبتنون في حجهم شعرا ولا وبراً ولا صوفاً ولا قطناً، ولا يأكلون لحماً، ولا يمسون دهناً، ولا يلبسون إلا جديداً، ولا يطوفون بالبيت إلا في حذائهم وثيابهم، ولا يمسون المسجد بأقدامهم تعظيماً لبعثته ولا يدخلون البيوت من ابوابها، ولا يخرجون إلى عرفات: يقولون نحن اهل الله ويلزمون مزدلفة حتى يقضوا نسكهم، ويطوفون بالصفة والمروة إذا انصرفوا من مزدلفة ويسكنون في ظعنهم قباب الأدم الحمر^(٤).

وكانوا عند طوافهم يصدرون الاصوات وهو ما يسمى بالتصفير، وهو أن يجمع الرجل يديه ثم يدخلهما في فيه ثم يصيح^(٥)، وذكر القرآن الكريم صلاتهم وطوافهم بقوله:

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ

تَكْفُرُونَ ﴾^(٦).

(١) سَأَلًا وَاسْتِئْذَانًا: طَبَخَهُ وَعَالَجَهُ فَأَذَابَ زُبْدَهُ، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٤/٤٧٠، [مادة سألًا].
 (٢) وَالسَّمْنُ سِلَاءُ اللَّبَنِ وَالسَّمْنُ سِلَاءُ الزُّبْدِ وَالسَّمْنُ لِلْبَقْرِ وَقَدْ يَكُونُ لِلْمِعْزَى قَالَ امْرؤُ الْقَيْسِ وَذَكَرَ مِعْزَى لَهُ:
 فَمَمْلَأُ بَيْتَنَا أَقْطًا وَسَمْنَا وَحَسْبُكَ مِنْ غَنَى شَيْعٍ وَرِيٍّ، ينظر ابن منظور، لسان العرب، [مادة سمن].
 (٣) الْأَقِطُ وَالْإِقِطُ وَالْأَقِطُ وَالْأَقِطُ: شَيْءٌ يَتَّخَذُ مِنَ اللَّبَنِ الْمَخِيضِ يَطْبَخُ ثُمَّ يَتْرَكَ حَتَّى يَمْصُلَ وَالْقِطْعَةُ مِنْهُ أَقِطَةٌ هُوَ مِنْ أَلْبَانِ الْإِبِلِ خَاصَّةً قَالَ الشَّاعِرُ رُوَيْدُكَ حَتَّى يَنْبِتَ الْبَقْلُ وَالْغَضَّا فَيَكْثُرُ إِقْطٌ عِنْدَهُمْ وَحَلِيبٌ وَهُوَ لَبَنٌ مُجَفَّفٌ يَابِسٌ مُسْتَحْجَرٌ يَطْبَخُ بِهِ، ينظر ابن منظور، لسان ب، ١/١٣٣، [مادة اقطا].

(٤) ابن حبيب، المحبر، ص ١٨٠.

(٥) الطبري، جامع البيان، ٩/٣١٦.

(٦) سورة الانفال: آية ٣٥.

فالمكء هو التصفير والتصدية: التصفيق^(١)، وقد ذكر ابن أبي الحديد أنّ المكء طير يصفر كثيراً ومن هذا الباب قول الشاعر:

إذا غرّدَ المكءُ في غير روضةٍ فويلٌ لأهلِ الشاءِ والحمراتِ

أوماً بذلك إلى الجذب لأن المكء يألف الرياض فإذا أجذبت الأرض سقط في غير روضة وغرد فويل لأهل الشاة والحمرات^(٢).

ب - الحلة:

من أهم قبائلهم من العرب تميم بن مر كلها غير يربوع، ومازن، وضبة، وحميس، وظاعنة، والغوث بن مر، وقيس عيلان بأسرها ما خلا ثقيفا، وعدوان وعامر بن صعصعة، وربيعة بن نزار كلها، وقضاعة كلها ما خلا علاف وحنابا، والأوس والخزرج، وختعم، وبجيلة، وبكر بن عبد مناة بن كنانة، وهذيل بن مدركة، وأسد، وطىء، وبارق^(٣).

وكانت الحلة يجرمون الصيد في النسك ولا يجرمون في غير الحرم، ويتواصلون في النسك، ويمنح الغني ماله أو أكثره في نسكه، فيسلا فقراؤهم السمن، ويمجتزون من الأصواف والأوبار ما يكتفون له، ولا يلبسون إلا ثيابهم التي نسكوا فيها، ولا يلبسون في نسكهم الجديد ولا يدخلون من باب دار ولا باب بيت، وإنما تنقب في ظهورها نقباً فتدخل منه وتخرج، ولا يؤويهم ظل ما داموا محرمين، وكانوا يدهنون ويأكلون اللحم واخصب ما يكونون أيام نسكهم فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل

(١) الفراهيدي، العين، ٤١٨/٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٤٩/٥.

(٣) ابن حبيب، المحبر، ص ١٧٩.

ثوب لهم، ثم استكروا من ثياب الخمس تنزيها للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم، فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة^(١).

ج - الطلس:

قبائل الطلس^(٢) وهم سائر أهل اليمن، وأهل حضرموت، وعك وعجيب وإياد بن نزار^(٣)، وكانت الطلس بين الحلة والخمس يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلة ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الخمس وكانوا لا يتعرون حول الكعبة ولا يستعيرون ثيابا ويدخلون البيوت من أبوابها وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون^(٤).

وعرف أهل الطلس بالمتوكله فهم لم يحملوا معهم الطعام عند الحج لتوكلهم على رب البيت في طعامهم، واعتمادهم على سؤال الناس، وذكر الأزرقي أنهم قالوا: لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل في الحرم إذا كانوا حجاجاً أو عماراً، ولا يأكلون في الحرم إلا من طعام أهل الحرم إما قرى وإما شراء^(٥).

ولعل قريشاً هنا هي من وضعت تلك المبادئ لغرض الاستفادة من أيام الحج في التجارة وبيع الطعام وما يحتاجه الحجيج لزيادة وارداتها المالية.

(١) ابن حبيب، المحبر، ص ١٨١.

(٢) وهو يعني الذين يأتون من أقصى اليمن طلساً من الغبار يطوفون بالبيت في تلك الثياب، والطلس: وهو الذي في لونه غبرة إلى السواد، ينظر الجوهري، الصحاح، ص ٦٨٣، [مادة طلس].

(٣) ابن حبيب، المحبر، ص ١٧٩.

(٤) ابن حبيب، المحبر، ص ١٨١.

(٥) اخبار مكة، ١/١٤٠.

ومن طقوس الحج الأخرى السعي بين الصفا والمروة، وكانت العرب قد وضعت صنمي أساف ونائلة أحدهما على الصفا والأخر على المروة^(١)، وظل السعي بينهما احد مناسك الحج، وهو من طقوس الحج القديمة ويرجع تاريخه إلى هاجر أم نبي الله اسماعيل عليه السلام حينما تركها نبي الله ابراهيم عليه السلام في مكة وعند نفاذ الماء عندها أخذت تهزول ما بين الصفا والمروة سبع مرات ثم عادت إلى اسماعيل عليه السلام ووجدت زمزم قد تفجرت عند قدميه، فلذلك طاف الناس بين الصفا والمروة^(٢).

ومن الطقوس الأخرى النحر، إذ اعتاد العرب نحر الذبائح تقرباً للآلهة وإرضاءً لها وكانوا يسمونها الهدي، وهي كلمة مشتقة من الاهتداء على اعتبار أن القران هدية من الحاج إلى الله أو الكعبة، وكانوا لا يأكلون من لحوم ما ينحرونه إذ أنهم كانوا يقسمون لحومها على من حضر عملية النحر، وما تبقى تأكله الطير والوحش ولا يمنعون عنها أحداً، ثم بعد النحر تتم مراسيم حلق الشعر^(٣).

النسيء:

نَسَأْتُ الشَّيْءَ نَسْأً بِمَعْنَى: أَخَّرْتُهُ^(٤)، والنَّسِيءُ شَهْرٌ كَانَتْ الْعَرَبُ تُؤَخِّرُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وذكر ابن أبي الحديد أنه تأخير المحرم إلى صفر^(٥). وكانوا إذا صدروا عن منى يقوم رجلٌ من كِنَانَةَ فيقول: (أنا الذي لا يُرَدُّ لي قضاءً! فيقولون صدقت أنسيتنا شهراً، أي أحرَّ عَنَّا حُرْمَةَ الْمُحَرَّمِ واجعلها في صَفَرٍ)، لأنَّهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١/١٢٨.

(٢) الازرقى / اخبار مكة، ١/٣٢.

(٣) الخربوطلي، الكعبة على مر العصور، ص ٥٨.

(٤) الجوهري، الصحاح، ص ١١٠٤، مادة نَسَأَ.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٢٠.

أشهرٍ لا يُغيرون فيها، لأنَّ معاشهم كان من الغارة؛ فيَحِلُّ لهم المُحرَّم^(١).

وذكر ابن حبيب أنَّ (نساءَ الشهور من كنانة، وهم القلامسة، واحدهم قلمس^(٢))، وكانوا فقهاء العرب والمفتين لهم في دينهم^(٣)، وكانوا يُبدلون في ترتيب الأشهر فقط فيصبح ذو القعدة ذو الحجة، وذو الحجة صفرًا، ثم المحرم، وبهذا تتحقق هدنة الغزوات شهرين وتستأنف شهراً في صفر المقدم، وتعود الهدنة في المحرم المنسوء بعد أن يغنم الغازون ما يسد حاجاتهم^(٤).

وقد انتقد بعضهم هذا التفسير ووصفه بأنه تفسير يبدو فيه التكلف ظاهراً، لأنه إن جاز وقوعه مرة فمن غير المعقول تكراره بانتظام مئات السنين، علماً إن شرعية التحريم كانت عامة في العرب وعموميتها تقتضي نظاماً ثابتاً في التحريم يلتزم فيه المقيم والضامن^(٥).

وقيل أيضاً إن العرب كانت تستخدم الأشهر القمرية وهي تختلف عن الأشهر الشمسية لذلك كان الاعتماد عليها في تقدير أيام الحج قد يخل بأمر التجارة التي تجري حسب فصول السنة، إذا كان موسمه في غير وقت المحاصيل^(٦)، لذلك يذكر المسعودي أن العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء وهو التأخير^(٧)،

(١) ابن منظور، لسان العرب، ٣٩٠/٨، [مادة نساء].

(٢) القَلَمَسُ: السيد العظيم، كثير الخير والعطيَّة، واسع الخلق، والداهية من الرجال، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٣٥٨/٧ [مادة قلمس].

(٣) المحبر، ص ١٥٦.

(٤) طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤٥٩.

(٥) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع ينظر حمور، عرفان محمد، المواسم وحساب الزمن عند العرب قبل الإسلام، مؤسسة الرحاب، (بيروت ٢٠٠٠)، ص ١١٩ - ١٤١.

(٦) حمور، المواسم وحساب الزمن عند العرب قبل الإسلام، ص ١٢٧.

(٧) مروج الذهب، ٣٩٣/٢.

وقد حارب الإسلام النَّسِيءُ بقوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيَبْطِئُوا
عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾^(١).

كذلك من كلام الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم في خطبة حجة الوداع التي ذكرها ابن أبي الحديد، إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم:

«أيها الناس إنما النسِيءُ زيادةٌ في الكفر، يضلُّ به الذين كفروا، يَحْلُونَهُ عَامًا، ويحرمونه عَامًا وإن الزمانَ قد استدارَ كهَيْئَتِهِ يومَ خلقَ اللهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ، وإن عِدَّةَ الشهورِ عندَ اللهِ اثنا عشرَ شهرًا في كتابِ اللهِ يومَ خلقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ، منها أربعةٌ حُرُمٌ ثلاثةٌ متوالياتٍ وواحدٌ فردٌ ذو القعدةِ وذو الحجةِ ومحرمٌ ورجبٌ الذي بين جمادى وشعبان»^(٢).

العُمْرة:

العُمْرة مأخوذةٌ من الاعْتِمَار وهو الزِّيَارَة، وَمَعْنَى اعْتَمَرَ فِي قَصْدِ الْبَيْتِ، أَنَّهُ إِتْمَا خُصَّ بِهَذَا لِأَنَّهُ قَصْدٌ بِعَمَلٍ فِي مَوْضِعٍ عَامِرٍ، وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلْمُحْرَمِ بِالْعُمْرَةِ: مُعْتَمِرٌ^(٣)

كان العرب قبل الإسلام يسمون الحج بالحج الأكبر أما العمرة فالحج الأصغر^(٤)، وكان إبراهيم عليه السلام أول من شرع العمرة، فقد ذكر ابن الكلبي أن العرب كان فيهم بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها: (من تعظيم البيت، والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف على عرفة ومزدلفة، وإهداء البدن، والإهلال بالحج

(١) سورة التوبة: الآية ٣٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١/١٣٤.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ٦/٢٩٦ [مادة عمر]؛ الزبيدي، تاج العروس، ٧/٢٦١، [مادة عمر].

(٤) الطبري، جامع البيان، ١٠/٩٨.

والعمرة^(١)، وكانت العمرة في شهر رجب^(٢)، ولا يجوزونها في أشهر الحج ويعتبرونها من اعظم الذنوب، فعن ابن عباس قال: (كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض ويجعلون المحرم صفراً ويقولون إذا برا الدبر وعفا الأثر وانسلخ صفر حلت العمرة لمن اعتمر)^(٣)، ولم يتشدد العرب قبل الإسلام في إحرامهم في العمرة، فقد كانوا يخلعون الثياب، وكانوا يجتنبون الطيب في الإحرام إذا حجوا ولكنهم يتساهلون في ذلك في العمرة^(٤).

وذكر ابن أبي الحديد أن رجلاً من بني أسد قد قدم مكة معتمراً ببضاعة فاشترها منه العاص بن وائل السهمي فلم يعطه حقه، فاستنجد بأشراف قريش فردوا إليه بضاعته^(٥)، وهذا يعني أن العرب قبل الإسلام إستغلوا العمرة كذلك للتجارة وكسب الرزق.

والعمرة كالحج إذ كان المعتمرون يغدون إلى مكة آمنين على نفوسهم وأموالهم عند الاعتمار وذكر لنا ابن أبي الحديد أن سعد بن معاذ خرج معتمراً قبل بدر أيام ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة، فنزل على أمية بن خلف فأتاه أبو جهل وقال: أتترك هذا وقد آوى محمداً وأذننا بالحرب، ولكنه رفض التعرض إليه لأنه كان معتمراً^(٦). وروى لنا أيضاً أن سعد بن النعمان بن أكال أخا بني عمرو بن عوف خرج

(١) الاضنام، ص ٦.

(٢) علي، المفصل، ٣٩١/٦.

(٣) ابن حنبل، مسند احمد، ٢٥٢/١؛ ابن قدامة، موفق الدين ابو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (ت ٦٢٠ هـ)، المغني، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت)، ٢٣٧/٣.

(٤) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٣١٢/٣.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٥ / ١٧٠.

(٦) شرح نهج البلاغة، ١٤ / ٧٩.

بعد معركة بدر معتمراً ومعه امرأة له وكان شيخاً كبيراً لا يخشى قريشاً وقد عهد قريشاه ألا تعرض لحاج ولا معتمر^(١).

ومن هذا نلاحظ أن قريشاً كانت تريد أن تحافظ على المبادئ التي وضعتها أثناء العمرة، إذ يأمن المعتمر على ماله، ونفسه حتى في ظروف الحرب والقتال لأن في ذلك ديمومة لمراسم الحج والعمرة، ووفود أعداد كبيرة سنوياً مما يعم الفائدة والربح لهم.

(١) شرح نهج البلاغة، ١٤ / ١٥٤.

المبحث الثالث معارف العرب قبل الإسلام

أولاً: الكهانة:

الكهانة لغةً: جمع كاهن، والكاهنُ الذي يتعاطى الخبرَ عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدّعي معرفة الأسرار^(١)، ويرى المسعودي أنّ أصل الكهنة يعود إلى عدة أسباب منها أنّ بعض النفوس يدّعون أن نفوسهم قد صفتْ فهي مطلعة على أسرار الطبيعة، وعلى ما تريد أن يكون منها، وطائفة ذهبت إلى أن التكهن سبب نفساني لطيف يتولد من صفاء مزاج الطباع، وقوة النفس، ولطافة الحس.

وهناك من يعتقد أن الكهانة تكون من قبل شيطان يكون مع الكاهن يخبره بما غاب عنه، وأن الشياطين كانت تسترق السمع وتلقيه على ألسنة الكهان فيؤدون إلى الناس الأخبار بحسب ما يرد إليهم^(٢)، وهذا ما أكده ابن أبي الحديد بقوله: (الكهان وهم الذين كانوا يخبرون عن الشياطين بكثير من الغائبات)^(٣).

ولعل مصدر تلك المعلومات هو ما ذكر عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله

(١) الجوهري، الصحاح، ص ٩٨٨، مادة (كهن)؛ ابن منظور، لسان العرب، ٥٥٢/٧، مادة (كهن).

(٢) مروج الذهب، ٣٦٩/٢؛ وللتفصيل ينظر توفيق، فهد، الكهانة العربية قبل الإسلام، ترجمة حسن عودة ورندة بعث، شركة قدمس للنشر، (بيروت ٢٠٠٧)، ص ٥٦.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٧٨ / ٦.

وسلم عن السيدة عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم)^(١).

يبدو لنا أن الكهان شخصيات معينة امتلكت مجموعة من الصفات المميزة منها الفراسة والفطنة والحيلة ووظيفتها بطريقة تستطيع من خلالها كسب الناس للوصول إلى غاياتها المادية، مع التأكيد على أن عقلية الإنسان العربي في مجتمع عرب قبل الإسلام كانت مهياة لاستقبال أمور كهذه، وأضافوا عليها الكثير من القصص والخرافات، فالكثير من العرب كانت تعتقد أن لكل شاعر شيطاناً يعلمه الشعر كما بينا سابقاً^(٢)، حتى الرسول الكريم عندما جاء بكلام القرآن الكريم اتهموه بأنه كاهن وأن هناك تابعاً له يعلمه الكلام^(٣):

﴿فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾^(٤).

وقد كانت الكهانة عند العرب حتى مبعث النبي، فقد ذكر الزبير بن بكار (خصت العرب بخصال، بالكهانة، والقيافة، والعيافة، والنجوم والحساب، فهدم الإسلام الكهانة، وثبت الباقي على ذلك)^(٥).

(١) البخاري، صحيح البخاري، ٤ / ٧٩؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٤ / ٧.

(٢) ينظر ص ١٧٧ من الرسالة.

(٣) السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار (ت ٤٨٩)، تفسير السمعاني، تحقيق ياسر ابراهيم، وغنيم عباس غنيم، دار الوطن، (الرياض ١٩٩٧)، ٥ / ٢٧٦.

(٤) سورة الطور: الآية ٢٩.

(٥) الاخبار الموقيات، ص ٣٠٠.

ولكن هناك بعض الروايات التي تؤكد على أن بعضهم استمر في عمله حتى في الإسلام، فقد ذكر ابن أبي الحديد أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كان قد نهى الناس عن استخدام الكهانة وعدّها ملاصقة للكفر، فمن كلام له عليه السلام لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج، وقد قال له إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم فقال عليه السلام:

«أَتَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ وَتُخَوَّفُ مِنْ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضَّرُّ، فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ وَاسْتَعْنَى عَنِ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ وَدَفَعَ الْمَكْرُوهَ وَتَبَتَّعِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُؤَلِّكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ لِأَنَّكَ يَزْعِمُكَ أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النِّفْعَ وَأَمِنَ الضَّرَّ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَتَعَلَّمُ النُّجُومَ إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكُهَانَةِ، الْمُنَجِّمِ كَالْكَاهِنِ وَالْكَاهِنِ كَالسَّاحِرِ وَالسَّاحِرِ كَالْكَافِرِ وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ، سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ»^(١).

كانت الكهانة منتشرة في بلاد العرب قبل الإسلام انتشاراً واسعاً، وكانت لهم مكانة كبيرة يستشيرونهم في أهم أمورهم كإعلان الحرب والكشف عن الجريمة، فذكر أن رقاش كاهنة قبيلة طي كانت تغزو بهم ويتيمينون برأيها وكان لها حزم ورأي^(٢)، فلم يكن الكاهن مخبراً عن المغيبات فقط، بل كانت هناك مواضيع مختلفة في التكهن مثل التحاكم بين الناس فيما يقع بينهم من خلاف، والتنبؤ بالمستقبل، يذكر ابن أبي الحديد أن قريشاً عندما نازعت عبد المطلب حول بئر زمزم تحاكما إلى كاهنة بني سعد بن

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥٩/٦، [خطبة ١٧٨].

(٢) الضبي، أمثال العرب، ص ١٢٠.

هذيل وكانت بإشراف الشام^(١).

وعلى الرغم من إيمان العرب بقدسية الكهنة لكنهم كانوا يمتحنوهم ليتأكدوا من صدق تكهنهم ومقدار علمهم، فيذكر ابن أبي الحديد أن عتبة بن ربيعة امتحن بعض كهان اليمن قبل النظر في أمر اختلاف ابنته هند مع زوجها الفاكهة بن المغيرة، فقد أخذ حبة بُرَّ فأدخلها في إحليل فرسه وشده بسير وتركه حتى إذا وردوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم، فقال عتبة إنا قد جئناك لأمر وقد خبأت لك خبيثاً أختبرك به فانظر ما هو، فقال ثمر في كمره فقال أبين من هذا قال حبة بر في إحليل مهر^(٢).

ومن ضروب التكهن الأخرى تفسير الرؤيا وذكر لنا ابن أبي الحديد روايتين، الأولى رؤيا رقيقة في الجاهلية وهي رقيقة بنت صيفي بن هاشم بن عبد مناف التي رأت في المنام - بعد ان حبس المطر وذعر الناس هاتفاً - يصرخ بالدعوة إلى قيام رجل من قريش له صفات معينة ليدعو هو وولده لينزل المطر، فالتف الناس حول عبد المطلب وحفيده النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فدعوا فانفجرت السماء بمائها^(٣).

والرواية الثانية عن عاتكة بنت عبد المطلب التي رأت في المنام قبل معركة بدر، ركباً أقبل على بعير حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته يا آل غدر إنفروا إلى مصارعكم في ثلاث، فصرخ بها ثلاث مرات فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه إذ مثل به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ مثلها ثلاثاً، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها ثلاثاً، ثم أخذ صخرة من أبي قبيس فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت في أسفل الجبل ارفضت، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧٢/١٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢٠٧/١.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٢١١/٧؛ ينظر تفاصيل الرواية في رسالتنا ص ١٩٨.

دار من دورها إلا دخلته منها فلذة، قال الواقدي وكان عمرو بن العاص يحدث بعد ذلك فيقول لقد رأيت كل هذا ولقد رأيت في دارنا فلقة من الصخرة التي انفلقت من أبي قبيس، وقالوا ولم يدخل دارا ولا بيتا من دور بني هاشم ولا بني زهرة من تلك الصخرة شيء^(١).

قد تكون هذه الرواية موضوعة فكيف تتحول الرؤيا المنامية إلى واقعية مادية حسب رواية عمرو بن العاص الذي يبدو أنه اندفع كثيراً في تأكيد الرؤيا التي ربما وضعت لتأكيد انتصار المسلمين في واقعة بدر.

ومن الامور الاخرى في التكهن التنبؤ بالأحداث فيذكر أن حجراً بن عمرو المقصور بن الحارث دخلت عليه كاهنته ذات يوم ونبهته على خطر بني أسد وأنهم سوف يسفكون دمه فلم يأخذ برأيها فما لبث بعد ذلك إلا قليلاً حتى قتله بنو أسد^(٢).

وكان ابن أبي الحديد قد نقل لنا عن الطبري قصة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو يُحدّث عن ما جرى له في طفولته في أرض بني سعد بن بكر وهو يومئذ ابن خمس سنين، إذ أقبل عليه ثلاثة من الملائكة فشقوا صدره وختموا قلبه بخاتم من نور، فذهل لذلك، فأخذوه إلى أحد الكهنة الذي ما إن سمع قصته حتى أمر بقتله وتنبأ بمكانته وبأن له شأنًا كبيراً يغير فيه حياة العرب وديانتهم^(٣).

وهذه الرواية على الرغم من وجود علامات الشك حولها، فما الداعي بأن يقوم ثلاثة من الملائكة بكشف صدر النبي؟ إلا أنها تعطي بعداً آخر له علاقة بالكهنة وأثرهم

(١) شرح نهج البلاغة، ١٤ / ٧٣ - ٧٤.

(٢) الاصمعي، ابو سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٧ هـ)، تاريخ العرب قبل الإسلام، تحقيق محمد حسن ال ياسين، منشورات المكتبة العلمية، (بغداد ١٩٥٩)، ص ١٢٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٣ / ١٥٥، ينظر تفاصيل الرواية عند الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٦١ / ٢ - ١٦٣.

عند العرب، إذ كانوا يرجعون إليهم في الامور الصغيرة والكبيرة كلهم وإن لكل قبيلة كاهنهم الخاص.

اشتهر في بلاد العرب جماعة كبيرة من الكهان ولعل ابرزهم شق وسطيح اللذان ذكرهما ابن أبي الحديد بقوله: (كان للعرب كاهنان اسم أحدهما شق وكان نصف إنسان، واسم الآخر سطيح وكان يطوى طي الحصير ويتكلمان بكل أعجوبة في الكهانة، فقال ابن الرومي:

لَكَ رَأْيٌ كَأَنَّهُ رَأْيُ شَقِّ وَسَطِيحٍ قَرِيعِي الْكُهَانِ
يَسْتَشِفُّ الْغُيُوبَ عَمَّا تَوَارِي بَعِيُونَ جَلِيَّةَ الْإِنْسَانِ^(١)

وكان شق انساناً بيد ورجل وعين^(٢)، أما سطيح فهو كتلة من اللحم يدرج كما يدرج الثوب لا عظم فيه الا الجمجمة، ولهما الكثير من الأخبار العجيبة والتنبؤات التي ذكرتها الكتب والتي أخرجتهم من عالم الواقع إلى عالم الخرافة والاساطير^(٣).

ويبدو ان شكلهما الغريب الذي صورته العقلية الخرافية لمجتمع عرب قبل الإسلام هو الذي مهد السبيل للإصاق تلك القصص والاساطير بهما.

وذكر ابن أبي الحديد سواد بن قارب وقال إنه من الكهان الذين كانوا يتحدثون عن الأخبار في الغيب^(٤)، وغير ذلك فقد ظهرت مجموعة كبيرة من الكهنة نساءً ورجالاً ممن

(١) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٠٩.

(٢) الحوت، محمود سليم، في طريق الميثولوجيا عند العرب، ط٢، دار النهار، (بيروت ١٩٧٩)، ص٢٣٣.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ٢/٣٨٣؛ الإبشيهي، المستطرف، ٢/٨٦؛ علي، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/٧٦٥.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٥/١٠.

لم يتطرق إليهم ابن أبي الحديد في شرحه مثل طريفة كاهنة اليمن، والغيطة كاهنة بني سهم وغيرهن مما تحفل بهن كتب الأخبار بأخبارهم وقصصهم^(١).

وتنسب إلى الكهان حكم وتنبؤات مصاغة بجمل قصيرة مسجوعة وهو لون من ألوان النثر الجاهلي^(٢) وكانوا يعمدون إلى ألفاظ غامضة ومبهمه لكي يؤولها السامعون حسب فهم كل منهم وظروفه، وفي كتب الأدب صور كثيرة لسجع الكهان^(٣)، وكان ابن أبي الحديد قد ذكر بعضاً من ذلك السجع منها قولهم (حبة بر في إحليل مهر) وقولهم (عبد المسيح، على جمل مشيح) و(لرؤيا الموبدان وارتجاس الإيوان) ونحو ذلك من كلامهم^(٤).

أما العرافة فهي لا تختلف عن الكهانة كثيراً، فهما مفردتان قريبتان من بعضهما، فالعرافة تعني (معرفة الاستدلال ببعض الحوادث الحالية على الحوادث الآتية بالمناسبة أو المشابهة الخفية التي تكون بينهما، أو الاختلاط أو الارتباط، على أن يكونا معلولي أمر واحد أو يكون ما في الحال علة لما في الاستقبال)^(٥).

فالعرّاف يشبه الكاهن في ادعائه معرفة الغيب والاسرار، ولكن الكاهن يدّعي معرفة الأشياء المستقبلية عن طريق التابع، أما العراف فيدّعي معرفة الأشياء البسيطة مثل معرفة

(١) للتفاصيل، ينظر دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص ٦٨٣؛ علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٩٠/٦ - ٧٧١؛ مهرا، مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة، ص ١٩٠ - ١٩٩.

(٢) خفاجي، محمد عبد المنعم، الشعر الجاهلي، ط ٢، دار الكتاب اللبناني، (بيروت ١٩٧٣)، ص ١٦٩.

(٣) ينظر خفاجي، الشعر الجاهلي، ص ١٧٠؛ ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، ص ٤٢١ - ٤٢٣؛ عبد الرحمن، هاشم يونس، الحياة الفكرية في الجزيرة العربية قبل الإسلام وعصر الرسالة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٩٢، ص ٣١٨.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١/ ١٣٦.

(٥) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ١١٣١/٢.

الشيء المسروق ومكان الضالة، عن طريق دراسة اسباب يستدل بها على مواقعها وهو يتمتع بالذكاء والفراسة، ويطلب الناس روحياً ونفسياً بما هو أقرب إلى الشعوذة، ومن ابرز العرافين رباح بن عجلة، عراف اليمامة، والأبلق الأسدي، عراف نجد^(١).

ثانياً: القيافة والعيافة ومعرفة النجوم:

القيافة: لغة تعني قفا الأثر واقتفاه أي اتباعه، والقائف الذي يتتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبّه الرجل بأخيه وأبيه^(٢)، وهي إحدى معارف العرب قبل الإسلام وذكر ابن أبي الحديد أنّها من طرق الإخبار عن الغيوب، واختص بهذه المعرفة بنو مدلج^(٣). وكان العرب قد عرفوا نوعين من انواع القيافة وهما قيافة البشر وقيافة الأثر، فأما قيافة البشر فهو الاستدلال بصفات أعضاء الانسان، وكان بنو مدلج بن مرة بن عبد مناة وهم بطن من كنانة يعرض على أحدهم مولود في عشرين نفراً فيلحقه بأحدهم^(٤).

وأما قيافة الأثر فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف، وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق تتبعوا آثار قدمه حتى يظفروا به، ومن العجيب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ، والمرأة من الرجل، والبكر من الثيب، والغريب من المستوطن، واختلف رجلا من القافة في أمر بغير وهما بين مكة ومنى فقال أحدهما هو جمل وقال الآخر هي ناقة وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بني عامر فإذا بغير واقف فقال أحدهما لصاحبه أهو ذا؟ قال نعم، فوجداه

(١) عرفة، العرب قبل الإسلام، ص ٣٠١؛ برو، توفيق، تاريخ العرب القديم، دار الفكر، (دمشق ١٩٩٦)، ص ٢٧٨.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٣٩٩/٧، [مادة قوف].

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٠/٥.

(٤) القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة انساب العرب، ص ٣٧٢؛ الابشيهي، المستطرف، ٨٨/٢.

خشي فأصابا جميعاً^(١)، وذكر الزبير بن بكار سئل رجل (كيف أنتم في الأقدام؟ قال: ذلك أيسر الأشياء علينا، إن السراق ليجرون الأكيسة على أقدامهم ليخفوا آثارهم فنعرفهم)^(٢).

أما العيافة: فهي العلم بالغيبيات والاخبار عنها عن طريق تتبع حركات الطيور والحيوانات (واصله أن يرمى الطائر بحصاة ويصيح فإن ولاه في طيرانه ميامنه تفاعل به أو مياسره تطير)^(٣)، وذكر ابن أبي الحديد إن الإخبار عن الغيوب يقع لأصحاب زجر الطير والبهائم، واختص بهذه المعرفة في الجاهلية بنو لهب^(٤)، وقد تم تفصيل ذلك في موضوع الطيرة والفأل في فصل سابق^(٥).

أما معرفة النجوم ومسالك الطرق: فقد كان للعرب معرفة بعلم النجوم ومواقعها ومسالكها، ومعرفة بأنواء الكواكب وأمطارها، والاهتداء بها على حسب ما أدركوه من طول التجربة^(٦)، وذكر ابن أبي الحديد أن الإخبار عن الغيوب كان يقع عن طريق المنجمين الذين اتفقوا على أن شكلا من أشكال الطالع إذا وقع لمولود اقتضى أن يكون صاحبه متمكنا من الإخبار عن الغيوب^(٧).

وكان لعيشتهم في الصحراء حيث لا أمانة ولا هادي، مع تمسكهم للعيش فيها سبباً إلى التماس ما ينجيهم، وكذلك لحاجتهم إلى الغيث، وفرارهم من الجذب، سعوا إلى

(١) الألبشيهي، المستطرف، ٨٨/٢؛ زيدان، جرجي، التمدن الاسلامي، مج ٢، ٢١/٣.

(٢) الاخبار الموفقيات، ص ٣٠٢.

(٣) علي، جواد، ٧٧٥/٦.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٠/٥.

(٥) ينظر ص ٨١ وما بعدها من الرسالة.

(٦) ابن صاعد، طبقات الامم، ص ٤٥.

(٧) شرح نهج البلاغة، ١٠/٥.

معرفة شأن الغيث، ولأنهم في كلِّ حال يرون السَّماء، وما يجري فيها من كوكب، ويرون التّعاقب بينها، والنّجوم الثّوابت فيها، وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فراداً، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً، فكانوا يحفظونها ويتعاملون معها يوماً^(١).

وقد (سئلت أعرابيّة: أتعرفين النجوم؟ قالت: سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقوفاً عليّ كلّ ليلة)^(٢). ووصف أعرابيُّ لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء، ونجوم الاهتداء، ونجوم ساعات الليل والسُّعود والنُّحوس، فقال قائلٌ كان حاضراً: أما ترى هذا الأعرابيَّ يعرف من النُّجوم ما لا نعرف، قال: ويل أمك، من لا يعرف أجذاع بيته؟^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ (أهدى العرب في الجاهلية وأبعدهم مغاراً وأثراً في الارض (دعيمص الرمل) كان يعرف بالنجوم هداية وكان أهدى من القطا يدفن بيض النعام في الرمل مملوء ماء ثم يعود إليه فيستخرجه)^(٤)، وفيه ضرب المثل (أدل من دعيمص الرمل)^(٥)، وهو الذي بلغ وبار^(٦) ولم يبلغها غيره، وكان سبب ذهابه إليها انه راح يبحث عن إبل له كانت قد اتبعت فحلاً هجان^(٧)، كان يأتي فيضرب في إبله، وجعل

(١) الجاحظ، الحيوان، مج ٢، ٣٦٠/٦.

(٢) الجاحظ، الحيوان، مج ٢، ٣٦٠/٦.

(٣) الجاحظ، الحيوان، مج ٢، ٣٦٠/٦.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٤٣/١٨.

(٥) أبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ)، جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعبد المجيد قطاش، ط ٢، دار الفكر، (القاهرة ١٩٨٨).

(٦) وهي ما بين الشحر إلى صنعاء، أرض واسعة زهاء ثلثمائة فرسخ في مثلها، وقيل هي أرض كانت من محال عاد بين رمال يبرين واليمن فلما هلكت عاد أورث الله ديارهم الجن فلم يبق بها أحد من الناس، وقيل هي بين نجران وحضرموت وما بين بلاد مهرة والشحر، ينظر ياقوت الحموي؟ معجم البلدان، ٤٤٦ / ٨.

(٧) الهجان من الإبل: البيض. وقال عمرو ابن كلثوم: هجان اللون لم تقرأ جنينا، ينظر الجوهري، الصحاح،

يملا بيض النعام ماء ويدفنه في الرمل .

فلم يزل في أثر الإبل حتى هبط على أكثر بلاد الله نخلاً وإبلاً هجاناً وعند رجوعه جعل يستشير البيض فيشرب الماء حتى أتى أهله، ووبار كانت منازل بني أميم بن أوذ بن إرم بن سام بن نوح^(١) .

ثالثاً: الطب:

يعد الطب من المعارف المتعلقة بمجتمع العرب قبل الإسلام كونه ذا صلة بصحة الإنسان وحياته، وكانوا عاجزين عن معرفة أسباب الامراض لذلك فهم يعتقدون انها تعود لغضب الآلهة على الناس، أو إلى أرواح شريرة تصيب الجسم، فيلجئون إلى الأدعية والتبرك بالهياكل والتوسل بالأصنام، وكانوا يستطبون بالسحر والتعاويذ لما بين الطب والسحر من صلة وصلت إلى عد الطب ضرباً من السحر، ثم بعد ذلك وبمرور الوقت حصلوا على بعض المعارف الطبية التي اقتربت من صحة تعليل المرض والشفاء توارثها الناس^(٢)، ولكنه كان لا يتجاوز عندهم الكي بالنار، وبترا الأعضاء بالشفار المحماة، والتداوي بشراب العسل، وعصارات بعض العقارات النباتية، وكثيراً ما كانوا يتداوون بالعزائم والرقى^(٣)، وهي معارف وملاحظات قد يصاحبها الخطأ في كثير من الاحيان، وقد تدخل الخرافة من بعض ما لا يعرفون، وهذا ما أكده ابن خلدون الذي قال: (وللبادية من أهل العمران طب بينونه في غالب الأمر على تجربة قاصره على بعض الأشخاص، ويتداولونه متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه

(١) ابن حبيب، المخبر، ص ١٨٩ .

(٢) دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص ٣٢٧؛ طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٠٢ .

(٣) عطية، محمد هاشم، الادب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، ط ٣، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، (مصر

البعض، إلا أنه ليس على قانون طبيعي، ولا عن موافقة المزاج^(١).

وقد ذكر لنا ابن أبي الحديد مجموعة من تلك المعارف الطبية المتوارثة منها تعليق الحلي والجلال على اللديغ يرون أنه يفيق بذلك، ويقال إنه إنما يعلق عليه لأنهم يرون أنه إن نام يسري السم فيه فيهلك فشغلوه بالحلي والجلال وأصواتها عن النوم، وبعضهم يقول إنه إذا علق عليه حلي الذهب برأ وإن علق الرصاص أو حلي الرصاص مات^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد مجموعة من الايات الشعرية التي تعكس هذه الحالة منها:

قول النابغة الذبياني:

فبتُ كَأني سَأورثني ضئيلةً
من الرُقشِ في أنيابها السَّمُ ناعُ
يُسهدُ من ليلِ التمامِ سليمها
لحلي النساءِ في يديه قعاقع^(٣)

وقال بعض بني عذرة:

كَأني سليمٌ ناله كَلْمٌ حيةٌ
ترى حوله حليَ النساءِ مُرصعا^(٤)

وذكر ابن أبي الحديد أنهم كانوا يعتقدون أن دم الرئيس يشفي من عضه الكلب^(٥)، فإذا أصيب إنسان بداء الكلب فشفأؤه بمعالجته بدم الملوک، وقد عرفه ابن دريد بقوله:

(١) تاريخ ابن خلدون، ٥٤٨/١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣١٤/١٩.

(٣) الديوان، ص ٧٢.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٣١٤/١٩.

(٥) شرح نهج البلاغة، ٣٢٤/١٩.

(والكَلْبُ داءٌ يصيب النَّاسَ والإِبِلَ شبيهةٌ بالجنون. وكانت العربُ في الجاهليَّةِ إذا أصاب الرَّجُلَ الكَلْبُ قطروا له دَمَ رجلٍ من بني ماء السماء، وهو عامر بن ثعلبة الأزدي، فَيُسْقَى فكان يُشْفَى منه)^(١).

ويبدو هنا أنهم كانوا يمزجونها بالماء وهم أرادوا بهذا أن يبينوا مكانة ساداتهم العليا، وأنهم شفاء للمرض، ولعلها نوع من التعلق بالرمز التي كانت سائدة في المجتمع القبلي باعتبارهم مصدراً للسعادة والخلاص.

ومن معارفهم الطبية التي ذكرها ابن أبي الحديد أنهم كانوا اذا سقطت لغلام سن أخذها بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها وقال يا شمس أبدليني بسن أحسن منها وليجر في ظلمها آياتك أو تقول إياؤك وهما جميعاً شعاع الشمس^(٢)، وذكر الابشيهي أنه يفعل ذلك ليأمن على أسنانه العوج والفَلَج^(٣)^(٤).

وذكر ابن أبي الحديد مجموعة من الابيات الشعرية تؤيد هذه الحالة منها:

قول طرفة: سقتُهُ إِياءَةَ الشمسِ^(٥)، وإلى هذا الخيال أشار شاعرهم بقوله:

شادنٌ يجلو إذا ما ابتسمتُ
عن أقاح كَأَقاحِ الرَّمْلِ غُرُ
بدلَّتُهُ الشمسُ من منبتهِ
بَرْدًا أبيضَ مصقولِ الأشرُ

(١) ابو بكر محمد بن الحسن الازدي (ت ٣٢١ هـ)، الاشتقاق، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، (بيروت ١٩٩١)، ٢٠/١.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٢٤/١٩.

(٣) الفَلَجُ في الأسنان تباعد ما بين الثنايا والرَّبَاعِيَّاتِ خِلْقَةٌ، فَإِنْ تُكُلِّفَ فهو التفلجُ ورجلُ أَفْلَجِ الأسنانِ وامرأةٌ فُلْجاءُ الأسنانِ، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ١١٣/٧، [مادة فلج].

(٤) المستطرف، ٨٥/١.

(٥) تكلمة البيت * سقتُهُ إِياءَةَ الشمسِ إلا لثائه، اسف ولمْ تكدمُ عليه بأتمد، ينظر ابن العبد، طرفة، الديوان،

وقال آخر:

وأشنبُ واضحٌ عذبُ الثنايا كأنَّ رِضابَهُ صافي المدامِ
كَسَتْهُ الشمسُ لوناً من سناها فَلَاحَ كَأَنَّهُ بَرَقَ الغمامِ

وقال آخر:

بذي أشرَّ عذبِ المذاقِ تفردتُ بهِ الشمسُ حتى عادَ أبيضَ ناصِعاً^(١)

وذكر ابن أبي الحديد أيضاً أن الرجل اذا اختلجت عينه قال أرى من أحبه فإن كان غائباً توقع قدومه وإن كان بعيداً توقع قربه، قال أحدهم:

إذا اختلجتُ عيني تيقنْتُ أنني أراكَ وإنَّ كانَ المزارُ بعيداً

وقال آخر:

إذا اختلجتُ عيني أقولُ لعلها لرؤيتها تهاجُ عيني وتطرفُ^(٢)

وذكر ابن أبي الحديد أنهم (كانوا يسمون العشا في العين الهدبد وأصل الهدبد اللبن الخاث^(٣))، فإذا أصاب أحدهم ذلك عمد إلى سنام^(١) فقطع منه قطعة ومن الكبد قطعة

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٢٤/١٩.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٢٦/١٩.

(٣) الهدايد: اللبن الخاث جداً. والهديد مقصور منه. ويقال: بعينه هُديدٌ، أي عمشٌ، وقيل الهديدُ الحَفَشُ وقيل هو ضعف البصر ورجل هُديدٌ ضعيف البصر، ينظر الجوهري، الصحاح، ص ١١٦٤، [مادة هديد]؛ ابن منظور،

لسان العرب، ٣٦/٩، [مادة هديد].

وقلاهما وقال عند كل لقمة يأكلها بعد أن يمسخ جفنه الأعلى بسبابته :

فِإِ سَنَامَا وَكَبِدٌ أَلَا أَذْهَبَا بِالْهَدْبِ دُ
لَيْسَ شَفَاءَ الْهَدْبِ دُ إِلَّا السَّنَامُ وَالْكَبِدُ

قال فيذهب العشا بذلك^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد أيضاً أنَّ الرجل إذا طرفت عين الرجل منهم بثوب آخر مسح الطارف عين المطروف سبع مرات يقول في الأولى بإحدى جاءت من المدينة، وفي الثانية باثنتين جاءتا من المدينة، وفي الثالثة بثلاث جئن من المدينة، إلى أن يقول في السابعة بسبع جئن من المدينة، فتبرأ عين المطروف، وفيهم من يقول بإحدى من سبع جئن من المدينة باثنتين من سبع إلى أن يقول بسبع من سبع^(٣).

ومن معارفهم الطيبة التي ذكرها ابن أبي الحديد أنَّ الرجل منهم إذا خدرت رجله ذكر من يحب أو دعاه فيذهب خدرها، قال الشاعر :

عَلَى أَنَّ رَجُلِي لَا يَزَالُ امْذَلَّ لِأُهَا^(٤) مَقِيمَا بِهَا حَتَّى أَجِيلُكَ فِي فِكْرِي

وقال اخر :

صَبُّ مُجِبُّ إِذَا مَا رَجُلُهُ خَدَرَتْ نَادَى كَيْشَةً حَتَّى يَذْهَبَ الْخَدْرُ^(٥)

(١) سَنَامٌ البعير والناقة أعلى ظهرها والجمع أُسْنِمَةٌ، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٢٢٥/٤، [مادة سنم].

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٣٤/١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣٣١/١٩.

(٤) المِمْذِلُ : خَدَرَ الرَّجُلُ، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ١٧٥/٨، [مادة مذل].

(٥) شرح نهج البلاغة، ٣٢٥/١٩.

ومن معارفهم التي ذكرها ابن أبي الحديد (إذا بثرت^(١)) شفة الصبي حمل منخلا على رأسه ونادى بين بيوت الحي الحلا الحلا، الطعام الطعام، فتلقي له النساء كسر الخبز وإقطاع التمر واللحم في المنخل ثم يلقي ذلك للكلاب فتأكله فيبراً من المرض، فإن أكل صبي من الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلاب ثمرة أو لقمة أو لحمة أصبح وقد بثرت شفته وأنشد لامرأة: ألا حلا في شفة مشقوقة، فقد قضى منخلنا حقوقه^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد أن العرب تزعم أن من تصيبه نملة وهي شيء في الجسد كالقرح وجمعها نَمَلٌ، وقيل النَّمَلُ والنَّمَلَةُ قروح في الجنب وغيره فدواؤه أن يُرْقَى بريق ابن المَجُوسِيِّ من أخته، قال الشاعر:

ولا عَيْبَ فِينَا غَيْرَ عَرَقٍ لِمَعْشِرٍ كِرَامٍ وَأَنَا لَا نَحُطُّ عَلَى النَّمْلِ^(٣)

(أي لَسْنَا بِمَجُوسٍ نَنكحُ الْأَخَوَاتِ).

ولم يكن الطب خاصاً بالإنسان فقط بل وصل إلى حيواناتهم، فهم يعالجون الجروح التي تصيبها، وفي جملة ما كانوا يعالجون فيه الكي فيذكر ابن أبي الحديد أنهم كانوا إذا أصاب العر^(٤) الإبل يكوى الصحيح ليبرئ السقيم قال النابغة الذبياني^(٥):

(١) بثرت: أي خرج فيها غيب الحمى بُثُورُهَا، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٢٢٥/٤، [مادة حلا].

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٣١/١٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٧٢/٢٠؛ ينظر كذلك ابن منظور، لسان العرب، ٥٢٢/٨، [مادة نمل].

(٤) العرّ، بالفتح: الجرب. تقول منه: عرّت الإبل تُعرّ، فهي عارّة. وجمل أعرّ وعارّ، أي جرب. والعُرّ بالضم:

قروح مثل القوباء تخرج بالإبل متفرقة في مشافرها وقوائمها يسيل منها مثل الماء الأصفر، ينظر ابن منظور، لسان

العرب، ٩٤/٦، [مادة عرر].

(٥) الديوان، ص ٧٥.

لكلَّفْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذِي الْعَرُ يُكْوِي غَيْرِهِ وَهُوَ رَاتِعٌ

ومثل هذا البيت قول آخر:

فَأَلْزَمْتَنِي ذَنْبًا وَغَيْرِي جَرَّهُ حَنَائِيكَ لَا يَكْوِي الصَّحِيحُ بِأَجْرِبَا^(١)

وكانوا يعترضون بعيراً صحيحاً لا أثر فيه للجرب فكفوا مشفره وعضده وفخذه وكانوا يعتقدون أنهم إن فعلوا ذلك ذهب العر عن إبلهم ويقولون (تؤمن معه العدو) أي يفعلون ذلك كوسيلة لوقاية الإبل السليمة^(٢).

ويبدو لنا أن هذا الأمر فيه بعض المغالطات، لأنه إذا كان ذلك قصدهم لفعلوا الكي مع جميع الإبل السليمة لا مع بعير سليم يختارونه من بينها فيمرض الصحيح بكيه، ويبقى المريض بعلته، ولكن قد يحتمل لهذا الفعل عدة احتمالات منها:

أولاً: إنهم كانوا يكونون الصحيح لثلا يتعلق الداء به، لا ليبراً السقيم، وهم بهذا يكونون جميع الإبل الصحيحة لا واحداً منها يختارونه كما يعتقد بعضهم.

ثانياً: ذكر جواد علي أنهم كانوا يعمدون إلى أمه فيكووها فيبراً فصيلها^(٣)، ويعتقد أن أصل هذه العادة يرجع إلى إيمان العرب بأن المرض يجري إلى الفصيل عن طريق لبن الأم، فكانوا يكونون الأم السليمة ليبراً فصيلها^(٤).

ثالثاً: ذكر البغدادي أنه مثل لا حقيقة. أي: أخذت البريء وتركت المذنب فكنت

(١) شرح نهج البلاغة، ٣١٥/١٩.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٩٤/٦، [مادة عرر]: جمعة، حسين، الحيوان في الشعر الجاهلي، ص ١٦٦.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨١٤/٦.

(٤) جمعة، الحيوان في الشعر الجاهلي، ص ١٦٦.

كمن كوى البعير الصحيح وترك السقيم، ونحو من هذا قولهم: (يشرب عجلان ويسكر ميسرة)، ولم يكونا شخصين^(١)، ويبدو أن هذا أقرب الصور التي يمكن الاعتقاد بها إذ إن العرب كانوا غالباً ما يستخدمون الأمثال للتعبير عن حالات معينة ليجعلوها أكثر واقعية.

وعلى الرغم من ذلك فقد تعاطى الطب جماعة من العرب ممن خالطوا الروم والفرس الذين كانوا أكثر معرفة من العرب في هذا المجال فاشتهروا بهذه الصناعة، وذكر ابن أبي الحديد الحارث بن كلدة الثقفي في وصية بعضهم لابنه (و لله در الحارث بن كلدة حيث زعم أن الدواء هو الأزم وأن الداء إدخال الطعام في أثر الطعام)^(٢)، والحارث بن كلدة كان من الطائف، وسافر في البلاد وتعلم الطب بناحية فارس وتمرن هناك، وعرف الداء وكانت له معالجات كثيرة، ومعرفة بما كانت العرب تعتاده وتحتاج إليه من المداواة، وله كتاب وكلام مستحسن فيما يتعلق بالطب وغيره محاورة في الطب بينه وبين كسرى أنوشروان^(٣)، وقد برع الكثيرون من العرب في الطب ممن لم يذكرهم ابن أبي الحديد مثل (ابن حُدَيْم، والنضر بن الحارث بن كلدة، وابن أبي رمته التميمي، ورفيدة الأسلمية... الخ)^(٤).

(١) عبد القادر بن عمر، خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب، ٢/٤١٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٩/١٥٤.

(٣) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين ابو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي (ت ٦٦٨ هـ)، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص ١٦١.

(٤) للتفاصيل عن أطباء العرب وطبيباتهم قبل الإسلام ينظر، الربيعي، هديل غالب عباس، الطب عند العرب قبل الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٣؛ عكاوي، رحاب خضر، الموجز في تاريخ الطب عند العرب، دار المناهل، (بيروت ٢٠٠٠)، ص ٧٦ - ٨٤.

المبحث الرابع الأمثال عند العرب قبل الإسلام

تعد الأمثال العربية مظهراً من مظاهر الابداع الادبي عند العرب قبل الإسلام، وهي تعكس صوراً مهمة للحياة العربية تتكلم فيها عن طبيعة الحياة الاجتماعية واليومية بأسلوب سلس وواضح، وكان خطباؤهم وشعراؤهم كثيراً ما يستشهدون بالأمثال في خطبهم وقصائدهم (وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ولم يكن الناس جميعاً يتمثلون بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع)^(١)، وعرف السيوطي المثل فقال: (المثل جملة من القول مقتضبةً من أصلها أو مرسلَةٌ بذاتها فتتَّسم بالقبول وتشتهر بالتداول فتنتقل عما وردت فيه إلى كلِّ ما يصح قَصْدُه بها من غير تغيير يلحقها في لفظها وعما يُوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني فلذلك تُضْرَب وإن جُهلَّت أسبابها التي خرَّجت عليها)^(٢).

ولعل في هذا الكلام نوعاً من التصور حول تأثير المثل في المجتمع وكيف تم استعماله في حالات وصور مختلفة، فما زالت الأمثال حتى يومنا هذا تتناقل وتنعكس على الكثير

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ٢٧١/١.

(٢) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١)، المزهر في علوم اللغة وانواعها، تحقيق فؤاد علي منصور دار

الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٨)، ٣٧٥/١.

من الأحداث المماثلة لها، وهي باقية في الأذهان أكثر من أي كلام آخر لوجود صفات تميزها أو جزها إبراهيم النّظام^(١) بقوله: (يجمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة)^(٢).

وقد تداول مجتمع عرب ما قبل الإسلام الأمثال بشكل واسع لأسباب وحوادث اقتضت إطلاقه فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشيء وليس في كلامهم أوجز منها ولا أشد اختصاراً^(٣).

وعلى الرغم من أن الأمثال يصعب فيها تمييز الجاهلي منها من الإسلامي، لاختلاطهما ببعض عند الرواة والمؤلفين، ولأن الأمثال لم تدون من قبل عرب قبل الإسلام وإنما استمرت تنتقل عن طريق الرواية الشفهية حتى بدأ جمعها وتدوينها في عصر التدوين أيام الدولة الأموية^(٤)، ولكن ميزنا المثل الجاهلي عن طريق ما يشير إليه المثل من قصة أو حادثة أو خبر أو شخصية كان لها اتصال بحياة العرب ما قبل الإسلام، أو هناك إشارة إلى أن المثل قيل في تلك الفترة مثل ما يوم حليلة بسر، دقوا بينهم عطر منشم، لو كان يطاع لقصير أمر... الخ.

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري (ت ٢٣١ هـ)، من أئمة المعتزلة، تبحر في علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين واليهيين، وانفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت (النظامية) نسبة إليه، أما شهرته بالنظام فأشيعه يقولون إنها من إجادته نظم الكلام، وخصومه يقولون انه كان ينظم الخرز في سوق البصرة. ينظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٣/٦؛ الزركلي، الاعلام، ٤٣/١.

(٢) الميداني، ابو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم (ت ٥١٨)، مجمع الامثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٣، دار الفكر، (القاهرة ١٩٧٢)، ٦/١.

(٣) ابن الاثير، ابو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الموصللي (ت ٦٣٧ هـ)، المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، (بيروت ١٩٩٥)، ٤١/١.

(٤) الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٣٩١.

وقد ذكر لنا ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة مجموعة كبيرة من الأمثال التي تناقلتها العرب قبل الإسلام، وقسمناها على محورين :

أولاً: الأمثال التي ذكرها الإمام علي عليه السلام ونقلها ابن أبي الحديد:

عرفت العرب قبل الإسلام الإمثال حتى تداولت بينها وانتشرت وكانت تستخدمها في اشعارها وخطبها ويبدو إن تلك الامثال التي عرفت بالجاهلية استمرت متداولة في العصر الاسلامي، حتى نجدها تظهر بكثرة في أقوال الإمام علي (عليه السلام)، فكان الإمام عليه السلام يوظف تلك الأمثال في خطبه ورسائله حتى ظهرت منسجمة كل الانسجام، وقد أدت أغراضها التي كان يبتغيها، فكان يدعو الناس للاستفادة منها والتدبر فيها فقد قال عليه السلام :

«فَقَدْ جَرَيْتُمُ الْأُمُورَ وَضَرَسْتُمُوهَا وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَضُرِبَتْ الْأَمْثَالُ لَكُمْ وَدُعِيتُمْ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ فَلَا يَصِمُّ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَصَمُّ وَلَا يَعْمَى عَنْهُ إِلَّا أَعْمَى وَمَنْ لَمْ يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ»^(١).

وقد استخدم الأمثال القديمة كعبارة كاملة ومثل جاهز للدلالة على سياق الاحداث ومرة اخرى استعمالها ووظف مفردات المثل أو مفردات أكثر من مثل في عبارة واحدة إتخذت بعداً بلاغياً جميلاً، ومن تلك الأمثال (قد أنصف القارة من رامها)، وقد ذكره الإمام عليه السلام في خطب معركة الجمل بعد أن بعث للقوم للرجوع إلى البيعة فلم يستجيبوا ودعوا إلى البراز للطعان فقال عليه السلام :

«أَلَا هَبَلْتَهُمُ الْهَبُولُ لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أَهْدُدُّ بِالْحَرْبِ وَلَا أَرْهَبُ بِالضَّرْبِ وَلَقَدْ أَنْصَفَ

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٩/١٠، [خطبة ١١٧٧].

القارة من راماهما فليُرعدوا وليُرقوا»^(١).

ويضرب مثلاً لمساواة الرجل صاحبه فيما يدعوه إليه، والقارة قبيلة وهم عُضَل
والديش ابنا الهون بن خُزَيْمة، وإنما سُمُوا قارة لاجتماعهم والتفافهم لما أراد الشَّدَاخُ أن
يفرقهم في بني كنانة فَقَالَ شاعرهم:

دَعُونَا قَارَةً لَا تَنْفِرُونَا فَنُجْفِلَ مِثْلَ إِجْفَالِ الظَّلِيمِ

وهم رُماة الحدق في الجاهلية ويزعمون أن رجلين التَقِيَا أحدهما قاري فَقَالَ القاري:
إِنْ شِئْتَ صَارَعْتُكَ وَإِنْ شِئْتَ سَابَقْتُكَ وَإِنْ شِئْتَ رَامَيْتُكَ فَقَالَ الآخَرُ: قد اخترت
المرامة فَقَالَ القاري: قد أنصفتني وأنشأ يقول:

قَدِ أَنْصَفَ الْقَارَةَ مَنْ رَامَاهَا
إِنَّا إِذَا مَا فِئَةٌ نَلْقَاهَا
نَرُدُّ أَوْلَاهَا عَلَى أَخْرَاهَا

ثم انتزع له بسهم فَشَكََّ به فؤاده، وذكر إنَّما قيل: "أنصف القارة من راماهما" في
حرب كانت بين قريش وبكر بن عبد مناة بن كنانة، وكانت القارة مع قريش، وهم قوم
رماة، فلما التقى الفريقان رماهم الآخرون، فقيل: قد أنصفتهم هؤلاء إذ ساووكم في
العمل الذي هو شأنكم وصناعتكم^(٢).

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٨١/١٠، [خطبة ٢٢].

(٢) الضبي، أمثال العرب، ص ١٢٧؛ الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٧)، كتاب الأمثال، تحقيق
محمد جبار المعيد، دار الشؤون الثقافية، (بغداد ٢٠٠٠)، ص ١٩٢، لرقم المثل ٤٣٢؛ أبو هلال العسكري،
جمهرة الأمثال، ٥٥/١، لرقم المثل ٣٠؛ الميداني، مجمع الأمثال، ١٠٠/٢، لرقم المثل ٢٨٦٧.

وذكر ابن رفاعة أنَّ القارة أربعون رجلاً كانوا مرسومين بحراسة ملوك اليمن ليلاً وكانوا أرمى الناس فأحسوا في ليلة سوداء بحس فاصغوا إليه فرموا نحوه فسكن الحس فوجدوا هرة فيها أربعين سهماً^(١). وهذه الرواية جاءت لتبين لنا مدى قدرة القارة على الرمي ومدى ارتباط المثل بهم.

وعندما صفق عبد الرحمن بن عوف على يد عثمان بن عفان وسلم عليه بالخلافة في قضية اختيار الخليفة بعد وفاة عمر قال له الإمام (عليه السلام): (و الله ما فعلتها إلا لأنك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه دق الله بينكما عطر منشم)^(٢)، ودق الله بينكما عطر منشم هي من أمثال العرب في الشر، وفي سبب المثل عند المؤرخين اختلاف كثير وأقوال مختلفة قيل يراد به الشر العظيم، وزعم قوم أن منشم اسم امرأة وكانت عطارة تباع الطيب فكانوا إذا أرادوا الحرب غمسوا أيديهم في طيبها وتحالفوا عليه بأن يستميتوا في الحرب ولا يولوا أو يقتلوا، فكانوا إذا دخلوا الحرب بطيب هذه المرأة يقول الناس: قد دقوا بينهم عطر منشم، وإذا كثرت القتلى فيما بينهم فكان يقال: أشأم من عِطْرِ مَنَشِمٍ، قال زهير بن أبي سلمى^(٣):

تداركتما عبساً وذبياناً بعدما
تَفَانُوا ودقوا بينهم عِطْر منشم

وزعم آخرون أن منشم كانت امرأة تباع الحنوط وإنما حنوطها عطر، في قولهم دقوا بينهم عطر منشم لأنهم أرادوا عطر الموتى، والمنشم شيء يكون في سنبل العطر يسميه العطارون قرون السنبل، وفي رواية أخرى أن منشم امرأة من العرب كانت تسمى خفرة

(١) زيد بن رفاعة الكاتب (ت ٣٦٠ هـ)، كتاب الأمثال، دائرة المعارف العثمانية، (حيدرآباد الدكن ١٣٥١ هـ)، ص ٨١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١/١٨٤.

(٣) الديوان، ص ١٠٦.

تبيع الطيب، فورد بعض أحياء العرب عليها فأخذوا طيبها وفضحوها فلحقهم قومها ووضعوا السيف وقالوا: اقتلوا من شم من طيبها، ثم جعلته العرب مثلاً^(١).

من الأمثلة التي تضرب من باب الصبر ومكابدة الأمور وتحمل المشقة قوله عليه السلام:

«وَاللَّهِ لَقَدْ رَقَعْتُ مِدْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ فَقُلْتُ أُعْزِبُ عَنِّي فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السَّرِيَّ»^(٢).

قال ابن أبي الحديد في شرحه (وقوله عند الصباح يحمد القوم السرى مثل يضرب لمحتمل المشقة العاجلة رجاء الراحة الآجلة)^(٣)، ويقال أن المثل للأغلب العجلى، وقيل لغيره، ومعناه أنهم يدأبون في ليلهم بالسهرة، فإذا أصبحوا وقد طووا البعد حمدوا ذلك حينئذ، وهو في شعر للجميع^(٤) يقول فيه:

تسألني عن بعلها أي فتى	خبٌ جبانٌ فإذا جاع بكى
لا حطب القوم ولا القوم سقى	ولا ركاب القوم إذ ضاعت بغي
ولا يوارى فرجه إذا إصطفى	ويأكل التمر ولا يلقي النوى
كأنه غرارة ملأى حتى	لما رأى الرمل وقيزان الغضى

(١) ابو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ٤٤٤/١، لرقم المثل ١٧٨٢؛ البكري، ابو عبيد الله بن عبد العزيز الاندلسي

(ت ٤٨٧ هـ)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق احسان عباس، مؤسسة الرسالة، (بيروت ١٩٧١)،

١ / ٤٨٥؛ الميداني، مجمع الأمثال، ٩٣/١، لرقم المثل ٤٤٨.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧٩/٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٧٩/٩.

(٤) هو منقذ بن الطماح بن قيس بن طريف ابن عمرو الأسدي (ت ٥٧١ م) الجميح لقبه، فارس شاعر جاهلي، قتل

يوم جبلة، ينظر البغدادي خزنة الأدب ١٠ / ٢٧١؛ الزركلي، الأعلام، ٧ / ٣٠٨.

بكى وقال هل ترون ما أرى
قلتُ أعزّي صاحبي ألا بلى
أليسَ للسَّيرِ الطويلِ مُنقضى
عندَ الصَّباحِ يحمّدُ القومُ السرى^(١)

ومن الأمثلة القديمة التي تضمنتها خطبة للإمام عليه السلام بعد التحكيم (لو كان يطاع لقصير أمر) يذم فيها أصحابه بقوله عليه السلام:

«وَقَدْ كُنْتُ أَمْرُتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرِ أَمْرٍ فَأَيُّكُمْ عَلِيٌّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاءَ»^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد (وقوله لو كان يطاع لقصير أمر فهو قصير صاحب جذية وحديثه مع جذية ومع الزبّاء مشهور^(٣))، فضرب المثل لكل ناصح يعصى بقصير^(٤).

وقد وظّف الإمام عليه السلام هذا المثل لمثل آخر استخدمه في خطبة أخرى، ففي حربه مع معاوية بعد قضية التحكيم عندما أغار الغامدي على الأنبار وعليها حسان بن حسان البكري فقتله وقتل منهم رجالاً وكان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى

(١) أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ٢ / ٤٢، [رقم المثل ١١٨٩]؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ١ / ٢٤٥؛ الميداني، مجمع الأمثال، ٣ / ٢، [رقم المثل ٢٣٨٢]؛ الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمد بن عمر (ت ٥٣٨)، المستقصى من أمثال العرب، ط ٢، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٨٧)، ٢ / ١٦٨، [رقم المثل ٥٧٠].

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢ / ١٦٣، [خطبة ٣٥].

(٣) وكان جذية على ثغر العرب من قبل أردشير بن بابك، فخطب الزبّاء بنت عمرو بن طريف، وكانت على الشام والجزيرة من قبل الروم، وأنّ قصير بن سعد كان قد أشار على جذية حين خطب الزبّاء ألا يفعل وذلك لأنه كان قد قتل أباهما، فكانت تطلبه بذلك فلم يقبل منه وتزوجها، ثم صارت إلى قتله، فعندها قال: " لا يطاع لقصير أمر " فذهبت مثلاً، ينظر ابو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ٢ / ٢٠٣؛ [رقم المثل ١٥٣٩] الميداني، مجمع الأمثال، ١ / ٢٣٣، [رقم المثل ١٢٥٠].

(٤) شرح نهج البلاغة، ٢ / ١٦٣.

المعاهدة فينتزع أحجالها وقلادتها فخطب الإمام عليه السلام بالقوم قائلاً:

«فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسْفَأَ مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي
جَدِيرًا»^(١).

ثم أخذ يذم أصحابه على تخاذلهم ورفضهم القتال في الشتاء والصيف بحجج واهية حتى قال عليه السلام:

«لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ لِلَّهِ أَبُوهُمْ
وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاسًا وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَامًا مِنِّي لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ
الْعِشْرِينَ وَهَا أَنَا ذَا قَدْ ذُرْفْتُ عَلَى السِّتِّينَ وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ»^(٢).

ولا رأي لمن لا يطاع مثلاً يضرب للرجل يستشار، فإذا أشار لم يقبل منه، وذكر الميداني أنه من أمثال الإمام علي (عليه السلام)^(٣)، فيما ذهب آخرون أن أول من قاله عتبة بن ربيعة حين أجمعت قريش المسير إلى بدر، وهو مأخوذ من قول الشاعر:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى ولا أمر للمعصي إلا مضياً

وتمثل به الإمام علي عليه السلام^(٤). واستمر المثل العربي يتغلغل في خطب الإمام عليه السلام، ففي خطبة له يحث أصحابه على الجهاد ويعاتبهم فيها قال عليه السلام:

«أَحْكُمُ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبُغْيِ فَمَا آتَى عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِي

(١) شرح نهج البلاغة، ٦١/٢، [خطبة ٢٧].

(٢) شرح نهج البلاغة، ٦٢/٢، [خطبة ٢٧].

(٣) مجمع الأمثال، ٢٤٠/٢، لرقم المثل ٣٦٦٢.

(٤) ابوهلال العسكري، جمهرة الامثال، ٤٠٨/٢، [رقم المثل ١٩٢٠].

سَبَا تَرْجِعُونَ إِلَىٰ مَجَالِسِكُمْ وَتَتَّخِذُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ»^(١).

وذكر ابن أبي الحديد وأيادي سبأ مثل يضرب للمتفرقين وأصله قوله تعالى عن أهل سبيا وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ^(٢) ، وسبأ هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ويقال ذهبوا أيدي سبأ وأيادي سبأ، وهكذا نقل المثل أي ذهبوا متفرقين وهما أسمان جعلاً واحداً مثل معد يكرب^(٣). وذكر أنه كان له عشرة أولاد جعل منهم ستة يميناً له وأربعة شمالاً تشبهاً لهم باليدين ثم تفرق أولئك الأولاد أشد التفرق^(٤).

وجاء إلى الإمام عليه السلام رجلٌ وقال له إن بني فلان ضربوا بني فلانة بالكناسة فقال عليه السلام:

«صدقني سنٌ بكره»^(٥).

وقال ابن أبي الحديد (هذا مثل تضربه العرب للرجل يأتي بالخبر على وجهه ويصدق فيه ويقال إن أصله أن الرجل ربما باع بغيره فيسأل المشتري عن سنه فيكذبه فعرض رجل بكره له فصدق في سنه فقال الآخر صدقني سن بكره فصار مثلاً)^(٦).

وقيل إن رجلاً ساوَم رجلاً في بكرٍ أراد شراؤه، فقال: ما سنّه؟ فأخبره بالحق ثم قال

(١) شرح نهج البلاغة، ٥٧/٧، [خطبة ٩٦].

(٢) يقصد سورة سبأ: الآية ١٩ قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَخَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٥٧/٧.

(٤) ينظر المثل عند الميداني، مجمع الأمثال، ٢٧٥/١، لرقم المثل [١٤٥٤]؛ الصالح، صبحي، شرح نهج البلاغة، ٤ط، دار أنوار الهدى، (قم ١٤٣١)، ص ١٧٧؛ أبو علي، محمد توفيق، الأمثال العربية والعصر الجاهلي دراسة

تحليلية، دار النفائس، (بيروت ١٩٨٨)، ص ١٨٧

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٠٢/١٩.

(٦) شرح نهج البلاغة، ١٠٢/١٩.

له: هِدَعٌ هِدَعٌ، وهذه لفظة يُسَكَّنُ بها الصَّغار من الإبل، فلما سمع المشتري هذه الكلمة قال: (صدقني سنَّ بكره)^(١).

وكان الإمام عليه السلام كثيراً ما يورد الأمثال العربية في أحكامه ويستعملها كأداة لحل الكثير من القضايا وقد استخدم مثلين متقاربين عند كشفه جريمة قتل أحد الاشخاص هما (أوردها سعد وسعد مشتمل) و(أهون السقي التشريع)، وذكر ابن أبي الحديد أنَّ رجلاً سافر مع أصحاب له فلم يرجع حين رجعوا، فاتهم أهله أصحابه ورفعوهم إلى شريح فسألهم البينة على قتله، ولم يعطهم حقهم، فارتفعوا إلى الإمام علي عليه السلام فأخبروه بقول شريح فقال: أوردها سعد وسعد مشتمل يا سعد لا تروى بهذاك الإبل، ثم قال إن أهون السقي التشريع ثم فرق بينهم وسألهم فاختلفوا ثم أقروا بقتله فقتلهم به^(٢).

وعلق ابن أبي الحديد قائلاً (هذا مثل أصله أن رجلاً أورد إبله ماء لا تصل إليه الإبل إلا بالاستقاء، ثم اشتمل ونام وتركها لم يستسق لها، والكلمة الثانية مثل أيضاً يقول إن أيسر ما كان ينبغي أن يفعل بالإبل أن يمكنها من الشريعة ويعرض عليها الماء، يقول أقل ما كان يجب على شريح أن يستقضي في المسألة والبحث عن خبر الرجل ولا يقتصر على طلب البينة)^(٣).

وهذا المثل يضرب للذي ينال حاجته من غير عناء والمثل لمالك بن زيد مناة بن تميم،

(١) الاصمعي، كتاب الامثال، ص ١٥٨، [رقم المثل ٣٤٩]؛ ابن رفاعة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٧١؛ ابو هلال العسكري، جمهرة الامثال، ١ / ٥٥٧، [رقم المثل ١٠٧٦]؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١ / ٤٠؛ الميداني، مجمع الامثال، ١ / ٣٩٢، [رقم المثل ٢٠٨٣].

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٩ / ١٠٢ - ١٠٣.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩ / ١٠٣.

رأى أخاه سعداً أورد إبله، ولم يحسن القيام عليها، فقال ذلك^(١).

ومثله قولهم: أهون السقي التشريع، أهون ههنا: من الهون والهونين بمعنى السهولة والتشريع: أن تُوردَ الإبل ماء لا يحتاج إلى صعوبة بل تشريع الإبل شروعاً يضرب لمن يأخذ الأمر بالهونين ولا يستقصى^(٢).

ومن الأمثال التي أوردتها الإمام عليه السلام والتي عرفها مجتمع العرب قبل الإسلام (لا أكون كالضبع تسمع اللدم حتى تصاد)، وقد ذكرها الإمام عليه السلام من كلام له لما أشير عليه بأن لا يتبع طلحة والزبير اللذين نكثا البيعة وحرصا عليه أهل البصرة ولا يرصد لهما القتال ومنه يبين عن صفته بأن لا يحدع فقال عليه السلام:

«وَاللَّهِ لَا أَكُونُ كَالضَّبْعِ تَنَامُ عَلَى طُولِ اللَّدْمِ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا وَيَخْتَلِهَا رَاصِدُهَا وَلَكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرِ عَنْهُ وَإِلِلسَامِعِ الْمُطِيعِ الْعَاصِيِ الْمُرِيبِ أَبْدًا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي»^(٣).

قال ابن أبي الحديد (اللدن صوت الحجر أو الشيء يقع على الأرض وليس بالصوت الشديد يقال منه لدم أدم بالكسر، وإنما قيل ذلك للضبع لأنهم إذا أرادوا أن يصيدوها رموا في جحرها بججر خفيف أو ضربوا بأيديهم فتحسبه شيئاً تصيده فتخرج لتأخذه فتصاد وزعموا أنها من أحرق الدواب بلغ من حمقها أن يدخل عليها فيقال أم عامر نائمة أو ليست هذه والضبع هذه أم عامر فتسكت حتى تؤخذ، فأراد علي عليه السلام

(١) الأصمعي، كتاب الأمثال، ص ٨٢، لرقم المثل ١٥٤؛ ابن رفاعة الكاتب، كتاب الأمثال، ص ١٨؛ أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ١/٩٣، لرقم المثل ١٧٩؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ١/٣٤٧؛ الميداني، مجمع الأمثال، ٢/٤٠٦، لرقم المثل ٤٦٢٠.

(٢) الأصمعي، كتاب الأمثال، ص ٨١، لرقم المثل ١٥١؛ ابن رفاعة الكاتب، كتاب الأمثال، ص ٢٩؛ الميداني، مجمع الأمثال، ٢/٤٠٦، لرقم المثل ٤٦٢٠.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١/٢١٢، [خطبة ٦].

أني لا أخدع كما تخدع الضبع بالدم)^(١). قال الشنفرى:

لا تقبرونى إن قبري مُحَرَّمٌ
إذا ما مضى رأسى وفي الرأس أكثرى
هنا لك لا أرجو حياةً تُسرُنْى
عليكم ولكن خامري أم عامرٍ
وغودرٍ عند الملتقى ثم سائري
سجيس الليالي ميسلاً بالجرائرِ

أوصاهم ألا يدفنوه إذا قتل، وقال اجعلوني أكلاً للسباع كالشيء الذي يرغب به الضبع في الخروج وتقدير الكلام لا تقبروني ولكن اجعلوني كالتى يقال لها خامري أم عامر وهي الضبع فإنها لا تقبر ويمكن أن يقال أيضاً أراد لا تقبروني واجعلوني فريسة للتي يقال لها خامري أم عامر لأنها تأكل الجيف وأشلاء القتلى والموتى^(٢).

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية وهو من محاسن الكتب كما يقول الشريف الرضى:

«أما بعدُ فقد أتاني كتابك تذكرُ فيه اصطفاءَ الله مُحَمَّدًا (ص) لدينه وتأييده إياه لمن أيدَهُ من أصحابه، فلقد خبأ لنا الدهرُ منك عجباً إذ طفتُ تُخبرُنا ببلاءِ الله تعالى عندنا ونعمته علينا في نبيِّنا فكانت في ذلك كناقِلِ التمرِ إلى هجرٍ أو داعيِ مُسدِّده إلى النضالِ، وزعمت أن أفضلَ الناسِ في الإسلامِ فلانٌ وفلانٌ فدكرتُ أمراً إن تمَّ اعتزلكَ كلُّه وإن نقصَ لم يَلْحَقْ ثلمُهُ وما أنتَ والفاضلِ والمفضولِ والسائسِ والمسوسِ وما للطلقاءِ وأبناءِ الطلقاءِ والتَّمييزِ بينَ المهاجرينِ الأولينِ وترتيبِ درجاتِهِم وتعرِيفِ طبقاتِهِم

(١) شرح نهج البلاغة، ٩٩/١٩.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢١٣/١؛ ينظر المثل عند ابن رفاعة الكاتب، كتاب الأمثال، ص ٧؛ ابو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ٩٣/١، [رقم المثل ١٩١١]؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال،

١٨٧/١؛ الميداني، مجمع الأمثال، ١٠/٢، لرقم المثل ٣٦٧١.

هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا وَطْفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا»^(١).

أورد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا الكتاب ثلاثة أمثال عربية متداولة، الأول (كناقل التمر إلى هجر) وذكر ابن أبي الحديد^(٢) أن أصل المثل كمستبضع تمر إلى هجر وهي بلدة كثيرة النخل يحمل منها التمر إلى غيرها، وذكر الميداني^(٣) أنه من الأمثال القديمة وأن هَجَرَ معدنُ التمر والمستبضع إليه مَخْطَى ويقال أيضاً: كمستبضع التمر إلى خيبر قال النابغة الجعدي:

وإنَّ امرأً أهْدَى إِلَيْكَ قَصَيْدَةً كَمُسْتَبْضِعِ تَمْرًا إِلَى أَرْضِ خَيْبَرٍ^(٤)

والمثل الثاني قوله (وداعي مسدده إلى النضال) وذكر ابن أبي الحديد (قوله وداعي مسدده إلى النضال أي معلمه الرمي وهذا إشارة إلى قول القائل الأول:

أَعْلَمُهُ الرَّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا إِشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

هكذا الرواية الصحيحة بالسین المهملة أي استقام ساعده على الرمي، وسددت فلانا علمته النضال، وسهم سديد مصيب، ورمح سديد أي قل أن تخطئ طعنته)^(٥).

والمثل يضرب لمن يسيء إليك وقد أحسنت إليه، وفي كتب الأمثال أن هذا البيت لمالك بن فهم بن غنم بن دوس الأزدي، وكان ابنه سليمة بن مالك رماه بسيف فقتله،

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣٧/١٥، كتب ورسائل [٢٨].

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٤٢/١٦.

(٣) مجمع الأمثال، ١٥٢/٢، لرقم المثل ٣٠٨٠.

(٤) قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة (ت ٥٠ هـ تقريباً)، الديوان، تحقيق واضح الصمد، دار صادر، بيروت (١٩٩٨)، ص ٨٩.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٤٢/١٥.

فقال أبوه مالك هذا البيت لما رماه، وقد استخدم هذا البيت في أبيات أخرى للتعبير عن حالات معينة منها قول الشاعر:

فِيَا عَجَبًا لِمَنْ رِيَّتْ طِفْلًا أَلْقَمُهُ بِأَطْرَافِ الْبَنَّانِ
أَعْلَمُهُ الرَّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اسْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَّانِي
وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ الْقَوَافِي فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَّانِي^(١)

أما المثل الثالث (قد حن قدح ليس فيه)، فقد علق عليه ابن أبي الحديد بالقول: (هذا مثل يضرب لمن يدخل نفسه بين قوم ليس له أن يدخل بينهم، وأصله القدح من عود واحد يجعل فيها قدح من غير ذلك الخشب فيصوت بينها إذا أرادها المفيض فذلك الصوت هو حنينه)^(٢).

ولمن يعين صاحبه على أمر له فيه نصيب استخدم الإمام عليه السلام مثلاً آخر عندما أراد عمر بن الخطاب إجباره على مبايعة أبي بكر بعد حادثة السقيفة فقال له (عليه السلام): (إحلب يا عمر حلبا لك شطره أشدد له اليوم أمره ليبرد عليك غدا، ألا والله لا أقبل قولك ولا أبايعه)^(٣).

وعندما عاتب الإمام عليه السلام عثمان بن عفان على سوء إدارته للدولة ضمَّنَ في

(١) البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ٢٠/١؛ الميداني، مجمع الامثال، ٢٠٠/٢، لرقم المثل ٣٤١٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٤٢/١٦؛ ينظر المثل عند الاصمعي، كتاب الامثال، ص ١٢١، لرقم المثل ٢٥٢؛ ابن رفاعة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٥٦؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١/٤٠١؛ الميداني، مجمع الامثال، ١٩١/١، لرقم المثل ١٠١٨.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١١/٦؛ ينظر المثل عند الاصمعي، كتاب الامثال، ص ٣٠، لرقم المثل ١١٨؛ ابن رفاعة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٥٧؛ العسكري، جمهرة الامثال، ١/٧٤، لرقم المثل ٥٦؛ الميداني، مجمع الامثال، ١٩٥/١، لرقم المثل ١٠٢٩.

كلامه مثلاً استخدمه العرب لمن ولى عمره، ولم يبق منه الا القليل فقال عليه السلام:

«فارجع إلى الله أبا عمرو وأنظر هل بقي من عمرك إلا كظمء الحمار فحتى متى وإلى متى ألا تنهى سفهاء بني أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم والله لو ظلم عاملٌ من عمالك حيثُ تغربُ الشمسُ لكانَ إثمُهُ مشتركاً بينه وبينك»^(١).

وفي كتب الأمثال أقصر الأظماء ظمء الحمار، لأنه يرد في كل يوم مرة، لقلته صبره عن الماء والأظماء: هي الأيام التي تظماً فيها الإبل، أي تعطش ولا ترد الماء^(٢).

ومن كلامه عليه السلام وقد وقعت بينه وبين عثمان مشاجرة فقال المغيرة بن الأخنس^(٣) لعثمان أنا أكفيكه فقال أمير المؤمنين عليه السلام للمغيرة:

«يَا ابْنَ اللَّعِينِ الْآبَتِرِ وَالشَّجَرَةَ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا فَرْعَ أَنْتَ تَكْفِينِي، فَوَاللَّهِ مَا أَعَزَّ اللَّهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ وَلَا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهَضُهُ أُخْرِجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللَّهِ نَوَاكٍ ثُمَّ أُبْلِغْ جَهْدَكَ فَلَا أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ»^(٤).

وعلق ابن أبي الحديد (ويروى أبعد الله نوعك من أنواع النجوم التي كانت العرب تنسب المطر إليها وكانوا إذا دعوا على إنسان قالوا أبعد الله نوعك أي خيرك)^(٥)، وفي مجمع الأمثال للميداني النَّوْءُ: النجم يطلُّع أو يسقط فيمطر يقال: مُطِرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا

(١) شرح نهج البلاغة، ١١/٩.

(٢) البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١/١٧٨؛ العسكري، جمهرة الامثال، ٢/٢٩، لرقم المثل [١١٦٧]؛ الميداني، مجمع الامثال، ٢/٢٦٨، لرقم المثل [٣٧٩١].

(٣) ينظر ترجمته في ص ١٥٥ من الرسالة عند الحديث عن نسب ثقيف.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٨/٢٣١، [خطبة ١٣٥].

(٥) شرح نهج البلاغة، ٨/٢٣١.

ويضرب لمن طلب حاجةً فلم يقدر عليها^(١).

كان الإمام عليه السلام يدرج الأمثال في كلامه لتكون أكثر واقعية، فغالباً ما يعوض الكلام القصير عن الشرح الطويل، فنقل لنا ابن أبي الحديد أن ابن عباس قال: بعد أن أغلظ الإمام عليه السلام لعثمان بعد عتابه له نظر إلي نظر هيبية وقال (دعه حتى يبلغ رضاه فيما هو فيه، فوالله لو ظهرت له قلوبنا وبدت له سرائرنا حتى رآها بعينه كما يسمع الخبر عنها بأذنه ما زال متجرماً منتقماً والله ما أنا ملقى على وضمة وإني لمانع ما وراء ظهري)^(٢)، والمثل المشهور هو (أضيع من لحم على وضمة)^(٣)^(٤).

ومن الأمثال العربية القديمة المشهورة التي وظّفها الإمام عليه السلام (ما بل بحر صوفة)^(٥) وذلك أثناء كلامه مع عثمان، إذ قال له عثمان:

(والله ما أدري أحياتك أحبُّ إلي أم موتك؟ إن متَّ هاضني فقدك وإن حييت فتتني حياتك، لا أعدم ما بقيت طاعنا يتخذك رديئةً يلجأ إليها).

فقال الإمام علي عليه السلام:

«ما الذي جعلني رديئةً للطاعنين العائبين إنما سوء ظنك بي، أحلني من قبلك هذا المحل فإن كنت تخافُ جانبي فلك علي عهدُ الله وميثاقه أن لا بأس عليك مني ما بلُّ بحرٌ

(١) ٢٤٧/١، لرقم المثل ١١٣٢٢.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٨/٩.

(٣) الوضْمُ: كلُّ شيء يجعل عليه اللحم من خشبٍ أو بارية، يوقى به من الأرض. وقال الراجز: ليس براعي إبلٍ ولا غنمٌ ولا يجزارٍ على ظهر الوضْمِ، ينظر الجوهري، الصحاح، ص ١٢٢٤، [مادة وضم].

(٤) العسكري، جمهرة الامثال، ٣/٢؛ الميداني، مجمع الامثال، ١٩/١، لرقم المثل ٤٤٢.

(٥) الميداني، مجمع الامثال، ١١/٢، لرقم المثل ٢٩٢٥؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ٢/٢٤٧، لرقم

المثل ١٨٤٥.

صوفة وإني لك لرأع وإني عنك لمحام»^(١).

ومن الأمثلة الشائعة التي وظفها الإمام عليه السلام في خطبه (آخر الدواء الكي) فذكر في أحد خطبه عندما أراد طلحة والزبير المسير إلى البصرة :

«فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النَّاسُ وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً فَاهْدِءُوا عَنِّي وَأَنْظَرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي وَلَا تَفْعَلُوا فَعَلَةً تُضْعَعُ قُوَّةً وَتُسْقَطُ مَنَّةً وَتُورِثُ وَهْنًا وَذِلَّةً وَسَأْمُسِكُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدْأً فَأَخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ»^(٢).

وعلق ابن أبي الحديد عليه بقوله (وآخر الدواء الكي مثل مشهور، ويقال آخر الطب، ويغلط فيه العامة فتقول آخر الداء، والكي ليس من الداء ليكون آخره)^(٣)، وقيل إن قائله لقمان بن عاد في قصته مع رجل كانت امرأته تغازل غيره فقال: أفلا أعاجلها بكية توردها المنية فقال: لقمان: آخر الدواء الكي، فأرسلها مثلا يضرب مثلا لما يصلح بالشدة ولا ينجح فيه اللين^(٤).

كان الإمام عليه السلام يتمثل بالحكم والأمثال القديمة ويعيد صياغتها نصوصاً بليغة تحمل معاني سامية جميلة ومعبرة، ففي أحد خطبه يقول :

«وَأَيْمُ اللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَدَائِيرِهَا وَاسْتَوْسَقَتْ فِي قِيَادِهَا مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبَنْتُ وَلَا خُنْتُ وَلَا وَهَنْتُ وَأَيْمُ اللَّهِ لَأُبْقِرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ

(١) شرح نهج البلاغة، ١٩/٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢٢٢/٩، [خطبة ١٦٩].

(٣) شرح نهج البلاغة، ٢٢٣/٩.

(٤) العسكري، جمهرة الأمثال، ٨٧/١، لرقم المثل ٨٤؛ الميداني، مجمع الامثال، ٢٩٢/١، لرقم المثل ١٥٤٦؛

الزنجشيري، المستقصى من امثال العرب، ٣/١، لرقم المثل ٤.

خَاصِرَتِهِ^(١).

وعَلَّقَ ابن أبي الحديد^(٢) (كأنه جعل الباطل كالشيء المشتمل على الحق غالباً عليه ومحيطاً به فإذا بقر ظهر الحق الكامن فيه) وفي كتب الامثال يُخْرِجُ الحقَّ مِنْ خَاصِرَةِ البَاطِلِ^(٣).

وفي كتاب له عليه السلام إلى معاوية يحذره من الوقوع في الوهم والمطالبة بالخلافة التي يراها الإمام عليه السلام بعيدة عنه فيضرب لهذا البعد مثلاً بقوله:

«تَقْصُرُ دُونَهَا الْأَنْوَقُ وَيُحَادِي بِهَا الْعَيُوقُ»^(٤).

وفي هذا المثل الجميل جمع الإمام بين مثلين الاول المثل الشائع (أبعد من بيض الأنوق)، فقد ذكر ابن أبي الحديد أنَّ الأنوق طائر وهو الرخمة وفي المثل أعز من بيض الأنوق لأنها تحزره ولا يكاد أحد يظفر به وذلك لأن أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة البعيدة. قال الشاعر:

وَكُنْتُ إِذَا اسْتُوْدِعْتُ سَراً كَتَمْتُهُ
كَبِيضِ أَنْوَقٍ لَا يُنَالُ لَهَا وَكْرُ^(٥)

والمثل الثاني (أبعد من العيوق)، وذكر ابن أبي الحديد (العيوق كوكب معروف فوق زحل في العلو وهذه أمثال ضربها في بعد معاوية عن الخلافة)^(٦) وفي كتب الأمثال هو

(١) شرح نهج البلاغة، ٩٠/٧، [خطبة ١٠٣].

(٢) شرح نهج البلاغة، ٩٢/٧.

(٣) الميداني، مجمع الامثال، ٤٢٩/٢.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٦/١٨، كتب ورسائل [٦٥].

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٩/١٨؛ ينظر المثل عند العسكري، جمهرة الامثال، ١ / ٢٣٨، [رقم المثل ٣٠٧]؛ الميداني،

مجمع الامثال، ١ / ٥٧٨، [رقم المثل ٥٧٥]؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ١ / ٢٤، [رقم المثل ٦٨].

(٦) شرح نهج البلاغة، ١٩/١٨.

كوكب يطلع مع الثريا فيقال له عيوق الثريا وتعرف به القبلة، وذلك أنك إذا جعلته خلف ظهرك في وقت طلوعه فقد استقبلت قبلة العراق يراد بعده من مجرى القمر، وتزعم العرب أن القمر رام المسير عليه فعاقه عن ذلك فسمى العيوق^(١).

ومن أمثال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام التي استخلصها من الأمثال العربية قوله :

«لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ»^(٢).

وقال ابن أبي الحديد (قوله فرما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده من هذا النحو قولهم في المثل مع الخواطئ سهم صائب وقولهم رمية من غير رام)^(٣)، والمثل (الْخَوَاطِئِ سَهْمٌ صَائِبٌ) مثل يضرب للذي يخطئ مراراً يصيب مرة^(٤) ومثل العامة في هذا (رَبَّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ) أي : رَبَّ رَمِيَةٍ مَصِيْبَةٍ حَصَلَتْ مِنْ رَامٍ مَخْطِئٍ لَا أَنْ تَكُونَ رَمِيَةً مِنْ غَيْرِ رَامٍ فَإِنْ هَذَا لَا يَكُونُ قَطُّ ، وأول من قال ذلك الْحَكَمُ بْنُ عَبْدِ يَعُوثَ المنقري وكان أرمى الناس وذلك أنه نذر ليذبحن مهاة فرام صيدها أياما فلم يمكنه، وكان يرجع مخفقا حتى هم بقتل نفسه مكانها، فقال له ابنه مطعم احملني أرفدك، فقال ما أحمل من رعش وهل جبان فشل، فما زال به حتى حمله فرمى الحكم مهاتين

(١) العسكري، جمهرة الامثال، ١/ ٢٣٨، لرقم المثل ٣٠٦؛ الميداني، مجمع الامثال، ١/ ٥٧٨، لرقم المثل ٥٧٥؛

الزنجشيري، المستقصى من امثال العرب، ١/ ٢٤، لرقم المثل ٦٥.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦/ ٨٨، كتب ورسائل [٣١].

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٦/ ٩٣.

(٤) البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١/ ٤٤؛ العسكري، جمهرة الامثال، ٢/ ٢٦٩، لرقم المثل

[١٦٦٤]؛ الميداني، مجمع الامثال، ٢/ ٢٨٠، لرقم المثل ٣٨٥٧؛ الزنجشيري، المستقصى من امثال العرب، ٢/

٢٤، لرقم المثل ١٢٦٣.

فأخطأهما فلما عرضت الثالثة رماها مطعم فأصابها فعندها قال أبوه: رُبَّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ، وانشد محمد بن حبيب:

رمتني يَوْمَ ذَاتِ الغمرِ سَلْمَى بِسَهْمٍ مُطْعِمٍ لِلصَّيْدِ لِأُمِّ
فَقُلْتُ لَهَا أَصَبْتَ حَصَاةَ قَلْبِي وَرَبَّةَ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ^(١)

وذكر ابن أبي الحديد أنه روى بكر بن عيسى عن عاصم بن كليب الجرمي عن أبيه قال: شهدت عليا عليه السلام وقد جاءه مال من الجبل فقام وقمنا معه وجاء الناس يزدهمون فأخذ حبالا فوصلها بيده وعقد بعضها إلى بعض ثم أدارها حول المال وقال: لا أحل لأحد أن يجاوز هذا الحبل، ثم وزع المال على رؤوس الأسباع وكانت الكوفة يومئذ أسباعاً حتى استوت القسمة سبعة أجزاء ووجد مع المتاع رغيف فقال اكسروه سبع كسر وضعوا على كل جزء كسرة ثم قال:

هذا جنايَ وخيارُهُ فِيهِ إِذْ كُلُّ جَانٍ يَدُهُ إِلَى فِيهِ^(٢)

ويضرب هذا المثل لتك الاستثثار، قال ابن أبي الحديد (أصل المثل لعمر بن عدي ابن أخت جذيمة الأبرش كان يجني الكمأة مع أتراب له، فكان أترابه يأكلون ما يجدون وكان عمرو يأتي به خاله ويقول هذا القول)^(٣).

(١) العسكري، جمهرة الامثال، ١ / ٤٩١، لرقم المثل [٨٧٩]؛ الميداني، مجمع الامثال، ١ / ٢٩٩، لرقم المثل [١٥٨١]؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ٢ / ١٠٥، لرقم المثل [٣٧٩]، اليوسي، الحسن (ت ١١٠٢ هـ)، زهر الأكم في الامثال والحكم، تحقيق محمد حجي، ومحمد الاخضر، دار الثقافة، (الدار البيضاء ١٩٨١)، ٣ / ٣٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢ / ١٥٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٩ / ١٠٥؛ ينظر المثل عند العسكري، جمهرة الامثال، ٢ / ٣٦٠، لرقم المثل [١٨٣١]؛ الميداني، مجمع الامثال، ٢ / ٩٦٧، لرقم المثل [٤٥٦٧]؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ٢ / ٣٨٦، لرقم المثل [١٤١٩].

وقيل للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام صف لنا العاقل ، فقال عليه السلام :

«هُوَ الَّذِي يَضَعُ الشَّيْءَ مَوَاضِعَهُ».

ف قيل صف لنا الجاهل ، قال عليه السلام :

«قَدْ قُلْتُ فَعَلْتُ»^(١).

قال الشريف الرضي : (يعني أن الجاهل هو الذي لا يضع الشيء مواضعه ، فكأن ترك صفته صفة له إذ كان بخلاف وصف العاقل)^(٢) ، وعلق ابن أبي الحديد عليه بقوله هذا مثل الكلام الذي تنسبه العرب إلى الضب ، قالوا اختصمت الضبع والثعلب إلى الضب ، فقالت الضبع يا أبا الحسل^(٣) إني التقطت تمرة ، قال طيبا جنيت ، قالت وإن هذا أخذها مني ، قال حظ نفسه أحرز ، قالت فإني لطمته ، قال كريم حمى حقيقته ، قالت فلطمني ، قال حر انتصر ، قالت اقض بيننا ، قال قد فعلت^(٤).

ولعل هذا من الأمثال التي تنقل على لسان الطيور والحيوانات بصورة الرمز ويكون كناية عن معانٍ دقيقة ولكنها غير واقعية وقد استخدمها العرب في أقوالهم وحكاياتهم ، ومنها هذا المثل المعروف في كتب الأمثال (في بيته يؤتى الحكم)^(٥).

وقال عليه السلام :

(١) شرح نهج البلاغة ، ٦٠/١٩ ، حكم وامثال [٢٣٢].

(٢) ابو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد (ت ٤٠٤ هـ) ، تجميع خطب ورسائل وأقوال الإمام علي عليه السلام المسمى نهج البلاغة ، شرح محمد عبده ، منشورات الفجر ، (بيروت ٢٠١٠) ص ٤٦٧ .

(٣) الحسل : ولد الضب .

(٤) شرح نهج البلاغة ، ٦٠/١٩ .

(٥) العسكري ، جمهرة الامثال ، ١٠١/٢ ، [رقم المثل ١٣٢٩]؛ الميداني ، مجمع الامثال ، ٧٢/٢ ، [رقم المثل ٢٧٤٢]؛ الزمخشري ، المستقصى من امثال العرب ، ٦١/٢ ، [رقم المثل ٢٢٤] ، الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ٤٢/١ .

«الْعَيْنُ وَكَاءُ السَّتِّهِ»^(١)

قال الشريف الرضي، (وهذه من الاستعارات العجيبة كأنه شبه الستة بالوعاء والعين بالوكاء فإذا أطلق الوكاء لم ينضب الوعاء)^(٢). وعلق ابن أبي الحديد: وهذه من الكنايات اللطيفة وفي بعض الروايات إذا نامت العينان استطلق الوكاء، الوكاء رباط القربة فجعل العينين وكاء، والمراد اليقظة لسته كالوكاء للقربة^(٣)، وذكر محمد عبده في شرحه لنهج البلاغة تفسيراً جميلاً لكلام الإمام عليه السلام فقال: (السَّتُّ، بفتح السين وتخفيف الهاء: العجز ومؤخر الإنسان، والعين الباصرة. وإنما جعل العجز وعاء لأن الشخص إذا حفظ من خلفه لم يصب من أمامه في الأغلب، فكأنه وعاء الحياة والسلامة إذا حفظ حفظاً. والباصرة وكاء ذلك الوعاء أي رباطه لأنها تلحظ ما عساه يصل إليه فتنبه العزيمة لدفعه والتوقّي منه، فإذا أهمل الإنسان النظر إلى مؤخرات أحواله أدركه العطب. والكلام تمثيل لفائدة العين في حفظ الشخص مما قد يعرض عليه من خلفه، وأنها لا تختلف عن فائدتها في حفظه مما يستقبله من أمامه، وإرشاد إلى وجوب التبصر في مظنات الغفلة)^(٤)، وذكر أحد المؤرخين المعاصرين تفسيراً فقهياً لكلام الإمام عليه السلام فقال: (لا شك أن هناك معنى عميقاً، ذلك هو أن النوم ينقض الوضوء، لأن العين إذا نعست، ضعف حكم الأست وإسدادها، فيخرج منها الريح، فينتقض الوضوء)^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة، ١٥٧/٢٠، حكم وامثال [٤٧٥].

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٥٧/٢٠.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥٧/٢٠.

(٤) الشريف الرضي، تجميع خطب ورسائل واقوال الامام علي عليه السلام المسمى نهج البلاغة، شرح محمد عبده،

هامش المحقق، ص ٥٠٥.

(٥) السعداوي، عبد الكريم حسين، غريب نهج البلاغة، منشورات فرصاد، الرسائل الجامعية، (طهران ٢٠٠٦)، ص ٣٩٩.

وهكذا نرى أنّ المفردة التي يستخدمها الإمام عليه السلام يمكن أن يضعها كل مستمع حسب فهمه في مكانها الملائم عنده، ولا تبقى عالقة في مكان واحد ممل وتلك صورة من بلاغة الإمام عليه السلام، وذكر في كتب الأمثال (احْفَظْ ما في الوِعَاءِ بِشِدَّةِ الوِكَاةِ) وهو من أمثال العرب في الإحتياط يضرب في الحث على أخذ الأمر بالحزم^(١).

وهناك الكثير من الأمثال التي تضمنها كلام الإمام عليه السلام في خطبه والتي صنفت على شكل أمثال وحكم تناقلتها أقلام المؤرخين بما لم يسع ابن أبي الحديد أن يحتويه، فتناثر في صفحات الكتب والمصنفات المختلفة^(٢).

ثانياً: الأمثال التي ذكرها ابن أبي الحديد:

ذكر ابن أبي الحديد العديد من الأمثال التي تخص حياة العرب وسنذكر ما يخص حياتهم قبل الإسلام والتي ذكر قسماً منها تعليقاً وإضافة على ما تناوله الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من أمثال في خطبه، وقسم منها ذكرها للضرورة التي تستوجب الاستشهاد بالأمثال لتثبيت حادثة معينة.

فمن امثالهم التي ضربها ابن أبي الحديد عند بلوغ الشدة منتهاها (أبعد أن مسَّ الحزام الطيبين)^(٣)، الطَّبِيُّ للحافر والسباع كالضَّرْع لغيرها، يضرب مثلاً للأمر يبلغ غايته في الشدة والصعوبة، وأصل ذلك أن يريد الفارس النجاة من طلب من يتبعه فيبلغ من

(١) العسكري، جمهرة الامثال، ٤٧/٢، لرقم المثل [١١٩٨]؛ الميداني، مجمع الامثال، ٢٠٧/١، لرقم المثل [١٠٩٥]؛

الزنجشيري، المستقصى من امثال العرب / ٦٨/١، لرقم المثل [٤٢٣].

(٢) للتفصيل حول امثال الامام (عليه السلام)، ينظر الشاوي، عبد الهادي عبد الرحمن علي، المثل في نهج البلاغة

دراسة تحليلية فنية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠٠٧.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١١٩/٢.

مخافته أن يضطرب حزام دابته حتى يبلغ طبييها ولا يمكنه أن ينزل فيشده^(١).

و(وجاوز السيل الزبي)^(٢)، يضرب مثلاً للأمر يبلغ غايته في الشدة والصعوبة. والزبية: حفيرة تحفر في الأرض، وتغطي، ويجعل عليها طعم وهي بعيدة القعر. إذا وقع فيها شيء لم يستطع الخروج منها لبعدها قعرها، فيراها السبع من بعيد، فيأتيها، فإذا استوى عليها انقض غطاؤها، فيهوي فيها، وأصلها الرايبة لا يعلوها الماء فإذا بلغها السيل كان جارفاً مُجْحَفاً، يضرب لما جاوز الحد^(٣).

و(أمر لا ينادي وليده)^(٤)، معناه أنه أمرٌ عظيم لا يدعى فيه الصغار، وإنما يدعى فيه الكبار. وأصله في الشدة والجدب يصيب القوم حتى يذهل الأم عن ولدها فلا تناديه، ثم جعل مثلاً لكل شدةٍ وأمرٍ عظيم^(٥).

و(غَمَرَاتٌ تُمَّ يَنْجَلِينَ)^(٦)، الغمرات: الشدائد، يضرب في احتمال الأمور العظام والصبر عليها يقول: إصبر في الشدائد فإنها ستنجلي وتذهب، ويبقى حسن أثرك في الصبر عليها، ويُقال: إن المثل للأغلب العجلى من قوله:

(١) الاصمعي، كتاب الامثال، ص ١٩٣، لرقم المثل ٤٣٦؛ ابن رفاة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٤٧؛ العسكري،

جمهرة الامثال، ١/٢٢٠، لرقم المثل ٢٧٥؛ الميداني، مجمع الامثال، ١/١٦٦، لرقم المثل ٨٧١.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢/١١٧.

(٣) ابن رفاة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٤٧؛ العسكري، جمهرة الامثال، ١/٢٢٠، لرقم المثل ٢٧٤؛ الميداني،

مجمع الامثال، ١/٩١، لرقم المثل ٤٣٦.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠/١٧٧.

(٥) الاصمعي، كتاب الامثال، ص ٦١، لرقم المثل ١٠٣؛ ابن رفاة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٣٧؛ العسكري،

جمهرة الامثال، ٢/٤٠٧، لرقم المثل ١٩١٧؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١/٤٧١؛ الميداني،

مجمع الامثال، ٢/٣٩٠، لرقم المثل ٤٥١٦.

(٦) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥/١٦٣.

والغمراتُ ثم ينجلينا
 ثم يذهبن فلا يجينا
 لو كنَّ صمَّ جندلٍ + يلينا^(١)

ومن الأمثلة التي ذكرها ابن أبي الحديد والمتعلقة بحسن الجوار وحسن إكرامه (جارٌ كَجَارِ أَبِي دُوَادٍ) والتي علق عليها على كلام الإمام عليه السلام:

«اللَّهُ أَلَّهُ فِي جِرَانِكُمْ فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةٌ نَبِيِّكُمْ مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُورِثُهُمْ»^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد: وكانت العرب إذا حمدت جارا قالت (جار كجار أبي دواد)، هو كعب بن مامة الإيادي كان إذا جاوره رجل فمات وداه وإن هلك عليه شاة أو بعير أخلف عليه فجاوره أبو دواد الإيادي فأحسن إليه فضرب به المثل^(٣).

وذكر الضبي قصة مختلفة للمثل اذ يقول جار أبي دواد الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان، وكان أبو دواد في جواره فخرج صبيان الحي يلعبون في غدير فغمسوا بني أبي دواد فمات، فخرج الحارث فقال: لا يبقى في الحي صبي إلا غرقته في الغدير، فودي ابن أبي دواد لذلك عدة ديات^(٤).

ومن الأمثلة التي تضرب لمن يغالط فيما لا يخفي، ومن يكون ذا منظر ولا خير فيه

(١) ابن رفاعة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٧٨؛ العسكري، جمهرة الامثال، ٢ / ٨٠، لرقم المثل ١٢٨٨؛ الميداني، مجمع الامثال، ٢ / ٥٨، لرقم المثل ٢٦٦٨؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ٢ / ١٧٨، لرقم المثل ٦٠٢.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٧ / ١٧، كتب ورسائل [٤٧].

(٣) شرح نهج البلاغة، ٢٠ / ١٦٣؛ ينظر المثل عند الميداني، مجمع الامثال، ١ / ١٦٣، لرقم المثل ٨٤٨.

(٤) امثال العرب، ص ٩١.

ذكر ابن أبي الحديد عدة أمثلة منها (أريها السُّها وتُريني القمر)^(١)، يضرب مثلاً لمن تخاطبه فيبعد في الجواب، فلا يستطيع أن يدرك إلا الأشياء الواضحة كوضح القمر وقيل يضرب لمن اقترح على صاحبه شيئاً فأجابه بخلاف مراده، وأصله أن رجلاً كان يكلم امرأة بالخفي الغامض من الكلام وهي تكلمه بالواضح البين فضرب السهي والقمر مثلاً لكلامه وكلامها^(٢)، وذكر الجوهري في الصحاح (السُّها كوكبٌ خفيٌّ في بنات نعشٍ الكبرى والناس يمتحنون به أبصارهم)^(٣).

وهذا النص يبين لنا أن العرب وحتى البسطاء منهم كانوا على دراية وعلم بالكواكب والنجوم حتى الصغيرة منها والتي لا يمكن أن تراها العين إلا بصعوبة فيمتحنون الناس برؤيتها عن بعد، ومن أمثالهم الأخرى (ترى الفتیان كالنخل، وما يدريك ما الدخل)^(٤).

يضرب مثلاً للرجل له منظر ولا خَيْرَ عنده، والدخل: ما يبطن في الشيء. يقال: شيء مدخول، إذا كان فاسد الجوف. وقيل أولُ من قالت ذلك عَثْمَةُ بنت مطرودِ البُجَيْلِيَّةِ وكانت ذات عقلٍ ورأيٍ مستمعٍ في قومها وكانت لها أخت يقال لها خود وكانت ذات جَمالٍ وميسَمٍ وعَقْلٍ وأن سبعة إخوة من الأزْد خطبوها فقال أبوها: أخبروني عن أفضلكم فوصفتهم ربيبتهم الشعثاء الكاهنة بأوصاف كل منهم فشاورت أختها فهيم فقالت أختها عَثْمَةُ: ترى الفتیان كالنخل وما يدريك ما الدَّخْلُ انكِحِي في

(١) شرح نهج البلاغة، ١٣/٢٢٩.

(٢) العسكري، جمهرة الامثال، ١/١٤٢، [رقم المثل ١٣٣]؛ الميداني، مجمع الامثال، ١/٢٩١، [رقم المثل ١٥٤٥]؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ١/١٤٧، [رقم المثل ٥٧٩].

(٣) ص ٥٤٦، [مادة سها].

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٨/٢.

قومك ولا تغررك الأجسام^(١)، وذكر الجاحظ قول أحدهم:

ترى الفتيانُ كالنخلِ وما يُدريكُ ما الدخْلُ
وليسَ الشأنُ في الوصلِ ولكن يُعرفُ الفضلُ^(٢)

ووردت في أمثال العرب أسماء العديد من الحيوانات التي كانوا يبصرونها في حياتهم اليومية فانسقت في أمثالهم قصصاً معبرة استخدموها للموعظة والتعبير عن الرأي وقد ذكر ابن أبي الحديد قسماً منها في شرحه لنهج البلاغة منها، (أحمق من حمامة) وقال ابن أبي الحديد إنها مع حمقها مهتدية إلى مصالح نفسها وفرادها، سئل شيخ من العرب من علمك هذا؟ قال علمني الذي علم الحمامة على بلهها تقلب بيضها كي تعطي الوجهين جميعاً نصيبهما من الحزن^(٣)، وقيل في كتب الأمثال ومن حمقها أنها تحتضن بيض غيرها وتضع بيض نفسها، وقيل إنها تبيض على ثلاثة أعواد ضعيفة فيسقط بيضها أدنى ريح تهب^(٤)، وقيل (أحمق من الضبع)^(٥)، و(ما أخفى من سفاد الغراب)، وذكر ابن أبي الحديد، إن العرب تزعم أن الغراب لا يسفد فيزعمون أن اللقاح من

(١) ابن رفاة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٥٢؛ العسكري، جمهرة الامثال، ١ / ٢٧١، [رقم المثل ٢٣٧٤]؛ البكري،

فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١ / ١٩٤؛ الميداني، مجمع الامثال، ١ / ١٣٧، [رقم المثل ٢٦٨٥].

(٢) ابو عثمان بن بحر (ت ٢٥٥ هـ)، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، (القاهرة ١٩٦٤)، ٢ / ٣٦٣.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٩ / ١٤٣.

(٤) ابن رفاة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٨؛ العسكري، جمهرة الامثال، ١ / ٣٤٢؛ الميداني، مجمع الامثال،

١ / ٢٢٥، [رقم المثل ١١٩٨]؛ الحجوي، محمد بن محمد، الدلالات الاجتماعية والتربوية في الامثال العربية، مجلة

آفاق الثقافة والتراث، العدد الخامس والخمسون، دبي، ٢٠٠٦، ص ٢٩.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١ / ٢١٣؛ ينظر المثل (لا اكون كالضبع تسمع للدم حتى تصاد)، ص ٢٣٤

مطاعمة الذكر والأنثى منهما وانتقال جزء من الماء الذي في قانسته إليها من منقاره^(١)، وقال الزمخشري (من حذره أنه يخفي سفاده لئلا يعلم أنه ذو عش وفراخ فيطلب)^(٢). ويقولون (هُمُ فِي خَيْرٍ لَا يَطِيرُ غُرَابُهُ) يريدون أنهم في خير كثير وخصب عظيم فيقع الغراب فلا ينفر لكثرة الخصب^(٣)، وهو مثل يضرب لمن كان في خير وخصب، لأن الغراب إذا وقع في أرض مخصبة لا يطير عنها^(٤).

وذكر ابن أبي الحديد أنهم يقولون (زوده زاد الضب) أي لم يزوده شيئاً لأن الضب لا يشرب الماء وإنما يتغذى بالرياح والنسيم ويأكل القليل من عشب الأرض^(٥)، ذكر ابن رفاعة المثل (حتى لا يرد الضب) وقال الضب لا يرد لأنه لا يشرب الماء^(٦). ويقولون (به داء الظبي) أي لا داء به لأن الظبي صحيح لا يزال والمرض قل أن يعتربه^(٧)، قال الشاعر:

ولا تجهميناً أم عمرو فإننا بنا داء الظبي لم تخنهُ عواملُهُ^(٨)

ولا تخلو الضباء من الأدوية كسائر الحيوان، ولكن لما رأتها العرب تفوت الطالب،

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٠٧/٩.

(٢) المستقصى من امثال العرب، ٦٢ / ١، لرقم المثل ٢٢٤.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧٧/٢٠.

(٤) الميداني، مجمع الامثال، ٣٩٣/٢، لرقم المثل ٤٥٣٤؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ٣٩٩ / ٢، لرقم المثل ١٤٨٠.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٦٥/٢٠.

(٦) كتاب الامثال، ص ٥٦.

(٧) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧٧/٢٠.

(٨) عقيل، محسن، موسوعة الامثال العربية، دار المحجة البيضاء، (بيروت ٢٠١٢)، ص ١٠٥.

ولا يقدر على لحاقها المجتهد نسبوا ذلك إلى صحة أجسامها، فقالوا: لا داء به^(١)، وذكر ابن أبي الحديد مثلاً آخر قريباً من المثل السابق وهو (به داء الذئب) أي الجوع^(٢)، وفي كتب الأمثال (أجوع من الذئب) وهو دهره جائع وذلك لأنه لا يأكل إلا ما يصيد، ولا يرجع إلى فريسته فإذا اشتد جوعه استقبل النسيم حتى يمتلىء جوفه منه فيكتفي به، ويقولون (رماه الله بداء الذئب) يعنون الموت وذلك أن الذئب لا تصيبه علة إلا علة الموت^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد المثل (وما أخشى بالذئب)^(٤)، وهو في كتب الأمثال (لقد كنت وما أخشى بالذئب) يقوله الرجل يذل بعد العز، وأصله في الرجل يخرف، فيصير بمنزلة الصبي، فيفزع بمجيء الذئب، قيل المثل لَقَبَاتِ بن أَشِيمِ الكِنَانِي، عمَّر حتى أنكروا عقله، وكانوا يقولون له: الذئب الذئب، فقَالوا له يوماً وهو غير غائب العقل، فقَالَ: قد عشتُ زماناً وما أخشى بالذئب، فذهبت مثلاً^(٥).

وذكر ابن أبي الحديد ان العرب قالت: (أصبح فلان على قرن أعفر)، وهو الظبي إذا أرادوا أصبح على خطر وذلك لأن قرن الظبي ليس يصلح مكاناً، فمن كان عليه فهو على خطر قال إمرؤ القيس:

ولا مثلَ يومٍ بالعظالي قطعته
كأني وأصحابي على قرنِ أعفرا^(٦)

(١) العسكري، جمهرة الامثال، ١/ ٢١٣، لرقم المثل ٢٢٦٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٧٧/٢٠.

(٣) العسكري، جمهرة الامثال، ١/ ٣٣٢، لرقم المثل ٥٠٠؛ الميداني، مجمع الامثال، ١/ ٢٨٧، لرقم المثل ١٥٢٣.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٦/١٠.

(٥) ابن رفاعة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٨١؛ العسكري، جمهرة الامثال، ٢/ ١٨٢؛ الميداني، مجمع الامثال،

١٨٠/٢، لرقم المثل ٣٢٥٧.

(٦) شرح نهج البلاغة، ١٧٧/٢٠.

وذكر الميداني أي على مرَّكبٍ وعَر، وذكر قول الكُميت:

وكنَّا إذا جَبَّار قومٍ أردنا بكَيْدِ حَمَلْنَاهُ عَلَى قَرْنِ أَعْفَرَا

يقول: نقتله ونحمل رأسه على السنَّان وكانت الأسنَّةُ من القرون فيما مضى من الزمان^(١).

وذكر ابن أبي الحديد المثل (كل الصيد في جوف الفراء)^(٢)، وهو مثل قديم أصله في كتب الأمثال أن قوماً خرجوا للصيد، فصاد أحدهم ظبياً، وآخر أرنباً، وآخر فراء، وهو الحمار الوحشي، فقال لأصحابه (كل الصيد في جوف الفراء)، أي هذا الذي رُزقتُ وظفرتُ به أكبر الصيد يشتمل على ما عندكما وذلك أنه ليس مما يصيده الناس أعظمُ من الحمار الوحشي^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد (لا عشت إلا عيش القراد) مثلاً يضربونه في الشدة والصبر على المشقة، ويزعمون أن القراد يعيش ببطنه عاماً وبظهره عاماً، ويقولون إنه يترك في طينة ويرمى بها الحائط فيبقى سنة على بطنه وسنة على ظهره ولا يموت قال بعضهم:

فلا عشت إلا كعِيشِ القرادِ عاماً ببطنٍ وعاماً بظهرٍ^(٤)

(١) مجمع الامثال، ١/٢١٣، لرقم المثل ١١٤٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٩/٢١٤.

(٣) ابن رفاعة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٨٥؛ العسكري، جمهرة الامثال، ٢/١٦٢، لرقم المثل ١٤٥٠؛

البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١/١٠؛ الميداني، مجمع الامثال، ٢/١٣٦، لرقم المثل ٣٠١٠؛

الزنجشيري، المستقصى من امثال العرب، ٢/٢٢٤، لرقم المثل ١٧٥٦.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٣٣.

وقيل في كتب الأمثال، ربما رحل الناس عن ديارهم بالبادية وتركوها قفاراً، والقردان منتشرة في مكان الإبل، ثم لا يعودون إليها عشر سنين وعشرين سنة، ولا يخلفهم فيها أحد سواهم، ثم يرجعون إليها فيجدون القردان في تلك المواضع أحياء، وقد أحست بروائح الإبل قبل أن توافي فتتحرك لها، ولذلك قالت العرب (أعمر من قراد)، والعرب تزعم أن القراد يعيش سبعمائة سنة^(١)، وقد فند الديميري هذا القول بقوله (وهذا من أكاذيبهم، وإنما الضجر منهم به دعاهم إلى هذا القول فيه)^(٢).

ومن أمثلتهم الأخرى التي ذكرها ابن أبي الحديد ضمن فصل في ألفاظ الكنايات وذكر الشواهد عليها (قيد بفلان البعير) و(لقد كنت وما يقاد بي البعير)^(٣)، وهي أمثلة تضرب مثلاً للرجل يسن ويضعف فيتهاون به أهله، والمثل لسعد بن زيد مناة بن تميم، وذلك أنه كبر وضعف، ولم يطق الركوب إلا أن يقاد به، فقال يوماً وابنه يقود به ويقصر: قد لا يقاد بي الجمل، معناه، قد صرت لا يقاد بي الجمل^(٤).

ومن الأمثلة الأخرى التي ذكرها ابن أبي الحديد (ذق عقق)^(٥)، وذكر ابن رفاة (اي ذق عقوبة عقوقك أباك ياعاق، وأصله أن رجلاً كان له ولد يعقه فولد لولده ولد يعقه فقال له أبوه ذلك)^(٦)، وقيل العقق: طائر على قدر الحمامة هو شبه النعام في

(١) العسكري، جمهرة الامثال، ٢/ ١٢٤، لرقم المثل ١٣٧٧؛ الميداني، مجمع الامثال، ٥٠/٢، لرقم المثل ٢٦٣٢، الديميري، حياة الحيوان الكبرى، ٣٣٨/٢.

(٢) حياة الحيوان الكبرى، ٣٣٨/٢.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٦٠/٢٠.

(٤) الضبي، امثال العرب، ص ٧٥؛ ابن رفاة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٨١؛ العسكري، جمهرة الامثال، ٢/ ١١٨، لرقم المثل ١٣٦٤؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ٣٣/١؛ الميداني، مجمع الامثال، ١٧٩/٢، لرقم المثل ٣٢٥٤؛ النخشي، المستقصى من امثال العرب، ١٩٢/٢، لرقم المثل ٦٥٠.

(٥) شرح نهج البلاغة، ٨٩/٩.

(٦) الامثال، ص ٦٢.

إضاعة بيضها وفراخها وفيه طيش لا يكاد يكون في سائر الطير، والعرب تضرب به المثل فيما لا يحمد فقيل (أَحْمَقُ مِنْ عَفْعَقٍ)^(١).

وذكر ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة مثلاً آخر هو (فما انتطح فيه عنزان)^(٢)، وهو في كتب الأمثال مثل يضرب للأمر يقع ولا يختلف فيه اثنان، وقيل يضرب مثلاً للأمر يبطل ويذهب فلا يكون له طالب^(٣).

وقد كثرت القصص التي تتحدث عن مجازاة الاحسان بالإساءة وصورها العرب بمجموعة من الأمثال التي ملأت كتبهم منها (سمن كلبك يأكلك)، و(أحشك وتروثني) وذكرهما ابن أبي الحديد^(٤) تأكيداً على كلام الإمام (عليه السلام) (وداعي مسدده إلى النضال)، والمثل الأول يضرب مثلاً لسوء الجزاء، ومثله قول الشاعر:

هُم سَمَّنُوا كَلْباً لِيَأْكُلَ بَعْضَهُمْ
وَلَوْ عَمِلُوا بِالْحَزْمِ مَا سَمَّنُوا الْكَلْبَا

أول من قال ذلك حازم بن المنذر الحماني وذلك أنه وجد طفلاً فرجمه وحمله حتى أتى به منزله وأمر أمة له أن ترضعه فأرضعته حتى فطم وأدرك فجعله راعياً لغنمه وسماه جُحَيْشاً فكان يرعى الشاء والإبل فوجده يوماً مع ابنته رَعُوم فلما رآهما قال:

(١) العسكري، جمهرة الامثال، ١ / ٣٩٥، لرقم المثل [٦١٤]؛ الميداني، مجمع الامثال، ١ / ٢٦٦، لرقم المثل [١٢٠٠]؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ١ / ٨٣، لرقم المثل [٣١٦].

(٢) ١٥٧ / ١٥.

(٣) العسكري، جمهرة الامثال، ٢ / ٤٠٣، لرقم المثل [١٩١٠]؛ الميداني، مجمع الامثال، ٢ / ٢٢٥، لرقم المثل [٣٥٥٠]؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ٢ / ٢٧٧، لرقم المثل [٩٦٣].

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٥ / ١٤٣.

سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ فَأَرْسَلْهَا مِثْلًا وَشَدَّ عَلَى جُحَيْشٍ بِالسَيْفِ فَأَفْلَتَ^(١). والمثل الثاني تذكر كتب الامثال انه لرجل يخاطب فرسه، يقول: أجز له الحشيش، وأعلفه إياه، وهو يروث عليه، يضرب لمن يَكْفُرُ إحسانك إليه^(٢).

ومن الأمثلة التي ارتبطت بالأمور والقصص الشهيرة التي لا تستر، والتي ذكر قسمًا منها صاحب شرح نهج البلاغة في فصل في الفاظ الكنايات، وذكر الشواهد عليها تعليقاً على بعض الكنايات التي ذكرها الإمام عليه السلام في حكمه ومواعظه منها قولهم (ما يوم حليلة بسر)، وذكر ابن أبي الحديد (يوم حليلة يوم التقى المنذر الأكبر والحارث الغساني الأكبر وهو أشهر أيام العرب يقال إنه ارتفع من العجاج ما ظهرت معه الكواكب نهاراً، وحليلة اسم امرأة أضيف اليوم إليها لأنها أخرجت إلى المعركة مراكن الطيب فكانت تطيب بها الداخلين إلى القتال فقاتلوا حتى تفانوا)^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد المثل (كفى برغائها نداء)^(٤) وفي كتب الأمثال عند العرب (كفى برغائها منادياً) يضرب لقضاء الحاجة بظهور إمارات المحتاج الموجب قضاء حاجته قبل سؤله، ويضرب أيضاً للرجل تحتاج إلى نُصْرته أو مَعُونته فلا يحضرك ويعتُلُّ بأنه لم يعلم،

(١) الضبي، امثال العرب، ص ١٦٠؛ ابن رفاعه الكاتب، كتاب الامثال، ص ٢٠؛ العسكري، جمهرة الامثال، ١ / ٥٢٥، لرقم المثل ٤٩٥٢؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١ / ٤٨٩؛ الميداني، مجمع الامثال،

٣٣٣ / ١، لرقم المثل ٤١٧٨٧

(٢) ابن رفاعه الكاتب، كتاب الامثال، ص ٣٤؛ العسكري، جمهرة الامثال، ١ / ١١٠، لرقم المثل ١٠٣؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١ / ٤١٨؛ الميداني، مجمع الامثال، ١ / ٢٠٠، لرقم المثل ١٠٥٥.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٥٩ / ٢٠؛ ينظر المثل في كتب الامثال، الضبي، امثال العرب ص ١٧٠؛ ابن رفاعه الكاتب، كتاب الامثال، ص ١٠٥؛ العسكري، جمهرة الامثال، ٢ / ٢٣٣، لرقم المثل ١٦٠٦؛ البكري، فصل المقال في

شرح كتاب الامثال، ١ / ١٢٧؛ الميداني، مجمع الامثال، ٢ / ٢٧٢، لرقم المثل ٣٨١٤؛ الزمخشري، المستقصى من

امثال العرب، ٢ / ٣٤٠، لرقم المثل ١٢٤٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٥٩ / ٢٠.

وأصله أن ضيفاً أناخ بفناء رجل، فجعلت راحلته ترغو، فقال الرجل: ما هذا الرغاء؟
أضيفُ أناخ بنا فلم يعرفنا مكانه؟ فقدم قراه، فقال الضيف: (كفى برغائها منادياً)^(١).

ومنها (مَا اسْتَتَرَ مَنْ قَادَ الْجَمَلَ)^(٢)، قال القلاخ:

أنا القلاخُ بن جنابِ بن جلا أبو خنائيرٍ أقودُ الجمَلا^(٣)

أي أنا ظاهر غير خفي والخنائير الدواهي.

ومن أمثالهم في الشؤم التي ذكرها ابن أبي الحديد (وكانت عليهم كراغية البكر)^(٤)،
وفي كتب الأمثال يعني بكر ثمود حينَ رماها صاحبهم فرغا عند الرمية أنزل الله بهم
سخطه عند قتل الناقة وبكرها، قال النابغة لرجل من الأشعرين:

رأيتُ البكرَ بكرَ بنيِ ثمودِ وأنتَ أراكِ بكرَ الأشعرينا^(٥)

ومن الأمثلة الأخرى التي كانت متداولة عند العرب قبل الإسلام (باءت عرار
بكحل)، وذكر ابن أبي الحديد أنهما بقرتان قتلت أحدهما بالأخرى^(٦)، وفي كتب

(١) الضبي، أمثال العرب ص ١٧٠؛ ابن رفاة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٨٩؛ العسكري، جمهرة الامثال، ٢ / ١٥١، لرقم المثل [١٤٢٩]؛ الميداني، مجمع الامثال، ٢ / ١٤٢، لرقم المثل [٣٠٣٣]؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ٢ / ٢٢١، لرقم المثل [٧٤٤].

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢٠ / ١٥٩.

(٣) الميداني، مجمع الامثال، ٢ / ٣٠١، لرقم المثل [٤٠٢٣]؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ٢ / ٣١١، لرقم المثل [١١١٧].

(٤) شرح نهج البلاغة، ٢ / ٢٦.

(٥) الاصمعي، كتاب الامثال، ص ١٩٩، لرقم المثل [٤٥٢]؛ ابن رفاة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٨٨؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ٢ / ٢٠٠، لرقم المثل [٧١٣].

(٦) شرح نهج البلاغة، ٩ / ٦٨.

الامثال عرار وكحل، ثور وبقرة كانا في سبطين من بني اسرائيل، فقعر كحل فقعرت به عرار، فوقع الشر بينهم حتى كادوا أن يتفانوا، فضربت العرب بهما مثلاً^(١).

ومن أمثال العرب التي تضرب للتفاضل بين أمرين تكون الأفضلية لأحدهما عن الآخر ذكر ابن أبي الحديد المثل (مرعى ولا كالسعدان)^(٢) وذلك تعليقاً على كلام الإمام عليه السلام الذي يقول فيه :

«وَاللَّهِ لَأَنْ أُبَيِّتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً أَوْ أُجْرَ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُلْقَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنْ الْحَطَامِ»^(٣).

وقال ابن أبي الحديد (السعدان نبت ذو شوك يقال له حسك السعدان وحسكة السعدان وتشبه به حلمة الثدي فيقال سعدانة الثندوة، وهذا النبت من أفضل مراعي الإبل)^(٤)، وفي كتب الأمثال هو لامرأة من طيبىء، تزوجها امرؤ القيس بن حجر، وكان مفركا، لا يكاد يحظى عند امرأة فجعلت المرأة تعرض عنه، فقال لها يوماً: أين أنا من زوجك الأول؟ فقالت: (مرعى ولا كالسعدان) أي إنك وإن كنت رضاءً فلست كفلان^(٥).

ومن أمثلة العرب حول الأمر الشديد لا يردعه إلا أمر أشد منه ذكر ابن أبي الحديد

(١) الضبي، أمثال العرب ص ١٠٧؛ العسكري، جمهرة الامثال، ١ / ٢٢٦، لرقم المثل ٤٢٩١؛ الميداني، مجمع

الامثال، ١ / ٩١، لرقم المثل ٤٤٣٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١١ / ١٨٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١١ / ١٨٨، لرقم الخطبة ٢١٩.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١١ / ١٨٩.

(٥) الضبي، امثال العرب ص ١٢٧؛ ابن رفاعة الكاتب، كتاب الامثال، ص ١١٢؛ العسكري، جمهرة الامثال، ٢ /

٢٤٢، لرقم المثل ١٦١٩؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١ / ١٩٩؛ الميداني، مجمع الامثال،

٢ / ٢٧٥، لرقم المثل ٣٨٣٦؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ٢ / ٢٤٤، لرقم المثل ١٢٥٩.

مجموعة من الأمثال منها (صَادَفَ دَرءُ السَّيْلِ دَرءًا يَصْدَعُهُ)، الدَّرء: الدَّفْع ويسمى ما يُحْتَاج إلى دفعه من الشر دَرءًا ويعني به ههنا دفعات السيل، أي صادف الشر شرًّا يغلبه^(١).

وعندما ذكر ابن أبي الحديد كلام الإمام عليه السلام:

«رُدُّوا الْحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ فَإِنَّ الشَّرَّ لَا يَدْفَعُهُ إِلَّا الشَّرُّ»^(٢).

قال هذا مثل قولهم في المثل (الحديد بالحديد يُفْلَح). قال عمرو بن كلثوم^(٣):

ألا لا يجهلنَّ أحدٌ علينا فنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا^(٤)

وفي كتب الأمثال ضرب المثل من باب الرجل النجيد يلقي قرنه في البسالة والنجدة ويقولون: إن الصعب لا يليه إلا الصعب، والفلاح: الشق، فلحت الشيء: شققته، ويقال للزارع الفلاح؛ لأنه يشق الأرض، قال الشاعر:

قَوْمُنَا بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا لَا يَفْلُ الْحَدِيدَ إِلَّا الْحَدِيدُ^(٥)

ومنها المثل (وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان) وذكره الفند الزماني في حرب

(١) شرح نهج البلاغة، ٩٦/١٤؛ ينظر المثل عند الميداني، مجمع الامثال، ٣٩٤/١، لرقم المثل ٢٠٩٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٨١/١٩، حكم وامثال [٣٢٠].

(٣) الديوان، تحقيق اميل بديع يعقوب، ط ٢، دار الكتاب العربي، (بيروت ١٩٩٦)، ص ٧٨.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٨١/١٩.

(٥) ابن رفاعة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٢٥؛ العسكري، جمهرة الامثال، ١/ ٣٤٥، لرقم المثل ٥٢٢؛ البكري، فصل

المقال، ١/ ١٣٤؛ الميداني، مجمع الامثال، ١/ ١١، لرقم المثل ١٣؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ١/ ٤٠٣،

لرقم المثل ١٧١٧، عبد الرحمن، منصور، الحكمة والامثال عند العرب، دار الفارابي، (بيروت ٢٠١١)، ص ٨٧٢.

البسوس بأبيات شعر ذكرها ابن أبي الحديد منها :

فأمسى وهو عريانُ	فلمّا صرّحَ الشرُّ
دَنَاهُم كَمَا دَانُوا	ولم يبقَ سوى العُدوانِ
لِلذُّلِّ إِذْ عَانُ	وبعضُ الحلمِ عندَ الجهلِ
لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانُ ^(١)	وفي الشرِّ نَجاةٌ حينُ

وفي كتب الأمثال قيل (إِنَّ فِي الشَّرِّ خِيَارًا)، والمثل معناه أن بعض الشر أهون من بعض، قال طرفة بن العبد :

أبا منذرٍ أفيتَ فاستيقُ بعضنا حنانيكَ بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضٍ^(٢)

ومن الأمثلة الاخرى (كفّق قرقر) وقد ذكرها ابن أبي الحديد تعليقا على كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لأصحابه بعد أن خذلوه في مقاتلة معاوية الذي كان يشن عليهم الغارات :

«لَا أَبَا لِعِغْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ، وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ! أَلَمْوتَ أَوْ الذُّلُّ لَكُمْ!
فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي - وَلِيَأْتِيَنِي - لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ»^(٣).

فقال ابن أبي الحديد (قوله الموت أو الذل لكم دعاء عليهم بأن يصيبهم أحد الأمرين كأنه شرع داعيا عليهم بالفناء الكلي وهو الموت ثم استدرك فقال أو الذل لأنه نظير

(١) شرح نهج البلاغة، ١٩/١٨١.

(٢) العسكري، جمهرة الامثال، ١/٦٧، [رقم المثل ٤٤]؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١/٢٤٤؛ الميداني، مجمع الامثال، ١/١١، [رقم المثل ١٢]،

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٠/٥٤، [خطبة ١٨١].

الموت في المعنى ولكنه في الصورة دونه ولقد أجيّب دعاؤه عليه السلام بالدعوة الثانية فإن شيعته ذلوا فيما بعد في الأيام الأموية حتى كانوا كفّقِعِ قَرقرِ^(١)، وقيل في الأمثال القديمة (أذل من فقِع بقرقر) والفقِع ضرب من الكمأة أبيض يظهر على وجه الأرض فيوطاً والكمأة السوداء تستتر في الأرض، وقيل حمام فقيع لبياضه، والقرقر: القاع الأملس، ويقال للذي لا أصل له فقِع، لأن الفقِع لا أصول له أي لا عروق، وهو لا يمتنع على من اجتنأه، ويقال: بل لأنه يُوطأ بالأرجل^(٢)، قال النابغة الذبياني يهجو النعمان بن المنذر:

حَدَّثُونِي بِنِي الشَّقِيقَةِ مَا يَمْنَعُ فَقَّعاً بِقَرَقَرٍ أَنْ يَزُولَا^(٣)

والمثل (أَنَا جُدَيْلُهَا الْمُحَكِّكُ وَعُدَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ) من الأمثلة التي ذكرها ابن أبي الحديد^(٤)، وفي كتب الأمثال الجُدَيْلُ: تصغير الجِذْل وهو أصل الشجرة. والمحكُّ: الذي تتحكك به الإبل الجَرَبِي وهو عُود ينصب في مَبَارِك الإبل تتمرّسُ به الإبل الجَرَبِي، والعدّيق: تصغير العَدَق - بفتح العين - وهو النخلة، والمرجَّب: الذي جعل له رُجَبَةٌ وهي دِعَامَةٌ تُبْنَى حولها من الحجارة وذلك إذا كانت النخلة كريمةً وطالت تخوّفوا عليها أن تنقر من الرياح والعواصِفِ، وهذا المثل قيل لمن يريد أن يُسْتَشْفَى برأيه

(١) شرح نهج البلاغة، ٥٦/١٠.

(٢) الاصمعي، كتاب الامثال، ص ٧٥، لرقم المثل [١٣٦]؛ العسكري، جمهرة الامثال، ١ / ٤٦٩، لرقم المثل [٨٣٤]؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١ / ٤٣٨؛ الميداني، مجمع الامثال، ١ / ٢٨٤، لرقم المثل [١٥٠٣].

(٣) الديوان، ص ١٣١.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٢٢/٢.

وعقله ويرمز إلى مكانة المتمثل به في قومه وعشيرته^(١).

ومن الأمثلة الأخرى التي كانت العرب توصي بها، هي اتباع من يأمرك بالرشاد والصلاح وإن كان يغيظك ويثقل عليك، ولا تتبع من يسير على هواك، فقالوا (أمرَ مَبْكِيَاتِكَ لا أمرَ مُضْحِكَاتِكَ)، وقد ذكره ابن أبي الحديد تعليقا على كلام الإمام عليه السلام:

«مَنْ حَدَّرَكَ كَمَنْ بَشَّرَكَ».

بقوله: هذا مثل قولهم (اتبع أمر مَبْكِيَاتِكَ لا أمر مَضْحِكَاتِكَ)^(٢) وقصة المثل في كتب الأمثال أن فتاة من بنات العرب كانت لها حالات وعمّات فكانت إذا زارت حالاتها أَلْهَيْتَهَا وأضحكنها، وإذا زارت عماتها أدَبْنَهَا وأخذن عليها فقالت لأبيها: إن خالاتي يلفنني وإن عماتي يبكينني فقال أبوها وقد علم القصة: أمرَ مَبْكِيَاتِكَ أي الزمي واقبلي أمر مَبْكِيَاتِكَ^(٣).

ومن الأمثلة التي تضرب في سرعة الاتفاق بين الرجلين والأميرين قولهم (التقى الثريان)، وذكر ابن أبي الحديد أن العرب تقول: (التقى الثريان، في الأمرين يأتلفان ويتفقان)^(٤)، والثرى التراب الندي في بطن الوادي، فإذا جاء المطر وسح في بطن الوادي حتى يلتقي نداءه والندى الذي في بطن الوادي يقال التقى الثريان، وفي كتب الأمثال

(١) (الاصمعي، كتاب الامثال، ص ٦٨، لرقم المثل ١١٨؛ ابن رفاة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٣٥؛ الميداني، مجمع

الامثال، ٣١/١، لرقم المثل ١٢٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٨/١٥٥، [ح م ٥٧].

(٣) ابن رفاة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٢٣؛ العسكري، جمهرة الامثال، ١/٨٢، لرقم المثل ٦٦؛ البكري،

فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١/٣١٩؛ الميداني، مجمع الامثال، ١/٣٠، لرقم المثل ١١٦؛ الزمخشري،

المستقصى من امثال العرب، ٢/٣٦٢، لرقم المثل ١٥٥٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٢٠/٤٧٥.

يضرب مثلاً لاتفاق الأخوين في التحاب، فشبهه سرعة اتفاق المتفقين على المودة بعد تباينهما بالماء ينزل من السماء، فيلتقي مع ما تحت الأرض^(١).

ومن الامثلة المشهورة (تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها)، وقد ذكرها ابن أبي الحديد بعد ذكره كلام الإمام عليه السلام: «الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى»^(٢).

وهو في كتب الأمثال يضرب مثلاً للرجل يصون نفسه في الضراء، ولا يدخل فيما يدنسه عند سوء الحال، ومعناه أن الحرة تجوع ولا تكون ظئراً أي خادمة لقوم على جعل تأخذ منهم، فيلحقها عيب ومعناه عندهم الرضاع، وقيل: تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها أي ولا تهتك نفسها، وتبدي منها ما لا ينبغي أن يبدي، وهو من أمثال أكثم بن صيفي وقيل للحارث بن السليل الأسدي، قاله لامرأته ريا بنت علقمة الطائي^(٣).

ومن أمثلتهم الأخرى التي ذكرها ابن أبي الحديد (لَا عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسٍ)^(٤) وفي كتب الأمثال يضرب لمن لا يُدْخِرُ عَنْهُ نَفَيْسٌ، وقيل عروس اسم رجل مات فحملت امرأته أواني العطر وقالت: لَا عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسٍ فَذَهَبَتْ مَثَلًا، ويقال: إن رجلاً من هذيل تزوج امرأة فَأَهْدَيْتْ إِلَيْهِ فَوَجَدَهَا تَفْلَةً^(٥) فَقَالَ لَهَا: أَيْنَ الطَّيِّبُ؟ فَقَالَتْ: خِبَاتُهُ فَقَالَ لَهَا

(١) ابن رفاعة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٨٢؛ العسكري، جمهرة الامثال، ١ / ١٨٢، [رقم المثل ٢٠٧]؛ الميداني،

مجمع الامثال، ٢ / ١٨٤، [رقم المثل ٣٢٧٧]؛ اليوسي، زهر الأكم في الامثال والحكم، ٢ / ٥٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٨ / ١٧٠، [ح م ٦٧].

(٣) ابن رفاعة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٥٠؛ العسكري، جمهرة الامثال، ١ / ٢٦١، [رقم المثل ٣٥٩]؛ البكري،

فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١ / ٢٨٩؛ الميداني، مجمع الامثال، ١ / ١٢٢، [رقم المثل ٦١٩].

(٤) شرح نهج البلاغة، ٦ / ٧٢.

(٥) التَّفْلُ: ترك الطَّيِّبِ، وامرأة تَفْلَةٌ، أي غير مُتَطَيِّبَةٍ وهي المنتنة الريح، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ١ / ٥٩٩

لا مخبأ لعطر بعد عروس فذهبت مثلاً^(١).

وكثيراً ما كانت الأمثال تضرب لتؤرخ حادثة تاريخية مهمة أو أسطورة نسجها خيال أو قصة تناقلتها الألسن، وقد ذكر لنا ابن أبي الحديد مجموعة من تلك الأمثال منها قول المهلهل لبجير (بُوْ بِشْسَعِ نَعْلِ كَلْبِيبِ)^(٢)، وفي كتب الأمثال أن المهلهل بن ربيعة قالها حين قتل بجير بن الحارث ابن عباد بأخيه كليب وكان أبوه معتزلاً للحرب التي كانت بين بكر وتغلب ابني وائل، وهي حرب البسوس، ومعناه قم مقام شسعه فإنك لست ببواء له، وهو مثل يضرب في فرط ابتعاد الشيء عن الشيء حتى لا يعادل كله بعضه، ولما سمع أبوه الحارث بالقصة ومقالة المهلهل قال:

قرباً مربوط النعمامة مني
لقحت حرب وائل عن حيال
لم أكن من جناتها علم الله
وإنني بجرها اليوم صال

وتجرد لحرب تغلب فأبادهم حتى فر مهلهل، فهلك غربياً في غير دياره^(٣). ومن الأمثلة التي ذكرها ابن أبي الحديد (جزاء سنمار)^(٤)، وفي كتب الأمثال ضرب مثلاً لسوء الجزاء، وكان سنمار بنأً مجيداً من الروم، فبنى الخورنق^(٥) للنعمان بن امرئ القيس،

(١) الاصمعي، كتاب الامثال، ص ٢١٨، [رقم المثل ٥٠٦]؛ العسكري، جمهرة الامثال، ٢ / ٣٩٥، [رقم المثل ١٨٩٣]؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١ / ٤٢٦؛ الميداني، مجمع الامثال، ٢ / ٢١١، [رقم المثل ٣٤٩١]؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ٢ / ٢٦٣، [رقم المثل ٩١٩].

(٢) شرح نهج البلاغة، ٩ / ١٤٤.

(٣) الضبي، أمثال العرب ص ١٣٢؛ ابن رفاعة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٤٨؛ العسكري، جمهرة الامثال، ٢٢٦ / ١، [رقم المثل ٢٩١]؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١ / ٣٠٥؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ٢ / ١، [رقم المثل ١].

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٠ / ٧.

(٥) الخورنق قصر كان يظهر الحيرة بناه النعمان بن امرئ القيس، ملك ثمانين سنة وبنى الخورنق في ستين سنة بناه له رجل من الروم يقال له سنمار فكان يبني الستين والثلاث ويغيب الخمس سنين وأكثر من ذلك وأقل فيطلب فلا

فلما نظر إليه النعمان استحسّنه، وكره أن يعمل مثله لغيره، وقيل قال له: إني لأعرفُ فيه حجراً لو نُزِعَ لتقوّضَ من عند آخره فسأله عن الحجر فأراه موضعه. فألقاه من أعلى القصر فخرّ ميتاً، فقال الشاعر:

جَزَتْنا بنو سعدٍ لحسنِ فعالِنا جزاءَ سنّمارٍ وما كانَ ذا ذنبٍ^(١)

وتعليقاً على كلام الإمام عليه السلام للأشعث:

«وَاللّٰهُ لَقَدْ أَسْرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً وَالْإِسْلَامُ أُخْرَى فَمَا فَدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالِكَ وَلَا حَسْبُكَ»^(٢).

قال ابن أبي الحديد إن الأشعث في الجاهلية فدى بفداء يضرب به المثل فقال (أغلى فداءً من الأشعث)، وذلك أن مراداً لما قتلت قيساً الأشج خرج الأشعث طالبا بثأره، فخرجت كندة متساندين على ثلاثة ألوية على أحدها الأشعث فأخطئوا مراداً ولم يقعوا عليهم ووقعوا على بني الحارث بن كعب فقتل أصحابه وأسر الأشعث ففدى بثلاثة آلاف بعير لم يفد بها عربي بعده ولا قبله، فقال في ذلك عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

فكانَ فداؤه ألفي بعيرٍ وألفاً من طريفاتٍ وتلدي^(٣)

يوجد ثم يأتي فيحتج فلم يزل يفعل هذا الفعل ستين سنة حتى فرغ من بنائه، فقتله النعمان في القصة المعروفة، ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢٥٧/٤.

(١) الاصمعي، كتاب الامثال، ص ١٠٩، لرقم المثل ٢٢٢؛ ابن رفاعة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٥٤؛ العسكري، جمهرة الامثال، ١ / ٣٠٥، لرقم المثل ٤٤١؛ الميداني، مجمع الامثال، ١ / ١٥٩، لرقم المثل ٨٢٨.

(٢) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة، ١ / ٢٦٩، [خطبة ١٩].

(٣) شرح نهج البلاغة، ١ / ٢٦٩ - ٢٧٠؛ ينظر المثل عند العسكري، جمهرة الامثال، ٢ / ٣٤٩، لرقم المثل

١٨٣١؛ الميداني، مجمع الامثال، ٢ / ٣٨٠، لرقم المثل ٤٤٣.

ومن أمثالهم التي ذكرها ابن أبي الحديد (في كل واد بنو سعد)^(١)، وفي كتب الأمثال (أينما أوجه ألق سعدا)، ويضرب مثلاً لاستواء القوم في الشر والمكروه. والمثل للأضبط بن قريع السعدي؛ وكان سيد قومه، فرأى منهم تنقصاً له، وتهاوناً به، فرحل عنهم ونزل بأخرين، فرأهم يفعلون بأشرافهم فعل قومه به، فقصد آخرين، فرأهم على مثل حالهم؛ فقال: أينما أوجه ألق سعدا، ورحل إلى قومه، وروي أنه قال: في كل واد بنو سعد^(٢).

ومثل هذا المثل قول طرفة بن العبد:

كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ خَالَتُهُ لَا تَرِكَ اللَّهُ لَهُ وَاضِحَهُ
كُلُّهُمْ أَرَوْعٌ مَنْ ثَعْلَبٍ مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ!^(٣)

وكان العرب يقولون لليلة الشديدة التي يطول فيها الشر (أصبح ليل)، وهو مثل ذكره ابن أبي الحديد ونسبه إلى قيس بن عدي السهمي فقال (إن أمية كان تعرض لامرأة من بني زهرة، فضربه رجل منهم بالسيف فأراد بنو أمية ومن تبعهم إخراج زهرة من مكة فقام دونهم قيس بن عدي السهمي وكانوا أخواله وكان منيع الجانب، شديد العارضة، حمي الأنفس، أبي النفس، فقام دونهم وصاح (أصبح ليل) فذهبت مثلاً)^(٤)، ولكن في كتب الأمثال تنسب إلى قصة عن امرؤ القيس بن حجر الكندي الذي كان رجلاً مفركاً لا تحبه النساء، ولا تكاد امرأة تصبر معه فتزوج امرأة من طيء فابتنى بها

(١) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة، ٦٧/١٥.

(٢) الاصمعي، كتاب الامثال، ص ٨٢، لرقم المثل ١٥٥؛ العسكري، جمهرة الامثال، ١ / ٦١، لرقم المثل ٣٦١؛

الميداني، مجمع الامثال، ١٠٥/١، لرقم المثل ٥٢٦.

(٣) الديوان، ص ١٧.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥٦/١٥.

فأبغضته من تحت ليلتها وكرهت مكانها معه فجعلت تقول: يا خَيْرَ الْفِتْيَانِ أَصْبَحْتَ أَصْبَحْتَ فيرفع رأسه فينظر فإذا الليل كما هو فتقول: (أَصْبَحَ لَيْلٌ) فلما أصبح قال لها: قد علمت ما صنعت الليلة وقد عرفت أن ما صنعت كان من كراهية مكاني في نفسك فما الذي كرهت مني؟ فقالت: ما كرهتُك فلم يزل بها حتى قالت: كرهت منك أنك خفيف العزلة، ثقيل الصدر، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة، فلما سمع ذلك منها طلقها وذهب قولها (أَصْبَحَ لَيْلٌ) مثلاً^(١)، قال الأعشى الكبير:

وحتى يبيت القوم كالضئيف ليلةً يقولون أصبح ليلٌ والليل عاتمٌ^(٢)

وكان الإمام قد ضرب مثلاً في الصبر والتأني والاستعداد في طلب الإنسان لحاجته فقال: (مَنْ تَذَكَّرَ بَعْدَ السَّفَرِ اسْتَعَدَّ)^(٣)، وقد علّق عليها ابن أبي الحديد بذكر مثلين مثله كانت العرب يتمثلون بهما وهما (الليل طويلٌ وأنت مقمرٌ)، و(عش ولا تغتر)^(٤)، والمثل الأول في كتب الأمثال معناه إصبر على حاجتك فإنك تجدها في بقية ليلتك، فإنها طويلة وأنت مقمر، أي ليس فيها ظلمة تمنعك عن قصدها، والمثل لسليك بن سلكة التميمي كان من أشد فرسان العرب وأنكرهم وأشعرهم، كان نائماً مشتملاً، فبينما هو كذلك إذ جثم رجلٌ على صدره ثم قال له: استأسر، فقال له سليك: الليلٌ طويلٌ وأنت مقمرٌ أي في القمر يعني أنك تجد غيري فتعدني فأبى، فلما رأى سليك ذلك التوى

(١) الضبي، أمثال العرب ص ١٥٩؛ ابن رفاعة الكاتب، كتاب الأمثال، ص ٢٠؛ العسكري، جمهرة الأمثال، ١ / ١٩٢، لرقم المثل ٢٢٥؛ الميداني، مجمع الأمثال، ١ / ٤٠٣، لرقم المثل ٢١٣٢، عقيل، محسن موسوعة الأمثال العربية، ص ٥٤.

(٢) ميمون بن قيس، الديوان، ص ١٧٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٩ / ١٤١، [ح م ٢٨٦].

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٩ / ١٤١.

عليه وتخلص منه فذهب كلامه مثلاً^(١).

والثاني يضرب مثلاً للاحتياط والأخذ بالثقة في الأمور. وأصله أن رجلاً أراد أن يفوز بإبله عند الليل وهو في عشب، فترك أن يعشبهها منه، واتكل على عشب ظن أنه يجده في طريقه، فقيل له : عشَّها من هذا الحاضر ولا تغتر بالغائب، فلعله يفوتك. وجاء رجلٌ إلى ابن عباس فقال : كما لا تنفع مع الشرك حسنةٌ فكذلك لا يضر مع الإيمان ذنبٌ، فقال له ابن عباس : (عش ولا تغتر)، أي لا تغتر بهذه الشبهة، واعمل، فإن الإيمان قولٌ وعمل^(٢).

وذكر لنا ابن أبي الحديد كلام الإمام علي بن أبي عليه السلام :

«لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدْبَارٌ وَمَا أَدْبَرَ فَكَأَنَّ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ»^(٣)، وعلَّق عليه إن من كلام الجاهلية الأولى (كل مقيم شاخص وكل زائد ناقص)، قال الشاعر :

إتْمَا الــــــدنيا دول
فراحلٌ قيلَ نزلُ
إذ نازلٌ قيلَ رَحَلُ^(٤)

وكان الإمام عليه السلام قد ضرب مثلاً في المحافظة على كتمان السر وإنه منجاة لكل

(١) الضبي، امثال العرب ص ٦٢؛ ابن رفاعة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٤٦؛ العسكري، جمهرة الامثال، ٢ / ١٨٩، لرقم المثل ١٥٠٠؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال، ١ / ٣٣٩؛ الميداني، مجمع الامثال، ٣٠ / ١، لرقم المثل ١١١٧؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ١ / ٣٤٤، لرقم المثل ١٤٧٦.

(٢) ابن رفاعة الكاتب، كتاب الامثال، ص ٧٦؛ العسكري، جمهرة الامثال، ٢ / ٤٦، لرقم المثل ١١٩٨؛ الميداني، مجمع الامثال، ١٦ / ٢، لرقم المثل ٢٤٣٢؛ الزمخشري، المستقصى من امثال العرب، ٢ / ١٦٢، لرقم المثل ٥٥٠.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٨ / ٢٩٠، [ح م ١٤٩].

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٨ / ٢٩١؛ ينظر المثل عند الميداني، مجمع الامثال، ١٧١ / ٢، [المولدون].

شخص بقوله: (مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتْ الْخَيْرَةُ فِي يَدِهِ)^(١)، وقد علق عليها ابن أبي الحديد بقوله من أمثالهم (مقتل الرجل بين لحييه)، وقيل (أَشْأَمُ كُلِّ امْرِئٍ بَيْنَ فَكِّيهِ) وهما واحد يراد أن شؤم كل إنسان في لسانه، وللعرب أشياء جاءوا بها على أفعال هي كالأسامي عندهم في معنى فاعل أو فعيل أو فعل كقولهم: أشأم كل امرئ بين لحييه بمعنى شؤم^(٢)، وقيل أنها لأكثم بن صيفي^(٣).

ومن أمثلتهم التي ذكرها ابن أبي الحديد^(٤) (ولو التقت حلقتا البطان)، وفي كتب الأمثال (التقى حلقتا البطان) وقيل (والتقى البطان والحقب)، البطان للقتب الحزام: الذي يُجْعَل تحت بطن البعير وفيه حلقتان فإذا التقتا فقد بلغ الشدُّ غايته، يضرب مثلاً للأمر يبلغ الغاية في الشدة والصعوبة، وأصله أن يحوج الفارس إلى النجاء مخافة العدو فينجو، فيضطرب حزام دابته، حتى يمس الحقب، ولا يمكنه أن ينزل فيصلحه. والبطان: حزام الرجل، وأكثر ما يستعمل للقتب. والحقب: النسعة التي تشد في حقو البعير، ويشد على حقيبه، والحقيبة: الرفادة تشد في مؤخر القتب، وكل شيء شددته في مؤخر قتبك أو رحلك فقد احتقبته، ثم كثر ذلك حتى قيل لمن اكتسب خيراً أو شراً: قد احتقبه^(٥). قال أوس بن حجر:

وازدحمت حلقتا البطان
بأقوامٍ وطارت نفوسهم جزعاً^(٦)

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٠٦/١٨، [ح م ١٦٤].

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٠٧/١٨؛ ينظر المثل عند الميداني، مجمع الامثال، ٣٦٩/١، لرقم المثل ١٩٩٠.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٨٢/٣.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١١/١٦.

(٥) العسكري، جمهرة الامثال، ١/ ١٨٨، لرقم المثل ٢٢١٥؛ الميداني، مجمع الامثال، ١٨٥/٢، لرقم المثل ٢٣٩٢؛

الزنجشري، المستقصى من امثال العرب، ٣٠٦/١، لرقم المثل ١٣١٦.

(٦) الديوان، ص ٥٤.

ومن الأمثلة التي ذكرها ابن أبي الحديد (فإنَّ القرينَ بالمُقارنِ يَقتَدي)، وفي كتب الأمثال معناه: أنك منسوبٌ إلى خليلك فانظر من تحال^(١). قال عدي بن زيد:

عن المرء لا تسأل وسلّ عن قرينه
فكلُّ ذئبٍ قرينٌ بالمقارنِ يَقتَدي^(٢)

(١) العسكري، جمهرة الامثال، ٢/ ١٨٨، [رقم المثل ١٦٣٥]؛ البكري، فصل المقال في شرح كتاب الامثال،

١/ ١٦٤؛ الميداني، مجمع الامثال، ٢/ ٢١٨، [رقم المثل ٣٥٢٨].

(٢) الديوان، ص ١٠٦.



الفصل الرابع

الحياة الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام

المبحث الاول: النشاطات الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام

المبحث الثاني: اسواق العرب قبل الإسلام

المبحث الأول النشاطات الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام

ذكر الامام علي بن أبي طالب عليه السلام حال العرب قبل الإسلام في إحدى خطبه فقال عليه السلام:

«تَأْمَلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشْتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ لِيَالِي كَانَتْ الْأَكَاْسِرَةُ وَالْقِيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ يَحْتَازُونَهُمْ عَنِ رَيْفِ الْأَفَاقِ وَبَحْرِ الْعِرَاقِ وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا إِلَى مَنَابِتِ الشَّيْحِ وَمَهَافِي الرِّيحِ وَنَكَدِ الْمَعَاشِ فَتَرْكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبْرٍ وَوَبْرٍ أَدَلَّ الْأُمَمَ دَاراً وَاجْتَدَبَهُمْ قَرَاراً»^(١).

ومن خلال قراءتنا لهذا النص يبدو أنّ الامم الكبرى المسيطرة على المنطقة انذاك استخدمت ضغطاً كبيراً لدفع العرب نحو الصحراء ليعيشوا حياة البداوة التي أثرت على

(١) ومعنى يحتازونهم عن الريف يبعدونهم عنه، و الريف الأرض ذات الخصب و الزرع، و الجمع أرياف، و رافت الماشية أي رعت الريف، و قد أرفنا أي صرنا إلى الريف و أرافت الأرض أي أخضبت و هي أرض ريفة بتشديد الياء، و بحر العراق دجلة و الفرات، أما الأكاسرة فطردوهم عن بحر العراق و أما القياصرة فطردوهم عن ريف الآفاق أي عن الشام و ما فيه من المرعى و المنتجع. أما قوله عليه السلام: أربابا لهم: أي ملوكا و كانت العرب تسمي الأكاسرة أربابا، و منابت الشيح: أرض العرب، و الشيح نبت معروف، و مهافي الريح: المواضع التي تهفو فيها أي تهب و هي الفيافي و الصحاري، و نكد المعاش ضيقه و قلته، و تركوهم عالة: أي فقراء جمع عائل و العائل ذو العيلة و العيلة الفقير، ينظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣٠/١٣.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٢٩/١٣، [خطبة ٢٣٨].

حياتهم فلم تكن البيئة التي عاشها العرب قبل الإسلام مهينة وجاهزة للنشاطات الاقتصادية الكاملة، وقد كان أغلبهم يحتقر المهن وكسب الرزق عن طريقها بسبب طبيعة حياتهم، التي تعتمد على الموارد التي كانت تصل إليهم عن طريق الإغارة، إذ كان نبض الحياة لديهم وكان فيه نوع من الممارسة المباحة التي تصل إلى حد التفاخر فيه، فغالباً ما نرى القبائل تغزو بعضها البعض لعداوة بينهما، أو لطبيعة شريفة الغاية المتمثلة بسيطرة القبائل الكبيرة القوية على القبائل الضعيفة فتسلب ابلها وماشيتها وتصل إلى حد سبي النساء والاولاد، وفي الأعم الأغلب يطلق سراهم مقابل فدية معينة حسب طبيعة السبايا، حتى أصبح الغزو جزءاً من عقلية البدوي وطبعه، فاذا لم يجد من يغزوه من أعدائه أو البعيدين عنه، أغار على جيرانه، يقول الشاعر القطامي في ذلك^(١):

وأحياناً على بكرٍ أخينا
إذا مالم نجد إلا أخانا

ولكن هذا لم يمنع من ظهور نشاطات اقتصادية في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة رغم تفاوتها من منطقة إلى أخرى، ولم نجد عند ابن أبي الحديد تفاصيل وركائز ثابتة ومباشرة حول مواضيع النشاطات الاقتصادية ولكنها كانت عبارة عن مفردات صغيرة متناثرة بين السطور حوتها مجموعة من الروايات التي استنتجناها من خلال تلك المواضيع التي قسمناها على الزراعة، والصناعة، والتجارة، وتأتي قلة المادة تبعاً لانسياق ابن أبي الحديد في شرحه لخطب الإمام عليه السلام ومدى احتوائها لمادة تتحدث عن الحياة الاقتصادية.

أولاً: الزراعة:

احتقر الكثير من العرب ولا سيما البدو منهم في جاهليتهم الزراعة، وفضلوا عليها

(١) المبرد، الكامل في اللغة والادب، ٣٨/١.

الغزو والسيف، ولعل هذا بارزاً في آيات الاعشى التي يهاجم فيها قبيلة إباد لأنهم يمارسون الزراعة:

لسنا كمن حلت إباد دارها تكريت^(١) ترقبُ حبها أن يحصدا^(٢)

وذكر لنا ابن أبي الحديد ان معاوية قال لقيس بن سعد وقد دخل عليه في رهط من الأنصار ما فعلت نواضحكم يهزأ به، فقال أنفذناها في طلب أبيك يوم بدر، والناضح البعير يستقى عليه^(٣)، وقد أراد معاوية أن يقلل من شأن الانصار ويعيرهم بأنهم فلاحون يمتنون الزراعة.

والزراعة من أصل آرامي، فكلمة [فلاح] تعني [آكار]، وكذلك [أريس] أي [الزراع]، وكذلك [الفدان] وهو من اسماء مقادير المساحة، و[الناطور] وهو حارس المزرعة، وفي الآرامية [ناطوراً]، وقد استخدمها العرب ودخلت في لغتهم وأدبهم^(٤). قال المتنبي:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها وقد بشمن وما تُفنى العناقيد^(٥)

ولعل الجفاف وطبيعة البلاد الصحراوية في الجزيرة العربية كانت سبباً لجعل الارض

(١) تكريت: ارض. ينظر البيت والمعنى عند ابن منظور، لسان العرب، ٤٦٢/٧، [مادة كرت].

(٢) ميمون بن قيس، الديوان، ص ٥٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٢٢٠/١٣.

(٤) اغناطيوس، غويدي، محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام، ترجمه وقدم له ابراهيم السامرائي، دار الحدائث، (بيروت ١٩٨٦)، ص ٦٧.

(٥) ابو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي (ت ٣٥٤ هـ)، الديوان، شرح الشيخ ناصيف اليازجي، دار ومكتبة الهلال، (بيروت ٢٠٠٠)، ص ٣٢٧.

قاحلة لا تصلح للزراعة إلا في بعض المجتمعات الريفية المتمثلة بمجتمع المدينة والطائف، حيث يتوفر عاملاً الارض الخصبة والمياه المتمثلة بالآبار الصالحة للزراعة، فمجتمع مكة الذي يقع في واد غير ذي زرع.

كما ذكر القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقُهُمْ مِّنَ الشَّمْرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(١).

ووصفها ابن حوقل فقال: (وليس فيها ماء جار، وكانت أكثر مياههم من السماء إلى مواجن وبرك وليست لهم آبار يشرب منها وأطيبها زمزم، وليس بجميع مكة شجر مثمر غير شجر البادية)^(٢).

وهذه البيئة القاسية غالباً ما كانت تؤدي إلى ازمات اقتصادية يعاني منها أهل مكة، فقد ذكر ابن أبي الحديد أنه (تتابعت على قريش سنون أقحلت الضرع وأرقت العظم)^(٣)، وكانوا يصعدون إلى الجبال ويدعون أن ينزل المطر، وذكر ابن أبي الحديد في رواية أخرى (أن قريشاً أصابتها أزمة وقحط فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعميه حمزة والعباس ألا نحمل ثقل أبي طالب في هذا المحل فجاءوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم، فقال دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم وكان شديد الحب لعقيل، فأخذ العباس طالبا وأخذ حمزة جعفرًا وأخذ محمد صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام وقال لهم قد اخترت من اختاره الله لي عليكم علياً، قالوا فكان علي عليه السلام في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منذ كان عمره ست

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

(٢) ابو القاسم ابن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧ هـ)، صورة الارض، دار صادر، ط ٢، (بيروت ١٩٣٨)، ص ٣٠.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٦٨/٧.

سنين^(١). وهذه الرواية يعتربها الشك إذ أنّ بني عبد المطلب يعيشون واقعاً واحداً وبيئة واحدة وعليه:

١ - لو كانوا يريدون أن يساعدوا أخاهم أبا طالب لكانوا مدوه بالمال لاعالة أولاده حتى يخرج من الازمة، ولماذا يأخذون أبناءه ويتركون واحداً فقط؟ وهم يعيشون بشعب واحد وبيوتهم متقاربة.

٢ - لم يكن أبو طالب فقيراً، فقد كان تاجراً يعالج العطر والبز في مكة كما ذكر الجاحظ^(٢).

٣ - إن جعفرأ لم يكن صغيراً حتى يأخذه أعمامه، إنما كان شاباً فكيف يؤخذ من أهله، ولم تجر العادة في قريش أن الفقير يعال بأخذ أبنائه، والحمزة عمه ليس كبيراً بل كان قريباً من عمر جعفر وعقيل.

٤ - نحن نعتقد ان الرواية فيها جانب من الشك، والغرض منها كان إعطاء عقيل أهمية خاصة عند أبيه دون إخوته، والتقليل من أهمية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عند الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لتبين ان الغرض من وجود الإمام عليه السلام في بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن تهيئته لقيادة الامة من بعده، بل كانت نتيجة ظرف طارئ.

ولعل تلك الازمات وبيئة مكة الصحراوية قد جعلتهم يعتمدون على غيرهم في توفير قوت حياتهم المعيشية، فيذكر ان اغلب ما يحتاجونه يأتيهم من الطائف^(٣)، وكذلك كانوا

(١) شرح نهج البلاغة، ٤١/١؛ تنظر الرواية عند ابن هشام، السيرة النبوية، ٢٢٨/١؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣١٣/٢.

(٢) ابو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، المحاسن والاضداد، ط ٣، مكتبة الخانجي، (القاهرة ١٩٩٤)، ص ١٠٧.

(٣) سالم، عبد العزيز، تاريخ الدولة العربية تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الاموية، دار

يستوردون الحنطة والشعير والفواكه والخضر من قبيلة خثعم الواقعة منازلها بين مكة والمدينة، إذ توافرت لها موارد اقتصادية وزراعية كثيرة ومتنوعة ناتجة من وجود منازلها في مناطق الوديان التي تتصف بوجود الاراضي الزراعية ذات المحاصيل المختلفة منها غابات النخيل والإشجار المثمرة، وأنواع الخضروات على مدار فصول السنة^(١).

تعد يثرب (المدينة المنورة)، وهي مدينة تبعد حوالي ثلاثمائة ميل شمال مكة واحة خصيبة التربة غزيرة المياه^(٢)، بسبب إنتشار العيون والآبار فيها مثل بئر أريس وبئر الاعواف وبئر بضاعة وبئر رومه وبئر بيرحاء وغيرها^(٣)، وتروي تلك المياه عدداً من الاراضي التي تمثل الزراعة عماد اقتصادها، لاسيما زراعة النخيل، فقد ذكر لنا ابن أبي الحديد أن المسلمين بعد معركة أحد رجعوا إلى موقع القتال لتوقع هجوم المشركين على المدينة، وقال جابر بن عبد الله: (كانت عامة أزوادنا ذلك اليوم التمر وحمل سعد بن عبادة ثلاثين بعيراً تمراً حتى وافت حمراء الأسد)^(٤).

لعل هذه الرواية تبين لنا حجم البساتين الموجودة في المدينة لأن هذه الكمية من التمور لا يمكن جمعها بسهولة خصوصاً إذا كانت من شخص واحد حتى لو كان زعيم قبيلة، هذا من جهة ومن جهة أخرى ذكر لنا ابن أبي الحديد رواية أخرى عند الحديث عن معركة أحد إذ قال صفوان بن أمية لأبي سفيان عند المسير لقتال المسلمين: (إن لم

النهضة العربية، (بيروت ١٩٧٠)، ص ٢٤٥.

(١) الحمداني، عبد الفتاح عبد الله محمود، قبيلة خثعم ودورها في التاريخ العربي من قبل الإسلام وحتى نهاية العصر الراشدي، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٨، ص ١٢٥.

(٢) الشريف، أحمد ابراهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، (القاهرة ١٩٦٥)، ص ٣١١.

(٣) غضبان، مدينة يثرب قبل الإسلام، ص ٣٠- ٣٣.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٤٥/١٥.

يصحروا لنا عمدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه فتركناهم لا أموال لهم فلا يختارونها أبدا وإن أصحروا لنا فعدنا أكثر من عددهم، وسلاحنا أكثر من سلاحهم ولنا خيل ولا خيل معهم، ونحن نقاتل على وتر عندهم ولا وتر لهم عندنا^(١).

وهكذا نرى أهمية تلك البساتين في حياة أهل المدينة فهي عماد إقتصادهم ومن دونها لا أموال لهم، لذلك كانت قريش تفكر بقطع هذا الشريان الحيوي للقضاء على أهل المدينة والاسلام.

وكان التمر يمثل الغذاء الرئيسي عند أهل المدينة وهذا ما نراه من خلال ما نقله ابن أبي الحديد من حديث أبي العاص بن الربيع^(٢)، الذي ذكر الانصار عندما كان اسيراً عندهم بعد معركة بدر فقال: (كنا إذا تعشنا أو تغدينا آثروني بالخبز و أكلوا التمر، والخبز عندهم قليل والتمر زادهم حتى إن الرجل لتقع في يده الكسرة فيدفعها إلي)^(٣).

وتمتاز يثرب بإنتاج أنواع كثيرة من التمور اجودها (الصيحاني) الذي قال عنه ياقوت الحموي (لا يوجد مثله في البلدان)^(٤)، وابن طاب، وعذق زيد، والعجوة، والصرфан، وهو نوع من انواع التمر احمر، والجنيب، وقد كان ليهود بني النضير نوع فاخر من

(١) شرح نهج البلاغة، ١٤/١٦٨.

(٢) اسمه لقيط بن الربيع بن عبد العزى وكان يدعى جرو البطحاء، صهر رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)، زوج ابنته زينب، وهو ابن أخت أم المؤمنين خديجة، أمه هي هالة بنت خويلد، أسلم قبل الحديبية بخمسة أشهر، بعد أن أسره المسلمون مع ماله وتجارته ثم اجارته زوجته زينب، فرد المسلمون له أمواله، فرجع الى مكة وأعطى دينه ثم عاد الى المدينة واعلن اسلامه، ينظر، ابن حبان، ابو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (ت ٣٥٤ هـ)، مشاهير علماء الامصار اعلام فقهاء الاقطار، تحقيق مرزوق علي ابراهيم، دار الوفاء، (المنصورة ١٩٩١)، ص ٥٦؛ الذهبي، سير اعلام النبلاء، ١/٣٣٠-٣٣٤.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٤/١٤٦.

(٤) معجم البلدان، ٧/٢٣١، [مدينة يثرب].

التمر يقال له اللوز اصفر شديد الصفرة ترى النواة فيه من اللحمة^(١)، كما كانوا ينتفعون بكل شيء من النخلة، يأكلون جمارها، ويستخدمون جريدها في سقوف منازلهم، ويرضخون النوى بالمراضخ حتى يتكسر فيكون علفاً للحيوانات^(٢)، كذلك كانوا يزرعون الحبوب مثل القمح والشعير والفاكهة والخضر وخاصة العنب والسفرجل^(٣).

وكانت أوسع الأراضي وأخصبها بيد اليهود ووجهاء الأوس والخزرج وكانوا يستخدمون الآخرين للعمل فيها أما بالأجر، أو بالمزارعة أو عن طريق كراء الأرض لهم^(٤)، وذكر لنا ابن أبي الحديد (أن علياً عليه السلام عمل ليهودي في سقي نخل له في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمد من شعير فخبزه قرصاً فلما هم أن يفطر عليه أتاه سائل يستطعم فدفعه إليه وبات طاوياً وتاجر الله تعالى بتلك الصدقة فعد الناس هذه الفعلة من أعظم السخاء وعدوها أيضاً من أعظم العبادة)^(٥).

ولعل هذا الكلام في بداية الهجرة، إذ ترك المهاجرون أموالهم وأهاليهم في مكة وعملوا في يثرب لكسب قوتهم، وإلا فالإمام عليه السلام كان يملك عائدات بعض الأراضي الزراعية التي تغنيه عن ذلك.

ولم تقتصر الزراعة على يثرب فقط، فقد ذكر ابن أبي الحديد أن فدكاً^(٦) وهي خارج

(١) الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ٣٨١.

(٢) الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ٣٨٠؛ الملاح، الوسيط، ص ٣٣٤.

(٣) القيسي، رواء عبد الستار علي، الري والزراعة عند العرب في عصر ما قبل الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٢، ص ١٠٢؛ هادي، رياض هاشم، النشاط الزراعي في المدينة على عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، مجلة آداب الرفادين، العدد السابع والعشرون، الموصل، ١٩٩٥، ص ٣٠٧.

(٤) دلو، برهان الدين، جزيرة العرب قبل الإسلام، دار الفارابي، ط ٢، (بيروت ٢٠٠٤)، ص ٨٢.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٩/٨٦.

(٦) فدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله في سنة (٧ هـ) صلحاً وذلك أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لما صالح خيبر وفتح حصونها، بلغ ذلك أهل فدك فأرسلوا إليه أن يصلحهم

المدينة كانت قرية ذات نخل كثير^(١)، وقيل بل هي مجموعة قرى كثيرة المياه حتى انها كانت تغطيها احياناً، وقد ساعد وجود المياه والارض الصالحة للزراعة على اشتهاز فذك بزراعة النخيل الذي يشكل المحصول الرئيسي فيها وعماد زراعتها^(٢)، وذكر الواقدي أن عمر بن الخطاب عندما أجلى اليهود عن فذك دفع لهم نصف قيمة النخل بتربتها بعد أن بعث من يُقيم ارضهم، فبلغ (خمسين ألف درهم) أو يزيد^(٣)، ولعل هذا المبلغ كبير يدل على سعة ارضها وكثرة نخلها^(٤)، أما الطائف^(٥) فيقترن إسمها عادة بمكة وكاتتا تسمى القريتين، قال تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٦).

على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك فهي مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فكانت خالصة للنبي (صلى الله عليه واله وسلم) فجعلها في حياته لفاطمة (عليها السلام)، وفيها عين فوارة ونخيل كثيرة، ينظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤١٧/٦.

(١) شرح نهج البلاغة، ١٦٦/١٧.

(٢) بعيد، سامي جودة، فذك حتى نهاية العصر العباسي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بغداد، ٢٠٠٦، ص ٢٤.

(٣) ابو عبد الله محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ)، كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، ط ٣، (بيروت ١٩٨٤)، ٧٠٧/٢.

(٤) ومما يدل على أن هذا المبلغ كبير ما يذكره المؤرخون من أن أبا هريرة قدم بمال من البحرين فقال له عمر ماذا جئت به؟ فقال خمسمائة الف درهم فاستكثره عمر فقال له: أتدرى ما تقول؟ قال نعم مائة الف خمس مرات فقال عمر أطيّب هو؟ فقال: لا أدري فصعد عمر المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد جاءنا مال كثير فإن شئتم كلنا لكم كيّلاً، وإن شئتم عددنا لكم عدداً، ينظر الماوردي، الاحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٢٤٩.

(٥) هي وادٍ بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخاً، وهي مسيرة يوم للطالع من مكة، فيها من العنب العذب ما لا يوجد مثله في بلد من البلدان وأما زبيها فيضرب بحسنه المثل وهي طيبة الهواء شمالية ربما جمد فيها الماء في الشتاء وفواكه أهل مكة منها، ينظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢٤١/٦.

(٦) سورة الزخرف: الآية ٣١.

وهي مدينة زراعية كثيرة الشجر والثمر وفيها مياه جارية ساعدت على إقبال الناس على زراعتها^(١)، وتشتهر بزراعة العنب الذي يصدر قسم كبير منه إلى مكة^(٢)، فانتشرت حولها المزارع والبساتين التي تنتج الفاكهة والخضروات، وكانت لعامة قريش أموال في الطائف يأتونها من مكة فيصلحونها، وكان للعباس بن عبد المطلب أرض فيها يحمل منها الزبيب إلى مكة فينبذ في السقاية للحاج^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ الرسول محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عندما أراد نشر الإسلام في الطائف اجتمع عليه صبيانها وسفهاؤها وصاحوا به ورموه بالحجارة فلجأ إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما ينظران إليه فدعوا غلاما نصرانيا لهما يقال له عداس فقالا له خذ قطفا من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فأقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(٤).

وذكر ابن أبي الحديد هجراً^(٥) وقال: (هي بلدة كثيرة النخل يحمل منها التمر إلى غيرها)^(٦)، ويضرب بها المثل بكثرة النخيل فقيل (كناقل التمر إلى هجر)^(٧)، قال

(١) ياسين، نجمان، تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين، بيت الموصل للنشر، (الموصل ١٩٨٥)، ص ٤٠، الجميلي، تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدعوة الإسلامية، ص ١٩٦.

(٢) الادريسي، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ادريس الحسيني (ت ٥٦٠ هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، (بيروت ١٩٨٩)، ١/١٤١.

(٣) البلاذري، ابو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩)، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله انيس الطباع، مؤسسة المعارف، (بيروت ١٩٨٧)، ص ٧٥.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٤/٧٧.

(٥) الهجر بلغة حمير والعرب العاربة: القرية فمنها هجر البحرين وهجر نجران وهجر جازان وهجر حصنة من مخلاف مازن، اما هنا فالمقصود هجر المدينة وهي قاعدة البحرين وربما قيل ناحية البحرين كلها هجر وهو الصواب، وقد فتحت في أيام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في سنة ثمان على يد العلاء بن الحضرمي، ينظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٨/٤٨٦.

(٦) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٤٢.

الشاعر:

ليستْ بِشَبْعِي ولو أوردتها هَجْرًا
ولا بِرِيٍّ ولو حَلَّتْ بِذِي قَارِ

أي لا يشبعها كثرة التمر ولو نزلت هجر ولا تروى ولو نزلت ذي قار وهو موضع كثير الماء^(٢). وذكر الحميري انها(بلاد سهلة كثيرة الأنهار والعيون عذبة الماء ينبطون الماء على القامة والقامتين، والحناء والقطن على شطوط أنهارها بمنزلة السوسن، وهي كثيرة النخل والفواكه، ولها تمر إذا انتبذ وشرب اصفرت الثياب من عرقه، وبساتينهم على نحو ميل منها ولا يأتونها إلا غدواً أو رواحاً لأفراط حر الرضاء)^(٣).

وكانت اليمامة^(٤) من المناطق الزراعية المهمة التي اشتهرت بكثرة القرى والمزارع فهي من أخصب البلاد أرضاً وأكثرها مياهاً ونخلاً^(٥)، وقيل انها أكثر تماً ونخلاً من المدينة ومن سائر الحجاز^(٦)، وذكر ابن أبي الحديد أنّ الرسول محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أكرم الجارود وعبد القيس حين وفدا إليه وقال للأنصار: (قوموا إلى إخوانكم وأشبه الناس بكم، قال لأنهم أصحاب نخل كما أن الأوس والخزرج أصحاب نخل و مسكنهم

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥/١٤٢، ينظر المثل وتفصيله في ص ٢٣٥ من الرسالة.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥/٤٠.

(٣) محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠ هـ)، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، ط ٢، مكتبة لبنان، (بيروت ١٩٨٤)، ص ٨٢.

(٤) مدينة بينها وبين البحرين عشرة أيام وهي معدودة من نجد وقاعدتها حجر وتسمى اليمامة جوا والعروض بفتح العين وكان اسمها قديماً جوا فسميت اليمامة باليمامة بنت سهم بنطسم. كان فتحها وقتل مسيلمة الكذاب في أيام أبي بكر سنة ١٢ للهجرة على يد خالد بن الوليد عنوة ثم صولحوا ينظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥٠٥/٨.

(٥) الدينوري، الاخبار الطوال، ص ٥٥؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥٠٦/٨، [مادة اليمامة].

(٦) الاضطخري، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٤١ هـ)، كتاب المسالك والممالك، مطبعة بريل، (ليدن ١٩٣٧)، ص ١٨.

البحرين واليمامة)^(١).

أما في اليمن التي لم يتطرق ابن أبي الحديد إليها على الرغم من أهميتها الزراعية فقد تميزت بخصوبة ارضها، وتوفر المياه فيها فقد كانت الزراعة عماد حياتها وسميت اليمن بالخضراء لكثرة اشجارها وثمارها وزروعها^(٢)، وأكثر اعتمادها على تساقط الامطار الموسمية وما توفره من مياه لزراعة الحبوب وسقي البساتين، وقد تم بناء عدد من السدود للاستفادة من مياه الامطار والسيول لإرواء الاراضي الزراعية ويُعد سد مأرب من أهم تلك السدود التي إكتسبت شهرة في تاريخ اليمن^(٣).

ثانياً: الصناعة:

تُعدّ الحرف الصناعية من المهن القليلة التداول لاسيما عند البدو الذين كانوا من أبعد الناس عنها، ولعل ذلك يعود كما يذكر ابن خلدون إلى (أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري، وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها)^(٤)، وكانوا ينظرون إليها نظرة احتقار وإن نفوسهم تأبى الإمتهان بها، وكما عير الإعشى أياد بزراعتها، فقد عير عمرو بن كلثوم النعمان بن المنذر وهو ملك الحيرة بأن أمه من أسرة تمتهن الصياغة فقال في النعمان:

لحا لله أدنانا إلى اللؤم زلفَةً وألأمنأ خالاً وأعجزنا أبأ
وأجدرنا أن ينفخ الكير خاله يصوغ القروط والشنوف بيثرباً^(٥)

(١) شرح نهج البلاغة، ٤٢/١٨.

(٢) الهمداني، لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤ هـ)، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي، مكتبة الارشاد، (اليمن ١٩٩٠)، ص ٩٠.

(٣) دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص ٧٥؛ سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ٣٠.

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٤٣٠/١.

(٥) الديوان، ص ٢٥.

وذكر محمد الخضري ان جريراً كان دائماً ما يعيب الفرزدق وكلاهما من تميم لأن أحد آبائه كان محترفاً بحرفة هي جلاء السيوف، وكان المعديون يعيرون اهل اليمن بدباغة الجلود^(١)، قال جرير:

اذا عَدتِ الأيامُ أخزین دارماً وتخزیکَ یابن القینِ أيامُ دارم^(٢)

ويبدو ان السبب في عزوف البدو عن الصناعات هو لكونها تتطلب حالة من الاستقرار الذي يتناقض مع حياتهم القائمة على التنقل والترحال، لذا نرى ان سكان الحيرة واليمن ومشارف بلاد الشام هم من أمهر من اشتغل في الصناعات عند العرب، أو ربما نفرت منها العرب كونها من حرف المستضعفين من الناس، ولكن هذا لا يغني من وجود صناعات وحرف امتهنتها أشرف مكة لسد احتياجاتهم البسيطة كما سنبين لاحقاً.

ومن ابرز الصناعات التي كانت منتشرة في مجتمع عرب قبل الإسلام، صناعة النسيج، وهي من اشهر الصناعات التي اشتهرت في بلاد العرب لاسيما في بلاد اليمن، لازدهار الزراعة فيها وتوفر المراعي، فكثير الصوف والكتان، فكان الصوف يغزل وينسج، ومن ابرز من امتهنتها اهل اليمن فقد ذكر ابن أبي الحديد انهم كانوا يعيرون بالحياكة، ومن كلام خالد بن صفوان عنهم: (ما أقول في قوم ليس فيهم إلا حائك برد أو دابع جلد)^(٣)، وقد ذكرهم ابن أبي الحديد تعليقاً على كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام للأشعث بن قيس بعد أن إعترضه، وكان عليه السلام يخطب في

(١) الدولة الاموية، مكتبة الايمان، (القاهرة ٢٠٠٦)، ١/١٨.

(٢) جرير بن عطية (ت ١١٠ هـ)، الديوان، قدم له وشرحه تاج الدين شلق بن حذيفة الخطفي التميمي، دار الكتاب العربي، (بيروت ٢٠٠٨)، ص ٦٣٢.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١/٢٧٤.

الكوفة ويذكر أمر الحكّمين فقام اليه رجل من أصحابه فقال له: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فما ندري أي الأمرين أرشد، فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى وقال:

«هذا جزاء من ترك العقدة».

وكان مراده عليه السلام هذا جزاؤكم إذ تركتم الرأي والحزم وأصررتم على إجابة القوم إلى التحكيم، فظنّ الأشعث أنه أراد هذا جزائي حيث تركت الرأي والحزم وحكمت، لأن هذه اللفظة محتملة ألا ترى أن الرئيس إذا شغب عليه جنده وطلبوا منه اعتماد أمر ليس بصواب فوافقهم تسكيناً لشغبهم لا استصلاحاً لرأيهم ثم ندموا بعد ذلك قد يقول هذا جزاء من ترك الرأي وخالف وجه الحزم ويعني بذلك أصحابه، وقد يقوله يعني به نفسه حيث وافقهم أمير المؤمنين عليه السلام إنما عنى ما ذكرناه دون ما خطر للأشعث الذي قال: هذه عليك لا لك^(١)، فرد عليه الإمام عليه السلام:

«وَمَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ لَعْنَةُ الْأَعْيُنِ حَائِكُ ابْنُ حَائِكِ»^(٢).

وزاد عليها ابن أبي الحديد عندما ذكر القصة نفسها في مكان آخر مع تغيير جزئي في مضمونها أن الإمام عليه السلام قال له:

«حَائِكُ ابْنُ حَائِكِ، إني لأجد منك بنة الغزل»^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد أيضاً أن الأشعث خطب إلى الإمام ابنته فزبره وقال (يا ابنُ الحائك، أغرّك ابن أبي قحافة؟)^(٤).

(١) شرح نهج البلاغة، ١/٣٧٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١/٢٦٩، [خطبة ١٩].

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٤/١١.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٤/٥٧.

من خلال قرائتنا للروايات السابقة التي أوردها ابن أبي الحديد في أجزاء مختلفة من كتابه يمكن أن نستنتج النقاط الآتية:

١ - إن الإمام عليه السلام لم يقصد الإهانة لصنعة معينة، ولكن كما بيّنا سابقاً إن العرب يرون أن السيف يمثل الرجولة وهو أكثر من الامتهان لصنعة معينة، فمن يمتهن الحياكة كأنه ترك السيف والقتال والتجأ إلى حالة الاستقرار، وهي صفة تضرب لمن يتخاذل عن استخدام السيف.

٢ - قد يكون الإمام عليه السلام قد أراد حياكة المؤامرات، فقد وردت كلمة حائك بمعنى حياكة الكلام فيروي ابن الجوزي مجموعة من الحكايات الطريفة لرجل اسمه ابو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول كاتب المأمون ومنها حكايته مع رجل كان قد اركبه معه في أثناء سفره إلى البصرة من الرقة وعندما سأله عن مهنته قال له انه حائك، فاستهان به ودار بينهما حوار طويل حول الأحكام والأصول والفروع أثبت فيها الرجل براعته في الكلام فأستغرب منه ابو الفضل فقال له: أليس زعمت إنك حائك، فقال: أنا حائك كلام وليس بحائك نساجة^(١)، وقيل (يمكن أن يكون المراد بالحياكة نسج الكلام فيكون كناية عن كونه كذاباً، كما روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه ذكر عنده أن الحائك ملعون فقال: «إنما ذاك الذي يحوك الكذب على الله وعلى رسوله»^(٢)، والاشعث كان ممن وقف ضد الإمام عليه السلام طالباً منه وقف القتال والامتنال إلى التحكيم، ثم يرد عليه بعد فشل التحكيم، لذا جاء القول مطابقاً للمعنى، ولو ان الصناعة هي سبب هذا القول، وعدم تزويج ابنته منه لما كان الإمام الحسن يخطب ابنة الاشعث ويتزوجها، ولكن المعنى إنه خبيث لا يصلح لها وهذا هو

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والامم، ٧/١١ - ٩.

(٢) المجلسي، بحار الانوار، ٤٣٢/٣٣.

الأولى من غيره.

٣ - ذكر البحراني في تعليقه على كلام الإمام عليه السلام رداً على الأشعث (قوله حائك ابن حائك إستعارة أشار بها إلى نقصان عقله، وقلة إستعداده لوضع الأشياء في مواضعها، وتأكيداً لعدم أهليته للاعتراض عليه إذ الحياكة مظنة نقصان العقل، وذلك لأن ذهن الحائك عامة وقته متوجه إلى صنعته مصوب الفكر إلى أوضاع الخيوط المتفرقة وترتيبها ونظامها يحتاج إلى حركة رجليه ويديه)^(١)، ومع تحفظنا على هذا الكلام فقد يكون الامام عليه السلام قد أراد هذا المعنى مع كثرة مواقف الأشعث المشينة، إذ كان رأس النفاق في خلافة الإمام عليه السلام.

٤ - قد تكون الرواية موضوعة وغير موجودة أصلاً فلم نجد لها ذكراً إلا في كتاب الأغاني^(٢)، وما ذكره الشريف الرضي عند تجميعه لخطب الإمام عليه السلام، مع الإختلاف والتناقض والزيادة في نقل تفاصيل الرواية عند ابن أبي الحديد عند ذكرها في أكثر من جزء في كتابه، مما يجعلها عرضة للشك.

واشتهرت صناعة النسيج بالبرود والملابس اليمينية الممزوجة بجودة النسيج وبحسن الصنعة والدقة، ولعل أبرزها (ثياب الحبرت)^(٣)، وقد ذكرها ابن أبي الحديد من خلال آيات للزبير بن عبد المطلب يتفاخر بلبسها:

لنا الحَبَرَاتُ وَالمِسْكُ الفَتِيْتُ
وَكأْسٌ لَو تَبِينُ لَهُم كَلَاماً^(٤)

(١) كمال الدين بن ميثم بن علي بن ميثم (ت ٦٧٩)، شرح نهج البلاغة، ط ٣، مكتبة فخراوي، (البحرين ٢٠٠٧)، ص ١٩٣.

(٢) ابو الفرج الاصفهاني، مج ٧، ٥١٧/٢١.

(٣) الحبرة: وهي ضرب من برود اليمن منمر وهي برود موشاة مخططة من أثن البرود، ينظر الجبوري، يحيى وهيب، المنسوجات

العربية في الشعر الجاهلي، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد السابع، جامعة قطر، ١٩٨٤، ص ٣١٥

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٥٤.

وكذلك قصة امرئ القيس الذي خطب امرأة من العرب فسألته ثلاث مسائل شرط زواجها به فقالت (مم تختلج شفتاك؟ فقال لشربي المشعشات، قالت فمم يختلج كشحاك؟ قال للبسي الحبرات، قالت فمم تختلج فخذاك؟ قال لركضي المطهعات، فقالت هذا زوجي لعمرى فعليكم به فأهديت إليه الجارية)^(١).

ومن ثياب أهل اليمن الناعمة (الخال)، وهو ثوب ناعم وضرب من البرود أرضه حمراء فيها خطوط سود^(٢)، وقد ذكره ابن أبي الحديد عندما أورد أبيات شعر لنوفل بن معاوية الدؤلي يعتذر فيها للرسول بعد فتح مكة:

ما حَمَلْتُ من ناقةٍ فوقَ كورها أبرُّ وأوفى ذمَّةً من محمدٍ
وأكسى لبردِ الخالِ قبلَ ارتدائه وأعطى لرأسِ السابقِ المتجرِّدِ

ومن أنواع الألبسة الأخرى في اليمن، العصب، والمرجل، والسحل، والمعاجز، والسيراء^(٣)، وكانت المنسوجات تصبغ بأصباغ متنوعة، تكون من النباتات لسهولة الحصول عليها، ولتوفره في المزارع، ومن أبرز نباتات الأصباغ في اليمن، العصفرو ويكون لونه أحمر، والزعفران الذي من خصائصه أنه إذا مسه الماء ظهرت رائحته، والورس وهو لا يكون إلا في اليمن، وله فوائد طبية كثيرة، وهو يعطي صفرة فاقعة^(٤)، وذكر ابن أبي الحديد أن الحارث بن سويد كان مرتدياً (ملحفة مורسة) عندما راه الرسول بعد قتله

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٠/١٨١.

(٢) الفراهيدي، العين، ٤/٣٠٤؛ الجبوري، المنسوجات العربية في الشعر الجاهلي، ص ٣١٥.

(٣) دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص ١١١، طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٦٨.

(٤) ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، ص ٣١٥؛ مطر، جواد، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديم، دار

الثقافة العربية، (الشارقة ٢٠٠٢)، ص ٤٠٥؛ العلي، صالح احمد، الوان الملابس العربية في العهود الاسلامية

الاولى، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد السابع والعشرون، بغداد، ١٩٧٦، ص ٨٣- ٨٥.

مجذر بن زياد في معركة أحد بعد عداوة كانت بينهما سابقاً^(١)، وملحفة مورسة أي مصبوغة بنبات الورد، وكانت كسوة الكعبة في الجاهلية من الأنطاع والمعافر، والمعافرية ثياب أشتهرت بها قبيلة المعافر الذين كانوا يقيمون في اليمن، وان تبان أسعد أبي كرب، أحد تابعة اليمن هو أول من كسى الكعبة^(٢).

ومن الصناعات الأخرى التي عرفها العرب الصناعات الجلدية ولعل ابرزها صناعة الأديم، وذكر ابن أبي الحديد أن الأديم واحد و الجمع آدم كما قالوا أفيق^(٣) للجلد الذي لم تتم دباغته و جمعه أفق و قد يجمع أديم على آدمة^(٤)، وكانوا يدبغون الجلود ويستخدمون (القرظ) في دباغتها، وهو ورق يؤخذ من شجرة القارظ، ويسمى من يبيعه القارظ، وكان يطحن بحجر الطواحين وتكون مادته حادة ويكثر في مدينة صعدة اليمنية^(٥)، وقد ذكره الإمام علي عليه السلام بقوله:

«فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالَةِ الْقَرْظِ وَقَرَاضَةِ الْجَلْمِ»^(٦).

وعلق عليه ابن أبي الحديد بقوله (والقرظ ورق السلم يدبغ به وحثالته ما يسقط منه، والجلم المقص تجزبه أوبار الإبل، و قراضته ما يقع من قرضه و قطعه)^(٧). وكانت الجلود المدبوغة تستعمل في صنع القرب والنعال والخفاف والأنطقة والخيام وبيوت

(١) شرح نهج البلاغة، ٦٦/٦.

(٢) طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٦٩، البهادلي، ازهار غازي مطر، قبيلة الاشعريين ودورهم في التاريخ العربي الاسلامي حتى نهاية العصر الاموي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة ديالى، ٢٠٠٥، فص ١، ص ٢٩.

(٣) والأفيق: الجلد الذي لم تتم دباغته، والجمع أفق، وقد أفق أديمه يأفقه أفقاً، أي دبغه إلى أن صار أفيقاً، ينظر الجوهري، الصحاح، ص ٣٨، [مادة افق].

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٥٤/٣.

(٥) دلو، جزيرة العرب، ص ١١٤، مطر، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديم، ص ٤١٩.

(٦) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣٨/٢، [خطبة ٣٢].

(٧) شرح نهج البلاغة، ١٤١/٢.

البادية^(١)، وقد ذكر القرآن الكريم تلك الصناعة بقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾^(٢).

وتعد الطائف من المدن التي اشتهرت بدباغة الجلود، فذكر الهمداني ان (الطائف مدينة قديمة جاهلية وهي بلد الدبّاغ)^(٣)، وكانت ثقيف تسكن الطائف لذا عُيرت بالدباغة وقد ذكر ابن أبي الحديد مشادة كلامية بين عبد الرحمن بن عوف والمغيرة بن شعبة الثقفي بعد تسلم عثمان الخلافة نعت الاول المغيرة لأنه من ثقيف بالدباغة عندما قال المغيرة لعثمان (أما والله لو بويع غيرك لما بايعناه، فقال عبد الرحمن بن عوف كذبت والله لو بويع غيره لبايعته و ما أنت وذاك يا ابن الدباغة والله لو وليها غيره لقلت له مثل ما قلت الآن تقربا إليه و طمعا في الدنيا فاذهب لا أبا لك)^(٤).

ومن الصناعات الأخرى التي امتتها العرب استخراج العطور والروائح العطرية من الازهار والنباتات والحيوانات، ولعل أبرزها الطيب وهو من الصناعات التي اشتهرت فيها بلاد اليمن^(٥)، وتناوله الشعراء في قصائدهم، فقال امرؤ القيس:

ألم ترياني كلما جئت طارقاً
وجدتُ بها طيباً وإن لم تُطيب^(٦)

(١) عرفة، العرب قبل الإسلام، ص ٢٣٠؛ دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص ١١٦.

(٢) سورة النحل: الآية ٨٠.

(٣) صفة جزيرة العرب، ص ٢٣٣.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٤٢/٩.

(٥) طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٧٣.

(٦) الديوان، ص ١٩؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٨٣/١٩.

وذكر الإمام عليه السلام الطيب بقوله:

«نِعْمَ الطَّيْبُ الْمِسْكُ خَفِيفٌ مَحْمَلُهُ عَطِرٌ رِيحُهُ»^(١).

وقال ابن أبي الحديد تعليقا على قول الإمام عليه السلام:

«كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كثير التطيب بالمسك وبغيره من أصناف الطيب. وجاء الخبر الصحيح عنه، حُب إلي من دنياكم ثلاث، الطيب و النساء و قررة عيني في الصلاة»^(٢).

وقد ذكر ابن أبي الحديد مجموعة من الروايات تحت موضوع أسماء (فصل فيما ورد الطيب من الآثار)، تخلله سرد مجموعة من العطور والروائح المستخدمة أهمها (المسك) فقد ذكر أنه يستخرج من (سرة دابة كالظبي له نابان أبيضان معقفان إلى الجانب الإنسي كقرنين)^(٣)، وهي (شبيهة بالخشف^(٤)) تكون في ناحية تبت تصاد لأجل سرتها فإذا صادها الصائد عصب سرتها بعصاب شديد وهي مدلاة فيجتمع فيها دمها ثم يذبحها و ما أكثر من يأكلها ثم يأخذ السرة فيدفنها في الشعر حتى يستحيل الدم المحتقن فيها مسكا ذكيا بعد أن كان لا يرام تتنا و قد يوجد في البيوت جردان سود يقال لها فأر المسك ليس عندها إلا رائحة لازمة لها)^(٥)، وقد ورد ذكر المسك في القرآن الكريم بقوله تعالى:

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٨٠/١٩، حكم ومواعظ [٣٩٩].

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٨٠/١٩؛ ابن حجر العسقلاني، ابو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد (ت ٨٥٢ هـ)، لسان الميزان، ط٢، مؤسسة الاعلمي، (بيروت ١٩٧١)، ٤١٥/٤.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٨٤/١٩.

(٤) الخشْفُ: الظَّبْيُ بعد أن يكون جَدَايَةً وقيل هو خَشْفٌ أَوْلَ ما يولد وقيل هو خشف أول مَشْيِهِ والجمع خَشَفَةٌ والأشْيُ بالهاء، وقيل أَوْلَ ما يولد الظبي فهو طَلًا، ثم خَشْفٌ، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٧٧/٣، [مادة خشف].

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٨٣/١٩.

﴿حَتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَاتُ الْبَلْبَابِ﴾^(١).

والعنبر مادة بحرية تجمع في فصل الشتاء من السواحل الجنوبية للجزيرة العربية^(٢)، وذكر ابن أبي الحديد ان العنبر يأتي طفاوة على الماء لا يدري أحد معدنه يقذفه البحر إلى البر فلا يأكل منه شيء إلا مات، ولا ينقره طائر إلا بقي منقاره فيه، ولا يقع عليه إلا نصلت أظفاره، والبحريون والطارون ربما وجدوا فيه المنقار والظفر، ويكون جماجم أكبرها وزنه ألف مثقال، والأسود أهدأ أصنافه، وكثيرا ما يوجد في أجواف السمك التي تأكله وتموت^(٣).
ومن الأنواع الأخرى الكافور، ذكر ابن أبي الحديد أنه ماء في شجر مكفور فيه، يغرزونه بالحديد فإذا خرج إلى ظاهر ذلك الشجر ضربه الهواء فانعقد كالصمغ الجامدة على الأشجار، هو أصناف منها الفنصوري والرباحي والأزاد والإسفرق الأزرق وهو المختط بحشبه وقيل إن شجرته عظيمة تظلل أكثر من مائة فارس وهي بحرية، وخشب الكافور أبيض إلى الحمرة خفيفه والرباحي يوجد في بدن شجرته قطع كالثلج فإذا شقت الشجرة تناثر منها الكافور الند هو الغالية و هو العود المطري بالمسك و العنبر و دهن البان^(٤).

ولم تكن اليمن بصناعة العطور بل انها تاجرت بها وكان يقصدها التجار من كافة المناطق القريبة منها، فذكر الاصفهاني ان اسماء بنت مخربة زوجة هشام بن المغيرة أم أبي جهل كانت عطارة، يأتيها العطر من اليمن فتتاجر به^(٥).

(١) سورة المطففين: الآية ٢٦.

(٢) طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٧٣.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٢٨٤/١٩.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٢٨٦/١٩.

(٥) الاغانى، مج ١، ٥٥/١.

وتعد الصناعات المعدنية من النشاطات التي عرفها مجتمع العرب قبل الإسلام فالتعدين من المهن التي احترفوها لحاجتهم الماسة إليها في أمور حياتهم وتساعدهم للقيام بنشاطاتهم الحربية والزراعية، وقد أشار القرآن الكريم في العديد من آياته إلى فوائد المعادن وكيفية استخدامها وكان يحدث الناس بها وهو لا يحدثهم عن أشياء لم يعرفوها، منها قوله تعالى:

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾^(١).

وقوله تعالى:

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

كذلك ما ذكره العرب والرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي عليه السلام والجغرافيون واللغويون من أسماء المعادن التي استخرجها العرب من باطن الأرض والوسائل التي استخدموها، فذكر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«اللهم من أراد المدينة بسوءٍ فأذبهُ كما يذوب الرصاصُ في النارِ، وكما يذوبُ الملحُ في الماءِ، وكما تذوبُ الإهالةُ في الشمسِ»^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد ان زينب بعثت في فداء أبي العاص بعلها بمال و كان فيما بعثت به قلادة كانت خديجة أمها أدخلتها بها على أبي العاص ليلة زفافها عليه فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رق لها رققة شديدة وقال للمسلمين:

(١) سورة الرعد: الآية ١٧.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٥.

(٣) الصنعاني، عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١ هـ)، المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الاعظمي، منشورات المجلس العلمي، قم، (د. ت)، ٢٦٤/٩.

«إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما بعثت به من الفداء فافعلوا».

فقالوا نعم يا رسول الله نفديك بأنفسنا وأموالنا فردوا عليها ما بعثت به و أطلقوا لها أبا العاص بغير فداء^(١).

وكان الإمام علي عليه السلام قد استخدم العديد من الالفاظ في خطبه التي تدل على المعادن كأسماء الذهب في حالاته المختلفة مثل التبر، والجواهر كالدر والياقوت، والعقيان للذهب واللجين للفضة، وقد ذكر ابن أبي الحديد قسماً منها في كتابه منها: قوله عليه السلام لما عزموا على بيعة عثمان:

«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي وَ وَاللَّهِ لَأَسْلِمَنَّ مَا سَلِمْتَ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً التِّمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَ فَضْلِهِ وَ زُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرَفِهِ وَ زَبْرَجِهِ».

وعلق ابن أبي الحديد على كلام الإمام بقوله والزخرف الذهب، والزبرج الزينة من وشي أو جوهر ونحو ذلك ويقال الزبرج الذهب أيضاً^(٢).

ومن كلام الإمام عليه السلام في وصف الطاووس:

«وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيْشِهِ وَيَعْرِى مِنْ لِبَاسِهِ فَيَسْقُطُ تَثْرَى وَيَنْبُتُ تَبَاعاً فَيَنْحَتُ مِنْ قَصْبِهِ انْحِتَاتٍ أَوْ رَاقٍ الْأَغْصَانِ ثُمَّ يَتَلَحَّقُ نَاطِئاً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ لَا يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ وَ لَا يَقَعُ لَوْ نُ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ وَ إِذَا تَصَفَّحَتْ شَعْرَةٌ مِنْ شَعْرَاتِ قَصْبِهِ أَرْتَكُ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً وَ تَارَةً خُضْرَةً زَبْرَجِيَّةً وَ أَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً»^(٣).

(١) شرح نهج البلاغة، ١٤/١٤٦.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦/١٣٣، [خطبة ٧٣].

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٩/٢١١، [خطبة ١٦٦].

وعلق ابن أبي الحديد على كلام الإمام بقوله والخضرة الزبرجدية منسوبة إلى الزمرد ولفظة الزبرجد تارة تستعمل له وتارة لهذا الحجر الأحمر المسمى بلخش، والعسجد الذهب^(١)، ومن قوله عليه السلام:

«وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الدُّهْبَانِ وَمَعَادِنَ الْعِقْيَانِ وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ وَأَنْ يَخْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الْأَرْضِينَ لَفَعَلَ وَكَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ وَبَطَلَ الْجَزَاءُ»^(٢).

وقال ابن أبي الحديد (العقيان، الذهب الخالص ويقال هو ما ينبت نباتا وليس مما يحصل من الحجارة)^(٣)، وقد ذكر في كتب المعاجم (دُرَيْتُ تراب المعدن، إذا طلبت منه الذهب)^(٤)، مما يدل على وجود الذهب في معدنه فيجمع ويطحن ثم يزررون تراب المعدن فيحصلون عليه من غير نار أو إذابة حجر.

ومن كلامه عليه السلام في وصف الخالق:

«وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ وَضَحِكْتَ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ مِنْ فِلْزِ اللَّجِينِ وَالْعِقْيَانِ وَنُثَارَةِ الدَّرِّ وَحَصِيدِ الْمَرْجَانِ مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ وَلَا أَنْفَدَ سَعَةً مَا عِنْدَهُ وَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ دَخَائِرِ الْأَنْعَامِ مَا لَا تُنْفِذُهُ مَطَالِبُ الْأَنْعَامِ لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَغِيضُهُ سُؤَالَ السَّائِلِينَ وَلَا يَبْخُلُهُ يُبْخِلُهُ الْإِحَاحُ الْمُلْحِينُ»^(٥).

وعلق ابن أبي الحديد على كلام الإمام عليه السلام بقوله: (الفلز اسم الأجسام

(١) شرح نهج البلاغة، ٢١٢/٩.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦٦/١٣، [خطبة ٢٣٨].

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣١٢/٦.

(٤) الجوهري، الصحاح، ص ٣٨٣، [مادة ذرا]؛ ابن منظور، لسان العرب، ٣٧٨/٣، [مادة ذرا].

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣١٢/٦، [خطبة ٩٠].

الذائبة كالذهب والفضة والرصاص ونحوها واللجين اسم الفضة جاء مصغراً كالكميت والثريا والعقيان الذهب الخالص ويقال هو ما ينبت نباتا وليس مما يحصل من الحجارة ونشارة الدر ما تناثر منه كالسقاة والنخالة، وحصيد المرجان كأنه أراد المتبدد منه كما يتبدد الحب المحصود ويجوز أن يعنى به الصلب المحكم^(١).

ويُعد الذهب والفضة من المعادن المهمة عند العرب كما بينا، وقد وجدت تلك المعادن في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية لاسيما في اليمن، وقد ذكر ان سيف بن ذي يزن لما طلب نصرة كسرى ضد الحبشة رفض أول الأمر وأعطاه عشرة آلاف درهم، فرفضها ونثرها بين الناس وقال له: وما أصنع بالذي اعطاني الملك! ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهب وفضة^(٢). وذكر الهمداني ان اليمامة فيها كثير من المعادن إذ خصص لها باباً في كتابه سماه معادن اليمامة وديار ربيعة وهي تحتوي على ذهب غزير، ابرزها معدن الحسن، ومعدن الحفير بناحية عماية، ومعدن الضييب عن يسار هضب القليب، ومعدن الثنية، ومعدن العوسجة، ومعدن شمام الفضة والصُفر ومعدن تياس، ومعدن العقيق ومعدن الهجيرة ومعدن بني سليم^(٣).

أما طرق استخراجها من الاماكن التي يتوافر وجوده فيها فهو إما أن يكون من الذهب الخالص وهذا لم يكلفهم مجهوداً يذكر، أو يكون مخلوطاً بالتراب أو موجوداً على شكل عروق بين الطبقات الصخرية فيتم فصله عن شوائبه بطريقتين، إما عن طريق الغرلة اذا كان ممزوجاً بالرمل والحصى، أو التصفية اذا كان مخلوطاً بالمرمر عن طريق قطعها إلى قطع صغيرة ثم طحنها ووضعها في الماء فيصفي التراب ويبقى الذهب^(٤)، وذكر جواد

(١) شرح نهج البلاغة، ٣١٢/٦.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١٤٠/٢.

(٣) صفة جزيرة العرب، ص ٢٦٧.

(٤) طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٦٠.

علي ان شركة التعدين السعودية عند تنقيتها في منجم (مهد الذهب) الذي كان لبني سليم وعرف باسمهم (منجم سليم) عثرت على ادوات فيه استعملها الأولون قبل الإسلام في استخراج الذهب واستخلائه من شوائبه، مثل رحى وادوات تنظيف ومدقات ومصايح^(١).

وقد انتشرت صناعة الحلي والمجوهرات في كثير من أنحاء الجزيرة العربية بعد أن كثر الطلب على ادوات الزينة التي تستعملها النساء والرجال، ومنها ما يعلق على الرقبة أو يوضع على الرأس، واهمها القلادة والاساور والتيجان والسلاسل، وكان الذهب يجلب إلى مكة من مناجم سليم ليتم تصنيعه أو ادخاره كسبائك ذهبية^(٢)، وكذلك تميزت المدينة عن غيرها في هذه الصناعة وقد تخصص بها بنو قينقاع من اليهود^(٣)، وكان لهم سوق خاص تباع فيه الحلي والمجوهرات وهو سوق الصاغة، يقصده الناس لشراء ما يطلبون من مصاغ^(٤).

ومن المعادن الأخرى التي عرفها العرب الرصاص والعقيق، والرصاص ذكره ابن أبي الحديد من كلام الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: (لو أن حلقة من سلاسل النار وضعت على جبل لذاب كما يذوب الرصاص)^(٥)، ومن أجود أنواعه الرصاص القلعي أو الرصاص الأبيض وهو الخالص منه وعرف بالانك^(٦)، واستخدم اهل اليمن الرصاص في صب اسس الاعمدة بين موضع اتصال الحجارة لترتبط بعضها

(١) المفصل، ٥١٤/٧.

(٢) الخربوطلي، علي حسني، تاريخ الكعبة، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص ٥٣.

(٣) الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ٤٠٠.

(٤) طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٦٣.

(٥) شرح نهج البلاغة، ٣٠/١٠.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، ١/١٨٨، [مادة أنك].

بعض^(١). اما العقيق، فقد ذكره ابن أبي الحديد في موضوع الرقي وكيف استخدمه العرب في استخراج أنواع من الخرز لاعتقادهم انها تجلب الخير وتدفع الشر^(٢)، وهناك الكثير من انواع المعادن التي لم يذكرها ابن أبي الحديد كانت منتشرة في الجزيرة العربية وعرفها العرب قبل الاسلام^(٣).

ذكرت بعض المصادر عدداً آخر من الصناعات والمهن الأخرى التي عرفها العرب قبل الإسلام، فقد حوت آيات القرآن الكريم على تسميات هي مصنوعات من وسائل الحياة عند العرب، مثل البيوت والحجرات والأواني المتنوعة والزينة والسلاح وأدوات الكتابة وغيرها^(٤).

وورود تلك المصنوعات والأسماء في القرآن دليل على أن عرب الجزيرة العربية كانوا يستعملونها، وإذا اقتنعنا بوجودها فهذا يعني أن هناك طبقة من العمال والصناع تمارس تلك المهن، وقد ذكر لنا الجاحظ بعض صناعات الاشراف فروى (أن أبا طالب كان يعالج العطر والبز، وأما أبو بكر وعمر وطلحة وعبد الرحمن بن عوف فكانوا بزازين، وكان سعد بن أبي وقاص يعدق النخل، وكان أخوه عتبة نجاراً، وكان العاص بن هشام أخو أبي جهل بن هشام جزاراً، وكان الوليد بن المغيرة حداداً، وكان عقبة بن معيط خماراً، وكان عثمان بن طلحة صاحب مفتاح البيت خياطاً، وكان أبو سفيان بن حرب

(١) طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٦٢.

(٢) ينظر موضوع الرقي ص ٩٤ من الرسالة.

(٣) للتفصيل بنظر العباسي، اريج أحمد حسن، الثروة المعدنية في اليمن والحجاز قبل الإسلام واهميتها الاقتصادية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بغداد، ٢٠٠٤.

(٤) من الأمثلة القرآنية، سورة الطور: ﴿وَالطُّورِ﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ وَالنَّبِيِّتِ الْمَعْمُورِ ﴿وَالسَّعْفِ

الْمَرْفُوعِ﴾، سورة الانسان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، سورة الحجرات:

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ قَوَارِيرٍ مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا﴾.

يباع الزيت والأدم، وكان أمية بن خلف يبيع البرم، وكان عبد الله بن جدعان نحاساً، وكان العاص بن وائل يعالج الخيل والإبل^(١).

يبدو لنا ان هؤلاء لم يمارسوا هذه المهن بأيديهم في مكة مع نظرة المجتمع لمهنة الصناعة إذ انهم تجارٌ أكثر من كونهم صناعاً كما ان المذكورين هم من سادة مكة واشرافها، لذا يمكن ان يكون لهم وكالات اعمال يديرها غيرهم كالعييد والاقبل درجة منهم وهم اصحابها، لاسيما ان في مكة الكثير من العرب والعجم والرومان واغلبهم كانوا يمارسون المهن وتبادل السلع، وعليه فقد كان هؤلاء يديرون هذه الصناعات ولكن باموال اهل مكة واثريائها.

ومعظم هذه المهن كانت مرتبطة بالتجارة إذ تستخدم لغرض التبادل لزيادة حيوية وفائدة التجارة التي كانت من النشاطات المهمة قبل الإسلام، وكان بروز الاسواق المحلية والموسمية أثره في ازدياد الاهتمام بها، ولكن على الرغم من ذلك فان بعضهم كان ينظر إليها نظرة عدم احترام، حتى بعد مجيء الإسلام، فيذكر ابن أبي الحديد ان عمر بن الخطاب شتم المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة وعيَّره أمام مجمع من الناس فقال له: ياقين بن القين، وكان الوليد بن المغيرة مع مكاتنه في قريش وكونه يسمى ريحانة قريش ويسمى العدل ويسمى الوحيد، حداداً يصنع الدروع وغيرها بيده^(٢).

والحدادة من الحرف الصناعية التي انتشرت عند العرب وذلك لحاجتهم الماسة إليها في حروبهم وكان الحداد يعرف بـ(القين)، والجمع القيون. وقنْتُ الشيء أَقِينُهُ قَيْنًا: لمَّمْتُهُ وأصلحته. وأنشد احدهم:

(١) المحاسن والاضداد، ص ١٠٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٥٤/١١.

ولي كِبْدٌ مجروحةٌ قد بدأ بها صُدُوعُ الهوى لو كان قَيْنٌ يَقِينُهَا^(١)

وذكر ابن أبي الحديد ان خباب بن الأرت (كان في الجاهلية قيناً حداداً يعمل السيوف)^(٢).

والحدادة استخدمت في صناعة الآلات الزراعية التي يحتاجها المزارع كالمحراث ذي السكة الحديدية، والمسحاة والأسلحة ولعل أشهرها السيوف والدروع اليمانية التي اشتهرت بجودتها^(٣)، وقد ذكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام السيوف المشرفية في خطبة له في استنفار الناس إلى أهل الشام فقال:

«فَأَمَّا أَنَا فَوَاللَّهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرِفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَّاشُ الْهَامِ وَتَطِيحُ السُّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ»^(٤).

وقال ابن أبي الحديد (المشرفية، السيوف المنسوبة إلى مشارف وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف)^(٥). وفي أبيات شعر للصحابي عمار بن ياسر في صفين ذكرها ابن أبي الحديد قال:

سيروا إلى الأحزابِ أعداءِ النبي
سيروا فخيرُ الناسِ أتباعُ علي
هذا أوانٌ طابَ سلُّ المشرفي
وقودُنَا الخيلَ وَهَزُّ السَّمْهَرِي

وَالسَّمْهَرِيُّ الرُّمْحُ الصَّلِيبُ العُودُ يُقَالُ وَتَرُّ سَمْهَرِيٌّ شَدِيدٌ كَالسَّمْهَرِيِّ مِنَ الرِّمَاحِ، وَيُقَالُ

(١) الجوهري، الصحاح، ص ٩٥٤، [مادة قين]، ابن منظور، لسان العرب، ٤١٩/٧، [مادة قين].

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٣٦/١٨.

(٣) دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص ١٠٨.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥١/٢، [خطبة ٣٤].

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٥٢/٢.

هي منسوبة إلى سَمَهَرٍ اسم رجل كان يُقَوِّمُ الرماحَ يقال رمح سَمَهَرِيٌّ ورماح سَمَهَرِيَّةٌ^(١).

ومن المهن الأخرى المعروفة صناعة الفخار وهي صناعة عريقة تمتد جذورها إلى ما قبل التاريخ، إذ عثر علماء الآثار على أوانٍ فخارية وخزفية في اليمن في (قرية) عاصمة دولة كندة، وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب، ومادة الفخار الطين أو الصلصال، يسوى على الشكل المطلوب، ويوضع تحت الشمس، فإذا جف فخر بالنار^(٢)، واشتهرت مكة واليمن بصناعة الأواني الفخارية، وقد ذكر الإمام (عليه السلام) طريقة تميز أواني الفخار الصحيحة من المكسورة واستخدمها في خطبه فقال: (كما تعرف أواني الفخار بامتحانها بأصواتها فيعلم الصحيح منها من المكسور كذلك يمتحن الإنسان بمنطقه فيعرف ما عنده)^(٣).

ومن الصناعات الأخرى صناعة الخمر وكانت صناعة كبيرة ومزدهرة عند العرب قبل الإسلام لانتشار شرب الخمر فيها، وقد ذكر ابن أبي الحديد مجموعة كبيرة من الروايات حول عادات العرب في شرب الخمر، ذكرناها في موضوع الأطعمة والأشربة في الفصل الثاني من الرسالة^(٤)، وعدت الطائف من المناطق المعروفة في صناعته لوجود العنب بكثرة في بساتينها، وما يؤيد ذلك ما رواه الواقدي حول قدوم وفد من ثقيف لمفاوضة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم حول الدخول في الإسلام فقال لهم: ان الإسلام حرم الزنا والربا وشرب الخمر، فارتفع القوم وخلا بعضهم ببعض فقال عبد ياليل: ويحكم نرجع إلى قومنا بتحريم هذه الخصال الثلاث، والله لا تصبر

(١) ابن منظور، لسان العرب، ٤/٥١٤، [مادة سمهر].

(٢) دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص ١٢٥.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠/٢١٣، الحكم المنسوبة [٣٦٣].

(٤) ينظر الرسالة ص ١٠٣.

ثقيف عن الخمر ابداً، ولا عن الزنا^(١).

ومن هذه الرواية يمكن ان نستنتج مدى تأثير الخمر في الطائف وما يسببه تحريمه من تأثير على النفوس التي تغلغلت فيها عادة شرب الخمر، وكذلك الخسائر المادية الكبيرة التي سوف يخسرونها جراء توقف صناعته المثمرة لديهم.

واهتم الغساسنة بصناعة الخمر، وقد ذكر أحد المؤرخين المعاصرين (ان رسوم شجرة الكروم على جدران قصر المشتى الغساني الذي يرجع بنيانه إلى القرن السادس الميلادي، والرسم يمثل تطور هذه الشجرة ووصول ثمارها إلى مرحلة النضج، وربما يرجع هذا الاهتمام إلى استخدام ثمارها كمادة اولية في صناعة الخمر)^(٢).

ثالثاً: التجارة:

التجارة لغة: من تجرَ، يَتَجَرُّ، تَجْرَأُ، وتِجَارَةٌ باع وشري وكذلك اتَّجَرَ، اتَّجَاراً، وجمع التاجر، تجرٌّ، وتجار، وتُجَارُ^(٣)، والتاجر الذي يبيع ويشترى، ومن المجاز، التاجر الحاذق بالأمر، لما تحتاجه التجارة من ذكاء وحذق في مساومات البيع والشراء^(٤)، وذكر جواد علي ان (التجارة تكون الحرفة الوحيدة عند العرب التي لم ينظر العربي إليها وإلى المشتغل بها نظرة استهجان، وازدراء، وانتقاص، بل اعتبرت عندهم من اشرف الحرف قدراً ومنزلة)^(٥).

(١) المغازي، ٩٦٧/٣.

(٢) الموسوي، جواد مطر، دراسات في تاريخ الاقتصاد العربي قبل الإسلام الاحوال الاقتصادية في دولة الغساسنة، مجلة المجمع العلمي، مج ٥٣، ج ١، بغداد، ٢٠٠٥، ص ٢٧٧.

(٣) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٦٦٦ هـ)، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، (بيروت ١٩٨١)، ص ٧٥، [مادة تجر]؛ ابن منظور، لسان العرب، ٤٤٥/١، [مادة تجر].

(٤) علي، المفصل، ٢٢٨/٧.

(٥) علي، المفصل، ٢٢٧/٧.

وقد نشطت التجارة أول الأمر في اليمن وإمتدت إلى الهند وإلى افريقياً وإلى بلاد الشام والروم، حتى إذا ما هدت السيول سد مأرب اضطربت الحياة السياسية، فكسدت التجارة وانتقل نشاطها التجاري إلى مكة^(١)، إذ كان لموقعها الذي يتوسط العالم القديم وانفتاحها على اليمن والعراق وفارس والشام ومصر أثره الكبير في تنشيط حركة التجارة^(٢). كذلك بان نفوذ القوى الاجنبية في الجزيرة العربية (الفرس والروم)، لم يستطع ان يطال مكة، المحصنة جغرافياً التي تحيطها الجبال من كل جانب.

ولعل اول بروز للتجارة في مكة كان قبل عهد قصي بن كلاب، لكنه نشطها حيث جمع كل القبائل المحيطة به في مكة، وأرسل رسائل ورسلاً لكل الممالك والإمارات الموجودة في الجزيرة يؤمنهم على قوافلهم، ويدعوهم لموسم الحج، فأجابوه^(٣).

ثم ازداد اهتمام مكة بالتجارة في عهد هاشم بن عبد مناف فقد ذكر ابن أبي الحديد(أن هاشم كان رجلاً كثير السفر والتجارة فكان يسافر في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب و من ملوك اليمن و الشام كالعباهلة باليمن، واليكسوم من بلاد الحبشة، ونحو ملوك الروم بالشام فجعل لهم معه ربحاً فيما يربح وساق لهم إبلا مع إبله فكفاهم مؤونة الأسفار، على أن يكفوه مؤونة الأعداء في طريقه ومنصرفه، فكان في ذلك صلاح عام للفريقين و كان المقيم راجحاً والمسافر محفوظاً فأخصبت قريش بذلك و حملت معه أموالها و أتاها الخير من البلاد السافلة و العالية و حسنت حالها وطاب عيشها)^(٤).

ويبدو ان قريشاً كانت تحمل الأموال ومواد التجارة وتسير بها على شكل قوافل

(١) الجبوري، يحيى، الجاهلية مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي، مطبعة المعارف، (بغداد ١٩٦٨)، ص ٨٠.

(٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٩.

(٣) طوغان، مدعو النبوة في التاريخ الاسلامي، ص ١٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٥٢/١٥.

منظمة لحماية تجارتها، وكان غالباً ما يرافق تلك القوافل حرس وأدلاء يختارونهم من القبائل التي تقع ضمن سير القوافل وذلك لأنهم أعلم بأماكن الماء والكلأ التي تحتاجها القافلة في سيرها من جهة، ولأنهم يعلمون مكامن الخطر الذي قد تتعرض لها القوافل داخل أرضهم من جهة أخرى.

وقد ذكر القرآن الكريم تلك الرحلات بقوله:

﴿لِيَأْتِيَ قَرْيَشٍ * إِلَيْهَا مِنْ رِحْلَةِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(١).

وهو ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام لغرض التجارة، وقيل رحلة الشتاء إلى اليمن والحبيشة والعراق^(٢).

والإيلاف هو العهد والدمام، وكان هاشم بن عبد مناف قد أخذ من الملوك لقريش^(٣)، ونقل من خلاله تجارة قريش من المحلية إلى العالمية، وقد وفر لقريش عاملين رئيسين، الأول توثيق علاقاتهم مع الملوك الذين منحوهم مكانة خاصة في أراضيهم، والثاني إقامتهم للأحلاف والعهود مع القبائل التي تقع على طريق التجارة مما عزز من مكانة قريش وعلو كعبها بين العرب، وذكر ابن أبي الحديد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ رأيين:

الأول: هو خوف من كان في القوافل يرون على القبائل والأعداء وهم مغربون ومعهم الأموال.

(١) سورة قريش.

(٢) منيسي، اسلام نجاشي الحبيشة ودوره في صدر الدعوة الاسلامية، دار الفكر العربي، (القاهرة ٢٠٠١)، ص ٣٠.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ١٤١/١، [مادة ألف].

والثاني: إن هاشماً جعل على رؤساء القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة، فإن ذؤبان العرب و صعاليك الأحياء و أصحاب الغارات كانوا لا يؤمنون على الحرم ولا سيما ناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة و لا للشهر الحرام قدرا، مثل طيئ و خثعم و قضاة و كيفما كان الإيلاف فإن هاشما كان القائم به دون غيره من إخوته^(١).

ويبدو إن التفسير الاول أقرب للواقع، إذ اتفق عليه المفسرون بعبارات وصيغ مختلفة، فليل في تفسير قوله تعالى:

﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾

أنهم كانوا يقولون: نحن قطان حرم الله سبحانه، فلا يعرض لهم أحد في الجاهلية، وإن كان الرجل ليصاب في الحي من أحياء العرب فقال: حرمي حرمي فيخلى عنه وعن ماله تعظيماً للحرم^(٢)، وقيل تفضل عليهم بالأمن والرخص فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً^(٣).

أما التفسير الثاني الذي نقله ابن أبي الحديد فهو غريب فإذا كان هاشم هو من فرض الضرائب وحمى أهل مكة فهو أولى بالفضل عليهم وهذا مخالف لآيات السورة، وذكر الزركشي أن قوله تعالى:

(١) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٥٣.

(٢) الصنعاني، عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١ هـ)، تفسير القرآن، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتب الرشيد، (الرياض ١٩٨٩)، ٣/٣٩٨، الثعلبي، ابو اسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري (٤٢٧ هـ)، الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت ٢٠٠٢)، ١٠/٣٠٣.

(٣) ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، (بيروت ١٩٩٢)، ٤/٥٩٢.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾

أي من جوع شديد وخوف عظيم^(١).

وقيل (وآمنهم من خوف عظيم، وهو خوف أصحاب الفيل، أو خوف التخطف في بلدهم ومسائرهم)^(٢).

وذكرت بعض المصادر أن بني عبد مناف قد تقاسموا النشاط التجاري في مختلف البلدان المجاورة، فكان هاشم قد حصل على عهد أمان من القيصر البيزنطي لتجارة مكة الذاهبة إلى الشام، وعبد شمس حصل على عهد مماثل من الحبشة، والمطلب من اليمن، ونوفل من فارس لذا سمي أبناء عبد مناف بـ (المجبرين) كما سموا بـ (الإيلاف)^(٣).

وهذا يتناقض مع ما ذكره ابن أبي الحديد (إن أول من أخذ الإيلاف لقريش هاشم بن عبد مناف، فلما مات قام أخوه المطلب مقامه، فلما مات قام عبد شمس مقامه فلما مات قام نوفل مقامه و كان أصغرهم)^(٤)، وذكر ابن أبي الحديد أيضاً أن عبد الله بن عباس قال: والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ الإيلاف وأجاز لها العيرات لهاشم، والله ما شدت قريش رحالاً ولا حبلاً بسفر ولا أناخت بغيراً لحضر إلا بهاشم^(٥).

(١) بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤ هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، (القاهرة ١٩٥٧) ١٥٥/٣.

(٢) ابو حيان، تفسير البحر المحيط، ٥١٦/٨.

(٣) ابن حبيب، المنمق، ص ٣١ - ٤٠؛ ابن حبيب، المحبر، ص ٨٢؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢/٢٥٢؛ العلاق، علاء ابو الحسن اسماعيل، السفارة والوفادة في الدولة العربية الاسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، دار الشؤون الثقافية، (بغداد ٢٠٠٩)، ص ٧٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٥٢.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٥٩؛ هذا الرأي نجده ايضاً عند ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/٥٧؛ يعقوبي، تاريخ

يبدو من خلال قراءتنا لهذه النصوص أن بني عبد مناف قد استخدموا أسلوباً جديداً في التعاملات التجارية عن طريق تقسيم مناطق التجارة بينهم، فكل واحد منهم يتحرك بمنطقته الخاصة بهم، وقد يتميز عنهم هاشم بكونه المحرك الرئيسي لهذه العلاقات، وهو من يوزع الأدوار على إخوته، وتوفي ثلاثة منهم وهم يمارسون التجارة بعيداً خارج مكة، فذكر ابن حبيب أن هاشماً كانت تجارته إلى الشام فهلك بغزة، والمطلب تجارته إلى اليمن فمات بموقع يقال له (ردمان)، وكانت تجارة نوفل إلى العراق فمات بموضع يقال له (سلمان)^(١).

وقد ذكر مطرود بن كعب الخزاعي مواقعهم، يمدح بني عبد مناف فقال:

أَخْلَصُهِمْ عَبْدُ مَنْفٍ فَهُهُمْ	مَنْ لَوْمْ مَنْ لَامَ مَنجَاةٍ
قَبْرٌ بَرْدْمَانٌ وَقَبْرٌ	بِسَلْمَانَ وَقَبْرٌ عِنْدَ غَزَاتِ
وَمَيْتٌ مَاتَ قَرِيْبًا مِنْ	الْحَجْوْنَ مِنْ شَرْقِ الْبَنِيَاتِ ^(٢)

وذكر لنا ابن أبي الحديد أن هاشماً (قدم في تجارة له المدينة فنزل على عمرو بن زيد فجاءته سلمى بطعام فأعجبت هاشماً فخطبها إلى أبيها فأنكحها إياها)^(٣)، وهذا يدل على أن هاشماً لم يكتفِ بأخذ تجارته إلى الشام بل يسير بها إلى أماكن أخرى طلباً للتجارة والربح.

ويبدو أن رحلتي الصيف والشتاء اللتين تم ذكرهما هما الرحلتان الأساسيتان لأهل

اليعقوبي، ٢٧٠/١؛ درادكة، صالح موسى، بحوث في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار شيرين، الاردن ١٩٨٨، ص ١٠٢.

(١) المحبر، ص ١٦٢-١٦٣.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣٩٩/٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٦٠/١٥.

مكة، وان هناك رحلات أخرى نجدها طوال السنة، فقد ذكرت المصادر التاريخية أنّ المسلمين كانوا قد اعترضوا أكثر من قافلة لأغراض التجارة قبل موقعة بدر خلال سنة واحدة، ثلاثة منها قادها الرسول ومنها سرية عبيدة بن الحارث، وسرية الحمزة، وغزوة الإيواء، وغزوة بواط، وغزوة ذات العشيرة، وسرية عبد الله بن جحش^(١).

وفي عهد عبد المطلب وصلت تجارة قريش إلى ذروتها، فقد بدأ القرشيون يجنون ثمار المعاهدات التجارية التي عقدها هاشم مع الدول المجاورة المحيطة بها ولم تكن علاقاتهم لأغراض التجارة فقط بل كانت هناك علاقات اقتصادية وسياسية مختلفة، وذكر ابن أبي الحديد أنّ عبد المطلب قد وفد على سيف بن ذي يزن لتقديم التهاني بنصره على الاحباش الذين احتلوا اليمن^(٢)، وتعددت وفادات عبد المطلب إلى مختلف الطبقات الاجتماعية من حيث وظائفها بكونهم ملوكاً أو رجال دين^(٣).

ونتيجة لخروج قريش بتجارتها إلى مناطق متعددة من البلدان وبقوافل مختلفة فقد حصلوا على أموال طائلة حققوها من أرباح التجارة، وذكر ابن أبي الحديد أنّهم (كانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً)^(٤)، وقالوا لأبي سفيان بعد أن أفلت بقافلته من ايدي المسلمين قبل معركة بدر (بع العير ثم اعزل أرباحها فكانت العير ألف بعير و كان المال خمسين ألف دينار)^(٥)، وقد حاول ابو سفيان حبس عير بني زهرة لأنهم رجعوا من

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٧١/٢ - ١٧٧؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤٤/٣ -؛ ابن خياط، ابو عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي العصفري (٢٤٠ هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق مصطفى نجيب فواز وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٥)، ص ١٩ - ٢٦ - ٤٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٠٠/١٨، ينظر كذلك ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٠.

(٣) للتفصيل في أمر الوفادات ينظر القريشي، عباس امره، آل عبد المطلب وأثرهم في الحياة العامة حتى نهاية العصر الراشدي، فص ٣، ص ١٦٩ - ١٧٢.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٦٥/١٤.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٦٥/١٤.

طريق بدر، و سلم ما كان لمخرمة بن نوفل و لبني أبيه و بني عبد مناف بن زهرة فأبى مخرمة أن يقبل غيره حتى يسلم إلى بني زهرة غيرها، و أخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا منعة كل ما كان لهم في العير^(١).

من خلال قراءتنا لهذه الروايات يمكن ان نستنتج الآتي :

١ - إن تجارة مكة كانت مربحة جداً إذ يكون الربح مضاعفاً الدينار بدينار، وهذا ما أدى بعد ذلك إلى ظهور فئة من كبار التجار والاغنياء كان لهم دور كبير في السيطرة على اقتصاد مكة وتجارها، وكان اغلب اهل مكة يشتغلون بالتجارة، وذكر ابن أبي الحديد عند الحديث عن قافلة أبي سفيان أنه (كان فيها أموال عظام و لم يبق بمكة قريشي ولا قريشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به في العير حتى إن المرأة لتبعث بالشيء التافه وكان يقال إن فيها لخمسين ألف دينار و قالوا أقل)^(٢).

٢ - كانت قافلة أبي سفيان تحتوي (ألف بعير) وهو عدد كبير لقافلة تجارية مما يدل على كبر حجم التجارة في قريش.

٣ - كانت أموال التجارة تستخدم كوسيلة ضغط على رجال قريش الخارجين عن سياستها، وهذا ما رأيناه من محاولة منع عير بني زهرة وأخذها من بعض أقوام أهل مكة لأنهم رجعوا عن المشاركة مع أهل قريش في معركة بدر.

وكانت قريش تفرض الضرائب على التجار الغرباء ومن هذه الضرائب ضريبة العشر، فقد ذكر الأزرقى ان أهل مكة كانوا يعشرون من دخلها من تجار الروم^(٣)،

(١) شرح نهج البلاغة، ١٦٥/١٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٧٢/١٤.

(٣) اخبار مكة، ١٢٦/١.

وكذلك تجار الفرس وأقباط مصر والعرب الذين لا يرتبطون بحلف معها، وقد توافد على مكة عدد من هؤلاء واقاموا فيها وتحالفوا مع أثريائها، ومنهم من أقام بمكة نظير دفع جزية مقابل حمايتهم وحفظ اموالهم وتجارتهم^(١)، وهذه الضرائب هي شبيهة بالرسوم الكمركية التي كانت قريش تفرضها على التجارة الداخلة إليها لتحافظ على اسواقها وتدعم تجارتها.

وهناك من قال (في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشئون التجارية والتجسس على أحوال العرب)^(٢). ويبدو لنا أن مكة كانت على درجة كبيرة من الأهمية التجارية إذ يتواجد فيها أشبه ما يسمى اليوم بالاقنصلية الخارجية لإدارة شؤون البلاد المحيطة بها تجارياً وسياسياً، وأهل مكة في الوقت نفسه كانوا يحاولون الحفاظ على تجارتهم وهذا ما يفسر لنا قيامهم بمساندة حليفتهم كنانة في حرب الفجار بعد أن اعتدى البراض على عروة الرحال الذي كان اجيراً لقافلة تجارية للنعمان بن المنذر في الشهر الحرام فوَقعت الحرب بين قيس وكنانة^(٣).

وذكر لنا ابن أبي الحديد أن حلف الفضول كان سببه حماية التجارة والتجار في مكة، فقد كان رجلٌ من بني أسد قد قدم مكة معتمراً ببضاعة فاشترها منه العاص بن وائل السهمي ولم يعطه حقها فاستنفر أهل قريش فنصروه^(٤)، وقدم رجل من ثمالة من الأزد مكة فباع سلعة من أبي بن خلف الجمحي، فمطله بالثمن وكان سيئ المخالطة، فأتى الشمالي أهل حلف الفضول فأخبرهم فقالوا اذهب فأخبره أنك قد أتيتنا فإن أعطاك

(١) اسماعيل، حلمي محروس، الشرق العربي القديم وحضارته بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة، مؤسسة شباب الجامعة، (الاسكندرية ١٩٩٧)، ص ٢٢٩.

(٢) صالح، أحمد عباس، اليمين واليسار في الإسلام، ط ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت ١٩٧٣)، ص ١٩.

(٣) ينظر تفاصيل حرب الفجار ص ٣٤٧ من الرسالة.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٧٠.

حقك فخذة وإلا فارجع إلينا فأتاه فأخبره بما قال أهل حلف الفضول فأخرج إليه حقه^(١)، وإن رجلا من خثعم قدم مكة تاجرا ومعه ابنة يقال لها القتول فعلقها نبيه بن الحجاج السهمي فلم يبرح حتى غلب أباهما عليها ونقلها إليه، فقبل لأبيها عليك بحلف الفضول فأتاهم فشكا إليهم ذلك، فأخرجوها وأعطوها أباهما^(٢).

ويبدو لنا أن حلف الفضول كان له تأثير كبير على حماية التجار الغرباء القادمين إلى مكة من المستغلين، كي تكون مكة مدينة آمنة مستقرة لا يضيع فيها العدل ويصان فيها حق الغريب، إذ إن أخبار حماية التجار وتوفير الأجواء المناسبة لهم كانت تدخل الطمأنينة في نفوس القادمين إليها، مما زاد من حضورهم، ورفع شأن التجارة في مكة.

كانت العملات السائدة في مكة والحجاز (الدينار والدرهم) وهما عملتان اجنبيتان، فالدينار لفظة مشتقة من اللفظة اليونانية اللاتينية (ديناريوس)، أما الدرهم فلفظ مشتق من الدراهما اليونانية، واستعاره العرب من الفرس، والدرهم وحدة فضية، ولكون العرب لا يملكون داراً للسكة، وباعتبارهم وسطاء للتجارة بين الشرق والغرب كانوا يتعاملون بهاتين العملتين^(٣)، ويبدو أن الدينار يساوي عشرة دراهم وهذا ما يمكن استنتاجه من كلام الإمام علي عليه السلام وهو يخاطب أهل الكوفة:

«أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمُ الْعَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمُ الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمُ الْمُبْتَلَى بِهِمْ أَمْرَاؤُهُمْ صَاحِبِكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللَّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنْ مَعَاوِيَةَ صَارَ فِي بَيْتِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدَّرْهِمِ فَأَخَذَ مِنِّي عَشْرَةَ

(١) شرح نهج البلاغة، ١٦٩/١٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٦٨/١٥.

(٣) سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ٢٥٦.

مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ»^(١).

وقد ورد ذكر بعض هذه العملات في القرآن الكريم منها قوله تعالى:

﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَيْتَانًا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾^(٢).

وقوله تعالى:

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾^(٣).

ومن البضائع المستخدمة في التجارة التي ذكرها ابن أبي الحديد الأدم^(٤) وهي الجلود المذهبة التي كانت تصنع في الطائف واليمن^(٥)، وكانت تصدر بشكل رئيسي إلى الحبشة وقد ذكر ابن أبي الحديد روايتين: الأولى قيام عمرو بن العاص بإهداء النجاشي أدما كثيرا، إذ ذكر ابن العاص أن أحب ما يأتيه من أرضنا الأدم، وذلك عندما أراد استرجاع المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة^(٦)، والثانية في قصة عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص اللذين خرجا إلى الحبشة للتجارة شريكين فحصل خلاف بينهما على السفينة قبل وصولهما الحبشة^(٧).

ويبدو ان السفن هي الطريق الوحيد لنقل البضائع التجارية إلى الحبشة لوجود البحر بينهما، ولم نقرأ أن المكين كانوا يمتنون الملاحة أو ركوب البحر، لذلك من الأرجح ان

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥٤/٧، [خطبة ٩٦].

(٢) سورة ال عمران: الآية ٧٥.

(٣) سورة يوسف: الآية ٢٠.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٢٤٩/٩.

(٥) الملاح، الوسيط، ص ٢٨١.

(٦) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٤٩/٦.

(٧) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٣٩/٦؛ تفاصيل القصة ص ١٠٩ من الرسالة.

السفن التي كانوا يستأجرونها قد تكون مصرية أو حبشية وهم مشهورون بركوب السفن. ومن البضائع الأخرى التي كانوا يتاجرون بها العطور المستوردة من اليمن وكذلك سلع الهند وأفريقيا المصدرة لها كالذهب والقصدير والعاج وخشب الصندل والتوابل والاقمشة الحريرية، والزيت الذي كان المكيون يشترونه من بلاد الشام لصفائه ونقاوته وجودته وكذلك القمح والزيتون، وكانت تجارة قريش تذهب إلى العراق حاملة حاصلات اليمن والحجاز، وتعود بحاصلات العراق وبما يحتاجه أهل اليمن والحجاز من بضاعة^(١)، ومن شرق أفريقيا والحبشة تصلهم بضائع مثل الرقيق والعاج والذهب وريش النعام والقردة^(٢).

وأدى نجاح تجارة القوافل في مكة إلى تركيز الثروات الكبيرة بأيدي فئة قليلة من التجار الأغنياء، وقد أتاحت لهم كثرة أموالهم وزعامتهم بعضهم لعشائرتهم فرصة لتوظيف أموالهم في التجارة بشكل أفضل، وقد ذكر ابن أبي الحديد قسماً منهم مثل أسرة بني عبد مناف، هاشم وعبد شمس ونوفل والمطلب^(٣)، ومن التجار الآخرين عبد الله بن جدعان، وقد ذكره ابن أبي الحديد عند الحديث عن حلف الفضول إذ عقد الحلف بداره^(٤)، وكان نحاساً يشتغل بتجارة الرقيق وكان عظيم الثراء^(٥)، ومنهم أسرة آل أبي أحيحة، إذ كان لآل سعيد بن العاص أبي أحيحة في قافلة أبي سفيان التي تعرض لها المسلمون قبل معركة بدر

(١) علي، المفصل، ٢٩٤/٧؛ دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص ١٤٩؛ الموسوي، دراسة في تاريخ الاقتصاد العربي قبل الإسلام، ص ٢٧٩.

(٢) حتي، فيليب، وآخرون، تاريخ العرب، ط ٥، دار غندور، (بيروت ١٩٧٢)، ص ٨١.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥٢/١٥.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥٣/١٥.

(٥) سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ٢٥٥.

أكثر ما فيها من المال، إما مال لهم، أو مال مع قوم قراض على النصف^(١)، وكانت اسرة بني مخزوم من الأسر المكية فاحشة الثراء منهم الوليد بن المغيرة، وهو الذي قالت بشأنه قريش لما نزل القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ﴾^(٢).

وكانت لبني مخزوم فيها مائتا بغير و خمسة أو أربعة آلاف مثقال ذهباً، في قافلة أبي سفيان^(٣)، وكان للنساء دور كبير في تجارة قريش فيذكر أن السيدة خديجة كانت تمتلك كمية من الأموال، وترسل الرجال ليتاجروا لها في مالها فتجعل لهم حصصاً من الأرباح، فلما بلغها أمانة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه وكرم أخلاقه بعثت إليه وعرضت أن يخرج في مالها تاجراً إلى الشام فنجح بتجارته وأكسبها مالاً كثيراً^(٤).

ووجدت مكة منافسة تجارية من المناطق المحيطة بها لا سيما يثرب، إذ ذكر أن قبائل اليهود بالمدينة كانت مشغولة بالتجارة، حتى كانت المدينة منافسة في ذلك العصر لمكة^(٥).

ارتبط بالتجارة الكثير من الفعاليات الاقتصادية، لعل أبرزها اقراض الأموال بالربا، إذ استثمر الكثيرون من اثرياء مكة رؤوس أموالهم في إقراض المحتاجين بربا فاحش وكان المرابون يستغلون حاجة الناس إلى المال للمشاركة في رحلات القوافل التجارية، أو لشراء مؤنهم قبل أوان الموسم، وعند عدم سداد الدين يزداد مقدار الربا، وقد يبلغ الربا

(١) شرح نهج البلاغة، ٧٢/١٤.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٣١.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٧٢/١٤.

(٤) للتفاصيل ينظر الشرهاني، حسين علي، حياة السيدة خديجة من المهد إلى اللحد، دار الهلال، (بيروت ٢٠٠٥)،

ص ١٣٣ - ١٥٨

(٥) سيديو، خلاصة تاريخ العرب، دار الآثار، (بيروت ١٣٠٩ هـ)، ص ٣٥.

مئة بالمتة فكان الدرهم يستوفي درهمين والدينار دينارين^(١)، وكان الربا يجلب الشقاء المادي والاستعباد على الفئات المستضعفة، لذلك حرمه الإسلام بعد مجيئه، فقد ذكر ابن أبي الحديد أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ذكر في حجة الوداع:

«إن ربا الجاهلية موضوعٌ وأولُ ربا أبدأ به ربا العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ»^(٢).

(١) سلامة، عواطف اديب علي، قريش قبل الإسلام دورها السياسي والاقتصادي والديني، دار المريخ، (الرياض

١٩٩٤)، ص ٢٣٨؛ دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص ١٥٢.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١/١٤٣؛ ينظر الحديث عند الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، ٣/١٤٩؛ الريشهري،

محمد، العقل والجهل في الكتاب والسنة، دار الحديث، (بيروت ٢٠٠٠)، ص ٣٦٥.

المبحث الثاني أسواق العرب قبل الإسلام

تعد الأسواق من النشاطات الاقتصادية المهمة عند العرب قبل الإسلام إذ ارتبطت بحياتهم فهي لم تكن مكاناً للتجارة والمقايضة فقط بل كانت مظهراً من مظاهر الحضارة والرقي والوعظ والارشاد تتبادل فيه الآراء، والتشاور في حل المشاكل، وميداناً للمفاخرات والمنافرات ومنبراً للشعر والبلاغة والآدب، وذكر ابو حيان التوحيدي أن (ما يدلّ على تحضّرهم في باديتهم، و تبدّيهم في تحضّرهم، و تحلّيهم بأشرف أحوال الأمرين، أسواقهم التي لهم في الجاهليّة)^(١).

والسوق، موضع البياعات، والجمع أسواق، وتَسَوَّق القومُ إذا باعوا واشتروا^(٢)، والأسواق في الجزيرة العربية كثيرة ومتنوعة منها ما هو دائم يستمر طوال العام ويقوم في المدن والقرى، ومنها ما هو موسمي يقام في مواقع معلومة وأيام معلومة محددة، ومن هذه الأسواق ما يقوم في الأشهر الحرم ولا يقوم في غيرها، ومنها ما لا يقوم في الأشهر الحرم، ويقوم في غيرها لكنّه لا يصل أحد إليها إلا بخفير ولا يرجع إلا بخفير^(٣).

وما يهمنا هنا هو الاسواق الموسمية، اذ اختلف المؤرخون في عددها فقد ذكر ابن

(١) علي بن محمد بن العباس (ت ٤٠٠ هـ)، الامتاع والمؤانسة، مكتبة العصرية، (بيروت ١٤٢٤ هـ)، ص ٧٦.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٥٥٦/٤، [مادة سوق].

(٣) المرزوقي، الازمنة والامكنة، ص ٣٨٢؛ طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ٩٥.

حبيب اثني عشر سوقاً عدّها اسواق العرب المشهورة وهي (دومة الجندل، المشقر، صحار بعمان، دبا، الشحر، عدن، صنعاء، عكاظ، الرابية بحضرموت، ذو المجاز، نطاة بخيبر، حجر باليمامة)^(١)، فيما ذكر اليعقوبي عشرة اسواق قال يجتمعون فيها في تجارتهم ويجتمع فيها سائر الناس وهي (دومة الجندل، المشقر، صحار، دبا، الشحر، عدن، صنعاء، الرابية، عكاظ، نطاة بخيبر)^(٢)، بينما ذكر الهمداني احد عشر سوقاً (عدن، ومكة، والجند، ونجران، وذو المجاز، وعكاظ، وبدر، ومجنتة، ومنى، وحجر اليمامة، وهجر البحرين)^(٣)، وقال المرزوقي انها ثلاثة عشر سوقاً (فأولها قياما: سوق دومة الجندل، ثم صحار، ثم دبا، ثم الشحر، ثم رابية حضرموت، ثم ذو المجاز، ثم نطاة خيبراً، ثم المشقر، ثم حجر باليمامة، ثم منى، ثم عكاظ، ثم عدن، ثم صنعاء)^(٤).

وقد أورد سعيد الافغاني عدة جداول لمجموعة من المؤرخين يبين فيها عدد هذه الاسواق على وفق رأي كل مؤرخ وحسب تاريخ انعقاد كل سوق إذ وصلت إلى ستة وعشرين سوقاً^(٥)، وذكر احد الباحثين (أنّ هذه الاسواق في الأصل مراكز للعبادة ثم تحولت إلى اسواق تجمع القبائل في مكان محدد يشجع على البيع والشراء وللمقايضة بالسلع والحاجات التي تجلب وتختلف من قبيلة إلى اخرى)^(٦).

وعلى الرغم من كثرة تلك الأسواق^(٧) وتعدد مناطقها الا ان ما يهمننا منها هو ما

(١) المحبر، ص ٢٦٣.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ١/٢٣٠.

(٣) صفة جزيرة العرب، ص ٢٩٦.

(٤) الازمنة والامكنة، ص ٣٨٢.

(٥) اسواق العرب في الجاهلية والاسلام، (دمشق، ١٩٦٠)، ص ٢١٧ - ٢٢٧.

(٦) الحسيناوي، مرتضى جليل جعيلان، دور الحج في تطور الاحوال الفكرية والاقتصادية في الدولة العربية الاسلامية الى نهاية القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة البصرة، ٢٠٠٢، ص ٢٣.

(٧) الكبيسي، حمدان عبد المجيد، اسواق العرب قبل الإسلام، مجلة آداب المستنصرية، العدد الرابع، بغداد، ١٩٧٩،

ذكره ابن أبي الحديد في شرحه إذ ذكر مجموعة من تلك الأسواق أثناء شرحه لخطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إما تعليقاً عليها أو التطرق إليها من باب الفائدة أو التوسع، ومن أهم تلك الأسواق:

أولاً: سوق عكاظ:

وهو من الأسواق المهمة عند العرب قبل الإسلام وقد ورد ذكره في خطبة للإمام علي عليه السلام في ذكر الكوفة:

«كَأَنِّي بِكَ يَا كُوفَةَ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِيَّ تُعْرِكِينَ بِالنَّوْازِلِ وَتُرْكِبِينَ بِالزَّلَازِلِ»^(١).

وذكر ابن أبي الحديد تعليقاً على كلام الإمام عليه السلام بأن عكاظاً اسم سوق للعرب بناحية مكة كانوا يجتمعون به في كل سنة يقيمون شهراً ويتبايعون ويتناشدون شعراً ويتفاخرون، وأكثر ما كان يباع الأديم بها فنسب إليها، قال أبو ذؤيب:

إِذَا بُنِيَ الْقَبَابُ عَلَى عَكَاظٍ وَقَامَ الْبَيْعُ وَاجْتَمَعَ الْأَلُوفُ^(٢)

وعكاظ، مشتق من القول عكظت الرجل عكظاً، إذا قهرته بجحتك لأنهم كانوا يتعاكظون هناك بالفخر^(٣)، وقيل إن التسمية جاءت من عكظ دابته يعكظها عكظاً،

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥٤/٣، [خطبة ٤٧].

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٥٤/٣.

(٣) البكري، ابو عبيد عبدالله بن عبد العزيز الاندلسي (ت ٤٨٧ هـ)، معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع،

تحقيق مصطفى السقا، ط ٣، عالم الكتب، (بيروت ١٤٠٣ هـ)، ٩٦٠/٣.

حَبَسَهَا، وَتَعَكَّظَ الْقَوْمُ تَعَكُّظًا، إِذَا تَحَبَّسُوا لِيَنْظُرُوا فِي أُمُورِهِمْ^(١)، وَهِيَ نَخْلٌ فِي وَادٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الطَّائِفِ لَيْلَةٌ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ مَكَّةَ ثَلَاثُ لَيَالٍ، وَبِهِ أَمْوَالٌ وَنَخْلٌ لثَقِيفٍ وَبِهِ كَانَتْ تُقَامُ سُوقُ الْعَرَبِ^(٢) وَكَانَتْ قَرِيشٌ تَنْزِلُهَا، وَهُوَازِنٌ، وَغَطْفَانٌ، وَخَزَاعَةٌ، وَالأَحَابِيشُ، وَ هُمُ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ، وَعُضْلٌ، وَالمِصْطَلِقُ، وَطَوَائِفٌ مِنْ أَفْنَاءِ الْعَرَبِ يَنْزِلُونَهَا فِي النِّصْفِ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ فَلَا يَبْرَحُونَ حَتَّى يَرَوْا هَلَالَ ذِي الْحِجَّةِ^(٣).

وذكر الادريسي أن سوق عكاظ قرية كالمدينة جامعة لها مزارع ونخل ومياه كثيرة، ولها سوق يومًا في الاسبوع وذلك يوم الأحد، يقصد إليها في ذلك اليوم بأنواع من التجارات المحوج إليها أهل تلك الناحية، فإذا أمسى المساء انصرف كل أحد إلى موضعه ومكانه^(٤).

وكان أشرف العرب يتوافون إلى السوق مع التجار إذ كان لكل شريف سهم من الأرباح، ولا يوافقها شريف إلا وعلى وجهه برقع، مخافة أن يؤسر يومًا، فيكبر فداؤه، فكان أول من كشف القناع طريف العنبري لما رآهم يتطلعون في وجهه ويتفرسون في شمائله، قال: قبح من وطن نفسه إلا على شرفه، ورمى بالقناع وحسر عن وجهه^(٥)، وكان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد والحلّة الحسنة والمركوب الفاره فيقف بها وينادي عليه ليأخذه أعزّ العرب، يراد بذلك معرفة الشّريف والسّيد فيأمره بالوفادة

(١) ابن منظور، لسان العرب، ٢٥٦/٦، [مادة عكظ].

(٢) البكري، معجم ما استعجم، ٩٥٩/٣؛ ابن منظور، لسان العرب، ٢٥٦/٦، [مادة عكظ]؛ الافغاني، اسواق العرب في الجاهلية والاسلام، دار الفكر، (دمشق ١٩٩٦)، ص ٢٨٦.

(٣) المرزوقي، الازمنة والامكنة، ص ٣٨٥.

(٤) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ١٥٢/١.

(٥) المرزوقي، الازمنة والامكنة، ص ٣٨٦.

عليه و يحسن صلته وجائزته^(١).

واختلف المؤرخون في موعد انعقاده ومدته :

١ - منهم من يعتقد ان العرب كانوا ينزلونها في النصف من ذي القعدة فلا يرحون حتى يروا هلال ذي الحجة^(٢).

٢ - منهم من يعتقد أن الناس يصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة، فيقيمون به عشرين ليلة، تقوم فيها أسواقهم بعكاظ، يدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء، ويجتمعون في بطن السوق، فإذا مضت العشرون انصرفوا إلى مجنة، فأقاموا بها عشرا، أسواقهم قائمة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز^(٣).

٣ - ذكر آخرون أن السوق تقام في شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق في المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج^(٤).

ويبدو لنا ان الأقرب من تلك الروايات هي الرواية الثانية إذ إتفق عليها اغلب المؤرخين من جهة وإن وقتها مناسب لتزامن الاسواق الثلاثة الخاصة بموسم الحج مع التجارة، أما عن بداية السوق ونهايته فلا يوجد هناك نص ثابت عن وقت بداية السوق إذ ذكر البكري انها اتخذت بعد الفيل بخمس عشرة سنة^(٥)، إلا أن سعيد الافغاني فندّ

(١) المرزوقي، الازمنة والامكنة، ص ٣٨٥.

(٢) ابن حبيب، المحبر، ص ٢٦٧؛ المرزوقي، الازمنة والامكنة، ص ٣٨٥.

(٣) الازرقى، اخبار مكة، ١/١٤٩؛ الاصفهاني، الاغانى، ٢٢/٣٩؛ الافغاني، سعيد، اسواق العرب في الجاهلية والاسلام، ص ٢٨٩؛ الملاح، الوسيط، ص ٢٩٠؛ زيدان، التمدن الاسلامي، مج ٢، ٣/٣٨؛ دلو، برهان الدين، جزيرة العرب فيل الإسلام، ص ٦٦٣.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٣، ٦/٣٤٢، [مادة عكاظ].

(٥) معجم ما استعجم، ٣/١٥١.

تلك الرواية وأرجع تأسيس السوق إلى ما قبل (٥٠٠ سنة)، وذلك لأن الروايات تقول إن الرسول محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كان ينبل على أعمامه في حروب الفجار وعمره (اربع عشرة سنة) أي بعد الفيل بأربع عشرة سنة فتكون الفجار ونبل الرسول فيها قبل وجود عكاظ بسنة وهو تناقض واضح، إذ أن المعروف أن حرب الفجار قامت وعكاظ سوقاً موجودة يتداول إليه الناس كذلك ورد في الروايات أن عمرو بن كلثوم انشد قصيدته في عكاظ، وهو عاش حوالي سنة ٥٠٠ ميلادية^(١)، أما نهاية السوق فإنتهى مع مجيء الإسلام وتركت عام الحرورية بمكة مع أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي سنة تسع وعشرين ومئة^(٢).

وكان عكاظ سوقاً تجارية كبرى عامة لأهل الجزيرة يعرض فيها للبيع كل انواع البضاعات وخصوصاً الأدم، وقد ذكر ابن أبي الحديد أن أكثر ما كان يباع فيها الأديم فنسب إليها. و الأديم واحد و الجمع أدم^(٣)، كذلك كان التجار يحملون إليه من كل بلد تجارته وصناعته فالخمر من هجر والعراق، والسمن من البوادي ومن اليمن البرود الموشاة والأدم وانواع الطيب والسلاح^(٤)، وهكذا تحول عكاظ إلى مركز لعمليات الشحن والتفريغ للبضائع التجارية، تستقبل البضائع من مختلف المناطق وتقوم بنقلها إلى اماكن مختلفة وحسب متطلبات السوق.

لم يكن عكاظ سوقاً للبيع والتجارة فقط، بل كان مجتمعاً ثقافياً وأديباً واعلامياً يحوي الكثير من الفعاليات التي كانت ترافق انعقاد السوق، فيذكر ابن أبي الحديد أن النابغة الذبياني كان يضرب له قبة أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها،

(١) اسواق العرب في الجاهلية والاسلام، ص ٣٤٢.

(٢) الازرقى، اخبار مكة، ١/١٥١؛ البكري، معجم ما استعجم، ٣/٩٥٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٣/١٥٤.

(٤) الافغاني، اسواق العرب في الجاهلية والاسلام، ص ٢٧٨؛ برو، تاريخ العرب القديم، ص ٢٤٧.

فأنشده مرة الأعشى ثم حسان بن ثابت ثم قوم من الشعراء ثم جاءت الخنساء فأنشدته:

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهداةُ بهِ كأنَّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارٌ^(١)

فقال لولا أن أبا بصير يعني الأعشى أنشدني أنفا لقلت إنك أشعر الإنس والجن فقام حسان بن ثابت فقال أنا والله أشعر منها ومن أبيك فقال له النابغة يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذي هو مُدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسعُ
خطايفُ حجنٍ في جبالٍ متينةٍ تمدُّ بها أيدي إليكِ نوازعُ

قال فخنس حسان لقوله^(٢).

هكذا نرى أنَّ النابغة كان ناقدًا ومحكمًا للشعراء الذين كانوا يتسابقون لإلقاء قصائدهم في هذا التجمع السنوي، ويقال (انهم كانوا اذا أقرروا على فضل قصيدة علقوها هناك أو في الكعبة، ومنها المعلقات السبع)^(٣).

وفي هذا السوق فرضت قريش لهجتها على القبائل الوافدة من الأطراف البعيدة إذ كان الشعراء على مختلف قبائلهم وتباعدها وتقاربها يتفقون على لهجة أدبية فصحي واحدة هي لهجة قريش، إذ يرتفع الشاعر عن لهجة قبيلته المحلية وينظم شعره باللهجة

(١) الخنساء، الديوان، ص ٤٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢٠/١٣٤.

(٣) الزوزني، ابو عبد الله الحسين بن أحمد (ت ٤٨٦ هـ)، شرح المعلقات السبع، الدار العالمية، (بيروت ١٩٩٢)،

ص ٧ مقدمة لجنة التحقيق؛ زيدان، التمدن الاسلامي، مج ٢، ٣/٣٩.

الأدبية العامة^(١)، والخطابة كانت من ابرز الانشطة الفكرية والثقافية للعرب فكانت بعكاظ منابر في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعدّ مآثره، وأيام قومه من عام إلى عام^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد أنّ ضرار بن عمرو الضبي هو الذي رفع عقيرته^(٣) بعكاظ وقال: ألا إن شر حائل أم فزوجوا الأمهات^(٤)، وكان قس بن ساعدة من أشهر من خطب في عكاظ، وهو الذي ذكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكر خطبته بعكاظ^(٥).

وكان هناك في سوق عكاظ مستوى من التقاضي، لحاجة العرب إلى وجود جهة تقضي بين الناس على نحو معين من الحكم والقضاء^(٦)، وكان أصحاب المظالم يتواعدون بها للتقاضي في أثناء مدة اقامتهم في السوق، إلى قضاة عكاظ في منازعات تتعلق بالمتاجرة، كالبيع، والديون، والرهون، وغيرها^(٧)، وذكر ابن أبي الحديد أنّ الوليد بن المغيرة كان يجلس أيام عكاظ فيحكم بين العرب وقد كان رجل من بني عامر بن لؤي رافق رجلا من بني عبد مناف بن قصي فجرى بينهما كلام في جبل فعلاه بالعصا حتى قتله فكاد دمه يطل فقام دونه أبو طالب بن عبد المطلب وقدمه إلى الوليد فاستحلفه

(١) حسنين، حنفي، الشعر الجاهلي مراحل واتجاهاته الفنية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (مصر ١٩٧٠)، ص ٢٠.

(٢) المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، ص ٣٨٥.

(٣) العقيرة: الساق المقطوعة. وقولهم: رفع فلان عقيرته، أي صوته. وأصله أنّ رجلاً قُطعت إحدى رجله، فرفعها ووضعها على الأخرى وصرخ، فقبل بعد ذلك رافع صوته: قد رفع عقيرته، ينظر الجوهري، الصحاح، ص ٧٦٨، [مادة عقر].

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٨ / ٢٦٨.

(٥) ينظر نص الخطبة وكلام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، في ص ١٨٥ من الرسالة.

(٦) جاسم، مهند ماهر، القضاء في العصر الاموي، دار الحقائق، سورية، (د. ت)، ص ٢٠.

(٧) حمور، عرفان محمد، سوق عكاظ ومواسم الحج، مؤسسة الرحاب، (بيروت ٢٠٠٠)، ص ٧٧.

خمسين يمينا أنه ما قتله^(١)، وقد ذكر ابن حبيب قائمة بأسماء من اجتمع له الموسم وقضاة عكاظ من بني تميم وكان عددهم (عشرة) آخرهم سفيان بن مجاشع بن دارم التميمي الذي مات فأفترق الأمر فلم يجتمع الموسم والقضاء لأحد منهم حتى جاء الإسلام فكان محمد بن سفيان بن مجاشع يقضي بعكاظ فكان آخر من قضى بينهم^(٢).

كان في عكاظ تجمعٌ لبيع العبيد، فذكر ابن أبي الحديد أنَّ النابغة أم عمرو بن العاص بيعت بعكاظ فاشتراها الفاكه بن المغيرة ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل^(٣)، وكان البلاذري قد ذكر أنَّ زيد بن حارثة كان عبداً اشتراه حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة من سوق عكاظ ب (اربعمائة درهم)^(٤).

كذلك كان سوق عكاظ ميداناً للمنافرة والمفاخرة، وفداء الأسرى، والمفاوضة في الرأي كما كان له دور اعلامي كبير، إذ كانت العرب تشهر المرء في عكاظ إذا أتى عملاً شائناً (وكانوا إذا غدر الرجل، أو جنى جناية عظيمة، انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ، فيقوم رجل يخطب بذلك الغدر فيقول: ألا إن فلان ابن فلان غدر فاعرفوا وجهه، ولا تصاهروه، ولا تجالسوه، ولا تسمعوا منه قولاً فإن أعتب وإلا جعل له مثل مثاله في رمح، فنصب بعكاظ فلعن ورجم)^(٥)، والقبيلة التي تريد خلع احد سفهائها تنادي بذلك، ومن أراد أن يلحق آخر بنسبه، أعلن ذلك^(٦).

(١) شرح نهج البلاغة، ١٨/٢٣٣.

(٢) المحبر، ص ١٨٢.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٦/٢٢٣.

(٤) أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩)، جمل من انساب الاشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، دار

الفكر، (بيروت ١٩٩٦)، ٢/٦٠٩.

(٥) المرزوقي، الازمنة والامكنة، ص ٣٨٨.

(٦) برو، تاريخ العرب القديم، ص ٢٤٧.

وقد أتاحت تلك الأسواق للرسول صلى الله عليه وآله وسلم سبيلاً للاتصال بالقبائل العربية، وعرض نفسه لها، وقد وقف بعكاظ بعد البعثة النبوية يدعو الناس ويقول:

«يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم وإذا
آمتتم كنتم ملوكاً في الجنة»^(١).

ثانياً: سوق ذي المجاز:

من أسواق العرب قبل الإسلام المهمة سوق ذي المجاز فقد ذكره ابن أبي الحديد عند ذكره الحضيا بنت كعب بن سعد بن تيم بن مرة وقال إنها أول امرأة من قريش ضربت قباب الأدم بذي المجاز و لها يقول الشاعر:

مضى بالصالحات بنو الحظيا وكان بسيفهم يُغنى الفقير^(٢)

وكذلك كان الوليد بن المغيرة يجلس فيه ليحكم بين الناس^(٣).

وذو المجاز، موضع بمنى كانت به السوق قبل الإسلام، وقيل انها على فرسخ من عرفة بناحية كبكب، وكبكب جبل بعرفات^(٤)، وسمي ذي المجاز لأن إجازة الحاج كانت

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/١٨٤؛ الرحيم، عبد الحسين مهدي، عكاظ في حياة العرب قبل الإسلام، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد السابع، ١٩٨٧، ص ٢٣٩؛ فلهوزن، يوليوس، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام الى نهاية الدولة الاموية، مراجعة حسين مؤنس، تقديم مصطفى لبيب عبد الغني، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده، ط ٢، المركز القومي للترجمة، (القاهرة ٢٠٠٩)، ص ٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٨/٢٣٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٨/٢٣٩.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ٢٠٧/٧، [مادة المجاز].

فيه^(١)، أما وقته فهو في أول يوم من ذي الحجة بعد انقضاء سوق عكاظ وسوق مجنة، ويستمر ثمانية أيام إلى يوم التروية^(٢)، أي قبل بدء مناسك الحج، وهو آخر يوم من سوق ذي المجاز، نهاية الموسم التجاري للأسواق الثلاثة، لأن العرب كانوا لا يتبايعون في يوم عرفة ولا يوم منى^(٣).

وكان يجري في سوق ذي المجاز ما كان يجري في أسواق العرب الأخرى قبل الإسلام من تجارة وقضاء وأدب وشعر وفداء للأسرى وتجمع لبيع العبيد وعقد الأحلاف.

ثالثاً: سوق بدر:

من أسواق العرب قبل الإسلام التي ذكرها ابن أبي الحديد بقوله: (كانت بدر موسماً من مواسم العرب في الجاهلية يجتمعون بها وفيها سوق)^(٤)، وذلك عند حديثه عن معركة بدر التي يبدو ان قريشاً ارادت فيها استغلال موقع بدر عند العرب كونه جمعاً معروفاً لديهم، وهذا ما نراه واضحاً من موقف أبي جهل، فعلى الرغم من وصول انباء نجاة قافلة قريش من ايدي المسلمين التي كانت السبب في خروجهم، إلا أنه رفض العودة والإنسحاب وقال: لا نرجع حتى نرد بدرًا تسمع بنا العرب و بمسيرنا فنقيم على بدر ثلاثا ننحر الجزر و نطعم الطعام و نشرب الخمر و تعزف علينا القيان فلا

(١) ابن منظور، لسان العرب، ٢/٢٥٣، [مادة جوز].

(٢) سمي يوم التروية؛ لترويههم من الماء بذئ المجاز، ينادي بعضهم بعضاً ترووا من الماء؛ لأنه لا ماء بعرفة ولا بالمزدلفة يومئذ، وكان يوم التروية آخر أسواقهم، وإنما كان يحضر هذه المواسم بعكاظ ومجنة وذئ المجاز التجار من كان يريد التجارة، ومن لم يكن له تجارة ولا يبيع فإنه يخرج من أهله متى أراد، ينظر الأزرقى، اخبار مكة، ١٥٠/١.

(٣) ابن حبيب، المحبر، ص ٢٦٧؛ الأزرقى، اخبار مكة، ١٥٠/١؛ علي، المفصل، ٣٨٠/٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٨٥/١٤.

تزال العرب تهابنا أبداً^(١).

وبدر هو بئر مشهور بين مكة والمدينة، ويقال حفرها رجل من غفار إسمه بدر وقيل انه بدر بن قريش بن مخلد بن النضر بن كنانة، وبه سمي البئر، وقيل بل هو رجل من بني ضمرة سكن هذا الموضع فنسب إليه ثم غلب اسمه عليه^(٢).

كانت بدر من المواضع المقدسة على شاكلة سوق عكاظ به أحجار يتقرب إليها الناس وبه ماء فصار سوقاً في موسمه المخصص له يقصده الناس من مكة ومن المواضع القريبة لبيع ما عندهم من ناتجهم فيه، ولشراء ما يحتاجون إليه منه^(٣).

رابعاً: سوق الحيرة:

الحيرة مدينة قديمة (كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف زعموا أن بحر فارس كان يتصل به، وبالحيرة الخورنق بقرب منها مما يلي الشرق على نحو ميل، والسدير في وسط البرية التي بينها وبين الشام كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية من زمن نصر ثم من لحم النعمان وآبائه)^(٤).

كان في الحيرة سوق ذكره ابن أبي الحديد في أثناء حديثه عن مسيلمة الكذاب، إذ ذكر أن مسيلمة قبل أن يتنبأ كان يدور في الأسواق التي كانت بين دور العرب والعجم ومنها سوق الحيرة يلتمس تعلم الحيل والرقي والنجوم^(٥)، ورغم أن هذا السوق لم يذكر ضمن أسواق العرب عند أغلب المؤرخين إلا انه من الأسواق الموسمية المهمة في

(١) شرح نهج البلاغة، ١٤/٨٥.

(٢) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، مج ١، ٢/٢٨٤.

(٣) علي، الفصل، ٧/٢٧٦.

(٤) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، مج ٢، ٣/٢٠١، [مادة الحيرة].

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٩/٣٠٩.

العراق^(١).

وانفرد ابو الفرج الاصفهاني بذكر اخبار ومعلومات مفصلة عن سوق الحيرة، وكونه من الاسواق الموسمية التي تقام مرة واحدة في السنة وهو كبقية اسواق العرب الاخرى قبل الإسلام لم تكن المنافرات والمفاخرات بالأنساب والشعر والخطابة غائبة عنه^(٢).

ويعرض في هذا السوق الأدم والعطر والبرود والجواهر والحيل والاموال وسائر ما يعرض في بقية اسواق العرب مما يحمل من الشام أو اليمن أو عمان أو الحجاز أو البحرين أو الهند وفارس عدا ما يحمل الأعراب إليها من إبل وشياه وقرود احياناً^(٣).

(١) الافغاني، اسواق العرب في الجاهلية والاسلام، ص ٣٧٤.

(٢) للتفصيل، ينظر الكرماشي، ايد صالح عاصي، كتاب الاغانى لأبي فرج الاصفهاني مصدراً لدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠١٢، فص ٣، ص ٣٣٦ - ٣٤٨.

(٣) الافغاني، اسواق العرب في الجاهلية والاسلام، ص ٣٨٠.



الفصل الخامس

الحياة السياسية عند العرب قبل الإسلام

المبحث الأول: الممالك والمدن التي ظهرت قبل الإسلام

المبحث الثاني: أيام العرب قبل الإسلام

المبحث الأول الممالك والمدن التي ظهرت قبل الإسلام

تختلف بلاد العرب من حيث طبيعتها باختلاف اجزائها، إذ تشكل الصحراء القسم الأعظم منها، تتخللها واحات واغوار تتجمع فيها مياه الامطار، أما الوديان فقليلة وتقع في اطراف شبه الجزيرة العربية، وكان لتنوع المناخ وطبيعة الارض أثره في تنوع الحياة البشرية عند العرب قبل الإسلام، فمثلما قامت حياة البداوة التي لا تعرف الإستقرار إلا في بعض جوانبها بسبب شحة المياه وجفاف الارض، ساعد هطول الامطار وتوفر المياه على اقامة الحياة الزراعية والصناعية المستقرة في بعض المناطق التي ساعدتها الظروف لتكون مجموعة الدول والممالك التي توزعت على أرجاء الجزيرة العربية، وكان لها نظامها السياسي وحياتها العامة، وقد ذكر ابن أبي الحديد في كتابه شرح نهج البلاغة قسماً منها على شكل روايات متفرقة اقتضت الضرورة إلى ذكرها، والإشارة إليها، ومن أهم تلك المدن والممالك :

أولاً: حكومة قريش في مكة:

تعد مدينة مكة من المدن القديمة في الجزيرة، فقد ورد اسمها في المصادر اليونانية والرومانية القديمة، ذكرها بطليموس باسم (ماكوربا) ومعناها (المقرب) أو (الهيكل)،

وتعني المقربة من الله أي (المقدسة)^(١)، وكان واديهما قد اتخذ كمحطة للقوافل القادمة من الشمال إلى الجنوب عبر الصحراء بسبب ما كان فيها من العيون^(٢).

وهذا البعد التاريخي والديني ناتج من وجود الكعبة في هذا المكان، فقد ذكر ابن أبي الحديد أنها ترجع إلى أيام قبل آدم عليه السلام إذ ذكر (أن آدم لما قضى مناسكه وطاف بالبيت لقيته الملائكة فقالت يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام)^(٣)، وفي أيام نبي الله ابراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام أقاما البيت الحرام في واديهما، وإن اسماعيل عليه السلام اول من اتخذها مقاماً وسكناً، وذكر ابن أبي الحديد (إن إبراهيم قدم بإسماعيل وأمه مكة فقال لهما: كلا من الشجر واشربا من الشعاب، وفارقهما، فلما ضاقت الأرض، تقطعت المياه، فعطشا، فقالت له أمه إصعد وانصب في هذا الوادي فلا أرى موتك ولا ترى موتي، ففعل فأنزل الله تعالى ملكاً من السماء على أم إسماعيل فأمرها فصرخت به فاستجاب لها وطار الملك ف ضرب بجناحيه مكان زمزم فقال اشربا فكان سيحا يسبح)^(٤).

وقد افرد ابن أبي الحديد فصلاً في فضل البيت والكعبة وتأثير ذلك على حياة العرب قبل الإسلام وبعده^(٥)، وورد ذكر مكة في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ

(١) بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه امين فارس ومخير البعلبكي، ط٥، دار العلم للملايين، (بيروت ١٩٦٨)، ص ٣١؛ الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٦٢.

(٢) الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ١١٠.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١/١٣٢.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٦٤.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١/١٣٢.

أَطْفَرَكَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا^(١).

وذكر ياقوت الحموي انها سميت بمكة لازدحام الناس بها، وقيل إنما سميت لأن العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمك فيه أي نصفر صفير المكاء حول الكعبة، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا طافوا بها، والمكاء بتشديد الكاف طائر يأوي الرياض، وقال آخرون مكة هي بكة والميم بدل إلى الباء^(٢) وقيل (بكة اسم لبطن مكة وذلك أنهم يتباكون فيه ويزدحمون وكان بعضهم يزعم أن بكة هو موضع المسجد وما حوله مكة)^(٣) وذكر في القرآن:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤)^(٥).

إنّ زمزم الذي تفجر تحت أقدام إسماعيل قد أغرى بعض القبائل المارة فسكنت قبيلة جرهم المنطقة واقامت منازلها بمكة ومن حولها، وتزوج إسماعيل منهم فولد له اثنا عشر ولداً^(٦)، وتولى أبناء إسماعيل حراسة البيت وخدمته حتى تسلم الحارث بن مضاض الجرهمي هذه المهمة، فكان أول من ولي البيت من الجرهميين، ولكن جرهم طغت في الحرم وبغت، وفسقت حتى اشتد ظلمها على الناس، استحلوا من الحرم أموراً

(١) سورة الفتح: الآية ٢٤.

(٢) معجم البلدان، مج ٤، ٣٠٧/٨، [مادة مكة؛ الانصاري، عبد القدوس، التاريخ المفصل للكعبة الشريفة قبل الإسلام، نادي مكة الثقافي، (السعودية ١٤١٩ هـ)، ص ٢١.

(٣) ابن قتيبة، محمد بن عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦)، غريب الحديث، تحقيق عبد الله الجبوري، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٨٨)، ١/١٩٧.

(٤) سورة ال عمران: الآية ٩٦.

(٥) ذكرت لمكة أسماء كثيرة قاربت الستون اسماً، ينظر قائدان، اصغر، تاريخ آثار مكة والمدينة، ترجمة الشيخ ابراهيم الخزرجي، دار النبلاء، (بيروت ١٩٩٩)، ص ٤٧ وما بعدها.

(٦) الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٦٣.

عظاما، ونالوا ما لم يكونوا ينالون، واستخفوا بجرمة الحرم، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى إليها سراً وعلانية^(١).

أما قبيلة خزاعة فقد وفدت إلى مكة بعد تهدم سد مأرب فنزلت حول مكة ثم استولت على أمرها وحجابه البيت وطردت جرهم خارج مكة فخرج عمرو بن مضاظ بمن تبقى من جرهم نحو اليمن بعد أن دفنوا أموال الكعبة وكنوزها في بئر زمزم ودفنوه بالتراب حتى لا يهتدي خصومه إلى مكانه، فإذا عادوا استخرجوه^(٢).

وكان عمرو بن لحي أول من ولي أمر البيت من هذه القبيلة، فقبل إنه غير دين إبراهيم ودعا إلى عبادة الأوثان والأصنام وأدخلها مكة، واستمرت خزاعة تلي البيت ثلاثمائة سنة، وقريش بيوتات متفرقة حوالي الحرم^(٣)، حتى ظهور قصي بن كلاب، وهو من قريش من القبائل العدنانية أي من مجموعة العرب المستعربة في اصطلاح علماء النسب الذي تزوجت أمه برجل من بني عذرة بعد وفاة كلاب بن مرة، فرحلت إلى قبيلته في بادية الشام مع ابنها (زيد) الذي لقب (قصي) لبعده عن دار قومه، فنشأ وشب عند أخواله بني قضاة، ولما علم بحقيقة نسبه عاد إلى قومه واستقر بمكة، وأظهر فيها من النشاط والتفوق ما جعله يتزوج حبي بنت حليل الخزاعي الذي كان سيد مكة وبيده سداة الكعبة، فكثرت ماله وولده وعلا مركزه، وإستغل وفاة حليل فاستولى على مفاتيح

(١) الأزرقي، اخبار مكة، ٦٣/١؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٩١/١؛ معطي، علي، تاريخ العرب السياسي قبل الإسلام، دار المنهل، (بيروت ٢٠٠٤)، ص ٣٨٢؛ الجميلي، خضير عباس، قبيلة قريش واثرها في الحياة العربية قبل الإسلام، المجمع العلمي، (بغداد ٢٠٠٢)، ص ٢٣.

(٢) الأزرقي، اخبار مكة، ٦٤/١؛ عبد الحميد، سعد زغلول، في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٨٤.

(٣) الأزرقي، اخبار مكة، ٧١/١؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٨، ٣١١/٤، [مادة مكة]؛ معطي، تاريخ العرب السياسي قبل الإسلام، ص ٣٨٢.

البيت الحرام وأعلن أحقيته بولايته^(١).

وأورد الطبري ثلاث روايات عن كيفية انتزاع قصي سيادة مكة من قبيلة خزاعة فرواية تقول أنّ حُليل أوصى أن يتولى قصي ولاية البيت والقيام بأمر مكة من بعده بعد ما انتشر له من ابنته من الأولاد ما انتشر، ورواية عن هشام تذهب أن حُليل لما ثقل عليه المرض جعل ولاية البيت إلى ابنته وجعل فتح الأبواب وإغلاقها بيد أبي غبشان وهو سليم بن عمرو بن بوي بن ملكان، فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق خمر وبعود - أي جمل حسن -، فلما علمت خزاعة كثرت على قصي فاستنصر أخاه من أمه رزاح بن ربيعة بن حرام، فقاتل خزاعة، وفي رواية ثالثة أنّ قصي بعد وفاة صهره دعى رجالاً من قريش وبني كنانة، إلى إخراج خزاعة ودعا أخاه من أمه إلى نصرته فخرجت قضاة معه واجابوه إلى ما دعاهم^(٢).

ومن قراءتنا للروايات الثلاث يبدو لنا أنّ الرواية الأولى الأقرب للصواب حيث تولى قصي إدارة مكة بناءً على وصية والد زوجته، ثم اتصل سراً بعشائر قريش وبطونها التي كانت متفرقة حول مكة فوحد كلمتها وجمعها حوله^(٣).

ونقل ابن أبي الحديد أنه سمي مجمعاً لأنه الذي جمع القبائل من فِهْر^(٤)، وفي ذلك يقول حذافة بن غانم الجمحي يمدحه:

أبوكم قصي كان يُدعى مجمعاً
به جمَعَ اللهُ القبائلَ من فِهْر^(٥)

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٥٦/٢

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٢٥٦/٢ - ٢٥٨؛ الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٣) ابن حبيب، المنق، ص ٨١؛ الأزرق، اخبار مكة، ٧٥/١؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٣٨٣/٢.

(٤) شرح نهج البلاغة ٢٠٦/٤.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٥١/١٥.

فجمع سيادة قريش على مكة، وانتزع ولاية البيت من خزاعة بعد حروب ومنازعات بين القبيلتين وتم إخراجها خارج مكة، وأسكن قريشاً مكانها بعد أن كان بعضها يسكن الشعاب ورؤوس الجبال^(١).

ويبدأ تاريخ قريش السياسي في مكة بوصول قصي بن كلاب إلى زعامتها فوضع أساس سيادة قريش عليها ونقلها من البداوة إلى الحضارة والاستقرار، وبدأ قصي أولاً بتنظيم حياة السكان فيها فجمع قريش وأسكنها حول الحرم وميّز بين طبقتين :

الأولى: قريش البطاح:

وهم الذين اسكنهم قصي في مكة، وهي المنطقة الواقعة حول الحرم داخل مكة، والتي ظهر منها سادة مكة مثل بني قصي بن كلاب وبني زهرة، وبني مخزوم وبني تيم بن مرة وبني جمح وبني سهم وبني عدي وبني عتيق بن عامر^(٢)، وقد ذكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام سكن بني هاشم في البطاح عند ذكره الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بقوله :

«إِخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَمِشْكَاتِ الضِّيَاءِ وَدُوَابَةِ الْعُلْيَاءِ وَسُرَّةِ الْبَطْحَاءِ وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ وَيَنْبِيعِ الْحِكْمَةِ»^(٣).

وعلق ابن أبي الحديد عليها فقال : (وسرة البطحاء وسطها وبنو كعب بن لؤي يفخرون على بني عامر بن لؤي بأنهم سكنوا البطاح)^(٤).

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٦/١؛ مهران، محمد بيومي، تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، (د.ت)، ص ٣٦١.

(٢) معطي، تاريخ العرب السياسي قبل الإسلام، ص ٣٨٤؛ الحضري، محمد، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، شرح وتعليق الشيخ ابراهيم محمد رمضان، دار الفكر العربي، (بيروت ١٩٩١)، ص ٨.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٤٢/٧، [خطبة ١٠٧].

(٤) شرح نهج البلاغة ١٤٢/٧.

الثانية: قريش الظواهر:

وهم الذين لم تتسع لهم الأباطح فسكنوا خارج مكة وكانوا أقل منزلة من قريش البطاح، وذكر ابن أبي الحديد أنّ بني عامر سكنوا الجبال المحيطة بمكة وسكن معها بنو فهر بن مالك رهط أبي عبيدة بن الجراح وغيره، قال الشاعر:

فَحَلَلْتُ مِنْهَا بِالْبَطَاحِ وَحَلَّ غَيْرُكَ بِالظَّوَاهِرِ

وقال بعض الطالبين:

وأنا ابنُ معتلجِ البطاحِ إذا غدا غيري وراحَ على متونِ ظواهرٍ^(١)

وذكر أحد الباحثين المعاصرين أنّ قصياً ربما أراد من هذا التقسيم انزال البطون القريبة منه بالنسب في المناطق المحيطة بمكة لإيجاد قوة يستطيع من خلالها حماية ما حققه من إنجازات في مكة^(٢)، وما يعزز ذلك قول الأزرقي (فولي قصي بن كلاب حجابة الكعبة وأمر مكة، وجمع قومه من قريش من منازلهم إلى مكة يستعز بهم)^(٣).

وإلى جانب هؤلاء كانت هناك قبائل ليست من قريش، ولكنها متحالفة معها منهم (الأحابيش)، وهم جماعة من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهون بن خزيمة بن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة، وقد سموا بذلك لأنهم تحالفوا جميعاً بوادٍ يقال له (الأحباش أو حبشياً) بأسفل مكة^(٤)، ويقال أنهم كانوا يقومون بدور الجند المرتزقة،

(١) شرح نهج البلاغة ١٤٢/٧.

(٢) الشراهاني، حسين علي، أضواء على السيرة النبوية، تموز للطباعة والنشر، (دمشق ٢٠١٣)، ص ١٤.

(٣) اخبار مكة، ٧٧/١.

(٤) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١)، جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين،

(بيروت ١٩٨٧)، ٢٧٨/١، [مادة حبش]؛ معطي، علي، تاريخ العرب السياسي قبل الإسلام، ص ٣٨٤.

فيخوضون الحرب اذا ما دعتهما قريش للقتال^(١)، وقد ذكرهم ابن أبي الحديد في أثناء معركة أحد حيث كان لواء الأحابيش من الألوية التي كانت قد خرجت لحرب المسلمين^(٢)، وعند حديثه عن حلف الفضول ذكر (إن الحلف كان على ألا يدعوا بمكة كلها ولا في الأحابيش مظلوما يدعوهم إلى نصرته إلا أنجدوه حتى يردوا عليه ماله ومظلّمته)^(٣).

ويبدو أنّ انشغال أهل مكة بالتجارة وتوفير الأجواء المناسبة لمراسيم الحج وللحجاج جعلهم يتحالفون مع غيرهم للدفاع عن أنفسهم، وما يعزز هذا الرأي قول ابن أبي الحديد أنّ (قريش أهل مدينة وساكنوا مدر وحجر لا يرون الغارات ولا ينهاون غيرهم من العرب وهم مقتضرون على المقام ببلدتهم وحماية حرمهم)^(٤).

اهتم قصي بن كلاب بالكعبة فأعاد بناءها ووضع الحجر الأسود فيها، وحفر الآبار ونظم شؤون المدينة الاجتماعية حيث ذكر أنّ قريش كانت قبل قصي تشرب من بئر حفرها لؤي بن غالب خارج مكة، ومن حياض ومصانع على رؤوس الجبال، ومن بئر حفرها مرة بن كعب مما يلي عرفة. فحفر قصي بئراً سماها العجول، وهي أول بئر حفرتها قريش بمكة، وفيها يقول رجاز الحاج :

تروي على العجول ثم تنطلقُ
إنّ قصياً قد وفَى وقد صدقُ

(١) أبو الفضل، أحمد، دراسات في العصر الجاهلي، المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم،

(القاهرة، ١٩٦٩)، ص ٩٨.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٤/١٦٧.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٥/١٧٠.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٣/٢١٦.

بالشَّعْبِ لِلنَّاسِ وَرِيٌّ مُغْتَبِقٌ^(١)

وقام قصي بتنظيم موسم الحج واوجد الوظائف التي تؤمن لوازمه واحتياجاته، وأخذ لنفسه هذه الوظائف وهي الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، فحاز شرف مكة كله^(٢)، وأسس دار الندوة في بيته وجعل بابها إلى مسجد الكعبة يجتمع فيها كبار مكة تحت امرته للتشاور في أمور بلدهم^(٣)، وكان يجلس فيها للقضاء بين الناس^(٤)، ويديرها مجلس شيوخ قريش ولم يكن يدخلها أو يشارك فيها من غير ولد قصي إلا من بلغ عمره أربعين سنة للمشورة، ويدخلها ولد قصي كلهم أجمعون وحلفاؤهم^(٥).

ويبدو أنّ هناك بعض الإستثناءات حدثت بعد ذلك في قضية السن فذكر ابن أبي الحديد ان أبا جهل بن هشام واسمه عمرو وكنيته أبو الحكم كان سيدا أدخلته قريش دار الندوة فسودته وأجلسته فوق الجلة من شيوخ قريش وهو غلام لم يطر شاربه^(٦)، وذكر طقوش أنه أدخل لحكمته وسداد رأيه فقد احتكم إليه العرب كثيراً في أمور مختلفة^(٧)، وكان في دار الندوة، أمر قريش كله وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة فيما

(١) البلاذري، انساب الاشراف، ٥١/١؛ سليم، أحمد امين، معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتب كريدية اخوان، بيروت، (د.ت)، ص ١٢٥؛ الحديثي، نزار عبد اللطيف، الامة والدولة في سياسة النبي والخلفاء الراشدين، دار الحرية، (بغداد ١٩٨٧) ص ٤٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ١١٥/١.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ١١٦/١، الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ١١٩.

(٤) علي، سيد امير، مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيف البعلبكي، ط ٢، دار العلم للملايين، (بيروت ١٩٦٧)، ص ١١.

(٥) الازرقعي، اخبار مكة، ٧٩/١؛ اسماعيل، حلمي محروس، الشرق العربي القديم وحضارته بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة، ص ٢٣١.

(٦) شرح نهج البلاغة ٢٤١/١٨.

(٧) تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤٤٥.

ينوبهم، حتى إن كانت الجارية تبلغ أن تدرع فما يشق درعها^(١) إلا فيه، ثم ينطلق بها إلى أهلها، ولا يعقدون لواء حرب لهم ولا من قوم غيرهم إلا في دار الندوة، يعقده لهم قصي، ولا تخرج عير من قريش فيرحلون إلا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها^(٢).

وقد ذكر ابن أبي الحديد أن الألوية التي خرجت لقتال المسلمين يوم أحد عقدوها في دار الندوة^(٣)، وإن العير التي هرب فيها أبو سفيان من قبضة المسلمين قبل وقعة بدر من الشام وقفت في دار الندوة فلم يحركها أبو سفيان ولم يفرقها لغيبة أهل العير في المعركة^(٤)، وكذلك ذكر لنا ابن أبي الحديد أن دار الندوة كانت مكاناً لجمع الأموال ومن ثم تفريقها في مواردها الخاصة إذ قال إن (قريش تخرج من صفو أموالها ما تحتمله أحوالها وتأتي بها إلى هاشم فيضعه في دار الندوة لضيافة الحاج)^(٥).

يبدو لنا من خلال قراءتنا للروايات السابقة أن دار الندوة كان مقرراً لحكومة قريش في مكة وهو يمثل المجلس الأعلى لاتخاذ القرارات وإدارة شؤون الدولة، ومن خلاله كان يتم توزيع الأدوار والمهام المختلفة فهو القاعدة الأولى لكل ما يتعلق بالحياة السياسية والاجتماعية الخاصة بمكة وكان قصي سيد البلاد بلا منازع، وكانت قريش كما ذكر ابن سعد لا ينزلون إلا برأيه، ويتبعون أمره كالدين المتبع لا يعمل بغيره في حياته وبعد موته^(٦).

(١) وكانت الفتاة الصغيرة ترتدي قميصاً صغيراً يسمى (الأصدّة) وهو صِدَارٌ تَلْبَسُهُ تَحْتَ الثَّوْبِ فَإِذَا أَدْرَكَتْ دُرْعَتُ، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ١/١٢١، لمادة أصد.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/٥٢، العسلي، خالد، دراسات في تاريخ العرب، اعداد وتقديم عماد عبد السلام رؤوف، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد ٢٠٠٢)، ص ٣٦٣.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٤/١٦٧.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٤/١٦٤.

(٥) شرح نهج البلاغة ١٥/١٥٩.

(٦) الطبقات الكبرى، ١/٥٢.

كان لقصي أربعة أبناء، عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وبعد وفاته آلت زعامة قريش إلى أبنائه الأربعة، لكن لم يتمكن أحد منهم أن يجمع كل السلطات بيده كما كان عليه الحال في عهد قصي، بل توزعت الزعامة فيما بينهم، وقد وردت ثلاث روايات عن كيفية تقسيم وظائف الكعبة عليهم:

الأولى: أورد ابن إسحاق رواية مفادها أن عبد الدار بن قصي البكر كان مغمورا وضعيفا دون بقية إخوته، لذلك قام قصي بإسناد وظائف الكعبة له، فقال له: (أما والله لألحقتك بالقوم، وإن كانوا قد شرفوا عليك، لا يدخل منهم رجل الكعبة حتى تكون أنت تفتحها، ولا يعقد لقريش لواء حربهم إلا أنت بيدك، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا طعامك، ولا تقطع قريش أمورها إلا في دارك، فأعطاه داره دار الندوة التي لا تقضي قريش أمورها إلا فيها، وأعطاه الحجابة واللواء والندوة والسقاية والرفادة)^(١).

الثانية: أوردتها الأزرقى وفيها أن قصيا قسّم (أمور مكة الستة التي فيها الذكر والشرف والعز بين ابنيه، فأعطى عبد الدار السدانة وهي الحجابة ودار الندوة واللواء، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة)^(٢).

الثالثة: أوردتها اليعقوبي دون أن يشير إلى سندها ونصها (قسم قصي بين ولده فجعل السقاية والرئاسة لعبد مناف، والدار لعبد الدار، والرفادة لعبد العزى، وحافتي الوادي^(٣) لعبد قصي)^(١).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ١١٩/١؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥٥/١؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٥٩/٢.

(٢) أخبار مكة، ٨٠/١.

(٣) ذكر الشهراني، في كتابه اضواء على السيرة النبوية ص ١٧، ربما كان المقصود بحافتي الوادي هنا تعشير من يدخل مكة من التجار أي فرض ضرائب عليهم، لاسيما إن قصي كان يفعل ذلك.

ومن خلال قراءتنا للروايات الثلاث فإن رواية ابن إسحاق تذهب إلى أنه أعطى جميع الوظائف لابنه عبد الدار، ويبدو أن تلك الرواية فيها بعض الشك فمن غير المعقول لرجل صاحب حزم ودولة مثل قصي يقوم بتسليم جميع ميراثه إلى شخص واحد دون أن يعلم عواقب ذلك مع مجتمع لا زالت البداوة تمثل العنصر الرئيس فيه، أما رواية الأزرقى فهي نتيجة لما حصل فيما بعد من نزاع على هذه الوظائف، بين أبناء عبد الدار وأبناء عبد مناف واتفاقهم على تقسيم يشبه ما جاء في الرواية أعلاه، لكن الرواية الثالثة التي أوردها اليعقوبي منطقية جدا، ويبدو أن وفاة أبناء قصي بعد ذلك أدى إلى انتقال هذه الوظائف إلى أبناء عبد الدار مع ما أعطاهم قصي، والسبب في ذلك أن أبناء عبد مناف وعبد العزى وعبد قصي كانوا صغارا لا يستطيعون تحمل الوظائف، ويؤيد هذا الرأي الرواية التي أوردها ابن حبيب (فهلك عبد مناف يوم هلك فكان ما سميناء من وظائف الكعبة - لبني عبد الدار، ثم إن بني عبد مناف أرادوا أخذ ذلك منهم فقالوا نحن أحق بها)^(٢).

إنّ هذا الصراع أدّى إلى قيام بني عبد مناف وهم عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل، بانتزاع ما بأيدي أبناء عبد الدار، وقالوا أنهم أحقّ منهم لشرفهم وفضلهم في قومهم، وانضم اليهم بنو أسد، وزهرة، وتيم والحارث بن فهر^(٣)، وتعاهدوا بينهم وأخرجوا جفنة مملوءة طيباً وغمس القوم أيديهم فيها، ومسحوا الكعبة وتحالفوا فسموا حلف المطيين^(٤).

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٠٦/١.

(٢) ابن حبيب، المنق، ص ٣٣.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٥/١٤٨.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ١/١٢١؛ الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٣٧٠ هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق

محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، (بيروت ٢٠٠١)، ٤٤/٥.

وذكر ابن حبيب (ان عاتكة بنت عبد المطلب أخرجت جفنة فيها طيب فغمسوا فيه ايديهم فسمو المطيين)^(١)، ولورود اسم عاتكة بنت عبد المطلب يبدو أن ابن حبيب هنا قد أراد حلفاً آخر غير الذي نتكلم عنه حيث ان الحلف كان قبل زمن عبد المطلب، ولعل حلف المطيين جدد مرة اخرى في ايام عبد المطلب وصراعه مع بني عمه.

وذكر احد الباحثين ان التزام بني عبد العزى جانب هاشم في حلف المطيين وتحالفهم معه على الرغم من إن أبناء عبد الدار كانوا أبناء عمومتهم أيضاً، يرجع إلى أن بني عبد العزى قد فقدوا حقوقهم في وظائف الكعبة أيضاً، ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن أسد بن عبد العزى لم يكن له أخوان لذلك فضل أن يلجأ إلى هاشم وحلفائه ليقوي نفسه في قريش، ويدخل في ائتلاف مع البيوت القرشية ليحول دون استبداد أبناء عبد الدار بالأمور، فينشأ نتيجة لذلك نوع من توازن القوة في مكة وهذا ما حدث بالفعل حيث بقي المجتمع القرشي مستقراً طيلة الفترة الممتدة من وفاة قصي حتى قيام الدعوة الإسلامية^(٢).

ورد ابن أبي الحديد على من يقول ان المطيين يقال لهم الأحلاف أو الحلفاء بقوله: وإنما ذلك لقب خصومهم وأعدائهم الذين وقع التحالف لأجلهم وهم بنو عبد الدار وبنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي بن كعب^(٣)، وأخرجوا جفنة من دم وغمسوا أيديهم فيها ولعقوها، ثم تحالفوا ألا يتخاذلوا فسموا الأحلاف أو حلف لعقة الدم^(٤)، وكادت أن تقع الحرب بين الأخوة، ولكن يبدو إن المصلحة الإقتصادية فرضت نفسها فبالحرب يضيع كل ما صنعه قصي بن كلاب من عهود ومواثيق تجارية فتوصلوا

(١) المنمق، ص ٣٣.

(٢) الشرهاني، حسين علي، اضواء على السيرة النبوية، ص ١٩ - ٢٠.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٤/١٠١.

(٤) الزبيرى، نسب قريش، ص ٣٨٣؛ البلاذري، انساب الاشراف، ١/٥٦.

إلى حل يرضي الطرفين، فاحتفظ بنو عبد الدار برئاسة دار الندوة، ووظيفتي الحجابة واللواء، وتنازلوا إلى أبناء عبد مناف عن السقاية والرفادة^(١)، التي تولها هاشم دون إخوته، كما ذكر ابن أبي الحديد إن أشرف خصال قريش في الجاهلية اللواء والندوة والسقاية والرفادة والحجابة وهذه الخصال مقسومة في الجاهلية لبني هاشم وعبد الدار وعبد العزى دون بني عبد شمس^(٢) وذكر ابن أبي الحديد ان هاشماً تولى السقاية والرفادة لوحده وبرر ذلك بقوله (أن عبد شمس كان يسافر قل أن يقيم بمكة، وكان رجلاً معيلاً وكان له ولد كثير وكان هاشم رجلاً موسراً)^(٣).

إلا أن هذا لم يدم طويلاً إذ سرعان ما حاول أمية بن عبد شمس أن يحارب هاشماً وكادت الحرب أن تتجدد بين أبناء قصي إلا إن القبيلة احتكمت لأحد الكهنة الذي حكم بنفي أمية إلى الشام مدة عشر سنوات^(٤).

وكانت هذه العشر سنوات التي قضاها أمية في الشام بعيداً عن مكة قد جعلت للبيت الأموي رصيلاً هائلاً هناك استغلوه فيما بعد، مع تزايد رواسب الغل والحقد لبني هاشم لم يختف حتى توارثه الأحفاد فحملوا أمانة الثأر التي ظهرت جلياً في العصر الإسلامي. بعد بروز هاشم كشخصية تولت الزعامة في مكة، وظهور نوع من الاستقرار فيها، أصبحت هناك حاجة لمعالجة بعض القضايا المهمة التي تعاني منها المنطقة، والتي تؤثر على الجانب السياسي، لاسيما سوء الحالة الاقتصادية، لوقوع مكة كما ذكرنا سابقاً في بيئة صحراوية جافة، لذلك كان عليه أن يتخذ خطوات سريعة لمعالجة الامر، فعمل على

(١) جمعة، ابراهيم، مذكرات في تاريخ العرب الجاهلي و صدر الإسلام، دار الطباعة الحديثة، (البصرة ١٩٦٥)، ص ٥٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٥/١٤٩.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٥/١٥٨.

(٤) المقرئزي، النزاع والتخاصم، ص ٢٠- ٢١.

توسيع تجارة مكة وجعلها تنفتح على العالم المحيط به فذكر ابن أبي الحديد ان هاشماً هو (اول من سن الرحلتين رحلة إلى الحبشة ورحلة إلى الشام)^(١)، حيث ان قريشاً كانوا تجارا لا تعدو تجارتهم مكة إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم يتبايعون بها بينهم ويبيعون من حولهم من العرب^(٢)، حتى عقد بنفسه المعاهدات ومعاهدات حسن الجوار مع الدول والقبائل المحيطة به فأخذت تجارة قريش تسير في امان وطمأنينة فازدادت مكانة قريش سياسياً وازدهرت الحياة فيها واتسعت تجارة اهلها وعظمت ثروتها.

وبالنظر للدور الذي أدته مكة من الناحية الدينية ازداد اهتمام هاشم بأيام الحج والحجيج فذكر ابن أبي الحديد ان هاشماً كان يُخرج كل سنة من ماله الكثير فيضمه إلى ما جمعه من مال قريش ليوفر للحجيج الماء والخبز واللحم وما يحتاجه الحاج من خدمات اخرى^(٣).

كذلك اهتم هاشم بالمحتاجين من قومه، فذكر ابن أبي الحديد ان قريشاً لما مر بها الجوع هشم لهم الخبز ثريدا فغلب هذا اللقب على اسمه حتى صار لا يعرف إلا به وكان اسم هاشم عمرو العلاء وهاشم لقب وكان أيضا يقال له القمر وفي ذلك يقول مطرود الخزاعي:

إلى القمر الساري المنيرِ دعوتهُ
ومَطَّعْمُهُمْ في الأزلِ من قمعِ الجزرِ^(٤)

(١) شرح نهج البلاغة ١٥/١٥٨.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٥/١٥٩.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٥/١٥٨.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٥/١٥٠.

وقال مطرود الخزاعي في قصيدة أخرى :

يا أيُّها الرجلُ المحوَّلُ رحلَهُ
هَبْلَتِكَ أُمَّكَ لَوْ حَلَلْتَ بَدَارِهِمْ
عمرو العلى هَشَمَ الثريدُ لقومِهِ
نسبوا إليه الرحلتينِ كليهما
الآخذونَ العهدَ في آفاقِها
هالا نزلتَ بآلِ عبدِ مُنافٍ؟
ضَمْنُوكَ من جوعٍ ومن إقْرافِ
ورجالِ مَكَّةَ مُسْتَنونَ عجافِ
عند الشتاءِ ورحلةِ الأَصيافِ
والراحلونَ لرحلةِ الإيلافِ^(١)

وخرج هاشم بتجارات عظيمة يريد الشام، فجعل يمر بأشراف العرب، فيحمل لهم التجارات، ولا يلزمهم لها مؤونة، حتى صار إلى غزة، فتوفي بها^(٢).

وبعد هاشم برز ابنه عبد المطلب وله قصة فيها شبه من قصة جده قصي بن كلاب، فذكر ابن أبي الحديد ان عبد المطلب ولد فسمته أمه شيبة الحمد لشعرة بيضاء كانت في ذوائبه حين ولد فمكث بالمدينة ست سنين أو ثمانين ثم إن رجلا من تهامة مر بالمدينة فإذا غلمان يلعبون وغلام منهم يقول كلما أصاب :

(أنا ابن هاشم بن عبد مناف سيد البطحاء)

فقال له الرجل : من أنت يا غلام؟

قال : أنا ابن هاشم بن عبد مناف.

قال : ما اسمك؟

قال شيبة الحمد، فانصرف الرجل حتى قدم مكة فوجد المطلب بن عبد مناف جالسا

(١) البعقوبي، تاريخ البعقوبي، ٢٠٨/١.

(٢) البعقوبي، تاريخ البعقوبي، ٢٠٩/١.

في الحجر، وقصَّ عليه ما رأى من ابن أخيه، فقال له المطلب والله أما إنني لا أرجع إلى أهلي ومالي حتى آتية، فخرج المطلب حتى أتى المدينة فأتاها عشاء، ثم خرج براحلته حتى أتى بني عدي بن النجار فإذا الغلمان بين ظهرائي المجلس، فلما نظر إلى ابن أخيه قال للقوم هذا ابن هاشم قالوا نعم وعرفه القوم فقالوا هذا ابن أخيك فإن كنت تريد أخذه فالساعة لا نعلم أمه، فإنها إن علمت حلنا بينك وبينه، فأناخ راحلته ثم دعاه فقال يا ابن أخي أنا عمك وقد أردت الذهاب بك إلى قومك فاركب، قال فوالله ما كذب أن جلس على عجز الراحلة وجلس المطلب على الراحلة ثم بعثها فانطلقت، فلما علمت أمه قامت تدعو حزنها على ابنها فأخبرت أنه عمه وأنه ذهب به إلى قومه، قال فانطلق به المطلب فدخل به مكة مردفه خلفه والناس في أسواقهم ومجالسهم فقاموا يرحبون به ويقولون من هذا الغلام معك، فيقول: عبد لي ابتعته يثرب ثم أدخله على امرأته خديجة بنت سعد بن سهم فرجلت شعره ثم ألبسه الحلة عشية فجاء به فأجلسه في مجلس بني عبد مناف وأخبرهم خبره فكان الناس بعد ذلك إذا رأوه يطوف في سكك مكة وهو أحسن الناس يقولون هذا عبد المطلب لقول المطلب هذا عبدي فلج به الاسم وترك به شبيبة^(١)، ولما حضر رحيل المطلب إلى اليمن قال لعبد المطلب:

أنت يا ابن أخي أولى بموضع أبيك، فقم بأمر مكة.

فقام مقام المطلب، فتوفي المطلب في سفره ذلك بردمان، فقام عبد المطلب بأمر مكة، وشرف وساد، وأطعم الطعام، وسقى اللبن والعسل، حتى علا اسمه، وظهر فضله، وأقرت له قريش بالشرف^(٢)، وتولى السقاية والرفادة.

وفي عهد عبد المطلب ازدادت الزعامات في مكة واصبحت لها قدرات مالية ومعنوية

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٥/١٦١.

(٢) البيهقي، تاريخ البيهقي، ١/٢١٠.

عالية وازداد عدد أفرادها مما جعلها ذات ثقل كبير في اتخاذ القرارات داخل حكومة الملائم التي بدأت تتجه نحو توزيع الأدوار والأستقلال بين أغلب الأسر المسيطرة عليه، وذكر ابن عبد ربه تلك الزعامات بقوله ان من انتهى إليه الشرف من قريش في الجاهلية عشرة رهط من عشرة أبطن وهم : هاشم وأمّية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجمح وسهم^(١).

وهؤلاء يمثلون القوة المالية التجارية للمجتمع المكي وامتدت زعاماتهم حتى ظهور الإسلام فهم يديرون الدولة كلاً حسب موقعه واختصاصه، وللمحافظة على قواهم التجارية فقد كانوا لا يقبلون ان تكون هناك زعامة واحدة تنفرد بالقيادة والتجارة معاً خوفاً على مصالحهم، فيذكر ابن أبي الحديد انهم وفي أثناء خروجهم إلى حرب الفجار (كان على كل قبيلة رئيس منها، فهم متكافئون في التساند ولم يحقق واحد منهم الرئاسة على الجميع)^(٢).

أما توزيع الأدوار فيما بينهم فبنو هاشم كانت لهم السقاية والرفادة والممثل الرئيسي للمجتمع المكي في الحوادث الكبيرة، وبنو عبد الدار كانت لهم السدانة والحجابة للكعبة، وبنو امية يديرون شؤون الدولة العسكرية فعندهم العقاب راية قريش، وبنو أسد لهم المشورة، وبنو تيم مسؤولة عن الديات والغرم، وبنو مخزوم كانت لهم القبة والأعنة، فهم على خيل قريش في الحرب، وبنو عدي سفراء مكة في الحروب والمنافرات، وكانت الأزام لبني جمح، وبنو سهم كانت بيدهم الأموال المحجرة التي سموها لألتهم^(٣).

(١) العقد الفريد، ٣/٣١٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٥٥.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣/٣١٣ - ٣١٤؛ صالح، أحمد عباس، اليمين واليسار في الإسلام، ص ٣١ - ٣٣.

ولكون بني هاشم كانوا اكبر زعماء قريش، وهم أساس الشجرة المباركة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وتسلسل أجدادهم فقد ركز عليهم ابن أبي الحديد دون بقية الأسر، مما جعلنا نقاد لذلك الطريق الذي قادنا إليه بما موجود في كتابه من معلومات عنهم.

فعلى الرغم من أن زعامة عبد المطلب اقتصرت على بني هاشم إلا أن الزعامة الروحية لا زالت بيده من خلال توليه وظيفة سقاية الحجيج والرفادة، وإمارة الحج وسعى بعضهم إلى محاولة تحجيم دور عبد المطلب حسداً وبغضاً لتوليه زعامة قريش، فيذكر ابن أبي الحديد ان عمه نوفل بن عبد مناف أراد الحصول على أركاح^(١) له بمكة وهي الساحات وكان بنو نوفل يدا مع بني عبد شمس، (فاستنصر عبد المطلب قوما من قومه فقصروا عن ذلك فاستنجد أخواله من بني النجار ييثرب فأقبل معه سبعون راكبا فقالوا لنوفل لا والله يا أبا عدي ما رأينا بهذا الغائط ناشئا أحسن وجها، ولا أمد جسماً، ولا أعف نفسا، ولا أبعد من كل سوء من هذا الفتى - يعنون عبد المطلب - وقد عرفت قرابته منا وقد منعتة ساحات له ونحن نحب أن ترد عليه حقه فرده عليه، فقال عبد المطلب :

تأبى مازن وبنو عدي وذبيان بن تيم اللات ضيمي وزادت مالك حتى تناهت ونكب بعد نوفل عن حريمي^(٢).

ثم إن خزاعة القبيلة التي تسكن قرب مكة أرادت أن تزيد من مكانتها ومركزها

(١) الرُّكْحُ: بالضم من الجبل الركن أو الناحية المُشْرِفة على الهواء وقيل هو ما علا عن السَّفْح واتسع، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٤/١٧٠، [مادة ركح].

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٥/١٧٥.

فعدت حلفاً مع عبد المطلب، وتم الحلف على التناصر فقوي مركز عبد المطلب^(١).
من الأعمال الكبيرة التي قام بها عبد المطلب حفر بئر زمزم التي غاصت مياهها
وطمست في أواخر أيام جرهم، وعثر فيه على الغزالين المصاغين من الذهب والسيوف
المرصعة المهداة إلى الكعبة فشب نزاع آخر بين قريش وعبد المطلب انتهى لعبد المطلب
الذي صنع من السيوف باباً للكعبة وعلق الغزالين الذهبيين فيها^(٢).

وقصته مع جيش أبرهة الحبشي صاحب الفيل، حيث ذكر ابن أبي الحديد ان أبرهة لما
قدم لهدم الكعبة حاول عبد المطلب أن يرد الغزاة عن طريق التفاوض لعلمه بصعوبة
مهمة مواجعتهم فالتقى أبرهة وطالبه برد إبله وتوعده إياه برب الكعبة وقتل أصحابه^(٣)
ولكنه لم يفلح، فعاد ولم يفارق الكعبة حيث تفرقت قريش قى شعاب مكة، وذكر ابن
أبي الحديد (أن قريشا خرجت فارة من الحرم خوفاً من أصحاب الفيل وعبد المطلب
يومئذ غلام شاب فقال والله لا أخرج من حرم الله أبغي العز في غيره فجلس في البيت
وأجلت قريش عنه فقال عبد المطلب :

لا هَمَّ إن المرءَ يَمْنَعُ رَحَلَهُ فَمَنْعُ حَلَالِكَ
لا يَغْلِبَنَّ صُلْبُ يَهُمُّ وَمَحَالُهُمْ أَبَدًا مَحَالِكَ

فلم يزل ثابتاً في الحرم حتى أهلك الله الفيل وأصحابه، فرجعت قريش وقد عظم

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٥/١٦٣؛ الشرهاني، اضواء على السيرة النبوية، ص ٣٣.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٥/١٦٣؛ السبحاني، جعفر الهادي، سيد المرسلين دراسة تحليلية شاملة
للشخصية والسيرة المحمدية، مؤسسة النشر الاسلامي، (قم ١٤٢٩ هـ)، ١/١٥٦.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٥/١٥٢.

فيهم بصبره وتعظيمه محارم الله عز وجل^(١).

ويبدو ان ابن أبي الحديد لم ينتبه إلى عمر عبد المطلب عند ذكره الرواية التي حدثت في عام الفيل وهو العام الذي ولد فيه الرسول محمد وتذكر الروايات ان عمر عبد المطلب انذاك أربعة وسبعون عاماً، وليس غلاماً شاباً، فقد ذكر البلاذري انه توفي وهو ابن اثنتين وثمانين ولرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثمانية اعوام^(٢).

وقد أرسل الله طيراً أبابيل من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طير منها ثلاثة أحجار تحملها، حجر في منقاره وحجران في رجليه، فقدفتهم بها وهي مثل الحمص والعدس لا تصيب أحداً منهم إلا هلك، وأصيب أبرهة في جسده فسقطت أعضاؤه عضواً عضواً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل الفرخ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه^(٣).

يبدو لنا من خلال قراءتنا لهذه الروايات ان عبد المطلب لم يقف مكتوف الأيدي إزاء هجوم أبرهة على الرغم من قوة خصمه فأراد مفاوضتهم مع علمه مسبقاً بفشل ذلك لإصرار عدوه وخطورته، ثم أوكل أمره إلى الله بالإيمان الراسخ في قدرة الله سبحانه وتعالى على الدفاع عن بيته واليقين التام بأن حرم الله لا يمس بدليل إنه كان بداخله، مع ان الواقع العملي يقول إن أبرهة ما جاء إلا ليهدم الكعبة على من فيها، ولكنه يعلم باعتقاده الروحي إنه آمن مكان يحفظه الله، وليثبت لمن حوله ان الله موجود.

وقد زادت هذه الحادثة من مكانة عبد المطلب في قريش ومكانة قريش عند العرب،

(١) شرح نهج البلاغة ١٥/١٦٢.

(٢) انساب الاشراف، ١/٦٤.

(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ١/٢٨٥؛ منيسي، سامية عبد العزيز، إسلام نجاشي الحبشة ودوره في صدر الدعوة الاسلامية، ص ٢٤.

وقالوا: هم أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم^(١)، وتوفي عبد المطلب وهو ابن اثنين وثمانين عاماً ودفن بمكة ولرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثمانية اعوام^(٢).

بعد وفاة عبد المطلب استمرت الزعامات في مكة وبرز من بين أولاده الزبير وابو طالب، وذكر ابن أبي الحديد أنّ الزبير كان من أشرف قريش ووجهها^(٣)، وكان ذا نظر، وروي ان عبد المطلب عاد إلى مكة بعد غيبة فقيل له مات فلان حتف أنفه فقال: (لئن كان ما قلتموه حقاً إن للناس معاداً يؤخذ فيه للمظلوم من الظالم)^(٤).

وهذه الرواية تبين لنا مدى ايمان بني عبد المطلب بالخالق والبعث وان هناك حساباً وعقاباً.

وذكر ابن أبي الحديد ان للزبير دوراً كبيراً في عقد حلف الفضول، فهو الذي نهض فيه ودعا إليه وحث عليه وهو الذي سماه حلف الفضول وذلك لأنه لما سمع التاجر اليمني المظلوم ثمن سلعته من بني سهم قد أوفى على أبي قبيس قبل طلوع الشمس رافعا عقيرته وقريش في أنديتها قائلاً:

يا للرجالِ لمظلومٍ بضاعتهُ
ببطنِ مكةَ نائي الحبيِّ والنفرِ
إن الحرامَ لمن تَمَّتْ حرامتهُ
ولا حرامَ لثوبي لابسِ الغدرِ

حمي وحلف ليعقدن حلفا بينه وبين بطون من قريش يمنعون القوي من ظلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب ثم قال:

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٥٠/١.

(٢) البلاذري، انساب الاشراف، ٨٤/١.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٥/١٦٦.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٥/١٦٨.

حَلَفْتُ لَنَعْقُدَنَّ حَلْفًا عَلَيْهِمْ
 نَسَمِيهِ الْفَضُولَ إِذَا عَقَدْنَا
 وَإِنْ كُنَّا جَمِيعًا أَهْلُ دَارِ
 يَعِزُّ بِهِ الْغَرِيبُ لَدَى الْجَوَارِ
 أُبَاةُ الضَّمِيمِ نَهْجَرُ كُلَّ عَارٍ^(١)
 وَيَعْلَمُ مِنْ حَوَالِي الْبَيْتِ أَنَّا

وذكر ابن أبي الحديد (وهو أشرف حلف كان في العرب كلها وأكرم عقد عقده قريش في قديمها وحديثها قبل الإسلام)^(٢)، وقد ذكره الرسول الكريم فقال وهو يذكر حلف الفضول: (شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حَلْفًا لَوْ دُعِيتَ إِلَى مِثْلِهِ فِي الْإِسْلَامِ لِأَجْبِتُ)^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد انه سمي حلف الفضول لفضل ذلك الحلف وفضيلة أهله وسميت القبائل التي شاركت فيه بالفضول، وهي كل من بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزى وبني زهرة وبني تيم بن مرة تعاقدوا في دار عبد الله بن جدعان في شهر حرام قياما يتماسحون بأكفهم صعدا ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا إليه حقه ما بل بحر صوفة وفي التأسي في المعاش والتساهم بالمال^(٤)، وقيل سمي حلف الفضول تشبيهاً بحلف كان بمكة سابقاً حيث تحالف رجال منهم على رد المظالم يقال لهم فضيل وفضل وفضل ومفضل فسمي هذا الحلف حلف الفضول لأنه أحياناً تلك السنة التي كانت

(١) شرح نهج البلاغة ١٥٣/١٥ - ١٥٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٦٨/١٥.

(٣) البيهقي، ابو بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي (ت ٤٥٨ هـ)، معرفة السنن والآثار عن الامام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ١٧٥/٥؛ ابن الاثير، النهاية في غريب الحديث، ٤٥٦/٣.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٦٨/١٥.

ماتت^(١).

قد تكون هناك دوافع سياسية واقتصادية تقف وراء حلف الفضول اذ ان بني سهم رفضوا أن يدفعوا للتاجر اليمني ثمن سلعته لأنهم كغيرهم من بطون قريش الغنية أرادوا أن يحتكروا التجارة مع الجنوب بأيديهم ولا يسمحوا للتجار اليمنيين بجلب البضائع بانفسهم إلى مكة، وهذا ما أثار بعض الأسر ومنهم بنو هاشم التي كانت مستفيدة من التجار اليمنيين حيث ان احتكار فئات معينة التجارة مع اليمن يجعلهم يفرضون عليهم شروطاً قد لا تكون في صالحهم إذا شاركوهم بقوافلهم التجارية الذاهبة إلى هناك، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن سيطرة البعض على تجارة اليمن قد يخل بتوازن القوى السياسية داخل مكة التي تعتمد بشكل مباشر على قوة العنصر المادي في سياستها.

وقد رد حلف الفضول الكثير من المظالم التي كان يتعرض لها الضعفاء والتجار من خارج مكة كقضية الزبيدي والبارقي والقول الحشمية والتي سبق أن ذكرناها سابقاً^(٢).

وامتد تأثير حلف الفضول حتى بعد ظهور الإسلام فذكر ابن أبي الحديد ان الحسين بن علي عليهما السلام كان بينه وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان كلام في مال كان بينهما والوليد يومئذ أمير المدينة في أيام معاوية فقال الحسين عليه السلام :

«أَيْسْتَيْلُ الْوَلِيدُ عَلَيَّ بِسُلْطَانِهِ؟ أَقْسِمُ بِاللَّهِ لِيُنْصِفَنِي مِنْ حَقِّي أَوْ لَأَخْذَنَّ سَيْفِي ثُمَّ أَقُومَ فِي مَسْجِدِ اللَّهِ فَأَدْعُو بِحَلْفِ الْفُضُولِ».

فبلغت كلمته عبد الله بن الزبير فقال : أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينتصف أو نموت جميعاً، فبلغت المسور بن مخزومة بن نوفل الزهري

(١) شرح نهج البلاغة ١٥ / ١٧٠.

(٢) يراجع ص ٢٨٧ موضوع التجارة من الرسالة.

فقال مثل ذلك فبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك فبلغ ذلك الوليد بن عتبة فأنصف الحسين ع من نفسه حتى رضي^(١).

وعلى الرغم من أننا نضع علامات الشك على هذه الرواية حيث إن الإمام الحسين عليه السلام لا يحتاج إلى حلف الفضول لأخذ حقه ففي أخوانه وأبناء عمومته وأولاده وأبناء إخوته من العزة ما يغنيه عن ذلك إلا أننا أوردناها كما ذكرها ابن أبي الحديد لتشكل امتداداً للحلف الذي استمر حتى صدر الإسلام.

أما أبو طالب فقد أشار إليه ابن أبي الحديد بقوله: (كان رئيس بني هاشم وشيخهم والمطاع فيهم)^(٢)، ولم يكن أحد من قريش يسود في الجاهلية بغير مال إلا أبو طالب وعتبة بن ربيعة، وكانت السقاية في الجاهلية بيده ثم سلمها إلى أخيه العباس^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد ان عفيف الكندي لما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي في بداية الدعوة ومعه غلام وامرأة قال للعباس بن عبد المطلب: أي شيء هذا قال: هذا ابن أخي يزعم أنه رسول من الله إلى الناس، ولم يتبعه على قوله إلا هذا الغلام وهو ابن أخي أيضاً وهذه المرأة وهي زوجته، فقال له: ما الذي تقولونه أنتم، قال: ننتظر ما يفعل الشيخ يعني أبا طالب^(٤). هذه الرواية تبين لنا دور أبي طالب المؤثر في قرارات بني هاشم، فالجميع ينتظر ما يقرره شيخ مكة وزعيمها في حادث خطير مثل تغيير ديانة ومستقبل قريش، وهو صاحب الحكمة والسياسة.

فضلاً عن حكمته وحنكته السياسية فقد كان لمكانته الاجتماعية دور أيضاً حيث ذكر

(١) شرح نهج البلاغة ١٧١/١٥

(٢) شرح نهج البلاغة ٨٩/١١

(٣) شرح نهج البلاغة ١٦٦/١٥

(٤) شرح نهج البلاغة ٥٣/١

ابن أبي الحديد (كان أبو طالب شاعراً مجيداً)^(١)، وذكر بين طيات كتابه مجموعة من الأبيات الشعرية التي نسبها إليه منها^(٢) :

رثاؤه لنديمه في الجاهلية مسافر بن عمرو بن أمية بن عبد شمس مطلعها :

ليت شعري مسافر ابن أبي عمرو	وليت يقولها المحزون
كيف كانت مذاقة الموت إذ مت	وما ذا بعد الممات يكون
كم خليل وصاحب وابن عم	وحميم قفت عليه المنون
فتعزيت بالجلادة والصبر	وإنني بصاحبي لضنين ^(٣)

وهكذا نرى أن بني هاشم امتداداً طبيعياً للسلالة التي توارثت زعامة مكة جيلاً بعد جيل ، فهم كما وصفهم حذافة العذري في شعره الذي ذكره ابن أبي الحديد في أثناء حديثه عن فضل عبد المطلب :

كهولهم خير الكهول ونسلهم	كنسل الملوكة لا يبور ولا يجري
ملوك وأبناء الملوكة وسادة	تفلق عنهم بيضة الطائر الصقر
متى تلق منهم طامحاً في عنانه	تجدّه على أجراء والده يجري
هم ملكوا البطحاء مجداً وسوددا	وهم نكلوا عنها غواة بني بكر
وهم يغفرون الذنب ينقم مثله	وهم تركوا رأي السفاهة والهجر

(١) شرح نهج البلاغة ١٥/١٦٦ .

(٢) أبو طالب، الديوان، ص ٩؛ شرح نهج البلاغة ١٥/١٦٦ .

(٣) للمزيد من التفاصيل عن حياة أبي طالب ينظر الحمداوي، علي صالح رسن، ابو طالب بن عبد المطلب دراسة في سيرته الشخصية وموقفه من الدعوة الاسلامية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الاداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٤ .

أَخَارِجُ إِمَّا أَهْلَكْنَ فَلَا تَزَلْ لَهُمْ شَاكِرًا حَتَّى تَغَيَّبَ فِي الْقَبْرِ^(١)

ثانياً: الحيرة:

هي مدينة قديمة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، مسكن ملوك العرب في الجاهلية من زمن نصر ثم من لحم النعمان وآبائه، وقيل سميت الحيرة لأن تبعاً الأكبر لما قصد خراسان خَلَّفَ قسماً من جنده بذلك الموضع وقال لهم: حيروا بها، أي أقيموا بها^(٢)، وكانت قبائل تنوخ^(٣)، قد قصدت الحيرة وأقامت بيوتاً من الشعر، وسرعان ما تحضرت وعملت على حماية القوافل التجارية المارة بارضها، وأسهمت بالعمل التجاري وأقامت علاقات تجارية مع المناطق المحيطة بعد اعتراف الدولة الفارسية بها^(٤)، وذكر ان (ملوك الحيرة أنفسهم ما كانوا في الحقيقة إلا حكاماً بالنيابة عن الأكاسرة)^(٥).

واختلف المؤرخون في مؤسس مملكة الحيرة، إلا أن الغالب لديهم ان جذيمة بن مالك بن فهم هو أول ملوكها المشهورين الذي جاء بعد ابيه وعمه عمرو بن فهم، وهو أول من أستجمع له الملك بارض العراق وضم إليه العرب وغزا بالجيوش^(٦)، وكان به برص، وذكر ابن أبي الحديد انه كان يسمى جذيمة الواضح أو جذيمة الابرش^(٧). غير أن

(١) شرح نهج البلاغة ١٥/١٦١.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ٣/٢٠١.

(٣) تنوخ: مزيج من قبائل قضاة والأزد خرجوا من اليمن واجتمعوا في البحرين مع بعض قبائل من العرب وتحالفوا على التنوخ، وهو المقام، وتعاقدوا على التناصر والتساعد، فصاروا يداً واحدةً وضمهم اسم تنوخ، وانضم اليهم جذيمة الأبرش وكان اجتماعهم أيام ملوك الطوائف، وإنما سموا ملوك الطوائف لأن كل ملك منهم كان ملكه على طائفة قليلة من الأرض، ينظر ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ١/٢٢٠.

(٤) برو، تاريخ العرب القديم، ص ١٢٥.

(٥) كستر، م.ج، الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية، ترجمة يحيى الجبوري، جامعة بغداد، (بغداد ١٩٧٦)، ص ١٩.

(٦) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ١/٢٢٣.

(٧) شرح نهج البلاغة ٥/١٢٥.

حكمه لم يدم طويلاً حيث كان بينه وبين الزباء سلم وحرب ولم تنزل تحاول الثأر منه بأبيها حتى تحاليت عليه وأطمعته في نفسها فخطبها وأجابته وأجمع المسير إليها وأبى عليه وزيره قصير بن سعد، وكان حازماً ناصحاً، فحذره عاقبة ذلك فعصاه إلى أن نزل فأتته الرسل منها بالألطف والهدايا ثم أحاطت به الخيول ودخل جذيمة على الزباء فقطعت رواهشه^(١) فسال دمه حتى نزل ومات^(٢). وصارت هذه القصة مثلاً وعبرة تتكرر في كتب التاريخ والامثال، حيث أستشهد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بتلك الحادثة في أثناء كلامه إلى أهل الكوفة بعد التحكيم بقوله :

«قَدْ كُنْتُ أَمْرُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي وَنَحَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ»^(٣).

وعلق ابن أبي الحديد ان قصيراً هو مرافق جذيمة في حربه مع الزباء وهو صاحب هذا المثل المشهور الذي ضرب لكل ناصح يعصى بقصير^(٤).

بعد وفاة جذيمة الذي لم يترك من يخلفه الحكم من التنوخين، انتقلت السلطة إلى ابن اخته عمرو بن عدي^(٥)، مؤسس السلالة اللخمية في الحيرة، لجدهم الأعلى أو ينسبون إلى (آل نصر) نسبة إلى جدهم نصر بن ربيعة، كما عرفوا باسم المناذرة لكثرة من تسمى منهم باسم المنذر^(٦)، وعمرو بن عدي كان قد نشأ في رعاية خاله جذيمة الابرش الذي

(١) عصب يديه. ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٢٠١/٤، (مادة رهش).

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٣٠١/٢ وما بعدها.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦٣/٢، [خطبة ٣٥].

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٦٣/٢.

(٥) هو عمر بن عدي بن نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحار بن مسعود بن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم، ينظر ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٤٢٢.

(٦) علي، المناذرة دراسة سياسية حضارية، فص ١، ص ٢٤.

احبه والتزمه، وذكر ابن أبي الحديد قصة قربت عمرو هذا من خاله وهو صغير ملخصها ان عمراً كان يجني الكمأة مع أتراب له فكان أترابه يأكلون ما يجدون وكان عمرو يأتي به خاله ويقول:

هذا جناي وخياره فيه
وكلُّ جانٍ يدهُ إلى فيه^(١)
فسرَّ جذيمه بقوله وفعله

وذكر ابن أبي الحديد أن الإمام علي بن أبي طالب قد استشهد بكلام عمرو بن عدي عندما جاءه مال من الجبل وكان الناس يزدحمون حوله فأخذ حبالاً فوصلها بيده وعقد بعضها إلى بعض ثم أدارها حول المال وقال: لا أحل لأحد أن يجاوز هذا الحبل، فقعد الناس كلهم من وراء الحبل ودخل هو فقال: أين رؤوس الأسباع وكانت الكوفة يومئذ أسباعاً فجعلوا يحملون هذه الجوالق إلى هذه الجوالق وهذا إلى هذا حتى استوت القسمة سبعة أجزاء ووجد مع المتاع رغيف فقال اكسروه سبع كسر وضعوا على كل جزء كسرة ثم قال:

هذا جناي وخياره فيه وكلُّ جانٍ يدهُ إلى فيه^(٢)

يبدو ان عمرو بن عدي قد لفت الأنظار اليه بشخصيته القوية وعقليته الراسخة مما جعل خاله جذيمة يثق به ويعتمد عليه في إدارة شؤون دولته حتى جعله في مصاف وزرائه ومستشاريه، ويذكر ابن الأثير أنه أوكل اليه مهمة تولي الملك بعده بمساعدة أحد قواده

(١) شرح نهج البلاغة، ١٩/١٠٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢/١٥٩.

واسمه عمرو بن عبد الجن عندما قرر الذهاب إلى الزباء^(١)، وقد أتخذ عمرو بن عدي (٢٦٨م - ٢٨٨م) الحيرة عاصمة لدولته ومقر لسلطته وبدأت في عهده العمارة ودخلت الحيرة عصراً جديداً من التطور الحضاري، ويرجع إليه تمصير الحيرة بعد أن كانت خربت زماناً وأقفرت من سكانها وإلتفت حوله القبائل العربية وأعترف بسلطته الساسانيون الذين كان من مصلحتهم التقليل من هجمات البدو على حدودهم وتأمينها^(٢).

بعد وفاة عمرو بن عدي استلم الحكم ابنه امرؤ القيس بن عمرو (٢٨٨م - ٣٢٨م)، فوسع سلطانه على القبائل العربية وسمي بملك العرب كلهم، كما يتضح من نقش يسمى (نقش النمارة) الذي اكتشف على قبره في وادي الصفا بسوريا، والذي يذكر فيه انتصاراته على اعدائه ودوره المتميز في توحيد القبائل العربية وضم الكيانات العربية الصغيرة إلى دولته^(٣). وتولى مملكة الحيرة بعد امرؤ القيس عدة ملوك لم تكن لهم اعمال بارزة حتى تسلم النعمان بن امرؤ القيس الثاني (٤٠٠م - ٤١٨م)، ويلقب بالأعور أو السائح، أشرف يوماً على قصره فنظر إلى ما حوله فقال أكل ما أرى إلى فناء وزوال، قالوا: نعم. قال: فأبي خير فيما يفنى لأطلبن عيشاً لا يزول، فانخلع من ملكه ولبس المسوح وساح في الأرض^(٤).

وكانت له اهتمامات عسكرية وعمرانية، فكوّن جيشاً قوياً مؤلفاً من كتيبتين هما

(١) الكامل في التاريخ ٢/٢٢٦.

(٢) العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ص٦٦؛ سالم، تاريخ الدولة العربية، ص١٦٧؛ علي، المناذرة دراسة سياسية حضارية، فص ١، ص٢٢.

(٣) السعدون، نصار سليمان، امرؤ القيس بن عمرو اللخمي ودوره في توحيد القبائل العربية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة البصرة، ١٩٨٨، ص٩٦.

(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص٣٥٨؛ حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ١/٣٤ - ٣٥.

الشهباء والدوسر التي اشتهرت بقوة بطشها، وبنى قصري الخورنق والسدير^(١) وقد ذكرهما ابن أبي الحديد في أبيات لعدي بن زيد قال فيها:

وتدبر رب الخورنق إذ
سره ماله وكثرة ما يمل
أشرف يوماً وللهدى تفكير
لك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه وقال فما غبطة
حي إلى الممات يصير^(٢)

بعد النعمان تولى ابناؤه وأحفاده الحكم ولعل أبرزهم المنذر بن امرؤ القيس بن ماء السماء (٥١٤ م - ٥٥٤ م)^(٣)، وهو من أشهر ملوك لخم وأكثرهم عملاً، وأثناء حكم المنذر للحيرة ظهر مذهب مزدك^(٤) وغايته الإشتراك في الأموال والأشياء وذكر ابن أبي الحديد أنه ظهر أيام الأكاسرة^(٥)، وحاول قباذ فرضه على جميع مملكته والتابعين له فرفض المنذر فأخرجه قباذ من الحيرة وولاهها الحارث بن عمرو بن حجر الكندي أحد ملوك دولة كندة، وظل المنذر مختبئاً بقية أيام قباذ فلما تولى أنوشروان وكان على غير رأي والده أعاد المنذر إلى منصبه بعد أن قتل مزدك وهرب الحارث الغساني وأصلح

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٥٨؛ البكر، منذر عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الكتب، (البصرة ١٩٩٣)، ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١١/١٣١؛ تنظر الأبيات عند ابن زيد، عدي، الديوان، ص ٨٧.

(٣) كانت أم المنذر من النمر بن قاسط يقال لها ماء السماء لجمالها وحسنها وأب وها عوف بن جشم، ينظر ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٥٩.

(٤) مزدك كان يقول: النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق والنور عالم حساس والظلام جاهل أعمى وأن المزاج كان على الاتفاق والخبط لا بالقصد والاختيار وكذلك الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ، ينظر الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢٥٠ وما بعدها.

(٥) شرح نهج البلاغة، ٧/٤٠.

أنوشروان ما أفسده أبوه^(١)، وقامت في عهده حروب طويلة بين المناذرة والغساسنة ذكر منها ابن أبي الحديد يوم حليلة^(٢)، وهو يوم التقى المنذر والحارث الغساني الأكبر^(٣)، ونتيجة لتلك الصراعات بينه وبين الغساسنة قتل المنذر على يد الحارث بن أبي شمر الغساني وهو الحارث الاعرج^(٤).

تولى عمرو بن هند السلطة بعد مقتل ابيه (٥٥٤ م - ٥٧٤ م) وكان يسمى مضرط الحجارة سمي بذلك لشدة وطأته وصرامته^(٥) وقد ذكره ابن أبي الحديد ضمن أبيات مطلعها:

من مبلغ عمرو بن هند رسالةً إذا استحقبتها العيسُ جاءتُ من البعدِ
أبو عذني والرملُ بيني وبينه تبينُ رويدا ما أمامه من هند^(٦)

وسمي أيضاً محرقاً أيضاً لأنه أحرق ثمانية وتسعين رجلاً من بني دارم بالنار وكملهم مائة برجل من البراجم وبامرأة نهشلية^(٧)، وكان شديد البأس قوي الشكيمة مع زهو وكبرياء وغطرسة فهابته العرب، وقد بلغ من غروره وغطرسته أنه أراد أن يهين أم عمرو بن كلثوم ويرفع من قدر امه فوثب عليه عمرو بن كلثوم فضرب بالسيف على رأسه فقتله^(٨).

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٢٦٦/١ - ٢٦٧؛ زيدان، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٧٦.

(٢) انظر تفاصيل اليوم في ص ٣٣٤ من الرسالة.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٥٩/٢٠.

(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٥٩.

(٥) ابن قتيبة، المعارف ص ٣٥٩.

(٦) شرح نهج البلاغة، ٢٤٨/٢.

(٧) انظر تفاصيل اليوم ص ٣٤٩ من الرسالة.

(٨) الاصفهاني، الاغاني، مج ٤، ٢٧٥/١١.

وبعد مقتله تولى الإمارة عدد من أخوته أشهرهم أبو قابوس النعمان بن المنذر (٥٨٥م - ٦١٣م)، وكان تعيينه بمشورة من عدي بن زيد، وهو أحد كتاب كسرى و مترجميه القريبين من النعمان، فساء ذلك اخوة النعمان فسعوا سرّاً للإيقاع بعدي بن زيد عند النعمان بالوشاية^(١) فأدى ذلك إلى سجنه بحبس النعمان كما يذكر ابن أبي الحديد^(٢)، ومن ثم قتله، ولهذا سعى ابنه زيد بن عدي بتدبير مؤامرة للأخذ بثأر والده فعندما علم أن كسرى يريد أن يزيد حريمه أقنعه بالأميرات العربيات، وهو يعلم ان النعمان سوف يرفض زواج بناته من الفرس وهذا ما حدث فعلاً فأثار ذلك سخط كسرى فاستدعى النعمان للقدوم إلى بلاطه ومن ثم قتله^(٣).

لعل السبب في قتل النعمان هو الخوف من تزايد سلطته والتفاف العرب حوله وتزايد قوة العرب، وهذا ما أكدته رسالة كسرى أبرويز جواباً على رسالة ابنه شيرويه التي نقلها ابو حنيفة الدينوري (وأما ما زعمت من قتلي النعمان بن المنذر، وإزالتني الملك عن آل عمرو بن عدي إلى إياس ابن قبيصة، فإن النعمان وأهل بيته واطنوا العرب، وأعلموهم توكتفهم^(٤) خروج الملك عنا إليهم، وقد كانت وقعت إليهم في ذلك كتب، فقتلته)^(٥)، وقد تكون قصة الزواج من النساء العربيات هي الوسيلة التي من خلالها حاول كسرى القضاء على دولة النعمان وتسليم حكمها إلى إياس بن قبيصة الطائي.

ومن خلال هذا النص ورواية عدي بن زيد وسعيه عند كسرى لتعيين النعمان يمكن ان نلاحظ ان الملك الساساني كانت له اليد الطولى على ملوك الحيرة، فهو يعين من يريد،

(١) الطبري، ١٩٤/٢ - ١٩٧

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٧٠/١

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٨٤/١؛ البكري، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤٦٤

(٤) يتوكف الخبر: ينتظره ويتوقعه

(٥) الاخبار الطوال، ص ١٦٠

وحسب مصلحته ومصلحة فارس ولايتوانى من قتل أي شخص يخالف أمره وسياسته.
وبمقتل النعمان انتهى حكم المناذرة في الحيرة وبقيت الحيرة بيد ملوك ضعفاء حتى
سقوطها بيد خالد بن الوليد سنة ١٣ هـ^(١).

ثالثاً: كندة:

قامت دولة كندة^(٢) في أواسط شبه الجزيرة العربية، وشملت معظم بلاد نجد مما يلي
الحجاز شرقاً، وكانت منازلهم الأولى في البحرين واضطروا إلى الرحيل فنزلوا
بحضرموت وكان الذي نقل منهم عن هذه البلاد إلى حضرموت نيفاً وثلاثين ألفاً^(٣)،
وكان بين كندة وقبائل حضرموت حروب طويلة أفنت عامتهم، وفتنت رجالهم، وكثر
القتل في كندة. وملكت حضرموت علقمة بن ثعلب، وهو يومئذ غلام، فلانت كندة
بعض اللين وكرهت محاربة حضرموت، وعندما اضطربت احوال اليمن تشتت قبائلها
وانتشروا في البلاد وملك كل قوم عظيمهم، وصارت كندة إلى أرض معد بنجد^(٤).

ولم تظهر كندة بصورتها القوية إلا بعد حكم حجر بن الحارث آكل المرار (٤٦٠م
تقريباً - ٤٨٠م)، إذ ان الذين سبقوه كانت سلطتهم محدودة لا تتجاوز حدود القبيلة في
غمر ذي كندة^(٥)، والذي كانت تقطنه قبيلة إياد، وإنما سمي آكل المرار (لأن بعض
غسان خالفه في بعض غزواته فاكتسح له مالاً وسبى له جارية، واوغلوا بالجارية يديرون

(١) ابن حبيب، المحبر، ص ٢٦٠

(٢) قبيلة كندة قحطانية ترجع الى كندة وهو ثور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أد بن زيد بن يشجب بن
عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، ينظر ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ٤٨٥/٣.

(٣) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٧١؛ الجبوري، مريد صالح ضامن، كندة ودورها السياسي والاقتصادي في
الجزيرة العربية قبل الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٤، ص ١٤.

(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٨٥/١.

(٥) الغمر: الماء الكثير المرقق وغمر ذي كندة موضع وراء وجرة بينه وبين مكة مسيرة يومين، ينظر ياقوت الحموي،
معجم البلدان، مج ٣، ٣٩٥/٦.

المال خوف التبع، فأقبلت الجارية تلفتُ فقيل لها ما تلفتك؟ فقالت: كأنني بججر قد كربكم فاغراً فاه كأنه جمل أكل مراراً فلم يعتم أن لحق على تلك الهيئة فسمي أكل المرار^(١)، وذكر ابن أبي الحديد والمرار بضم الميم شجر مر في الأصل واستعير شرب المرار لكل من يلقي شديد المشقة^(٢)، وفي هذا المعنى يقول طفيل الغنوي:

إن النساء كأشجارٍ نبئنَ معاً هنَّ المرارُ وبعضُ المرِّ مأكولٌ^(٣)

وفي كلام للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يتحدث عن احوال الماضين قال:

«اتَّخَذْتَهُمْ الْفَرَاعِنَةَ عَيْدًا فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَجَرَّعُوهُمْ جُرْعَ الْمُرَارِ»^(٤).

استطاعت كندة في عهد حجر أكل المرار إقامة تحالفات مع القبائل المحيطة بها فعقد حجر حلفاً مع ربيعة ومذحج وكونوا قوة كبيرة في المنطقة تمكنت من التوسع على مناطق واسعة^(٥)، ثم بعد ذلك قرر بكر أن يملكوا عليهم ملكاً يأخذ للضعيف من القوي، وعلموا أن هذا لا يستقيم حتى يكون الملك منهم لأنه يطيعه قوم ويخالفه آخرون، فطلبوا من حجر يملك عليهم، فقدم ونزل بطن عاقل وأغار ببكر فانتزع عامة ما كان بأيدي اللخمييين من أرض بكر، ووحد العرب تحت رايته ولعلها المحاولة الأولى لتوحيد صفوفهم وراء زعيم مشترك^(٦)، فلما توفي خلفه ابنه عمرو الملقب بالمقصور (٤٨٠ م - ٤٩٥)، وقيل ربما سمي بالمقصور لأنه اقتصر على ما تحت نفوذه من أراضٍ ولم يستطع الوقوف امام القبائل التي

(١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٦٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٣/ ١٢٨.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٨/ ١٥٩.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣/ ١٢٧، [خطبة ٢٣٨].

(٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١/ ١٨٦، الجبوري، مريد صالح ضامن، كندة ودورها السياسي والاقتصادي في

الجزيرة العربية قبل الإسلام، ص ١٦.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢/ ٣٢٨؛ زيدان، جرجي، العرب قبل الإسلام، ص ٢٨٧.

انشقت عنه^(١) وهو لم يحمل لقب (ملك) وإنما اكتفى بلقب (سيد كندة)^(٢).

ومن ملوك كندة المشهورين الحارث بن عمرو الذي كان له اربعة ابناء، حجر وشرحيل وسلمة، ومعديكرب، فملك حجراً في أسد وكنانة، وملك شرحيل على غنم وطيء والرباب، وملك سلمة على تغلب والنمر بن قاسط، وملك معديكرب على قيس بن عيلان، وكانوا يجاورون ملوك الحيرة فقتل الحارث، وقام ولده بما كان في أيديهم، ثم أوقع المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة الشرور بينهم فقتل سلمة أخاه شرحيل^(٣)، وبلغ الخبر إلى أخيه معد يكرب فاشتد جزعه وحزنه على أخيه وزاد ذلك حتى اعتراه منه وسواس هلك به^(٤)، أما حجر فكانت قبيلة أسد غير راضية على حكمه ورفضوا أن يدفعوا له الأتاوة السنوية فحاربهم وقبض على رؤسائهم وقتل كثيرا منهم بالعصا فاجتمعت بنو أسد على قتله، فقتلوه وكان القائم بأمر بني أسد عباء بن الحارث أحد بني ثعلبة^(٥)، وذكر ابن أبي الحديد أن امرأ القيس قال فيه :

وأفلتُهنَّ علباءُ جريضاً ولو أدركتهُ صفرَ الوطابِ^(٦)

وكان امرؤ القيس بن حجر أصغر أولاد حجر غائباً حيث تذهب الرويات أن حجراً طرده وأصرَّ أن لا يقيم عنده لتغزله بالنساء وشرب الخمر، فلما سمع بالخبر قال : ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً لا صحو اليوم ولا سكر غدا اليوم خمر وغدا أمر

(١) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٦٩؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٣٢٨/٢؛ برو، توفيق، تاريخ العرب القديم، ص ١٥٤.

(٢) الشيخ، حسين، العرب قبل الإسلام، دار المعرفة الجامعية، (الاسكندرية ١٩٩٣)، ص ٣٢٨.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٨٦/١.

(٤) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٧٠؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ٣١٨/٢.

(٥) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٣٣٠/٢؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ٣١٨/٢؛ برو، توفيق، تاريخ العرب

القديم، ص ١٥٧

(٦) شرح نهج البلاغة، ١١٦/١٦.

فذهبت مثلاً، فلما صحا قرر ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدهن بدهن ولا يصيب امرأة حتى يدرك بثأره^{(١)(٢)}، وأخذ يتنقل بين القبائل العربية طالباً معونتهم حتى مات بأنقرة من أرض الروم، وبموته اضمحلت مملكة كندة، ولم يبق من آثارها سوى ذكرى امرئ القيس وشعره الذي تناول ابن أبي الحديد قسماً منه كدلالات وتعليقات لمجموعة من الأحداث والتفسيرات التي احتواها كتابه.

يبدو لنا إن كندة لم تكن دولة مثل الحيرة وذلك لسببين:

١ - لم تكن لها عاصمة واضحة أو سياسة معينة، أو نوع واضح من الحكومات، ويبدو أن صفة أو لقب ملك أطلق على بعض حكامها لكونها توسعت أكثر من غيرها من القبائل.

٢ - هي قبيلة نزلت على طريق التجارة وأخذت تتوسع على حساب القبائل الضعيفة، فشكّلت لها مكائنها وأصبح لها نفوذ حتى أخذت تفرض الأتاوة بالقوة على القبائل الأخرى الأقل منها قوة.

وهكذا انتهت أول محاولة من داخل العرب لتوحيد القبائل العربية تحت سلطة واحدة، إذ سرعان ما عادت عشائر كندة إلى الجنوب حيث ساد منهم قيس بن معديكرب بن جبلة وابنه الأشعث^(٣)، وذكر ابن أبي الحديد إن مراداً لما قتلت قيساً الأشجج خرج الأشعث طالباً بثأره فخرجت كندة متساندين على ثلاثة ألوية على أحد الألوية كبس بن هانئ بن

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١/١٨٨؛ الاصفهاني، الاغانى، مج ٣، ٩/٥٧٥؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٢/٣٣١؛ برو، تاريخ العرب القديم، ص ١٥٩.

(٢) ينظر تفاصيل يوم حجر ص ٥٢١ من الرسالة.

(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ٢/٣١٨؛ الشيخ، العرب قبل الإسلام، ص ١٧١؛ مهرا، تاريخ العرب القديم، ص ٥٦٠.

شرحيل بن الحارث بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين ويعرف هانئ بالمطلع لأنه كان يغزو فيقول اطلعت بني فلان فسمي المطلع، وعلى الثاني القشعم أبو جبر بن يزيد الأرقم، وعلى الثالث الأشعث فأخطئوا مرادا ولم يقعوا عليهم، ووقعوا على بني الحارث بن كعب فقتل كبس والقشعم أبو جبر وأسر الأشعث ففدي بثلاثة آلاف بغير لم يفد بها عربي بعده ولا قبله فقال في ذلك عمرو بن معديكرب الزبيدي :

فَكَانَ فِدَاؤُهُ أَلْفِي بَعِيرٍ وَأَلْفًا مِنْ طَرِيفَاتٍ وَتَلْدِ^(١)

وقد ذكر ابن أبي الحديد هذه الحادثة تعليقا على كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قاله للأشعث بن قيس وهو على منبر الكوفة بعد أن اعترض على كلامه :

«وَاللَّهِ لَقَدْ أَسْرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً وَالْإِسْلَامُ أُخْرَى فَمَا فَدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالِكَ وَلَا حَسْبُكَ»^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد ان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم عرض نفسه عليهم لما قدمت كندة حجاجا قبل الهجرة كما كان يعرض نفسه على أحياء العرب فدفعه بنو وليعة من بني عمرو بن معاوية ولم يقبلوه^(٣).

رابعاً: الغساسنة:

الغساسنة أصلهم من اليمن وهم ينسبون إلى قبيلة الأزد، ويقال ان اول ملوكهم هو جفنة بن عمرو مزقياء، ولذا فهم يعرفون باسم آل جفنة أيضاً، وهم خرجوا من اليمن

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٧٠/١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٦٩/١، [خطبة ١٩].

(٣) شرح نهج البلاغة، ٢٧١/١.

بعد تصدع سد مأرب ونزلوا على ماء في سهل تهامة يسمى (غسان) فنسبوا إليه^(١)، أما المسعودي فيقول (إنما غسان ماء شربوا منه فسموا بذلك وهو ما بين زيد ورمع، وادي الأشعريين بأرض اليمن) وأورد المسعودي شعراً لحسان بن ثابت الأنصاري يقول فيه:

إِمَّا سَأَلْتِ فَإِنَّا مَعْشَرٌ نُجِبُ الْأَزْدُ نَسَبْتُنَا، وَالْمَاءُ غَسَانُ^(٢)

وذكر ياقوت الحموي، ان جملة من قبائل الأزد نزلت عند ماء غسان وهم الأنصار وبنو جفنة وخزاعة^(٣)، ثم قدموا الشام حيث تقيم فيها قبلهم قبيلة قضاة، فطالبتهم قضاة بالرحيل فرفضوا ودارت معارك بينهم انتهت بانتصار الغساسنة^(٤).

ليس ثمة اتفاق على عدد ملوكهم ولكن أبرزهم هو الحارث بن جبلة (٥٢٥ م - ٥٦٩ م) وهو الذي حارب المنذر الثالث بن ماء السماء وقتله في موقعة (عين آباغ)^(٥)، وكان ذا شخصية قوية ومهابة، وقد ذكر ابن أبي الحديد أبياتاً من الشعر نسبها إلى أحد شعراء بني اسد يحاكي بها الحارث الغساني فيقول:

لَعَمْرُكَ مَا خَشِيتُ عَلَى أَبِي رِمَاحُ بَنِي مَقِيْدَةِ الْحَمَارِ
وَلَكِنِّي خَشِيتُ عَلَى أَبِي رِمَاحُ الْجَنِّ أَوْ إِيَّاكَ حَارِ

(١) المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦)، التنبيه والاشراف، دار صعب، بيروت، (د،ت)، ص ١٥٨؛ امين، فجر الإسلام، ص ١٨؛ حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ١/٣٧؛ سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ١٤٠؛ برو، تاريخ العرب القديم، ص ١٤١.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٢/٣٢٦.

(٣) معجم البلدان، مج ٣، ٦/٣٨٤، [مادة غسان].

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٢/٣٢٤؛ الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٤٥.

(٥) وهو يوم من ايام العرب بين المناذرة والغساسنة انتهى بانتصار الغساسنة ومقتل المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة وانهزام جيشه، ينظر تفاصيل اليوم عند ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٥/٢٤٤ وما بعدها.

وذكر أن العرب كانت تسمي الطواعين رماح الجن^(١).

لكن الأصفهاني ذكر الأبيات والقصة بشكل مختلف إذ قال : (أغار ملك من ملوك غسان يقال له عدي وهو ابن أخت الحارث بن أبي شمر الغساني على بني أسد فلقيته بنو سعد بن ثعلبة بن دودان بالفرات ورئيسهم ربيعة بن حذار فاقتتلوا قتالا شديدا فقتلت بنو سعد عديا، اشترك في قتله أخوا ربيعة، عمرو وعمير ابنا حذار وأمهما امرأة من كنانة يقال لها تماضر إحدى بني فراس بن غنم وهي التي يقال لها مقيدة الحمار^(٢). فقالت فاختة بنت عدي :

لَعَمْرُكَ مَا خَشِيتُ عَلَى عَدِيٍّ رِمَاحَ بَنِي مُقَيِّدَةِ الْحِمَارِ
وَلَكِنِّي خَشِيتُ عَلَى عَدِيٍّ رِمَاحَ الْجِنِّ أَوْ إِيَّاكَ حَارِ

تعني الحارث بن أبي شمر خاله^(٣).

بعد الحارث خلفه ابنه المنذر الذي استقبله الامبراطور البيزنطي في عاصمته وأنعم عليه بالتاج بينما لم يكن لأسلافه سوى الإكليل يضعونه على رؤوسهم، لكنه اتهم فيما بعد بأن له صلات سرية مع الفرس أعداء البيزنطيين فألقي القبض عليه وأرسل مع ثلاثة من ولده وزوجته إلى السجن ثم نفي إلى صقلية حيث قضى نحبه هناك، وقد مهدت هذه الأحداث لقيام أبناء المنذر الآخرين وعلى رأسهم النعمان إلى اعلان الحرب على البيزنطيين واتخذوا البادية منطلقاً لهم لسلسلة من الغارات كان نتيجتها إلقاء القبض على النعمان فعمت

(١) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٨١.

(٢) مُقَيِّدَةُ الْحِمَارِ: الحُرَّةُ لِأَنَّهَا تَعْقِلُهُ فَكَأَنَّهَا قَيَّدَتْ لَهُ وَقِيلَ عَنِي بِنِي مُقَيِّدَةِ الْحِمَارِ الْعَقَارِبَ لِأَنَّهَا أَكْثَرُ مَا تَكُونُ فِي الْحُرَّةِ وَالْقَيْدُ مَا ضَمَّ الْعَضُدَتَيْنِ الْمُؤَخَّرَتَيْنِ مِنْ أَعْلَاهُمَا مِنَ الْقَيْدِ وَالْقَيْدُ الْقَيْدُ الَّذِي يَضُمُّ الْعَرَفُوتَيْنِ مِنَ الْقَتَبِ وَالْعَرَبِ تَكْنِي عَنِ الْمَرْأَةِ بِالْقَيْدِ، ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٧/٤١٣، [مادة قيد].

(٣) الأغاني، مج ٤، ١١/٣٦٧.

الفوضى وتفككت وحدة الغساسنة واختارت كل قبيلة اميراً لها^(١).

من خلال قراءتنا للروايات السابقة يمكن القول ان دولة الغساسنة لم تتمتع بالاستقلال السياسي، إنما كانت تابعة للدولة البيزنطية حالها حال دولة المناذرة التي عرفت بتبعيتها للساسانيين، ولذا نجد ان المنذر بن الحارث ما ان خرج عن ما مرسوم له في حدود علاقته بالفرس حتى اتهم بالخيانة ونفي وأدى ذلك بالتالي إلى إنهاء دولة الغساسنة التي أسست أصلاً كجدار حاجز بين الدولة البيزنطية والدولة الساسانية.

وتذكر المصادر التاريخية ان آخر أمراء الغساسنة هو جبلة بن الأيهم الذي أسلم ثم ارتد، ذكره ابن أبي الحديد بقوله ان عمر بن الخطاب سرعان ما أغلظ على جبلة بن الأيهم حتى اضطره إلى مفارقة دار الهجرة بل مفارقة دار الإسلام كلها وعاد مرتداً داخلًا في دين النصرانية لأجل لطمة لطمها، وقال جبلة بعد ارتداده متندماً على ما فعل:

تَنصَّرْتُ الأَشْرَافُ مِنْ أَجْلِ لَطْمَةٍ وما كانَ فيها لو صبرتُ لها ضررُ
فيا ليتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي وَلِيَتَّنِي رجعتُ إلى القولِ الذي قالَهُ عمرُ^(٢)

وذكر البلاذري ان عمر بن الخطاب عندما قدم الشام سنة سبع عشرة، رأى جبلة رجلاً من مزينة فلطم عينه، فأمره عمر بالاعتصام منه فقال: أو عينه مثل عيني؟ والله لا أقيم ببلد علا به سلطان، فدخل بلاد الروم مرتداً^(٣).

خامساً: يثرب:

وهي ثاني مدن الحجاز العامرة بعد مكة عرف اسمها القديم يثرب في الكتابات

(١) أحمد، مصطفى أبو ضيف، دراسات في تاريخ الدولة العربية، ط ٤، دار النشر المغربية، (الدار البيضاء ١٩٨٦)،

ص ٨٤؛ أمين، فجر الإسلام، ص ٢٠؛ برو، تاريخ العرب القديم، ص ١٤٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٨١/١٥.

(٣) فتوح البلدان، ص ١٨٥.

المعينية القديمة، وسميت بهذا الاسم لأن أول من سكنها يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام^(١)، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم من قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد ان رسول الله سماها طيبة^(٣)، وذلك تعليقاً على كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي ذكر طيبة عند ذكره الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وصفاته بقوله :

«أَسْرَتْهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ، وَشَجَرْتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ، أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ، مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهَجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ، عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ، وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ»^{(٤)(٥)}.

أما تاريخ يثرب قبل الإسلام ففيه الكثير من الغموض في بعض جوانبه، فتذكر الروايات القديمة ان يثرب كانت واحة، وكان العمالقة أول من سكنها، ثم تغلبت عليها بعض القبائل اليهودية واستقرت إلى جانبهم والبعض يذكر أسطورة حول إرسال موسى اليهود إلى العماليق في الحجاز وأمرهم أن لا يستبقوا من العماليق أحد بلغ الحلم، فقدموا عليهم فقتلوهم مع ملكهم، ثم استقروا في ارضهم^(٦)، وعلق ابن خلدون على

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ٤٩٦/٨؛ سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ٢٧٥.

(٢) سورة الاحزاب: الآية ١٣.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٨٢/٩.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٨٢/٩، [خطبة ١٦٦].

(٥) ذكرت ليثرب اسماء كثيرة، ينظر قائدان، تاريخ آثار مكة والمدينة ص ٢٠٣.

(٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ٢٢٩/٧، [مادة مدينة يثرب]؛ دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ص ١٨٥.

هذه الرواية بقوله (واليهود لا يعرفون هذه القصة وبعضهم يقول كان ذلك لعهد طالوت)^(١).

يبدو ان هذه الرواية هي من أساطير اعتاد ممن كتبوا أخبار العرب على تليفها، والراجح أن اليهود جاءوا إلى بلاد العرب بعد هذا التاريخ بفترات طويلة هربا من تنكيل الرومان لهم، وهذا ما أشار إليه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله في إحدى خطبه يذكر أصحابه بحال بني إسرائيل والعرب في العصور السابقة:

«لِيَالِي كَانَتْ أَلْكَاسِرَةُ وَالْقِيَاصِرَةُ أَرْبَابًا لَهُمْ يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الْأَفَاقِ وَبَحْرِ
أَلْعِرَاقِ وَحُضْرَةَ الدُّنْيَا إِلَى مَنَابِتِ الشَّيْخِ»^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد في أثناء تعليقه على كلام الإمام عليه السلام ان بني إسرائيل احتازتهم الأكاسرة والقياصرة عن ريف الآفاق إلى البادية ومنابت الشيخ وهم يهود خيبر والنضير وبني قريظة وبني قينقاع^(٣)، وكانت هجرتهم في فترات متفاوتة وقد احتكوا بالعرب المقيمين بيثرب، غير أنهم عزلوا عنهم في سكناهم، وعاش بعضهم مع بعض عيشة التكتل وبنوا الحصون والقرى المحصنة لتوطيد مركزهم وإقرار هيبتهم في نفوس العرب^{(٤)(٥)}.

وهناك من شكك في كون القبائل العربية في يثرب يهودية الأصل أو إنها جاءت من

(١) تاريخ ابن خلدون، ٢/١٠٠.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣/١٢٩، [خطبة ٢٣٨].

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٨١.

(٤) الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ٢٩٥، برو، تاريخ العرب القديم، ص ١٨٧.

(٥) هناك روايات عديدة حول استيطان اليهود في شبه الجزيرة العربية لخصها أحد الباحثين وإستعرضها في كتب

متفرقة، ينظر الجبر، مخلد ذياب فيصل، روايات أهل الكتاب للسيرة النبوية حتى عهد البعثة، ص ٥٣ - ٧٤.

خارج الجزيرة، فقد ذكر اليعقوبي ان بني النضير هم فخذ من جذام^(١) إلا أنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير، فسموا به^(٢)، وبنو قريظة هم فخذ من جذام أخوة النضير، ويقال أن تهودهم كان في أيام عاديا أي السموأل. ثم نزلوا بجبل يقال له قريظة، فنسبوا إليه^(٣).

وفي كل الأحوال يبدو ان اليهود ازداد عددهم فأصبحوا أكثرية، وانفردوا في شؤون يثرب وفرضوا الخراج على أصحاب الثروة والنفوذ لذلك قال بعضهم:

نؤدّي الخرجَ بعدَ خراجِ كسرى
وخرجُ بني قريظةَ والنضيرِ^(٤)

وما زال هذا شأنهم حتى قدمت عليهم قبائل من الأزد هاجرت من جنوب اليمن بعد انهيار سد مأرب فتفرقوا في البلدان فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ونزلت خزاعة مراً ونزلت أزد السراة، ونزلت أزد عمان، ونزلت الأوس والخزرج يثرب^(٥)، وهما أبناء حارثة بن ثعلبة وأمهم قبيلة، ولذلك سمي الأوس والخزرج بنو قبيلة^(٦)، وقد ذكرهما ابن أبي الحديد في فصل بعض وصايا العرب فقال: لما حضرت الوفاة أوس بن حارثة أخوا الخزرج لم يكن له ولد غير مالك بن الأوس وكان لأخيه الخزرج خمسة فقيل له: كنا نأمرك بأن تتزوج في شبابك فلم تفعل حتى حضرك الموت ولا ولد لك إلا

(١) وهم من قبائل قحطان، وجذام هو عمرو بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، ينظر ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٨٥.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ٣٢/٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ٣٤/٢.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ٢٢٨/٧، [مادة مدينة يثرب].

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ١٢/١.

(٦) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٣٣٣/٢، سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ٢٨٤؛ الشريف، مكة والمدينة في

الجاهلية وعهد الرسول، ص ٣٠٩.

مالك فقال: لم يهلك هالك ترك مثل مالك^(١).

ثم ذكر ابن أبي الحديد بعضاً من وصية أوس بن حارثة وحكمته، وهي فصلٌ من فصول الكلام الجميل والمتعارف عليه عند العرب فقال في وصيته:

(من قلَّ ذلٌّ، وخيرُ الغنى القناعة، وشرُّ الفقر الخسوع، الدهرُ صرفانِ صرفُ رخاءٍ وصرفُ بلاء، واليومُ يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصطبر وكلاهما سينحسر وكيف بالسلامة لمن ليست له إقامة)^(٢).

قامت بين العرب واليهود أول الأمر علاقات طيبة ثم ازدادت قوة العرب فأثار ذلك مخاوف اليهود إذ رأوا فيهم خطراً يهدد مصالحهم فحاولوا إثارة الفتن والعداوة فيما بينهم فاستنجد العرب بأبناء عمهم الغساسنة في الشام فقدموا يثرب وفتكوا باليهود فضعف نفوذهم فصار الأوس والخزرج بعد ذلك سادة يثرب وصارت لهم الأموال وتفرقوا في أنحاء المدينة ونزلوا في منازل اليهود حيث غزارة المياه وكرام النخيل^(٣).

استغل اليهود التنافس بين الأوس والخزرج فعملوا على تشجيع الفرقة بينهم فوَقعت بين الطرفين حروب عرفت بيوم سمير ويوم السراة ويوم حاطب ويوم بعث وكان النصر سجالات بينهم^(٤)، وذكر ابن أبي الحديد يوم بعث^(٥)، ومقتل سويد بن الصامت الذي هيج الحرب بينهما^(٦)، وكانت آخر الأيام بينهم ولم يتفقا إلا بعد مجيء الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم يثرب مهاجراً فحقق الوحدة التي عجز عنها العرب من قبل.

(١) شرح نهج البلاغة، ٩١/١٧.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٩١/١٧.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ٢٣٠/٧، [مادة مدينة يثرب]؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٣٣٢/٢.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٤٣٠/٢ وما بعدها؛ برو، تاريخ العرب القديم، ص ١٩٠.

(٥) ينظر تفاصيل اليوم في ص ٤٩٧ من الرسالة.

(٦) شرح نهج البلاغة، ٣٨/١٥.

لو أردنا ان نعقد مقارنة بين الوضع السياسي في مكة والوضع السياسي في يثرب، لثبت لنا أن مكة تمتعت باستقرار سياسي لا مثيل له، وبالمقابل شهدت يثرب اضطراباً سياسياً، تصارعاً بين أطرافه الثلاثة، الأوس والخزرج واليهود، ويمكن أن نعزو ذلك إلى عدة أسباب منها:

١ - وجود شخصيات عقلانية حكيمة في إدارة مكة مثل أبناء قصي لاسيما فرع النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ - العامل التجاري ودوره في الاستقرار السياسي لإرتباطه بمصالح جميع أهل مكة الذين ارتبطت حياتهم بوجود التجارة واستمرارها، والتي بدورها تعتمد على استقرار مكة واستمرار السلم فيها، أما يثرب فلعل الزراعة والصراع على الأراضي الزراعية التي كانت عماد اقتصاد أهل مكة سبباً في استمرار القتال وعدم الاستقرار لأن الاراضي الزراعية كانت تشكل مصدر الصراع والتنازع لإنها مصدر الثراء، وهذا يحتاج إلى القوة أكثر من الاستقرار الذي تحتاجه التجارة.

٣ - التنوع الطيفي والاجتماعي وتساوي مراكز القوة في يثرب دفعهم إلى القتال بينهم، بينما نجد أن قريشاً تتسيد مجتمع مكة لوحدها دون غيرها، ولذا سعوا إلى سيادة الامن والاستقرار.

٤ - العامل الديني وحرمة مكة كان له الدور الكبير في استقرار مكة.

المبحث الثاني أيام العرب قبل الإسلام

تعد أيام العرب قبل الإسلام من الأحداث المهمة التي مرت بها الجزيرة العربية، اذ بينت لنا الكثير عن علاقات العرب مع الساسانيين والبيزنطيين فضلاً عن علاقات العرب فيما بينهم، وعرفت عند المؤرخين باسم (الأيام) ومفردها يوم، وكانت العرب تقول الأيام في معنى الوقائع يقولون هو عالم بأيام العرب أي وقائعها، وقالوا إنما خصوا الأيام بالوقائع دون ذكر الليالي لأن حروبهم كانت نهاراً وإذا كانت ليلاً ذكروها كقولهم:

ليلةُ العرقوبِ حتى غادرتْ جعفرٌ يُدعى ورهط بن شكل^(١)

كما عبّروا عن الشدة باليوم. يقال: يَوْمٌ أيومٌ، كما يقال ليلةٌ ليلاء^(٢).

وقد وردت في الشعر الجاهلي أمثلة كثيرة ترد فيها الايام مرادفة لمعنى الحروب كقول المهلهل بن ربيعة في رثاء أخيه كليب:

(١) ابن منظور، لسان العرب، ٢٧٧/٩ [مادة وقع]؛ الزبيدي، تاج العروس، ٧٨/١٧.

(٢) الجوهري، الصحاح، ص ١٢٥٥، [مادة يوم].

فلو نُبِشَ المقابرُ عن كليبٍ
فيخبر بالذنائبَ أي زيرٍ
بيومِ الشعثمينِ لُقِرَ عيناً
وكيف لقاءً من تحتِ القبورِ^(١)

وقول عمرو بن كلثوم :

وأيامٌ لنا غُرُطِوَالٌ
عَصَيْنَا الملكَ فيها أنْ نَدِينَا^(٢)

وقد ذكر كذلك لفظ الايام في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ
اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^(٣)

وذكر المفسرون انه أنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم كقوم نوح وعاد
وادم، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها^(٤)، إعتاد العرب على إغارة بعضهم على
بعض فذكر ابن أبي الحديد قول مالك بن حريم الهمداني :

وكنتُ إذا قومٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمْ
فهلُ أنا في ذا يآ آل همدانَ ظالمٌ
متى تجمعُ القلبَ الذكيَّ وصارماً
وأنفأً حميماً تجتنبك المظالم^(٥)

(١) الديوان، ص ٣٩؛ جاد المولى، محمد أحمد وآخرون، أيام العرب في الجاهلية، المكتبة العصرية، (بيروت ١٩٦١)، ص ١٥٧.

(٢) الديوان، ص ٧١؛ قميحة، مفيد، شرح المعلقات العشر، دار الهلال، (بيروت ١٩٩٧)، ص ٢٣٨.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٥.

(٤) الطبرسي، مجمع البيان، ٥٨/٦؛ السمعاني، تفسير السمعاني، ١٠٤/٣؛ ابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن
بن علي بن محمد (ت ٥٩٧ هـ)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق محمد عبد الرحمن عبد الله، دار الفكر،
(بيروت ١٩٨٧)، ٢٥٥/٤.

(٥) شرح نهج البلاغة، ١٩٦/٣.

وكانوا يتفاخرون بطريقة الإغارة ويصفونها بأوصاف جميلة منها ما ذكره ابن أبي الحديد ان حنيفة غزت نميرا فأتبعتهم نمير فأتوا عليهم فقبل لرجل منهم كيف صنع قومك قال (اتبعوهم والله وقد أحقبوا كل جمالية خيفانة فما زالوا يخصفون آثار المطي بحوافر الخيل حتى لحقوهم فجعلوا المران^(١) أرشية الموت فاستقوا بها أرواحهم)^(٢).

ولم تكن جيوشهم منظمة بل اشتاتاً يقودها سيد القبيلة، ويقوم على رأس كل فصيلة قائد يقال له المنكب، يأمر على خمسة عرفاء، والعريف يأمر على نفر من الثلاثة إلى العشرة، ومن عادات العرب ان تشترك القبيلة كلها في الحرب للدفاع عن المال والنساء والأولاد^(٣).

وكانت هناك أخلاق ودروس في أغلب أيامهم وعلى الرغم من قساوة الحروب إلا انهم احتفظوا بقيم الصحراء الحميدة وكانت معهم في غزواتهم فذكر ابن أبي الحديد ان قيس بن عاصم المنقري (إذا غزا شهد معه الحرب ثلاثون من ولده يقول لهم: إياكم والبغي فإنه ما بغى قوم قط إلا ذلوا: قالوا فكان الرجل من ولده يظلم فلا ينتصف مخافة الذل)^(٤) وقال ابن عبد ربه في أيام العرب ووقائعهم (إنها مآثر الجاهليّة، ومكارم الأخلاق السنيّة، قيل لبعض أصحاب رسول الله: ما كنتم تتحدّثون به إذا خلوتم في مجالسكم؟ قال: كُنّا نتناشد الشعر، ونتحدّث بأخبار جاهليّتنا)^(٥).

(١) أحقب البعير وضع له الحقب: وهو جبل يشد فيه الرحل في بطن البعير، والجمالية: الناقة الوثيقة، تشبه الجمل في خلقتها وشدتها وعظمتها، والخيفانة: السريعة شبهت بالجرادة السريعة، المران: الرماح، ينظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠٧/١، هامش المحقق ابي الفضل ابراهيم.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٢٠٧/١.

(٣) البستاني، بطرس، ادباء العرب في الجاهلية وصد الإسلام، دار صادر، (بيروت ١٩٥٣)، ص ٢٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٨٠/١٥.

(٥) العقد الفريد، ١٢٩/٥.

وأيام العرب كثيرة منها ما وصلتنا أخباره ومنها لم يصلنا عنها شيء، أما تسمية الأيام فهي غالباً ما تكون مأخوذة من اسم المكان الذي حدثت فيه الواقعة كيوم ذي قار ويوم بعث، أو تكون باسم شخص معروف له أثر كبير في الواقعة كيوم حجر، وقسم منها مشاجرات فردية أو خصومات كلامية مثل يوم الضعينة، أو غارات قد استمرت يوماً ومنها ما يستمر أياماً وسينياً كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء.

أما عن أسبابها فمن خلال قراءتنا لتفاصيل أيام العرب يمكن أن نستنتج إنها على الاغلب تتعلق بالجانب السياسي وتأثيراته على الجوانب الأخرى فهي أما لأسباب إقتصادية للسيطرة على منابع الكلاً وموارد المياه أو طمعاً في الحصول على إبل الغير أو رغبة بعض القبائل في التحرر من هيمنة القبائل الأقوى والتخلص من الظلم والأتاوات، أو الثأر لقتيل، أو التخلص من تبعية النفوذ الأجنبي.

وذكر ابن أبي الحديد قسماً منها على شكل روايات صغيرة أو ضمن أبيات شعر استشهد بها لواقعة أو حدث معين، ولم يفرد لها فصلاً أو موضوعاً خاصاً بل تناثرت في صفحات أجزاء كتابه المختلفة، ولكون أيام العرب بشكل عام من الصعب ترتيبها زمنياً أو تاريخياً لكثرة عددها، لذا ارتأينا تقسيمها على أربعة محاور أيام القحطانيين، وأيام العدنانيين، وأيام القحطانيين والعدنانيين، وأيام العرب والفرس.

أولاً: أيام القحطانيين فيما بينهم:

١- يوم حليلة:

ذكر ابن أبي الحديد يوم حليلة بقوله انه (يوم التقى المنذر الأكبر والحارث الغساني الأكبر وهو أشهر أيام العرب، يقال إنه ارتفع من العجاج ما ظهرت معه الكواكب نهاراً، وحليمة اسم امرأة أضيف اليوم إليها لأنها أخرجت إلى المعركة مراكن الطيب

فكانت تطيب بها الداخلين إلى القتال فقاتلوا حتى تفانوا^(١).

ويبدو إن هناك نوعاً من المبالغة والخيال في ما نقله ابن أبي الحديد من وصف لهذا اليوم، وهذا ناتج من شهرة ذلك اليوم وشراسة القتال فيه حتى ضرب فيه المثل (ما يوم حليلة بسر)^(٢).

وذكر ابن الاثير ان سبب هذا اليوم هو قيام المنذر بن ماء السماء الملقب بالأسود بجمع عساكره بعد مقتل والده المنذر الأكبر، وسار بهم إلى الحارث الأعرج طالباً بثأر أبيه عنده وبعث إليه: إنني قد أعددت لك الكهول، على الفحول. فأجابه الحارث: قد أعددت لك المرد على الجرد^(٣) فسار المنذر حتى نزل بمرج حليلة^(٤).

وتذكر كتب الايام ان حليلة هي ابنة الحارث الغساني، فعندما قامت الحرب بين الأسود والحارث أياماً انتصف بعضهم من بعض، دعا الحارث ابنته وأمرها فاتخذت طيباً كثيراً، وطيبت به أصحابه، ثم نادى: يا فتيان غسان من قتل ملك الحيرة زوجته إبنتي، فقام لييد بن عمرو الغساني فقتل المنذر، ولكنه قتل قبل أن ينعم بحليلة^(٥)، وانهمزت جيوش المناذرة وانصرفت غسان بأحسن الظفر، وكان لتحميم حليلة للجنود أثره في هذا اليوم المشهور لذلك نسب أسم اليوم إليها.

(١) شرح نهج البلاغة، ١٥٩/٢.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٥٩/٢.

(٣) الفحول: الذكور من كل حيوان، والكهول: جمع كهل وهو من كان سنه بين الرابعة والثلاثين والحادية والخمسين، المرد: جمع أمرد وهو الشاب طر شاربه ولم تنبت لحيته، الجرد: جمع اجرد وهو الفرس السباق، ينظر جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص ٥٤.

(٤) الكامل في التاريخ، ٣٤٩/٢.

(٥) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٣٤٩/٢؛ جاد المولى، ايام العرب في الجاهلية، ص ٥٤؛ خفاجي، الشعر الجاهلي، ص ١١١ وما بعدها.

٢- يوم بعث:

بعث موضع في نواحي المدينة، وقيل هو من أموال بني قريضة، فيها مزرعة يقال لها قورا^(١)، وكانت به وقعة بعث بين الأوس والخزرج.

وذكر ابن أبي الحديد ان الذي هيَّج وقعة بعث هو مقتل سويد بن الصامت حيث جاء حضير الكتائب والد أسيد بن حضير إلى بني عمرو بن عوف فكلم سويد بن الصامت وخوات بن جبير وأبا لبابة بن عبد المنذر ويقال سهل بن حنيف فقال هل لكم أن تزوروني فأسقيكم شرابا وأنحر لكم وتقيمون عندي أياما قالوا نعم نحن نأتيك يوم كذا، فلما كان ذلك اليوم جاءوه فنحر لهم جزورا وسقاهم خمرا وأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى تغير اللحم، وكان سويد بن الصامت يومئذ شيخا كبيرا، فلما مضت الأيام الثلاثة قالوا ما نرانا إلا راجعين إلى أهلنا، فقال حضير ما أحببتم إن أحببتم فأقيموا وإن أحببتم فانصرفوا، فخرج الفتيان بسويد بن الصامت يحملانه على جمل من الثمل فمروا لاصقين بالحرة حتى كانوا قريبا من بني عيينة، فجلس سويد يبول وهو ثمل سكرا فبصر به إنسان من الخزرج، فخرج حتى أتى المجذر بن زياد فقال هل لك في الغنيمة الباردة قال ما هي قال سويد بن الصامت أعزل لا سلاح معه ثمل، فخرج المجذر بن زياد بالسيف مصلتا فلما رآه الفتيان وهما أعزلان لا سلاح معهما وليا والعداوة بين الأوس والخزرج شديدة فانصرفا مسرعين، وثبت الشيخ ولا حراك به فوقف المجذر بن زياد، فقال: قد أمكنني الله منك، قال: ما تريد بي، قال: قتلك، قال:

فارفع عن الطعام واخفض عن الدماغ فإذا رجعت إلى أمك فقل إنني قتلت سويد بن الصامت فقتله^(٢).

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ٣٥٦/٢، [مادة بعث].

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٨/١٥.

وذكر ابن أبي الحديد ان سويد بن الصامت حين ضربه المجذر بقي قليلا ثم مات فقال
قبل أن يموت يخاطب أولاده:

أبلغ جلاسا وعبدا لله مالكة
وإن دُعيتَ فلا تحذلْهُما حارِ
واحي عوفا على عرفِ وإنكارِ
اقتل جذارة إذ ما كنتَ لآقيهم

وجذرة وجذارة أخوان وهما ابنا عوف بن الحارث بن الخزرج^(١).

استغل بنو قريظة والنضير الموقف فجددوا العهد مع الأوس على الموازنة والتناصر،
فلما سمعت بذلك الخزرج جمعت وحشدت وراسلت حلفاءها من أشجع وجهينة،
ومكثوا أربعين يوماً يتجهزون للحرب، والتقوا ببعث، وعلى الأوس حضير الكتائب
بن سماك، وعلى الخزرج مرو بن النعمان البياضي، فلما التقوا اقتتلوا قتالاً شديداً
وصبروا جميعاً. وانهزمت الخزرج، ووضعت فيهم الأوس السلاح، فصاح صائح: يا
معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب! فانتهوا
عنهم ولم يسلبوهم، وحملت الأوس حضيراً مجروحاً فمات. وأحرقت الأوس دور
الخزرج ونخلهم^(٢).

وأكثر الأنصار الأشعار في يوم بعث، فمن ذلك قول قيس بن الخطيم الظفري
الأوسي بأبيات مطلعها:

أعرفُ رسماً كالطرازِ المذهبِ
لعمرةً ركباً غيرَ موقفِ راكبِ

(١) شرح نهج البلاغة، ٤٠/١٥.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٤٤٣/٢ - ٤٤٤؛ جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص ٧٣ وما بعدها

والتي يقول فيها بيته الشهير:

أَجَالِدُهُمْ يَوْمَ الْحَدِيقَةِ حَاسِرًا
كَأَنَّ يَدِي بِالسَّيْفِ مِخْرَاقٌ لَاعِبٌ^(١)

وذكر الأصفهاني ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جلس يوماً في مجلس ليس فيه إلا خزرجي ثم استنشدهم أبيات قيس بن الخطيم فأنشده بعضهم إياها فلما بلغ إلى قوله:

أَجَالِدُهُمْ يَوْمَ الْحَدِيقَةِ حَاسِرًا
كَأَنَّ يَدِي بِالسَّيْفِ مِخْرَاقٌ لَاعِبٌ

فالتفت إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: هل كان كما ذكر، فشهد له ثابت بن قيس بن شماس وقال له: والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد خرج إلينا يوم سابع عرسه عليه غلالة وملحفة مورسة فجالدنا كما ذكر^(٢).

وكان يوم بعث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ثم جاء الإسلام واتفقت الكلمة واجتمعوا على نصره الإسلام ووحدة كلمتهم.

وعلى الرغم من ان الإسلام قد حقن الدماء وذهب بأحقاد الجاهلية، إلا أن امتداد يوم بعث استمر في أيام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة، ذكر ابن أبي الحديد ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما قدم المدينة أسلم الحارث بن سويد بن الصامت وأسلم المجذر فشهدا بدرًا فجعل الحارث بن سويد يطلب المجذر في المعركة

(١) ابن الخطيم، قيس بن عدي الاوسي، الديوان، تحقيق ابراهيم السامرائي، واحمد مطلوب، مطبعة العاني، (بغداد ١٩٦٢)، ص ٣١ وما بعدها؛ الجبوري، أيام العرب واثرها في الشعر الجاهلي، دار الحرية، (بغداد ١٩٧٤)، ص ٩٧.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، مج ١، ٥٥٥/٣.

ليقتله بأبيه فلا يقدر عليه يومئذ فلما كان يوم أحد وجال المسلمون تلك الجولة أتاها الحارث من خلفه فضرب عنقه، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة أتاها جبرائيل عليه السلام فأخبره أن الحارث بن سويد قتل المجذر غيلة وأمره بقتله، فركب إلى قباء في اليوم الذي أخبره جبرائيل، في يوم حار وكان ذلك يوماً لا يركب فيه إلى قباء إنما كانت الأيام التي يأتي فيها قباء يوم السبت ويوم الاثنين، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسجد قباء صلى فيه ما شاء الله أن يصلي وسمعت الأنصار فجاءوا يسلمون عليه وأنكروا إتيانه تلك الساعة في ذلك اليوم فجلس يتحدث ويتصفح الناس حتى طلع الحارث بن سويد في ملحفة مورسة فلما رآه، دعا عويم بن ساعدة فقال له قدم الحارث بن سويد إلى باب المسجد فاضرب عنقه بمجذر بن زياد فإنه قتله يوم أحد فأخذه عويم فقدمه على باب المسجد فضرب عنقه^(١).

وقيل إن الذي اعلمه قتل الحارث المجذر يوم أحد حبيب بن يساف نظر إليه حين قتله فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فركب يتفحص عن هذا الأمر فيينا هو على حماره نزل جبرائيل عليه السلام فأخبره بذلك^(٢).

ثانياً: أيام العدنانيين:

١- يوم الهباءة^(٣):

هو يوم من عدة أيام لحرب طويلة دارت بين عبس وذبيان عرفت باسم (داحس والغبراء) منها، المريقب، وذبي حسي، واليعمرية، والهباءة، والفروق، وقطن. وتذكر

(١) شرح نهج البلاغة، ٣٨/١٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣٩/١٥.

(٣) الهباءة: وهي أرض ببلاد غطفان، وجفر الهباءة مستنقع في هذه الأرض وقيل هو جبل في بلاد بني سليم وفيه ماء يقال له الهباءة وهي أفواه أبار كثيرة مخزقة الأسافل يفرغ بعضها في بعض الماء العذب الطيب ويزرع عليه الحنطة والشعير وما أشبهه، ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤/٤٦٦، إمادة الهباءة.

الروايات أنّ السبب المباشر لهذه الحرب هو رهان جرى بين قيس بن زهير العبسي وحذيفة بن بدر من ذبيان على سباق لحيلهما، وكانت داحس والغبراء فرسي قيس بن زهير، وادّعى حذيفة السبق في حين أبى قيس ذلك لأن حذيفة كان قد أكمّن في طريق الخيل بعض الفتیان ليردوا داحساً عن غايته إن جاء سابقاً، وألحَّ حذيفة في دعواه وأرسل ابنه مالكاً في طلبه، وكان الرهان عشرين من الإبل، فما كان من زهير إلا أن قتله فنشبت الحرب وظلت قرابة أربعين سنة^(١).

ويوم الهباءة كان من أشهر أيامها حيث أسرفت عبس في قتل ذبيان فوضعت فيهم السلاح حتى ناشدتهم بنو ذبيان البقية، وكان عدد قتلاهم في هذه الواقعة أربعمئة قتيل، وقتل من عبس ما يزيد عن عشرين^(٢)، وذكر ابن أبي الحديد ان حذيفة بن بدر كان من ضمن القتلى وقتل معه ثلاثة أو أربعة من أهل بيته^(٣)، ومثّل بحذيفة وأخيه حمل أشدّ تمثيل^(٤).

وذكر ابن أبي الحديد ان قيس بن زهير لما قتل حذيفة بن بدر ومن معه بجفر الهباءة خرج حتى لحق بالنمر بن قاسط، فأقام فيهم حتى ولد له ثم رحل عنهم إلى غمار^(٥)

(١) أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيمي (ت ٢٠٩ هـ)، أيام العرب قبل الإسلام، جمع وتحقيق ودراسة عادل جاسم البياتي، عالم الكتب، (بيروت ٢٠٠٣)، ٨٧/٢ وما بعدها؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١٤٦/٥ وما بعدها؛ الجبوري، أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي، ص ١٠٣ وما بعدها؛ حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ٤٩/١ وما بعدها؛ زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٣١٩ وما بعدها

(٢) أبو عبيدة، أيام العرب قبل الإسلام، ١٠٦/٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٧٨/٢؛ الجبوري، منذر، أيام العرب في الجاهلية وقيمتها التاريخية وأثرها عند الجاهليين والإسلاميين، مجلة المورد العراقية، مج ٢، العدد الاول، بغداد، ١٩٧٣، ص ٥٠

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٨٨/١٥

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١٥٢/٥

(٥) الغمَارُ: هو جمع غمر وهو الماء المغرق، وهو اسم واد بنجد، ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣٩٤/٦

فتنصر بها وعف عن المأكل حتى أكل الخنظل إلى أن مات^(١).

وأظهر قيس بن زهير في أواخر أيامه وفي أثناء ترحاله الندم على ما فعل في يوم الهباء من أسراف في القتل فذكر ابن أبي الحديد انه قال يوماً يوصي بها أهله ومن معه (أنهاكم عن الغدر فإنه عار الدهر، وعن الرهان فإن به ثكلت مالكا أخي، وعن البغي فإن به صرع زهير أبي وعن السرف في الدماء فإن قتلي أهل الهباء أورثني العار، ولا تعطوا في الفضول فتعجزوا عن الحقوق، وأنكحوا الأيامى الأكفاء فإن لم تصيبوا بهن الأكفاء فخير بيوتهن القبور واعلموا أنني أصبحت ظالما ومظلوما ظلمي بنو بدر بقتلهم مالكا وظلمتهم بقتلي من لا ذنب له)^(٢).

٢- حرب البسوس:

وهي حرب واسعة استمرت أربعين سنة بين بكر وتغلب ابني وائل ووقعت فيها عدة أيام منها، يوم النهى، ويوم الذنائب، ويوم واردات، ويوم عنيزة، ويوم القصيبات، ويوم تحلاق اللمم^(٣).

وتروي الاخبار ان الذي أثار هذه الحروب أن كليباً وكان سيد ربيعة من تغلب قد حمى أرضاً من العالية، وكان لا يقربها أحد، ثم إن رجلاً يقال له سعد بن شمس بن طوق الجرمي نزل بالبسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة - وكان كليب قد تزوج اخته جليلة - وكان للجرمي ناقة اسمها سراب ترعى مع نوق جساس، وهي التي ضربت العرب بها المثل فقالوا: أشأم من سراب وأشأم من البسوس، فخرج كليب إلى الحمى وجعل يتصفح الإبل، فرأى ناقة الجرمي مع إبله فرمى ضرعها فأنقذه، ولها

(١) شرح نهج البلاغة، ١٧/٨٤

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٧/٨٤.

(٣) لتفاصيل هذه الايام، ينظر ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٥/٢٠١ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،

عجيج حتى بركت بفناء صاحبها. فلما رأى ما بها صرخ بالذل، وسمعت البسوس صراخ جارها، فخرجت إليه. فلما رأت ما بناقته وضعت يدها على رأسها ثم صاحت: وا ذلّاه؟ وجساس يراها ويسمع، فقال لها: اسكتي ولا تراعي، إني سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة، فقتل كليياً^(١).

وقد أسرف مهلهل وهو أخو كليب بقتل بني بكر عندما قام بتغلب طلباً للثأر وذكر ابن أبي الحديد أنه وقف على قبر كليب فقال:

إن تحت الأحجارِ حزماً وعزماً
وخصيماً ألدّ ذا معلاقٍ
حيّةٌ في الوجارِ أربدٌ لا ينفعُ
منهُ السليمُ نفثةُ راقٍ^(٢)

وكان المهلهل منتصراً في أكثر أيامها إلا في يوم تحليق اللمم، حيث قام الحارث بن عباد بأسر بكر بعد أن كان معزلاً، وسبب خوضه القتال أن المهلهل قتل ابنه بجيرا، فلما بلغ الحارث قتله صبراً وقال: نعم القتل قتل أصلح بين أبنائي وائل، وظن أن المهلهل قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفتاً له^(٣)، وذكر ابن أبي الحديد أن المهلهل كان يقول: (بؤ بشسع نعل كليب)^(٤)، فغضب الحارث عند سماعه ذلك والتفت حوله بكر وحلقت رؤوسها استبسالا للموت وانتصر البكريون انتصاراً عظيماً، وكان من نتائج هذه المعركة أن خرج المهلهل فلحق بأرض اليمن وغلبت بكر الحرب فصالحت تغلب بكرًا ورجعوا

(١) أبو عبيدة، أيام العرب قبل الإسلام، ٧٢/٢ وما بعدها؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٣٣، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٣٦/٢ وما بعدها؛ ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (ت ٧٤٩ هـ)، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٦)، ٦٤/١ - ٦٥؛ القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص ٤٠٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٩٩/٦.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٠٨/٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٤٥/٢.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٦٨/٩.

إلى بلادهم بعد أن أفنت كثيراً من أحياء العرب وتركت أحقاداً في الصدور^(١)، صارت أحداث البسوس مثلاً وعبرة تضرب للناس للاستفادة من أحداثها فقد ذكر ابن أبي الحديد أبياتاً للشريف الرضي يقول فيها:

إذا هولٌ دعائك فلا تهبهُ
فلم يبقَ الذينَ أبوا وهأبوا
كليبٌ عافصته يدٌ وأودى
عتيبةٌ يومَ أقصه ذؤاب^(٢)

٣- يوم شعب جبلة^(٣)

ذكر ابن أبي الحديد ان يوم جبلة هو يوم التقت تميم وقيس عيلان^(٤)، وهو من أشهر أيام العرب، وكان لقيط بن زرارة قد عزم على غزو بني عامر بن صعصعة للأخذ بثأر أخيه معبد بن زرارة، الذي مات في أسرهم^(٥) لذا عمد لقيط إلى أن يستنصر كل من له ثأر عند بني عامر فاستعان ببني ذبيان للعداوة التقليدية بين عبس وذبيان على أثر حرب داحس والغبراء فخرجوا مع لقيط ومعهم حلفاؤهم من بني أسد بن خزيمة، وخرجت تميم كلها باستثناء بني سعد الذين تربطهم صلة قرى ببني عامر بن صعصعة، وبهذا شكّل لقيط بن زرارة جيشاً كبيراً كثير العدد والعدة، لذا عدّ يوم شعب جبلة واحداً من

(١) جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص ١٦٣ وما بعدها.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣/٢٣٨؛ ينظر كذلك الشريف الرضي، ابو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسيني (ت ٤٠٤ هـ)، الديوان، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص ١٢٦.

(٣) جبلة: هي هضبة حمراء بنجد بين الشريف والشرف والشريف ماء لبني تميم والشرف ماء لبني كلاب، وجبلة جبل طويل له شعب عظيم واسع لا يرقى الجبل إلا من قبل الشعب، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ٣/٣٠، [مادة جبلة].

(٤) شرح نهج البلاغة، ٣/٢٤٤.

(٥) أسره بنو عامر في يوم رححان، واضرب عن الطعام حتى مات، ينظر ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٥/١٣٥.

أعظم ثلاثة أيام عرفها العرب قبل الإسلام، يوم الكلاب ويوم ذي قار ويوم جيلة^(١).

سار بنو تميم ومعهم أحلافهم وفي طريقهم التقوا كرب بن صفوان بن الحباب السعدي، وكان شريفاً، فاخذوا عليه المواثيق والعهود أن لا يندز بني عامر ففعل ولكنه أراد إنذارهم فعمد إلى الحيلة، فذكر ابن أبي الحديد أن الأحوص بن جعفر الكلابي أتاه آت من قومه فقال أن رجلا لا نعرفه جاءنا فلما دنا منا حيث نراه نزل عن راحلته فعلق على شجرة وطبا من لبن ووضع في بعض أغصانها حنظلة ووضع صرة من تراب وحزمة من شوك ثم أثار راحلته فأستوى عليها وذهب، فنظر الأحوص في ذلك فعي به، فقال أرسلوا إلى قيس بن زهير فأتوا قيسا فأعلموه الخبر، فقال: هذا رجل قد أخذت عليه العهود ألا يكلمكم ولا يرسل إليكم وأنه قد جاء فأندركم، أما الحنظلة فإنه يخبركم أنه قد أتاكم بنو حنظلة وأما الصرة من التراب فإنه يزعم أنهم عدد كثير وأما الشوك فيخبركم أن لهم شوكة وأما الوطب فإنه يدلکم على قرب القوم وبعدهم فذوقوه فإن كان حليبا فالقوم قريب وإن كان قارصا فالقوم بعيد وإن كان المسيخ لا حلوا ولا حامضا فالقوم لا قريب ولا بعيد فقاموا إلى الوطب فوجدوه حليبا فبادروا الاستعداد وغشيتهم الخيل فوجدتهم مستعدين^(٢).

وكان بنو عامر قد أتفق رأيهم على دخول شعب جيلة فجعلوا النساء والذراري والضعفاء والأموال على رأسه، وكان المقاتلين في وسطه، ثم عمدوا إلى الإبل فمنعوها من الماء عدة أيام، فلما هاجمهم لقيط ومن معه أطلقوا عقل الإبل فهوت مسرعة نحو مواردنا والقوم وراءها يرمونها بالحجر، فولت جيوش تميم مذعورة وبنو عامر

(١) ابو عبيدة، أيام العرب قبل الإسلام، ١١٦/٢ وما بعدها؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١٣٧/٥؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٣٨٠/٢ وما بعدها؛ جيد، سعيد جبار، قبيلة تميم ودورها في التاريخ العربي قبل الإسلام، إطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة بغداد، ٢٠٠٧، فص ٣، ص ١٥٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣١/٥.

يتبعونها قتلاً وأسراً، وكان لقيط واحد من قتلى ذلك اليوم^(١).

وذكر ابن أبي الحديد ان خالد بن جعفر بن كلاب قال يوم شعب جبلة:

إن يقتلوني لا تصب أرماحهم	ثأري ويسعى القوم سعيًا جاهداً
نُبئتُ أن بني جذيمة أجمعت	أمراً تدبره لتقتل خالدًا
أرمي الطريق وإن رصدت بضيقه	وأنزل البطل الكمي الحاردا ^(٢)

٤. يوم الغبيط^(٣):

يقال لهذا اليوم يوم الغبيط أو يوم الثعالب، والثعالب أسماء قبائل اجتمعت فيه، وكان بسطام بن قيس قد غزا في جمع من بني شيبان، بني ثعلبة بن يربوع، وثعلبة بن سعد بن ضبة، وثعلبة بن عدي بن فزارة، وثعلبة بن سعد بن ذبيان وكان هؤلاء جميعاً متجاورين قرب عين ماء في صحراء فلج، فاقتتلوا، فانهزمت الثعالب فأصابوا فيهم واستاقوا إبلاً من نعمهم. ولم يشهد عتيبة بن الحارث بن شهاب هذه الوقعة، لأنه كان نازلاً يومئذ في بني مالك بن حنظلة^(٤)، وذكر ابن أبي الحديد ان عتيبة هذا كان من أشجع العرب وكانت العرب تقول لو وقع القمر إلى الأرض لما التقفه إلا عتيبة بن

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٢/٢٨٠ وما بعدها؛ زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٣٢٥ وما بعدها؛ الروقي، مجاد بن زياد بن معضد، شعر قبيلة بني كلاب من العصر الجاهلي الى اخر عصر بني امية، دراسة موضوعية فنية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة ام القرى، السعودية، ١٤١٤ هـ، ص ١٧٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ٣/٢٤٤.

(٣) الغبيط: أو غبيط المدرة، ارض لبني يربوع وسميت الغبيط لأن وسطها منخفض وطرفها مرتفع كهيئة الغبيط وهو الرحل اللطيف، ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٣، ٦/٣٧٦، [مادة الغبيط].

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٥/١٨٧.

الحارث لثقافته بالرمح وكان يقال له صياد الفوارس وسم الفوارس^(١).

ثم مر القوم على بني مالك وهم بين صحراء فلج وغبيط المدرة فاكتسحوا إبلهم، فركب عليهم بنو مالك يقودهم عتبة بن الحارث اليربوعي وفرسان بني يربوع، رؤساء بني تميم، فأدركوهم بغبيط المدرة، فقاتلوهم حتى هزموهم، وأخذوا ما كانوا استاقوه من إبلهم^(٢)، فأسر بسطام بن قيس، فارس ربيعة ثم استوفى فداءه وجز ناصيته، واخلى سبيله^(٣).

٥- يوم اللوى:

هو من الأيام التي ذكرها ابن أبي الحديد تعليقاً على بيت من الشعر أستشهد فيه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قاله دريد بن الصمة صاحب الموقعة، وذلك في كلام للإمام عليه السلام يعاتب فيه أهل الكوفة بعد أن فرضوا عليه التحكيم في أثناء معركة صفين فقال:

«كُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَرْتُمْ أَمْرِي بِمَنْعَرَجِ اللَّوَى
فَلَمْ تَسْتَيْبُوا النَّصْحَ إِلَّا ضَحَى الْغَدِ»^(٤)

وعلق ابن أبي الحديد ان اخا هوازن صاحب الشعر هو دريد بن الصمة وهذا البيت جزء من ابيات أولها:

وقلتُ لعارضٍ وأصحابَ عارضٍ
ورهُطِ بني السُّوداءِ والقومِ شُهَّدي

(١) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٠٠.

(٢) ابو عبيدة، أيام العرب قبل الإسلام، ١٨١/٢؛ جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص ١٩٧.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٠٠.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦٣/٢، [خطبة ٣٥].

فقلتُ لهم ظنوا بألفي مدجج
 أمرتُهم أمري بمنعرج اللوى
 فلما عَصَوْنِي كنتُ مِنْهُمْ وقد أرى
 وما أنا إلا من غُزِيَّةٍ إن غَوَتْ
 سُراتِهمُ في الفارسي المسردِ
 فلم يستينوا الرشدَ إلا ضحى الغدِ
 غَوَيْتَهُمْ وأنني غيرُ مهتدِ
 غَوَيْتُ وإن ترشدَ غُزِيَّةَ أرشدِ^(١)

أما قصة هذه الأبيات واليوم فان عبد الله وهو أسم آخر لعارض أخي دُرَيْد بن الصمة أغار على غطفان فأصاب منهم إبلاً عظيمة فأطردوها. وبينما هو عائد بغنائمه، توقف فقال له أخوه دُرَيْد: النجاة، فقد ظفرت. فأبى عليه وقال: لا أبرح حتى أنتقع نقيعتي، والنقيعة، ناقة ينحرها من وسط الإبل فيصنع منها طعاماً لأصحابه ويقسم ما أصاب على أصحابه، فأقام وعصى أخاه، فتتبعته فزارة فقاتلوه، وهو بمكان يقال له اللوى^(٢)، فقتل عبد الله، وجرح دريد^(٣)، وقال دريد يرثي أخاه في قصيدة طويلة نقل ابن أبي الحديد قسماً منها:

يقولُ ألا تبكي أخاكُ وقد أرى
 لمقتلِ عبدِ اللهِ والهالكِ الذي
 وعبد يغوثُ أو خليلي خالدِ
 فأما ترينا لا تزالُ دماؤنا
 مكانَ البُكا لكنْ بنيتُ على الصبرِ
 على الشرفِ الأعلى قتيلاً أبي بكرِ
 وجلُّ مُصابا جثوُ قبرِ على قبرِ
 لدى واترٍ يشقى بها آخرَ الدهرِ

(١) شرح نهج البلاغة، ١٦٣/٢، تنظر الابيات عند، ابن الصمة، دريد بن معاوية بن الحارث (ت ٨ هـ)، الديوان،

تحقيق عمر عبد الرسول، دار المعارف، (القاهرة ١٩٨٥)، ص ٥٩ وما بعدها.

(٢) اللوى: واد من أودية بني سليم، ومما يدل على أنه واد قول بعض العرب: * لقد هاج لي شوقاً بكاءً حمامة بيطن اللوى ورقاءً تصدع بالفجر، ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ١٨٢/٧، [مادة اللوى].

(٣) ابو عبيدة، أيام العرب قبل الإسلام، ١٤٥/٢ وما بعدها؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١٦١/٥؛ جاد المولى، ايام

العرب في الجاهلية، ص ٢٩٣ وما بعدها؛ علي، الفصل في تاريخ العرب، ٣٦٤/٥

فإِنَّا لِلْحَمِّ السِّيفِ غَيْرُ نَكِيرَةٍ
 يَغَارُ عَلَيْنَا وَاتْرِينَ فِيشْتَفَى
 ونلحمه طورا وليس بذئ نكر
 بنا إن أصبنا أو نغير على وتر
 فما ينقضي إلا ونحن على شطر^(١)
 بذاك قسما الدهر شطرين قسمة

٦- يوم الكديد^(٢) :

هو يوم لسليم على كنانة قتل فيه ربيعة بن مكرم، وهو من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة، وهم أنجد العرب، وكان الرجل منهم يعد بعشرة من غيرهم، وقد ذكرهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وذكر شجاعتهم لأهل الكوفة بقوله :

«وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسٍ بِنِ غَنَمٍ»^(٣).

وذكر ابن أبي الحديد ان ربيعة بن مكرم بن حرثان بن جذيمة بن علقمة بن فراس، الشجاع المشهور حامى الظعن حيا وميتا، ولم يحم الحريم وهو ميت أحد غيره، عرض له فرسان من بني سليم ومعه ظعائن من أهله يحميهم وحده، فطاعنهم فرماه نبيشة بن حبيب بسهم أصاب قلبه، فنصب رمحه في الأرض واعتمد عليه وهو ثابت في سرجه، لم يزل ولم يمل، وأشار إلى الظعائن بالرواح، فسرنا حتى بلغن بيوت الحي، وبنو سليم قيام إزاءه لا يقدمون عليه ويظنونه حيا، حتى قال قائل منهم، إني لا أراه إلا ميتا ولو كان حيا لتحرك، إنه والله لمائل راتب على هيئة واحدة لا يرفع يده ولا يحرك رأسه، فلم يقدم أحد منهم على الدنو منه حتى رموا فرسه بسهم، فشب من تحته، فوقع وهو ميت

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٤٣/٣؛ القصيدة كاملة عند ابن الصمة، دريد، الديوان، ص ٩٥ وما بعدها؛ ابو عبيدة، أيام العرب قبل الإسلام، ١٤٦/٢.

(٢) الكديد: ما غلظ من الأرض من الأرض، وهو موضع بالحجاز على اثنين وأربعين ميلا من مكة، ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ١٢٣/٧، [مادة الكديد].

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣٠٣/١، [خطبة ٢٥].

وفاتهم الطعائن^(١). وقال أحد الشعراء^(٢) يمدح عتبية بن مكرم بأبيات من الشعر وهو واقف على قبره نقلها ابن أبي الحديد:

لا يبعدن ربيعة بن مكرم	وسقى الغواصي قبره بذنوب
نفرت قلوصي من حجارة حرة	بيت على طلق اليمين وهوب
لا تنفري ياناق منه فإنه	شريب خمر مسعر لحروب
لولا السفار وبعد خرق مهمه	لتركتها تجثو على العرقوب
نعم الفتى أدى نبيشة بزّه	يوم اللقاء نبيشة بن حبيب ^(٣)

وكان لربيعة بن مكرم يوم آخر يذكره المؤرخون باسم، يوم الضعينة، حيث كان دريد بن الصمة في فوارس بني جشم فرأى ربيعة ومعه ضعينة^(٤) فأرسل ثلاثة من فرسانه الواحد بعد الآخر لأخذ الضعينة منه، فقتلهم جميعاً حتى انكسر رمحه، فذهل دريد فأعطاه رمحه وترك له ضعينته وقال: إن مثله لا يقتل، وعاد لأصحابه^(٥).

٧- يوم النصار:

هو من أيام العرب قبل الإسلام التي ذكرها ابن أبي الحديد في أبيات شعر لإحد شعراء ذبيان:

(١) شرح نهج البلاغة، ١/٣١٠؛ للتفصيل في اخبار يوم الكديد ينظر، الاصفهاني، الأغاني، مج ٢، ٣٦/٦ وما بعدها.
 (٢) قيل الأبيات لضرار بن الخطاب بن مرداس أحد بني محارب بن مهر قالها لما مر على قبره، وقيل بل هي لحسان بن ثابت، ينظر أبو عبيدة، أيام العرب قبل الإسلام، ١٠٦/٢؛ المبرد، الكامل في اللغة والأدب، مج ١، ٢٤٥/٢؛ الأصفهاني، الأغاني، مج ٦، ٣٨/١٦.
 (٣) شرح نهج البلاغة، ١/٣١١.
 (٤) الضعينة: امرأة الرجل في هودجها.
 (٥) ابو عبيدة، أيام العرب قبل الإسلام، ١٤٧/٢؛ جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص ٣١٢؛ علي، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٣٦٥/٥.

إذا حاولتَ في أسدٍ فجورا فأني لستُ منكَ ولستَ مني
هُمُ درعي التي استلأمتُ فيها إلى يومِ النصارِ وهُمُ مَجْنِي^(١)

وكذلك ذكره في أبيات للفرزدق في هجاء جرير :

ألسنا بأصحابِ يومِ النصارِ وأصحابِ ألويةِ المربدِ
ألسنا الذينَ تميمٌ بهم تسامى وتفخرُ في المشهدِ^(٢)

أما قصة اليوم فإن بني عامر كانوا في جوار بني سعد، فأصابت ضبة رجلاً منهم وأرادت ان تدفع الدية، فأبى العامريون ان يقبلوها، وقالوا: نقتل بصاحبنا، فأبت بنو ضبة، ووقعت الحرب، وتواعدوا ان يلتقوا بالنصار^(٣)، وكان على تميم حاجب بن زرارة، وعلى بني عامر شريح بن مالك القشيري، فاقتتلوا، فهربت بنو سعد وصبرت عامر فهزموا وقتلوا، فقتل شريح بن مالك، وسبيت نساؤهم، فقال بشر بن أبي خازم في هزيمة حاجب :

وأفلتَ حاجبُ جوبَ العوالي على شقراءَ تلمعُ في السراب
ولو أدركن رأسَ بني تميم عفرن الوجه منه بالتراب^(٤).

(١) شرح نهج البلاغة، ٣١٥/١.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٣٢/١٣؛ تنظر الأبيات عند ابو عبيدة، معمر بن المثنى التميمي (ت ٢٠٩ هـ)، نقائض جرير والفرزدق، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٨)، ١٧٦/٢.

(٣) وهي مياه لغني وكلاب والأكثر أنه جبل قال أبو عبيدة النصار أجبال متجاورة يقال لها الأنسر، ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ٣٨٦/٨، [مادة النصار]

(٤) ابو عبيدة، أيام العرب قبل الإسلام، ٢٦٤/٢؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٣٣/٥؛ الشمشاطي، ابو الحسن علي بن محمد بن المطهر العدوي (ت ٣٧٧ هـ)، الانوار ومحاسن الاشعار، تحقيق صالح مهدي الغزاوي، دار

٨- يوم نجران:

وذكر ابن أبي الحديد يوم نجران بقوله إن الأقرع بن حابس قاد بني تغلب قبل الإسلام وغزا بهم بالكرام من الخيل^(١)، وكان الأقرع كما يذكر أبو عبيدة قد أغار على نجران وهو في الفين، وفيها أخلاط من اليمن، من حمير منهم الأشعث بن قيس بن معد يكرب الكندي، وأخوه، فهزمهم جميعهم وغنم وسبى^(٢).

وذكر ابن أبي الحديد ان الفرزدق ذكر محاسن قومه في أبيات من الشعر ذكر فيها يوم نجران فقال:

ومنا الذي قاد الجياد على الوجا
بنجران حتى صبحت الترائع^(٣)

٩- يوم ذات الأثل:

غزا صخر بن عمرو بن الشريد، بني أسد بن خزيمه، واكتسح إبلهم فأتى الصريخ بني أسد، فركبوا حتى تلاحقوا بذات الأثل^(٤)، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فطعن ربيعة بن ثور الأسدي صخرًا في جنبه، وفات القوم بالغنيمه. وجرى صخر من الطعنة، فكان مريضاً قريباً من الحول، فلما طال عليه البلاء وقد نتأت قطعة من جنبه مثل اليد في

الشؤون الثقافية، (بغداد ١٩٨٧)، ص ٧٠؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٤٠٣/٢؛ جاد المولى، أيام العرب في

الجاهلية، ص ٣٨٠

(١) شرح نهج البلاغة، ٦٩/١.

(٢) ابو عبيدة، أيام العرب قبل الإسلام، ٢٨٦/٢؛ الالوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٦٩/٢.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٦٩/١؛ تنظر الأبيات عند أبي عبيدة، نقائص جرير والفرزدق، ١١١/٢.

(٤) ذات الأثل في بلاد تيم الله بن ثعلبة كانت لهم بها وقعة مع بني أسد، ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج

موضع الطعنة، قالوا له : لو قطعتمها لرجونا أن تَبْرأ. فقال : شأنكم. فقطعوها فمات^(١).
 وذكر ابن أبي الحديد مجموعة من الأبيات الشعرية التي رثت فيها الخنساء أخاها
 صخرًا في كتابه منها :

وقائلةً والنَّعشُ قد فات خَطْوَهَا
 ألا تُكَلِّتُ أمُّ الذين غَدَّوا به
 لتُدرِّكه يا لهفَ نَفسي على صَخْرٍ
 إلى القبرِ ماذا يَحْمِلونَ إلى القَبْرِ^(٢)
 وقالت الخنساء ترثيه :

ولولا كثرةُ الباكينِ حولي
 وما يكونَ مثلَ أخي ولكنَّ
 على إخوانهم لقتلتُ نفسي
 أعزِّي النفسُ عنه بالتأسي^(٣)
 وقالت الخنساء ايضاً :

ألا يا صخرُ إن أبكيتَ عيني
 بكيُّكُ في نساءٍ مُعولاتٍ
 لقد أضحككتني دهرًا طويلاً
 وكنتُ أحقُّ من أبدى العويلاً
 دفعتُ بكَ الجليلَ وأنتَ حيُّ
 إذا قَبِحَ البكاءُ على قَتيلٍ
 رأيتُ بكاءكَ الحسنُ الجميلاً^(٤)

(١) ابو عبيدة، أيام العرب قبل الإسلام، ١٦٧/٢؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١٦٠/٥؛ الشمشاطي، الانوار ومحاسن الاشعار، ص٥٦؛ علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٣٦٣/٥.
 (٢) شرح نهج البلاغة، ١٣٨/٢٠؛ ينظر كذلك الخنساء، الديوان، ص٣٩.
 (٣) شرح نهج البلاغة، ١٧٦/١١؛ ينظر كذلك الخنساء، الديوان، ص٥٦.
 (٤) شرح نهج البلاغة، ١٦٠/١٩؛ ينظر كذلك الخنساء، الديوان، ص٧٧.

وقال بعض الشعراء يمدح صخرًا:

له فخارٌ لا يـرامُ
وندى إذا بخل الغمامُ
في الروع إن قصر الحسام^(١)

إن ابن عمرو بن الشريد
وحجا إذا عدم الحجا
يصل الحسام بخطوة

١٠- أيام الفجار:

سميت أيام الفجار بهذا الأسم لأنها وقعت في الأشهر الحرم، وأنتهكت جوار الحرم، وقد جرت بين كنانة من جهة وقيس عيلان (هوازن وثقيف) من جهة اخرى، وقد قسمها الاخباريون إلى اربعة ايام، وأخرى إلى فجارين، الأول لا يعدو أن يكون مناوشات بسيطة لم يصب بها كثيرون، وكانت عدة أحداث أرتبطت باليوم^(٢).

أما الفجار الثاني الذي ذكره ابن أبي الحديد في روايات متفرقة فكان سببه أن البراض بن قيس بن رافع من قبيلة كنانة كان رجلاً فاتكاً خليعاً قد خلعه قومه لكثرة شره، فكان يضرب به المثل بفتكه، فيقال أفتك من البراض^(٣)، وذكر ابن أبي الحديد شعراً لأبي تمام يقول فيه:

والفيافي كالحية النضناضِ
فتكةٌ مثل فتكة البراضِ^(٤)

والفتى من تعرَّفته الليالي
كلَّ يومٍ له بصرف الليالي

(١) شرح نهج البلاغة، ١٣٩/٥.

(٢) لمزيد من تفاصيل تلك الأيام ينظر ابو عبيدة، أيام العرب قبل الإسلام، ٤٤٩/٢ وما بعدها؛ ابن الاثير، الكامل

في التاريخ، ٣٨٤/٢ وما بعدها؛ حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ٥١/١.

(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٣٨٤/٢.

(٤) شرح نهج البلاغة، ٢٣٧/٣.

وكان البراض في حضرة النعمان بن المنذر، ومن عادة النعمان أن يبعث كل عام بلطيمة^(١) للتجارة إلى عكاظ تباع له هناك، فقال النعمان : من يجيز لي لطيمتي هذه حتى يبلغها عكاظ ؟ فقال البراض : أنا أجيزها، على كنانة، فقال النعمان : إنما أريد من يجيزها على كنانة وقيس، وكان عروة الرحال من قبيلة قيس جالساً فقال : أكلبُ خليع يجيزها لك، أنا أجيزها على أهل تهامة وأهل نجد. فقال البراض : وعلى كنانة تجيزها يا عروة ؟ قال عروة : وعلى الناس كلهم، فدفع النعمان اللطيمة إلى عروة الرحال وأمره بالمسير بها، وخرج البراض يتبع أثره، فوثب إليه بالسيف فقتله^(٢).

ونشب القتال بينهم وكان من عاداتهم في الفجار الثاني ان يتواعدوا رأس الحول من العام التالي عند انتهاء اليوم لذلك التقوا خمسة أيام على مدى أربعة سنين، أربعة منها لقيس على كنانة وقريش وهي ايام نخلة، وشمطة، والعيلاء، والحريرة، وواحدة لكنانة وهو يوم عكاظ^(٣).

ذكر ابن أبي الحديد ان رؤساء قبائل قريش الذين خرجوا إلى حرب عامرهم : حرب بن أمية على بني عبد شمس وكان الزبير بن عبد المطلب على بني هاشم وكان عبد الله بن جدعان على بني تيمم وكان هشام بن المغيرة على بني مخزوم وكان على كل قبيلة رئيس منها فهم متكافئون في التساند ولم يحقق واحد منهم الرئاسة على الجميع^(٤).

وذكر ابن أبي الحديد ان يوم شمطة هو أحد أيام الفجار، قال فيه خدش بن زهير وهو عدو قريش وخصمها :

(١) اللطيمة : هي قافلة تجارية تحمل البضائع كان النعمان يرسلها سنوياً للمتاجرة في سوق عكاظ.

(٢) ابو عبيدة، ايام العرب قبل الإسلام، ٢٥١/٢ وما بعدها؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٣٨/٥؛ ابن الاثير،

الكامل في التاريخ، ٣٨٥/٢؛ زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٣٢٣

(٣) الجبوري، أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي، ص ١٠٧؛ الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية، ص ١٦٢

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٥٥/١٥

وبلَّغَ أَنْ بَلَغَتْ بُنَا هَشَامَا وَذَا الرَّمَحِينَ بَلَغَ وَالْوَلِيدَا
أَوْلَئِكَ إِنْ يَكُنْ فِي النَّاسِ جُودٌ فَإِنْ لَدَيْهِمْ حَسَبًا وَجُودَا
هُمُ خَيْرُ الْمَعَاشِرِ مِنْ قَرِيشٍ وَأُورَاهَا إِذَا قَدَحُوا زَنُودَا

اما يوم عكاظ فهو من أشهر أيام الفجار وقد أسرفت فيه كنانة في قتل قيس، وذكر ابن أبي الحديد ان الأعياص والعنابس كان لهم دور كبير في هذا اليوم (حين حفروا لأرجلهم الحفائر وثبتوا فيها وقالوا نموت جميعا أو نظفر، وإنما سموا بالعنابس لأنها أسماء الأسود، وإنما سموا الأعياص لأنها أسماء الأصول فالعنابس حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو والأعياص العيص وأبو العيص والعاص وأبو العاص وأبو عمرو ولم يعقب من العنابس إلا حرب وما عقب الأعياص إلا العيص)^(١).

وذكر ابن أبي الحديد ان ابن الزبيري مدح بني قصي بن كلاب لدورهم في هذا اليوم فقال:

فإن قصيا أهلٌ مجدٍ وثروةٍ وأهلٌ فعالٌ لا يُرامُ قديمُها
هُمُ منعوا يومي عكاظٍ نساءنا كما منعُ الشولُ الهجانَ قرومُها^(٢)

وذكر ابن أبي الحديد ان أبا طالب (كان يحضر أيام الفجار ويحضر معه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو غلام فإذا جاء أبو طالب هزمت قيس وإذا لم يجيء هزمت كنانة

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٠٢/١٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٦٧/١٥، ينظر الجربوع، عبد الله سليمان، ملحوظات على ديوان عبد الله بن الزبيري،

مجلة ام القرى، السنة الثالثة، العدد الخامس، السعودية، ١٤١١ هـ، ص ١٣٣.

فقالوا لأبي طالب : لا أبأ لك لا تغب عنا ففعل^(١)، وان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد شارك في هذه الحرب مشاركة فعلية حيث يذكر ابن أبي الحديد ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال :

«شهدت الفجار وأنا غلام فكننت أنبل فيه على عمومي»^(٢).

وذكر ابن سعد ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم حضر ابن عشرين سنة وكان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة^(٣).

ثالثاً: أيام القحطانيين والعدنانيين:

١- يوم أواره الثاني:

هو من أيام العرب المهمة التي ذكرها ابن أبي الحديد، وقد استخدم قسماً من احداثها كشاهد على سبب عداء العرب للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قال : (إعلم أن كل دم أراقه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسيف علي عليه السلام وبسيف غيره فإن العرب بعد وفاته عصبت تلك الدماء بعلي بن أبي طالب عليه السلام وحده لأنه لم يكن في رهطه من يستحق في شرعهم وستهم وعادتهم أن يعصب به تلك الدماء إلا بعلي عليه السلام وحده، وهذه عادة العرب إذا قتل منها قتلى طالبت بتلك الدماء القاتل فإن مات أو تعذرت عليها مطالبته طالبت بها أمثل الناس من أهله)^(٤)، ثم ان ابن أبي الحديد ضرب مثلاً على ذلك يوم من أيام العرب بقوله (لما قتل قوم من بني تميم أخا لعمر بن هند قال بعض أعدائه يحرص عمرا عليهم :

(١) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٦٦.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١٥/١٦٦.

(٣) الطبقات الكبرى، ١/١٠٦.

(٤) شرح نهج البلاغة، ١٣/٢٢٢.

من مبلغٌ عمرًا بأن
وحوادثُ الأيامِ لا
ها إنَّ عَجُزَةَ أمِّه
تسفي الرياحَ خلالَ
فاقتلُ زرارةَ لا أرى
المرءُ لم يخلقُ صبارةً
يَبْقَى لها إلا الحجارةُ
بالسفحِ أسفلَ من أواره
كشحيه وقد سلبوا إزاره
في القومِ أمثلَ من زرارة

فأمره أن يقتل زرارة بن عدس رئيس بني تميم ولم يكن قاتلا أخا الملك ولا حاضرا قتله، ومن نظر في أيام العرب ووقائعها ومقاتلها عرف ما ذكرناه^(١).

أراد ابن أبي الحديد هنا يوم أواره الثاني حيث تذكر كتب المؤرخين ان عمرو بن هند غزا اليمامة ومعه زرارة فأخفق، فلما كان حيال جبلي طيء قال له زرارة: أي ملك إذا غزا لم يرجع ولم يصب، أحسب من هذا الحي شيئاً، وكان له معهم عقد فرفض فلم يزل به حتى أقنعه، فمال إليهم فأسر وقتل وغنم^(٢).

يبدو لنا من خلال قراءتنا لهذه الرواية ان هناك خرقاً لعادات العرب البداوة وتقاليدهم الذين كانوا يحترمون العهد والاتفاق رغم قساوة العيش داخل بيئتهم التي كانت تعتمد في الكثير من صورها على الغزو، ولكن العودة من الغزو بدون نصر أو جائزة، كانت تشكل عبئاً كبيراً\\\\\\ص على كاهل النعمان الذي خرق الاتفاقات والعهود والعادات العربية مع ما لعبه زرارة من دور في إقناعه.

هزت هذه الحادثة قيس بن جروة الطائي وأسمه المعرق أيضاً فقال قصيدة طويلة

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٢٢/١٣.

(٢) أبو عبيدة، أيام العرب قبل الإسلام، ٢٨٨/٢ وما بعدها؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ٤٦/١٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٥٧/٢ وما بعدها؛ جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص ١٠٠ وما بعدها.

منها :

وأقسمُ جهداً بالمنازلِ من منىً
وما خبَّ في بطحائهنَّ درادِقُه
لئنْ لم تغيرْ بعضَ ما قد فعلتُم
لأنتحينَّ العظمَ ذو أنا عارقَه

فبلغ هذا الشعر عمرو بن هند فقال له زرارة : إنه يتوعدك ، فقال عمرو بن هند والله لأقتلنه^(١) ، فبلغ ذلك عارقاً فقال أبياتاً من الشعر ذكر قسماً منها ابن أبي الحديد منها :

من مبلغُ عمرو بنِ هندٍ رسالةً
أيوعدني والرمْلُ بيني وبينه
وَمَنْ أَجأً دوني رِعاناً كأنها
غدرتَ بأمرٍ أنتَ كنتَ اجتذبتنا
إذا استحقتها العيسُ تنضى على البعدِ
تبين رويداً ما أمأه من هند
قنابلُ خيلٍ من كميتهِ ومن وردٍ
عليه وشرُّ الشيمةِ الغدرُ بالعهدِ^(٢)

فبلغ عمرو بن هند شعره فغزا طياً وأسّر منهم اربعين رجلاً ، فكانت في صدور طي على زرارة ، فلما قتل سويد ابن ربيعة الدارمي ، وهو زوج بنت زراره ، اخ الملك عمرو بن هند ويدعى مالكا ، وقيل بل هو ابن له يدعى أسعد ، وكان عند زرارة حتى أصبح رجلاً ، لأنه خرج ذات يوم يتصيد فمر بإبل لسويد فنحر أحداها ، فشد عليه سويد ولم يعرفه فقتله ، ثم لحق بمكة ، فأنشأ عمرو بن ملقط الطائي ابياته السابقة امام الملك :

فاقتل زرارة لا أرى
في القومِ أمثلَ من زراره

فطلب الملك زرارة ، فأحضر أبناء سويد السبعة من ابنة زرارة وهم غلمة فأمر بقتلهم

(١) الاصفهاني ، الاغانى ، مج ٨ ، ٢٢ / ١١٨ .

(٢) شرح نهج البلاغة ، ٢ / ٢٤٨ .

وكان ابن أخته وكان حجر قتل أباه، فدخل عليه مع قومه وقتله في غفلة منهم^(١).

وتكاد تتفق الروايات على ان علباء بن الحارث هو قاتله أو المحرض على قتله، وقد حدده امرؤ القيس في بيت من إحدى قصائده ذكره ابن أبي الحديد:

وأفلتهنَّ علباءُ جريضاً ولو أدركنهُ صفرَ الوطاب^(٢)

قام امرؤ القيس بأخذ ثأر ابيه، فألبَّ القبائل على بني أسد وأباحهم أكثر من مرة، حتى أسرف في قتلهم، فهجرته كثير من القبائل التي كانت تناصره، فأخذ يطوف بالبلدان للنصرة، فذكر ابن أبي الحديد انه تنقل في أحياء العرب حتى نزل على رجل من جديلة طيئ يقال له طريف بن ملء فأجاره وأكرمه وأحسن إليه فمدحه وأقام عنده ثم إنه خاف ألا يكون له منعة فتحول ونزل على خالد بن سدوس بن أصمع النبهاني فأغارت بنو جديلة على إمريئ القيس وهو في جوار خالد بن سدوس فذهبوا يابله^(٣)، وانتهى به المطاف إلى قيصر الروم الذي أهدى اليه حلة مسمومة قتل بسببها بعد أن لبسها^(٤).

٣- يوم السلان:

ذكر ابن أبي الحديد ان ضرار بن عمرو الضبي وقف بعكاظ خاطباً: (ألا إن شر

(١) الأصفهاني، الأغاني، مج ٣، ٥٧١/٩ وما بعدها؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٣٣٠/٢ وما بعدها؛ الدخيلي، مهدي عريبي حسين، بنو اسد ودورهم في التاريخ العربي الاسلامي، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٥، فص ٣، ص ١٢٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، ١١٦/١٦، أراد امرؤ القيس ان علباء يقتل فيكون جسمه صفرًا من دمه، كما يكون الوطاب صفرًا من اللبن، فشبّه جسده - لو نالته القبيلة - بسقاء من الجلد يكون خاليًا من اللبن، قاده هذا التشبيه الى ان يأخذ بمجامع تلك الصورة فيجمعها على هذا النمط الموجز، ينظر عطية، مختار، الايجاز في كلام العرب ونص الاعجاز دراسة بلاغية، دار المعرفة الجامعية، (مصر ١٩٩٥)، ص ٥٥.

(٣) شرح نهج البلاغة، ١٨٧/٩.

(٤) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٣٣٣/٢.

حائل أم، فزوجوا الأمهات، قال، وذلك أنه صرع بين الرماح فأشبل عليه إخوته لأمه حتى استنقذوه^(١).

وأراد ابن أبي الحديد يوم السلان، ولكن من نقل الرواية يقولون ان من استنقذوه هم بنوه وليس اخوته، وملخص القصة ان النعمان بن المنذر كان يجهز كل عام لطيمة، وهي التجارة، لتباع بعكاظ، فعرضت بنو عامر لبعض ما جهزه فأخذوه. فغضب لذلك النعمان وبعث إلى أخيه لأمه، وهو وبرة بن رومانس الكلبي، وبعث إلى صنائعه ووضائعه، والصنائع من كان يصطنعه من العرب ليغزيه، والوضائع هم الذين كانوا شبه المشايخ، وأرسل إلى بني ضبة بن أد وغيرهم من الرباب وتميم فجمعهم، فأجابوه، فأتاه ضرار بن عمرو الضبي وكان فارساً شجاعاً في تسعة من بنيهم فوارس فاجتمعوا في جيش عظيم، وأقبل الجيش فالتقوا بالسلان فاقتتلوا قتالاً شديداً. فأسر أخ النعمان، فلما صار في أيديهم هم الجيش بالهزيمة، فنهاهم ضرار بن عمرو الضبي وقام بأمر الناس فقاتل هو وبنوه قتالاً شديداً، فحمل عليه أبو براء عامر بن مالك فاقتتلا، فسقط ضرار إلى الأرض وقاتل عليه بنوه حتى خلصوه وركب، كان شيخاً، فلما ركب قال: من سره ساءته نفسه؛ فذهبت مثلاً. يعني من سره بنوه إذا صاروا رجالاً كبير وضعف فساءه ذلك^(٢).

ونقل ياقوت الحموي رواية أخرى عن هذا اليوم جاء فيها ان السلان هي أرض تهامة مما يلي اليمن كانت بها وقعة لربيعة على مذبح قال عمرو بن معدي كرب:

لَمِنِ الدِّيارِ بَرُوضَةِ السَّالانِ فالرَقْمَتَيْنِ فِجانِبِ الصَّمانِ

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٦٨/١٨.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٤١٨/٢؛ جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص ١٠٧ وما بعدها.

وقيل السلان وادٍ فيه ماء وحلفاء وكان فيه يوم بين حمير ومذحج وهمدان وبين ربيعة ومضر وكانت هذه القبائل من اليمن بالسلان وكانت نزار على خزاز وهو جبل بإزاء السلان وهو مما بين الحجاز واليمن^(١).

يبدو أن هناك أكثر من وقعة باسم هذا اليوم، فذكر أحد الباحثين المعاصرين أن ذلك يرجع إلى أن كلمة (السلان)، تعني بطوناً من الأرض أو المكان الضيق في الوادي، فربما سمي أكثر من موقع باسم السلان، تبعاً لأصل التسمية التي حدثت بها هذه المواقع الحربية، وأقترنت بهذا الأسم فجاءت في أكثر من واقعة^(٢).

رابعاً: أيام العرب والفرس:

١- يوم ذي قار:

ذكر ابن أبي الحديد ان (ذي قار موضع قريب من البصرة وهو المكان الذي كانت فيه الحرب بين العرب والفرس ونصرت العرب على الفرس قبل الإسلام)^(٣).

وكان النعمان بن المنذر قد استودع هانئ بن مسعود الثقفي أهله وولده وسلاحه، وكان فيها أربعمئة درع وقيل ثمانمئة درع، وبعد أن قتل كسرى النعمان^(٤) أستعمل إياس بن قبيصة الطائي على الحيرة وبعث إليه أن يجمع ما خلفه النعمان من ودائع ويرسلها إليه، فامتنع هانئ بن مسعود ان يسلم الامانة، فغضب كسرى وارسل إليه جيشاً كبيراً بقيادة الهامرز على ألف من الأساورة ومعهم الأفيال وعقد للنعمان بن زرعة على تغلب والنمر، وإياس بن قبيصة على العرب ومعهم بعض القبائل العربية

(١) معجم البلدان، مج ٣، ٥٧/٦، [مادة السلان].

(٢) سمار، سعد عبود، قبائل مذحج قبيل الإسلام حتى نهاية العصر الراشدي، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٦، ص ٧٥.

(٣) شرح نهج البلاغة، ٩/١٣.

(٤) لمعرفة تفاصيل العلاقة بين النعمان بن المنذر وكسرى، ينظر ص ٣٢٣ من الرسالة.

الأخرى التابعة لكسرى من إيراد وقضاعة^(١).

ويبدو أن كسرى أيقن أن وجود هذه الأسلحة عند العرب خطر كبير ويجب الحد منها، مع ما يشكله بنو شيبان من خطر على الفرس بعدم إنصياعهم لأوامرهم في تسليم ودیعة النعمان، وهذا بحذ ذاته يشكل خطراً فيما بعد، حيث اعتبره كسرى تمهيداً لاستقلال القبائل، والا ما كان يجهز مثل هذا الجيش لودیعة بسيطة، وقد استخدمت هذه الدروع فعلاً في معركة ذي قار حيث ذكر ابو عبيدة ان هانئ وزع الدروع والسلاح على قومه ليدافعوا بها عن انفسهم^(٢).

ظهرت النخوة العربية في أبهى صورها في هذه المعركة حيث بعث أول الأمر لقيط بن يعمر الإيادي أبيات شعر لبني شيبان ينذرهم فيها من غزو كسرى، وكان كاتباً في ديوانه، ذكر قسماً منها ابن أبي الحديد في كتابه منها:

قَوْمُوا قِيَاماً عَلَى أَمْشَاطِ أَرْجُلِكُمْ	ثم أفزعوا قد ينال الأمن من فزعاً
فَقَلُّدُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دُرُكُم	رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لَا مُتَرَفاً إِنْ رَخَاءُ الْعَيْشِ سَاعِدَهُ	ولا إذا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا
مَا زَالَ يَحْتَلِبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرُهُ	يكون مُتَّبِعاً طَوْرًا وَمُتَّبِعَا
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَزْرِ مَرِيرَتِهِ	مُسْتَحْكَمَ الرَّأْيِ لَا قَحْماً وَلَا ضَرَعَا ^(٣)

(١) أبو عبيدة، أيام العرب قبل الإسلام، ٢٤٣/٢ وما بعدها؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٤٦/٥؛ جاد المولى،

أيام العرب في الجاهلية، ص ٦ وما بعدها؛ برو، تاريخ العرب القديم، ص ٢٢٧.

(٢) أيام العرب قبل الإسلام، ٢٤٤/٢.

(٣) ابن يعمر، لقيط الايادي، الديوان، تحقيق خليل ابراهيم العطية، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، مطبعة الجمهورية، (بغداد ١٩٧٠)، ص ٤١ وما بعدها؛ الراوي، مصعب حسون، الشعر العربي قبل الإسلام، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد ١٩٨٩)، ص ٧٧ وما بعدها؛ الأسد، ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي

وثانيهما لما تقارب الزحفان والتقى الناس فأرسلت قبيلة اياد سراً إلى بكر، أي الامرين احب اليكم أن ننسحب أو نفر حين تلاقون القوم فقالوا بل تقيمون فإذا التقى الناس انهزمتهم، ففعلوا فانهزم الفرس وأحلافهم من العرب^(١).

وفي إنتصار العرب على الفرس قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم :

«هذا اول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبني نُصروا»^(٢).

وذكر المسعودي أنّ تاريخ معركة ذي قار لأربعين سنة من مولد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل بعد أن هاجر إلى يثرب^(٣)، بينما ذكر ياقوت الحموي انها بعد وقعة بدر^(٤).

وقيمتها التاريخية، ط ٣، دار المعارف، (مصر ١٩٦٦)، ص ١١٤؛ ولم يذكر ابن أبي الحديد البيتين الأول والثاني

وإنما ذكر بدلاً منهما بيتاً آخر لم أجده في الديوان وهو :

لا يطعمُ النومَ إلا ريثَ يبعثه * هم يكادُ حشاهُ يقصمُ الضلعا، ينظر شرح نهج البلاغة، ٤/ ١٧١.

(١) سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ٢٠٤؛ الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢/ ١٩٣؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ١/ ١٨٦.

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ١/ ١٨٦.

(٤) معجم البلدان، مج ٤، ٧/٦، [مادة قار].

الخاتمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِحَمْدِهِ وَجَعَلْنَا مِنْ أَهْلِهِ لِنَكُونَ لِإِحْسَانِهِ مِنَ الشَّاكِرِينَ وَلِيَجْزِينَا عَلَى ذَلِكَ جِزَاءَ الْمُحْسِنِينَ.

توصلنا من خلال دراستنا لحياة العرب قبل الإسلام في كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي إلى جملة من الاستنتاجات يمكن إيجاز أبرزها بما يأتي:

أولاً: بينت الدراسة أن كتاب شرح نهج البلاغة لم يكن خاصاً بالأحداث الإسلامية واللغوية والفلسفية فقط بل كان لمادة تاريخ العرب قبل الإسلام حصة كبيرة توزعت بين أجزائه العشرين، من خلال ذكره لحياة العرب وتقاليدهم ودياناتهم وطقوسهم التي كانت سائدة آنذاك، وهي متباينة بين أجزائه تبعاً لورود إشارات عن عادات العرب قبل الإسلام في خطب الإمام عليه السلام، لذلك يُعد كتاب شرح نهج البلاغة مصدراً من مصادر معرفة تاريخ العرب قبل الإسلام.

ثانياً: توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى مجموعة من الروايات والأمثال والحكم عن العرب قبل الإسلام، التي وجدت بين ثنايا خطب ورسائله الإمام علي بن أبي طالب التي أوردها ابن أبي الحديد في شرحه للنهج، وعليه فالإمام عليه السلام يُعد من أقرب المصادر التي تحدثت عن تلك الحقبة من حياة العرب.

ثالثاً: من خلال الدراسة تبين لنا أن روايات الحياة الاجتماعية والفكرية عند العرب قبل الإسلام كانت الحصة الأكبر التي تناولها ابن أبي الحديد في كتابه وهي تمثل صورة عن حياة العرب وعاداتهم وتقاليدهم، وقسم من هذه الروايات نقلها من مصادر مفقودة وغير موجودة فأنفرد بها دون غيره وذكرها في شرحه مثل كتاب في آراء العرب وأديانها للخالع الرافقي، وكتاب الأنساب وكتاب مقاتل الشجعان ومقاتل الفرسان، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، ولعل السبب يعود إلى أن شرح نهج البلاغة أساس وضع

لشرح خطب ورسائل الإمام ورسائله التي جمعها الشريف الرضي، ولذا كانت روايات العرب قبل الإسلام تعتمد على ما يرد في الخطب.

رابعاً: أعطانا ابن أبي الحديد آراء واضحة عن معتقدات العرب وأديانهم ومذاهبهم كعبادة الأصنام والكواكب، وكشف عن وجود نشاطات اقتصادية كانت متداولة عند العرب قبل الإسلام كالتجارة والصناعة والزراعة والحرف الصناعية التي كانت مرتبطة بالتجارة وهذا جعلنا أمام فكرة عامة عنها.

خامساً: من خلال كتاب شرح نهج البلاغة وصلت إلينا معلومات مهمة عن الحياة السياسية في الجزيرة العربية، ولاسيما في مكة حيث أعطى وصفاً دقيقاً لبني هاشم وعلاقاتهم ودورهم في إدارة مكة بفترات متعاقبة وأهم التحالفات والخصومات التي كانت بينهم من مصادر غير موجودة إلا في كتابه مثل كتاب هاشم وعبد شمس لابن روبة الدباس، الذي كان يضم مادة ثرية عن علاقات هاشم وعبد شمس ودورهما في سياسة مكة وتأثيرها على أبنائهما من بعد ذلك.

سادساً: أثبتت الدراسة ان ابن أبي الحديد لم يكن ناقلاً للمعلومات فقط بل كان محللاً وناقداً للكثير من القضايا والروايات التاريخية بنظرة المؤرخ المتمرس، وكان دائماً ما يقف أمام الروايات التي نقلها ويعطي رأيه المخالف لها وتحليله المنطقي للكثير منها، التي تخص حياة العرب قبل الإسلام، ولعل هذا ما ميّز كتاب شرح نهج البلاغة عن غيره من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام، إذ ان رواياته كانت تخضع للنقد والتحليل، ونظراً لما يمتلكه ابن أبي الحديد من رؤية معرفية وعلمية متفتحة لذا جاءت رواياته مقارنة عن ماضي غيره من المصادر، بأنها بعيدة عن الخرافة والأساطير التي علقنا بالكثير من مصادر العرب قبل الإسلام.

المصادر والمراجع

المصادر الأولية

• القرآن الكريم

- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م)،
- ١ - المستطرف في كل فن مستظرف، دار مكتبة الحياة، (بيروت ٢٠١١).
 - ابن الاثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ - ١٢٣١ م)،
 - ٢ - أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).
 - ٣ - الكامل في التاريخ، تحقيق مكتب التراث، دار احياء التراث العربي، (بيروت ٢٠٠٩).
 - ابن الاثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م)،
 - ٤ - النهاية في غريب الحديث، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود أحمد الطناحي، ط ٤، مؤسسة اسماعيليان، (قم المقدسة ١٣٦٤ هـ).
 - ابن الاثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الموصلبي (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٨ م)
 - ٥ - المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، (بيروت ١٩٩٥).
 - ابن الاحنف، العباس (ت ١٩٢ هـ / ٨٠٧ م)،
 - ٦ - الديوان، شرح وتعليق عاتكة الخزرجي، مكتبة دار الكتب المصرية، (القاهرة ١٩٥٤).
 - الادريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحسيني (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م)،

- ٧ - نزهة المشتاق في اختراق الافاق، عالم الكتب، (بيروت ١٩٨٩).
- الاردبيلي، ابو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح (ت ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م)،
- ٨ - كشف الغمة في معرفة الأئمة، ط ٢، دار الاضواء، (بيروت ١٩٨٥).
- الازرقى، ابو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٥٠ هـ / ٨٦٥ م)،
- ٩ - أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، (القاهرة ٢٠٠٩).
- ابن الاشيم، جريبة،
- ١٠ - ديوان بني أسد أشعار الجاهلين والمخضرمين، جمع وتحقيق محمد علي دقة، دار صادر، (بيروت ١٩٩٩).
- الازهري، أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٣٧٠ هـ / ٩٨٤ م)،
- ١١ - تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار احياء التراث العربي (بيروت ٢٠٠١).
- الاصطخري، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٤١ هـ / ٩٦٣ م)،
- ١٢ - كتاب المسالك والممالك، مطبعة بريل، (ليدن ١٩٣٧).
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد القرشي (ت ٣٥٦ هـ - ٩٦٧ م)،
- ١٣ - الأغاني، تحقيق قصي الحسين، دار ومكتبة الهلال، (بيروت ٢٠٠٢).
- الاصمعي، ابو سعيد عبد الملك بن قريب (٢١٦ هـ / ٨٣١ م)،
- ١٤ - تاريخ العرب قبل الإسلام، تحقيق محمد حسن آل ياسين، منشورات المكتبة العلمية، (بغداد ١٩٥٩).
- ١٥ - ديوان الاصمعيات، تحقيق محمد نبيل طريفي، ط ٢، دار صادر، (بيروت ٢٠٠٥).
- ١٦ - كتاب الأمثال، تحقيق محمد جبار المعيد، دار الشؤون الثقافية، (بغداد ٢٠٠٠)،
- ابن أبي اصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي (ت ٦٦٨ هـ - ١٢٧٠ م)،
- ١٧ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د. ت).
- الاعشى الكبير، ميمون بن قيس (ت ٢٠ هـ - ٦٤٠ م)،
- ١٨ - ديوان الاعشى الكبير، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، (بيروت

(١٩٨٧).

أمرؤ القيس، بن حجر بن الحارث الكندي (ت ٥٦٥ م)،

١٩ - الديوان، مطبعة كرم، دمشق، (د.ت).

الانباري، أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار (ت ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م)،

٢٠ - الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، (بيروت

١٩٩٢).

البحراني، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم (ت ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م)،

٢١ - شرح نهج البلاغة، ط ٣، مكتبة فخرآوي، (البحرين ٢٠٠٧).

البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م)،

٢٢ - صحيح البخاري، دار الفكر، (بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م).

البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م).

٢٣ - خزنة الأدب ولباب لسان العرب، تحقيق محمد نبيل طريقي، واميل بديع اليعقوب، دار

الكتب العلمية، (بيروت ١٩٨٨).

ابن بكار، أبو عبد الله الزبير بن بكار القرشي الاسدي (ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م)،

٢٤ - الأخبار الموفقيات، تحقيق سامي مكي العاني، ط ٢، عالم الكتب، (بيروت ١٩٩٦)،

البكري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز الاندلسي (ت ٤٨٧ هـ / ١١٠٩ م)،

٢٥ - فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق وتقديم احسان عباس، مؤسسة الرسالة،

(بيروت ١٩٧١).

٢٦ - معجم ما أستعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، ط ٣، عالم

الكتب، (بيروت ١٤٠٣ هـ).

البلادري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٩٩٠ م)،

٢٧ - أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، (القاهرة ١٩٥٩).

٢٨ - جمل من أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار، ورياض زركلي، دار الفكر، (بيروت

١٩٩٦).

٢٩ - فتوح البلدان، تحقيق عبد الله انيس الطباع، مؤسسة المعارف، (بيروت ١٩٨٧).

- البهوتي، منصور بن يونس الحنبلي (ت ١٠٥١هـ / ١٦٤١م)،
٣٠ - كشف القناع، تحقيق أبي عبد الله محمد حسن محمد حسن أسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٧).
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين علي الخسروجدي (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م)،
٣١ - معرفة السنن والآثار عن الإمام أبي عبد الله محمد بن أدریس الشافعي، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
- الترمذي، ابو عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)،
٣٢ - سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، ط ٢، دار الفكر، (بيروت ١٩٨٣).
- ابو تمام، حبيب بن اوس بن الحارث الطائي (ت ٢٣١هـ / ٨٤٦م)،
٣٣ - ديوان الحماسة، شرح العلامة التبريزي، دار العلم، (بيروت ٢٠٠٠).
- ابن ثابت، حسان بن ثابت الانصاري (ت ٥٠هـ - ٦٦١م).
٣٤ - الديوان، ضبط الديوان وصححه عبد الرحمن البرقوقي، دار الاندلس، (بيروت ١٩٨٠)
- الثعالبي، ابو منصور عبد الملك النيسابوري (ت ٤٢٩هـ)،
٣٥ - يتيمة الدهر في محاسن العصر، شرح وتعليق مفيد محمد قمجة، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٨٣).
- الثعلبي، أبو اسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري (٤٢٧هـ / ١٠٣٥م)،
٣٦ - الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت ٢٠٠٢).
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م)،
٣٧ - الحيوان، تحقيق ابراهيم شمس الدين، مؤسسة الاعلمي، (بيروت ٢٠٠٣).
- ٣٨ - رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، (القاهرة ١٩٦٤).
- ٣٩ - المحاسن والأضداد، ط ٢، مكتبة الخانجي، (القاهرة ١٩٩٤).
- جران العود، عامر بن الحارث النميري،
٤٠ - الديوان، رواية أبي سعيد السكري، ط ٣، دار الكتب والوثائق، مركز تحقيق التراث،

(القاهرة ٢٠٠٩).

جرير، بن عطية (ت ١١٠ هـ / ٧٣٢ م)،

٤١ - الديوان، قدم له وشرحه تاج الدين شلق بن حذيفة الخطفي التميمي، دار الكتاب العربي، بيروت ٢٠٠٨).

الجمحي، محمد بن سلام (ت ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م)،

٤٢ - طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة، (ب٠ت).

ابن الجوزي، ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ / ١١١٦ م)،

٤٣ - دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه، تحقيق حسن السقاف، ط٣، دار الإمام النووي، (الاردن ١٩٩٢).

٤٤ - زاد المسير في علم التفسير، تحقيق محمد بن عبد الرحمن عبد الله، دار الفكر، بيروت ١٩٨٧).

٤٥ - المنتظم في تاريخ الملوك والامم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٢).

الجوهري، أبو نصر اسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م)،

٤٦ - الصحاح، رتبه وصححه ابراهيم شمس الدين، دار الاعلمي للمطبوعات، (بيروت ٢٠١٢).

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٨٠ م)،

٤٧ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح وتعليق محمد شرف الدين بالتقيا، ورفعت بيلكه، دار احياء التراث العربي، (بيروت ١٩٤١).

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد السبتي (ت ٣٥٤ هـ / ٩٦٤ م)،

٤٨ - صحيح ابن حبان، بترتيب ابن بلبان الامير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت ٣٥٤ هـ)، تحقيق شعيب الارناؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، (بيروت ١٩٩٣).

٤٩ - مشاهير علماء الامصار أعلام فقهاء الاقطار، تحقيق مرزوق علي ابراهيم، دار الوفاء، (المنصورة ١٩٩١).

٥٠ - الثقات، مؤسسة الكتب الثقافية، (الهند ١٣٩٣ هـ).

- ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي (ت ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م)،
٥١ - المحبر، برواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، اعتنت بتصحيحه ايلزه ليختن شتير،
منشورات المكتب التجاري، (بيروت ١٩٤٢).
- ٥٢ - المنمق في أخبار قريش، صححه وعلق عليه خورشيد أحمد فاروق، ط ٢، عالم الكتب،
(بيروت ٢٠١٠).
- ابن حجر، اوس،
٥٣ - الديوان، تحقيق محمد يوسف نجم، ط ٣، دار صادر، (بيروت ١٩٧٩).
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م)،
٥٤ - الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار
الكتب العلمية، (بيروت ١٤١٥ هـ).
- ٥٥ - فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ط ٢، دار المعرفة، بيروت، (ب٠ت).
- ٥٦ - لسان الميزان، ط ٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، (بيروت ١٩٧١).
- ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني المعتزلي (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)
٥٧ - شرح القصائد العلويات السبع، مؤسسة الاعلمي، بيروت، (د.ت).
- ٥٨ - شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار الكتاب العربي، (بغداد ٢٠٠٥)
- ابن حزم، ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الاندلسي (ت ٤٥٦ هـ)،
٥٩ - جمهرة أنساب العرب، راجع النسخة وضبط أعلامها عبد المنعم خليل ابراهيم، ط ٥، دار
الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠٩).
- الحلي، علي بن برهان الدين الشافعي (ت ١٠٤٤ هـ - ١٦٣٤ م)،
٦٠ - السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون، دار المعرفة، (بيروت ١٤٠٠ هـ).
- الحلي، العلامة أبو منصور الحسن بن يوسف بن المطهر الأُسدي (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م)،
٦١ - إرشاد الأذهان إلى أحكام الإيمان، تحقيق فارس الحسون، مؤسسة النشر الاسلامي، (قم
١٤١٠ هـ).
- ٦٢ - منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، تحقيق عبد الرحيم مبارك، مؤسسة عاشوراء للبحوث
الاسلامية، (مشهد ١٣٧٩).

- ابن الحمير، توبة الخفاجي (ت ٨٥ هـ / ٧٠٤ م)،
- ٦٣ - الديوان، تحقيق خليل ابراهيم العطية، مطبعة الارشاد، (بغداد ١٩٦٨).
- الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م)،
- ٦٤ - الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، ط ٢، مكتبة لبنان، (بيروت ٩٨٤).
- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني (ت ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م)،
- ٦٥ - مسند احمد، دار صادر - بيروت، (ب.ت).
- ابو حنيفة الدينوري، أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م)،
- ٦٦ - الأخبار الطوال، قدم له ووثق نصوصه ووضع حواشيه، عصام محمد الحاج علي، دار الكتب العلمية، بيروت (٢٠٠١).
- ابن حوقل، أبو القاسم ابن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م)،
- ٦٧ - صورة الأرض، دار صادر، ط ٢، (بيروت ١٩٣٨).
- ابو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (ت ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م)،
- ٦٨ - الامتاع والمؤانسة، المكتبة العصرية، (بيروت ١٤٢٤ هـ).
- ابو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الاندلسي، (ت ٧٤٥ / ١٣٤٤ م)،
- ٦٩ - تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠١)،
- ابن خازم، بشر بن عمرو بن عوف الاسدي (ت ٥٩٨ م)،
- ٧٠ - الديوان، تحقيق ومراجعة صلاح الدين الهواري، وياسين الايوبي، دار ومكتبة الهلال، (بيروت ١٩٩٧).
- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)،
- ٧١ - تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٧).
- ابن الخطيم، قيس بن الخطيم بن عدي الاوسي،
- ٧٢ - الديوان، تحقيق ابراهيم السامرائي، واحمد مطلوب، مطبعة العاني، (بغداد ٩٦٢).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)،
- ٧٣ - تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر

- ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠٦).
- ابن خلكان، ابو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م)،
- ٧٤ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ت) الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمية (ت ٢٤ هـ - ٦٤٥ م)،
- ٧٥ - الديوان، تحقيق عباس ابراهيم، دار الفكر، (بيروت ١٩٩٤).
- ابن خياط، ابو عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي العصفري (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م)،
- ٧٦ - تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق مصطفى نجيب فواز وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٥).
- ابو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م)،
- ٧٧ - سنن أبي داود، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، (بيروت ١٩٩٠).
- ابن دريد، ابو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري (ت ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م)،
- ٧٨ - الاشتقاق، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، (بيروت ١٩٩١).
- ٧٩ - جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، (بيروت ١٩٨٧).
- الدميري، محمد بن موسى بن عيسى بن علي كمال الدين المصري الشافعي (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)
- ٨٠ - حياة الحيوان الكبرى، دار إحياء التراث العربي، (بيروت ٢٠١١).
- الذبياني، النابغة زياد بن معاوية (ت نحو ٦٠٤ م)،
- ٨١ - الديوان، جمعه وشرحه الطاهر بن عاشور، ط ٢، الشركة التونسية للتوزيع، (تونس ١٩٨٦)
- الذهبي، ابو عبد الله شمس الدين أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)،
- ٨٢ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، (بيروت ١٩٨٧).
- ٨٣ - سير أعلام النبلاء، تحقيق كامل الخراط، اشراف وتخريج شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، (بيروت ١٩٩٣).
- ٨٤ - المختصر من تاريخ ابن الديلمي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٧).

- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م)،
 ٨٥ - مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، (بيروت ١٩٨١).
 ابن ربيعة، المهلهل،
 ٨٦ - الديوان، شرح وتقديم طلال حرب، الدار العالمية، بيروت، (د.ت).
 ابن رشيق، ابو علي الحسن بن محمد القيرواني الازدي (٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م)،
 ٨٧ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٣، مطبعة
 السعادة، (مصر ١٩٦٤).
 بن رفاعة الكاتب، زيد (ت ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م)،
 ٨٨ - كتاب الامثال، دائرة المعارف العثمانية، (حيدر اباد الدكن ١٣٥١ هـ).
 الزبيدي، السيد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م)،
 ٨٩ - تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي شيري، دار الفكر (بيروت ١٩٩٤).
 الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب بن الزبير (ت ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م)،
 ٩٠ - نسب قریش، عني بنشره وتصحيحه والتعليق عليه أ. ليفي بروفينسال، ط ٣، دار المعارف،
 (القاهرة ١٩٨٢).
 الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤ هـ / ١٤١٧ م)،
 ٩١ - البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية،
 (القاهرة ١٩٥٧).
 الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمد بن عمر (ت ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م)،
 ٩٢ - الفائق في غريب الحديث، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٦).
 ٩٣ - المستقصى في أمثال العرب، ط ٢، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٨٧).
 الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين (ت ٤٨٦ هـ / ١٠٩٢ م)،
 ٩٤ - شرح المعلقات السبع، الدار العالمية، (بيروت ١٩٩٣).
 ابن زيد، عدي العبادي،
 ٩٥ - الديوان، تحقيق وتجميع محمد جبار المعبيد، دار الجمهورية للنشر، (بغداد ١٩٦٥).
 ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م)،

- ٩٦ - الطبقات الكبرى، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، (القاهرة ٢٠٠١).
- ابن سلام، ابو عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م)،
- ٩٧ - غريب الحديث، تحقيق محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، (بيروت ١٣٨٤هـ).
- ابن أبي سلمى، زهير،
- ٩٨ - الديوان، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠٣).
- السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار (ت ٤٨٩ / ١٠٩٥ م)،
- ٩٩ - تفسير السمعي، تحقيق ياسر ابراهيم، وغنيم عباس غنيم، دار الوطن، (الرياض ١٩٩٧).
- ابن سينا، ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م)،
- ١٠٠ - القانون في الطب، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)،
- ١٠١ - الجامع الصغير، دار الفكر، (بيروت ١٩٨١).
- ١٠٢ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).
- ١٠٣ - المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٨).
- الشريف الرضي، ابو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى (ت ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م)،
- ١٠٤ - الديوان، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- ١٠٥ - تجميع خطب ورسائل وأقوال الإمام علي (عليه السلام) المسمى نهج البلاغة، شرح محمد عبده، منشورات الفجر، (بيروت ٢٠١٠).
- الشمشاطي، ابو الحسن علي بن محمد بن المطهر العدوي (ت ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م)،
- ١٠٦ - الأنوار ومحاسن الاشعار، تحقيق صالح مهدي العزاوي، دار الشؤون الثقافية، (بغداد ١٩٨٧).
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت ٥٤٩ هـ / ١١٧١ م)،
- ١٠٧ - الملل والنحل، تحقيق ابراهيم شمس الدين، مؤسسة الاعلمي، (بيروت ٢٠٠٦).
- ابن أبي شيبه، عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي شيبه ابراهيم بن عثمان الكوفي (ت ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م)،

- ١٠٨ - المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق سعيد اللحام، دار الفكر، (بيروت ١٩٨٩).
- ابن صاعد الاندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)،
- ١٠٩ - طبقات الامم، نشره وذيله بالحواشي الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، (بيروت ١٩١٢).
- الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى القمي (ت ٣٨١ هـ / ٩٩١ م)،
- ١١٠ - من لا يحضره الفقيه، تصحيح وتحقيق علي أكبر الغفاري، ط ٢، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، (قم ١٤٠٤ هـ).
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م)،
- ١١١ - الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد ارناؤط، وتركي مصطفى، دار احياء التراث العربي، (بيروت ٢٠٠٠).
- ١١٢ - الغيث المنسجم في شرح لامية العجم، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠٣).
- ابن أبي الصلت، امية،
- ١١٣ - الديوان، تحقيق بهجت عبد الغفور الحديثي، ط ٢، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد ١٩٩١).
- ابن الصمة، دريد بن معاوية بن الحارث (ت ٨ هـ / ٦٢٩ م)،
- ١١٤ - الديوان، تحقيق عمر عبد الرسول، دار المعارف، (القاهرة ١٩٨٥).
- الصنعاني، عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١ هـ / ٨٢٦)،
- ١١٥ - تفسير القرآن، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتب الرشيد، (الرياض ١٩٨٩).
- ١١٦ - المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الاعظمي، منشورات المجلس العلمي، قم، (د. ت)
- الضبي، ابو العباس المفضل بن محمد (ت ١٧٨ هـ / ٨٠٠ م)،
- ١١٧ - أمثال العرب، تحقيق احسان عباس، ط ٣، دار الرائد العربي، (بيروت ١٩٨٣).
- الطائي، حاتم بن عبد الله (ت ٥٧٨ م)،
- ١١٨ - الديوان، شرح أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه حنا نصر الجتي، دار الكتاب العربي، (بيروت ١٩٩٤).
- ١١٩ - الديوان، منشورات دار الهلال، (بيروت ٢٠٠٢).

٥٤٠ كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي مصدراً من مصادر العرب قبل الإسلام

الطائي، الهيثم بن عدي (ت ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م)،

١٢٠ - المثالب، تحقيق، نجاح الطائي، ملحق لكتاب مثالب العرب والعجم لابن الكلبي، دار الاندلس، (بيروت ٢٠٠٩).

ابو طالب، عبد مناف بن عبد المطلب،

١٢١ - الديوان، تحقيق محمد حسين آل حسين، دار ومكتبة الهلال، (بيروت ٢٠٠١).

الطبراني، ابو القاسم سليمان بن أحمد بن ايوب (ت ٣٦٠ هـ / ٩٧٢ م)،

١٢٢ - المعجم الكبير، تحقيق حميدي عبد المجيد السلفي، ط ٢، مكتبة الزهراء، (الموصل ١٩٨٣).

الطبرسي، ابو علي الفضل بن الحسين (ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م)،

١٢٣ - مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الاعلمي، (بيروت ١٩٩٥).

الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)،

١٢٤ - تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط ٥، دار المعارف، (القاهرة ١٩٨٦).

١٢٥ - جامع البيان في تأويل اي القرآن، ضبط وتخريج صدقي جميل العطار دار الفكر، (بيروت ١٩٩٥).

الطحاوي، ابو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الازدي (ت ٣٢١ هـ / ٩٣٢ م)

١٢٦ - شرح معاني الآثار، تحقيق محمد زهدي النجار، ط ٣، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٦).

الطريحي، الشيخ فخر الدين (١٠٨٥ هـ / ١٦٧٤ م)،

١٢٧ - مجمع البحرين، تحقيق أحمد الحسيني، ط ٢، مكتب النشر الثقافة الاسلامية، (ايران ١٤٠٨ هـ).

ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م)،

١٢٨ - الفخري في الأداب السلطانية، مطبعة مرسو، (مدينة شالون ١٨٩٤).

الطوسي، ابو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م)،

١٢٩ - رجال الطوسي، تحقيق جواد القيومي الاصفهاني، مؤسسة النشر الاسلامي، (قم

(٤١٥ هـ).

ابن عاديا، السموأل بن غريص بن عاديا (ت نحو ٥٦٠ م)،

١٣٠ - ديوان عروة بن الورد والسموأل، تحقيق عيسى سابا، دار بيروت، (بيروت ١٩٨٢).

العاقولي، ابو المكارم غياث الدين محمد بن صدر الدين محمد بن محيي الدين عبد الله البغدادي الشافعي (ت ١٣٩٤/٧٩٧ م)،

١٣١ - عرف الطيب في أخبار مكة والمدينة، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، (مصر ١٩٨٩).

ابن عبد البر، ابو عمر يوسف عبد الله بن محمد النمري (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)،

١٣٢ - الاستذكار، تحقيق سالم محمد عطا، ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠٠).

عبد بني الحسحاس، السحيم،

١٣٣ - الديوان، تحقيق عبد العزيز الميمني، ط٣، دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، (القاهرة ٢٠٠٩).

ابن عبد ربه، ابو عمر أحمد بن محمد الاندلسي (ت ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م)،

١٣٤ - العقد الفريد، شرحه وضبطه وفهارسه أحمد أمين وآخرون، دار الكتاب العربي، (بيروت ١٩٩٠).

ابن العبد، طرفة،

١٣٥ - الديوان، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، (د.ت).

ابو عبيدة، معمر بن المنثى التيمي البصري (ت ٢٠٩ هـ / ٨٣١ م)،

١٣٦ - أيام العرب قبل الإسلام، جمع وتحقيق ودراسة عادل جاسم البياتي، عالم الكتب، (بيروت ٢٠٠٣).

١٣٧ - نقائض جرير والفرزدق، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٨).

ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسين بن هبه الله الشافعي (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م)،

١٣٨ - تاريخ دمشق، تحقيق علي شيري، دار الفكر، (بيروت ١٤١٥ هـ).

ابن العماد، شهاب الدين ابو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م)،
١٣٩ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الارنؤوط، ومحمود الارنؤوط، دار
ابن كثير، (بيروت ١٩٩٧).

العيني، بدر الدين محمود بن أحمد (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥٢ م)،
١٤٠ - عمدة القارئ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (ب٠ت).

الغساني، الملك الأشرف ابو العباس اسماعيل بن العباس بن رسول (ت ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م)،
١٤١ - العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاكر محمود عبد
المنعم، دار التراث الاسلامي، (بيروت ١٩٧٥).

الفاصي، تقي الدين محمد بن أحمد المكي (ت ٨٣٢ هـ / ١٣٣٨ م)،
١٤٢ - الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، (مصر
٢٠٠١).

الفراهيدي، ابو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م)،
١٤٣ - العين، تحقيق مهدي المخزومي، وابراهيم السامرائي، ط ٢، دار الهجرة، (ايران ١٤٠٩ هـ).

الفرزدق: همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية (ت ١١٤ هـ - ٧٣٣ م)،
١٤٤ - الديوان، شرحه وضبطه وقدم له علي فاعور، دار الكتب العلمية، (بيروت ٩٨٧).

ابن الفوطي، كمال الدين ابو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين الشيباني الحنبلي (ت ٧٢٣ هـ
/ ١٣٢٢ م)،

١٤٥ - تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، مطبوعات مديرية احياء
التراث القديم، (دمشق ١٩٦٣).

ابن قتيبة، ابو عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ / ٨٩٩ م)،
١٤٦ - تأويل مختلف الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

١٤٧ - الشعر والشعراء، تحقيق مفيد قمجة، ومحمد امين الضناوي، دار الكتب العلمية، (بيروت
٢٠٠٥).

١٤٨ - المعارف، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠١١ م).

١٤٩ - غريب الحديث، تحقيق عبد الله الجبوري، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٨٨).

- ابن قدامة، موفق الدين أبو عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (ت ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م)،
 ١٥٠ - المغني، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري (ت ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م)،
 ١٥١ - الجامع لأحكام القرآن، دار احياء التراث العربي، (بيروت ١٩٨٥).
- القفطي، أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٦٨ م)،
 ١٥٢ - أنباء الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل، دار الفكر العربي، (القاهرة ١٩٨٦).
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)،
 ١٥٣ - صبح الأعشى في صناعة الانشاء، دار الكتب المصرية، (القاهرة ١٩٢٢).
- ١٥٤ - نهاية الإرب في معرفة انساب العرب، ط ٢، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠١٢).
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م)،
 ١٥٥ - الطب النبوي، تحقيق عبد الغني عبد الخالق وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)
 الكتبي، محمد بن شاکر (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م)،
 ١٥٦ - فوات الوفيات، تحقيق علي محمد بن يعوض الله، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب
 العلمية، (بيروت ٢٠٠٠).
- كثير، عبد الرحمن المعروف بكثير عزة (ت ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م)،
 ١٥٧ - الديوان، قدم له وشرحه مجيد طراد، دار الكتاب العربي، (بيروت ٢٠٠٤).
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٦٢ م)،
 ١٥٨ - البداية والنهاية، تحقيق علي شبري، دار إحياء التراث العربي، (بيروت ١٩٨٨ م).
- ١٥٩ - تفسير القرآن العظيم، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، (بيروت
 ١٩٩٢).
- ١٦٠ - السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، (بيروت ١٩٧٦).
- ابن الكلبي، أبو منذر هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٨ م)،
 ١٦١ - الأصنام، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب المصرية، (القاهرة ١٩٩٥).
- ١٦٢ - مثالب العرب والعجم، تحقيق محمد حسن الحاج محسن الدجيلي، مطبوعات دار
 الاندلس، (بيروت ٢٠٠٩).

١٦٣ - جمهرة النسب، رواية محمد بن حبيب عنه، تحقيق محمد فردوس العظم، ط ٢، دار اليقظة العربية، (دمشق ١٩٨٣).

ابن كلثوم، عمرو بن كلثوم التغلبي (٤٠ ق. هـ ٥٨٤ م)،

١٦٤ - الديوان، تحقيق اميل بديع يعقوب، ط ٢، دار الكتاب العربي، (بيروت ١٩٩٦).

الماوردي، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م)،

١٦٥ - الأحكام السلطانية، دار الكتاب العربي، (بيروت ٢٠١١).

١٦٦ - أدب الدنيا والدين، دار الفكر، (بيروت ٢٠٠٠).

المبرد، ابو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م)،

١٦٧ - الكامل في اللغة والأدب، علق عليه محمد ابو الفضل ابراهيم، ط ٣، دار الفكر العربي، (القاهرة ١٩٩٧).

١٦٨ - نسب عدنان وقحطان، تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (الهند ١٩٣٦).

المتنبي، ابو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي (ت ٣٥٤ هـ / ٩٥٦ م)،

١٦٩ - الديوان، شرح الشيخ ناصيف اليازجي، دار ومكتبة الهلال، (بيروت ٢٠٠٠).

المجلسي، محمد باقر بن محمد تقى (ت ١١١١ هـ / ١٧٠٠ م)،

١٧٠ - بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الائمة الأطهار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

المرزوقي، ابو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م)،

١٧١ - الأزمنة والأمكنة، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٤١٧ هـ).

المرقش، عمرو بن سعد بن مالك (ت ٥٧ ق. هـ)،

١٧٢ - ديوان المرقشين، تحقيق كارين صادر، دار صادر، (بيروت ١٩٩٨).

المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م)،

١٧٣ - التنبيه والأشراف، دار صعب، بيروت، (د.ت).

١٧٤ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به، يوسف البقاعي، ط ٢، دار احياء التراث العربي، (بيروت ٢٠١١).

مسلم، ابو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م)،

- ١٧٥ - صحيح مسلم، دارالفكر، بيروت، (ب٠ت).
- المقريزي، تقي الدين ابو العباس أحمد بن علي الشافعي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٥٠م)،
- ١٧٦ - السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٧).
- ١٧٧ - النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، المطبعة الابراهيمية، (مصر ١٩٣٦).
- المنذري، زكي الدين ابو محمد عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦ هـ)،
- ١٧٨ - التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، (بيروت ١٩٨٤)
- ابن منظور، جمال الدين بن مكرم الافريقي (ت ٧١١ هـ / ١٣١١م)،
- ١٧٩ - لسان العرب، اعنتى بتصحيحه امين محمد عبد الوهاب و محمد الصادق العبيدي، دار احياء التراث العربي، (بيروت ٢٠١٠).
- الميداني، ابو الفضل أحمد بن محمد بن ابراهيم (ت ٥١٨ هـ / ١١٢٤م)
- ١٨٠ - مجمع الامثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٣، دار الفكر، (القاهرة ١٩٧٢)
- الناطقة الجعدي، قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة (ت تقريباً ٥٠ هـ / ٦٧٠م).
- ١٨١ - الديوان، تحقيق، واضح الصمد، دار صادر، (بيروت ١٩٩٨).
- ابن النجار البغدادي، محب الدين ابو عبد الله محمد بن محمود (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥م)،
- ١٨٢ - ذيل تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٧)
- النجيري، ابو اسحاق ابراهيم بن عبدالله بن محمد الكاتب (ت نحو ٣٥٥ هـ / ٩٦٥م)،
- ١٨٣ - إيمان العرب في الجاهلية، نسخه وصححه محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، (القاهرة ١٣٤٣ هـ).
- ابن النديم، ابو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠م)،
- ١٨٤ - الفهرست، ضبطه وشرحه وقدم له يوسف علي الطويل، وضع فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠١٠).
- النسائي، ابو عبدالله أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣ هـ / ٩١٦م)،
- ١٨٥ - السنن الكبرى، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩١).

- النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ / ١١٣٣ م)،
١٨٦ - نهاية الإرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، (القاهرة ١٤٢٣ هـ).
ابن هشام، ابو محمد عبد الملك بن هشام المعافري (٢١٣ هـ / ٨٢٧ م)،
١٨٧ - السيرة النبوية، قدم لها وعلق عليها وضبطها، طه عبد الرؤوف، دار الجليل، (بيروت ١٩٨٧).
ابو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعد (ت ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م)،
١٨٨ - الاوائل، وضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العالمية، (بيروت ١٩٩٧).
١٨٩ - جمهرة الامثال، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، وعبد المجيد قطاش، ط ٢، دار الفكر، (القاهرة ١٩٨٨).
الهمداني، لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤ هـ / ٩٤٦ م)،
١٩٠ - صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي، مكتبة الارشاد، (اليمن ١٩٩٠).
الهندي، محمد علي الفصيح اللكنهوي (ت ١٣١٠ هـ)،
١٩١ - القول الواجب في إيمان أبي طالب، تحقيق محمود الغريفي، دار المتقين، (بيروت ٢٠١٢).
الواقدي، ابو عبد الله محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م)،
١٩٢ - كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونز، عالم الكتب، ط ٣، (بيروت ١٩٨٤).
ابن الوردي، عروة (ت ٦١٦ م).
١٩٣ - الديوان، تحقيق أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٨).
ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م)،
١٩٤ - تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٩٩٦).
١٩٥ - ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م)،
١٩٦ - معجم البلدان، قدم له محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار احياء التراث العربي، (بيروت ٢٠٠٨).
اليعقوبي، أحمد بن اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح البغدادي (ت ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م)،

- ١٩٧ - تاريخ اليعقوبي، علق عليه ووضع حواشيه خليل المنصور، دار الزهراء، (قم ١٤٢٦ هـ).
- اليوسي، الحسن بن مسعود بن محمد ابو علي نور الدين (ت ١١٠٢ هـ / ١٦٩١ م)،
- ١٩٨ - الزهر الأكم في الأمثال والحكم، تحقيق محمد حجي، ومحمد الاخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء (١٩٨١).
- ابن يعمر، لقيط الإيادي،
- ١٩٩ - الديوان، تحقيق خليل ابراهيم العطية، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، مطبعة الجمهورية، (بغداد ١٩٧٠).

المراجع الثانوية

- احمد، مصطفى ابو ضيف،
- ٢٠٠ - دراسات في تاريخ الدولة العربية، ط ٤، دار النشر المغربية، (الدار البيضاء ١٩٨٦).
- الأسد، ناصر الدين،
- ٢٠١ - مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط ٣، دار المعارف، (مصر ١٩٦٦).
- اسماعيل، حلمي محروس،
- ٢٠٢ - الشرق العربي القديم وحضارته بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة، مؤسسة شباب الجامعة، (الاسكندرية ١٩٩٧).
- اغناطيوس، غويدي،
- ٢٠٣ - محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام، ترجمه وقدم له ابراهيم السامرائي، دار الحداثة، (بيروت ١٩٨٦).
- الأفغاني، سعيد،
- ٢٠٤ - أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، (بيروت ١٩٩٦).
- الالوسي، محمود شكري،
- ٢٠٥ - بلوغ الآرب في معرفة أحوال العرب، عنى بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجت الاثري، دار الكتب العلمية، (بيروت ١٣١٤ هـ).
- امين، احمد،

- ٢٠٦ - فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، (بيروت ١٩٧٥).
- الأنصاري، عبد القدوس،
- ٢٠٧ - التاريخ المفصل للكعبة الشريفة قبل الإسلام، نادي مكة الثقافي، (السعودية ١٤١٩ هـ).
- بافقيه، محمد عبد القادر،
- ٢٠٨ - تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت ١٩٨٥).
- برو، توفيق،
- ٢٠٩ - تاريخ العرب القديم، ط ٢، دار الفكر، (دمشق ٢٠٠٧).
- بروكلمان، كارل،
- ٢١٠ - تاريخ الأدب العربي، ترجمة رمضان عبد التواب، مراجعة يعقوب بكر، دار المعارف، (القاهرة ١٩٨٣).
- ٢١١ - تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، ط ٥، دار العلم للملايين، (بيروت ١٩٦٨).
- البستاني، بطرس،
- ٢١٢ - أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار صادر، (بيروت ١٩٥٣).
- البغدادى، اسماعيل باشا،
- ٢١٣ - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي - بيروت (ب ٠ ت).
- البكر، منذر عبد الكريم،
- ٢١٤ - دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الكتب للطباعة والنشر، (البصرة ١٩٩٣).
- الترمانتي، عبد السلام زيدان،
- ٢١٥ - الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام دراسة مقارنة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (الكويت ١٩٩٨).
- توفيق، فهد،
- ٢١٦ - الكهانة العربية قبل الإسلام، ترجمة حسن عودة ورندة بعث، شركة قدمس للنشر، (بيروت ٢٠٠٧).
- جاد المولى، محمد احمد، وعلي محمد البجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم،

- ٢١٧ - أيام العرب في الجاهلية، المكتبة العصرية، (بيروت ١٩٦١).
- جاسم، مهند ماهر،
- ٢١٨ - القضاء في العصر الأموي، دار الحقائق، سورية، (د. ت).
- الجبوري، منذر،
- ٢١٩ - أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي، دار الحرية، (بغداد ١٩٧٤).
- الجبوري، يحيى،
- ٢٢٠ - الجاهلية مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي، مطبعة المعارف، (بغداد ١٩٦٨).
- جرداق، جورج
- ٢٢١ - روائع نهج البلاغة، ط ٢، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، (قم ١٩٩٧ م)
- الجبوري، أحمد محمد أمين أحمد،
- ٢٢٢ - قطوف الريحان من زهر الأفنان، شرح حديقة ابن الونان، ط ٢، الشنقيطي للنشر، (مكة المكرمة ١٩٩٩).
- جمعة، ابراهيم،
- ٢٢٣ - مذكرات في تاريخ العرب الجاهلي و صدر الإسلام، دار الطباعة الحديثة، (البصرة ١٩٦٥).
- جمعة، حسين،
- ٢٢٤ - الحيوان في الشعر الجاهلي، دار ارسلان، (دمشق ٢٠١٠).
- جمعة، محمد محمود،
- ٢٢٥ - النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية، مكتبة الثقافة الدينية، (مصر ١٩٩٩).
- الجميلي، خضير عباس،
- ٢٢٦ - قبيلة قريش وأثرها في الحياة العربية قبل الإسلام، المجمع العلمي، (بغداد ٢٠٠٢).
- الجميلي، رشيد عبد الله،
- ٢٢٧ - تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدعوة الإسلامية، ساعدت جامعة بغداد كلية الآداب في طبعه، (بيروت ١٩٧٢).
- الجواهري، محمد،

- ٢٢٨ - المفيد من معجم رجال الحديث، ط٢، مكتبة المحلاتي، (قم ١٤٢٤ هـ).
حتي، فليب، وأدورد جرجي، و جبرائيل جبور،
٢٢٩ - تاريخ العرب، ط٥، دار غندور، (بيروت ١٩٧٢).
الحديثي، نزار عبد اللطيف،
٢٣٠ - الأمة والدولة في سياسة النبي والخلفاء الراشدين، دار الحرية، (بغداد ١٩٨٧).
حسن، حسن ابراهيم،
٢٣١ - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، (القاهرة ٢٠٠٩).
حسني، حنفي،
٢٣٢ - الشعر الجاهلي مراحلہ واتجاهاته الفنية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (مصر ١٩٧٠).
حسين، طه،
٢٣٣ - في الأدب الجاهلي، ط١٠، دار المعارف، (مصر ١٩٦٩).
حمور، عرفان محمد،
٢٣٤ - المواسم وحساب الزمن عند العرب قبل الإسلام، مؤسسة الرحاب، (بيروت ٢٠٠٠).
٢٣٥ - سوق عكاظ ومواسم الحج، مؤسسة الرحاب، (بيروت ٢٠٠٠)،
الحوت، محمود سليم.
٢٣٦ - في طريق الميثولوجيا عند العرب، ط٢، دار النهار، (بيروت ١٩٧٩)،
الحوفي، أحمد محمد.
٢٣٧ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ط٤، دار القلم، (بيروت ١٩٧٢).
الخربوطلي، علي حسني،
٢٣٨ - الكعبة على مر العصور، ط٢، دار المعارف، (القاهرة ١٩٨٦).
٢٣٩ - تاريخ الكعبة، دار الجيل، بيروت، (د. ت.).
الخنزري، محمد،
٢٤٠ - محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الاموية، مكتبة الايمان، (القاهرة ٢٠٠٦)
٢٤١ - نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، شرح وتعليق الشيخ ابراهيم محمد رمضان، دار الفكر

- العربي، (بيروت ١٩٩١).
- الخطيب، عبد الزهرة الحسيني،
٢٤٢ - مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ط ٣، دار الأضواء، (بيروت ١٩٨٥).
- خفاجي، محمد عبد المنعم،
٢٤٣ - الشعر الجاهلي، ط ٢، دار الكتاب اللبناني، (بيروت ١٩٧٣).
- الخنيزي، عبد الله الشيخ علي،
٢٤٤ - ابو طالب مؤمن قريش، ط ٥، مؤسسة النبراس، (النجف ١٩٩٧).
- الخوانساري، محمد باقر بن زين الدين،
٢٤٥ - روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، الدار الإسلامية للطباعة، (بيروت ١٩٩١)
- درادكة، صالح موسى،
٢٤٦ - بحوث في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار شيرين، (الاردن ١٩٨٨)،
دغيم، سميح.
- ٢٤٧ - أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، دار الفكر، (بيروت ١٩٩٥)،
دلو، برهان الدين.
- ٢٤٨ - جزيرة العرب قبل الإسلام، دار الفارابي، (بيروت ٢٠٠٧)،
الراوي، مصعب حسون،
- ٢٤٩ - الشعر العربي قبل الإسلام، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد ١٩٨٩).
- الربيعي، احمد،
٢٥٠ - العذيق النضيد بمصادر ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، مطبعة العاني، (بغداد ١٩٨٧).
- الريشهري، محمد،
٢٥١ - العقل والجهل في الكتاب والسنة، دار الحديث، (بيروت ٢٠٠٠).
- الزركلي، خير الدين،
٢٥٢ - الأعلام، ط ١٥، دار العلم للملايين، (بيروت ٢٠٠٢).
- زيدان، جرجي،

٢٥٣ - تاريخ التمدن الاسلامي، دار ومكتبة الحياة - بيروت (ب.ت).

٢٥٤ - تاريخ العرب قبل الإسلام، دار ومكتبة الحياة - بيروت (ب.ت).

سالم، عبد العزيز،

٢٥٥ - تاريخ الدولة العربية تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية، دار النهضة العربية، (بيروت ١٩٧٠).

السامرائي، خليل إبراهيم، وطارق فتحي سلطان، وجزيل عبد الجبار الجومرد،

٢٥٦ - تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ١٣٢ - ٦٥٦ هـ، دار الكتب، (الموصل ١٩٨٨)،

السبحاني، جعفر الهادي،

٢٥٧ - سيد المرسلين دراسة تحليلية شاملة للشخصية والسيرة المحمدية، مؤسسة النشر الاسلامي، (قم ١٤٢٩ هـ).

ابو السعد، احمد،

٢٥٨ - أغاني ترقيص الأطفال عند العرب منذ الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي، ط ٢، دار العلم للملايين، (بيروت ١٩٨٢).

السعداوي، عبد الكريم حسين،

٢٥٩ - غريب نهج البلاغة، منشورات فرصاد، الرسائل الجامعية، (طهران ٢٠٠٦).

سلامة، عواطف اديب علي،

٢٦٠ - قریش قبل الإسلام ودورها السياسي والاقتصادي والديني، دار المريخ للنشر، (الرياض ١٩٩٤).

سليم، أحمد امين،

٢٦١ - معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتب كريدية اخوان، بيروت، (د.ت).

سيديو،

٢٦٢ - خلاصة تاريخ العرب، دار الآثار، (بيروت ١٣٠٩ هـ).

الشاهرودي، علي النمازي،

٢٦٣ - مستدرک سفينة البحار، تحقيق حسن بن علي النمازي، مؤسسة النشر الاسلامي، (قم

١٤١٨ هـ).

الشراهاني، حسين علي،

٢٦٤ - حياة السيدة خديجة من المهد إلى اللحد، دار الهلال، (بيروت ٢٠٠٥).

٢٦٥ - اضواء على السيرة النبوية، تموز للطباعة والنشر، (دمشق ٢٠١٣).

الشريف، أحمد ابراهيم،

٢٦٦ - مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، (القاهرة ١٩٦٥).

الشهرستاني، هبة الله الحسيني،

٢٦٧ - ما هو نهج البلاغة، تعليق عبد الستار الحسيني، العتبة العلوية المقدسة، (النجف الاشرف

٢٠١٠).

الشيخ، حسين،

٢٦٨ - العرب قبل الإسلام، دار المعرفة الجامعية، (الاسكندرية ١٩٩٣).

صالح، أحمد عباس،

٢٦٩ - اليمين واليسار في الإسلام، ط ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت ١٩٧٣).

الصالح، صبحي،

٢٧٠ - شرح نهج البلاغة، ط ٤، دار أنوار الهدى، (قم ١٤٣١).

الصمد، واضح،

٢٧١ - السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، المؤسسة

الجامعية للدراسات والنشر، (بيروت ١٩٩٥).

ضيف، شوقي،

٢٧٢ - تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، دار المعارف، (مصر ١٩٦١).

طقوش، محمد سهيل،

٢٧٣ - تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس، (بيروت ٢٠٠٩).

طوغان، وليد،

٢٧٤ - مدعو النبوة في التاريخ الاسلامي، دار الخيال، (القاهرة ٢٠٠٤).

عاقل، نبيه،

- ٢٧٥ - تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دار الفكر - دمشق ١٩٨٣.
عبد الحميد، سعد زغلول،
- ٢٧٦ - في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، (بيروت ١٩٧٥).
عجينة، محمد،
- ٢٧٧ - موسوعة اساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، (بيروت ١٩٩٤).
عرفة، محمود،
- ٢٧٨ - العرب قبل الإسلام، عين للدراسات والبحوث، (القاهرة ١٩٩٥).
العسكري، نجم الدين،
- ٢٧٩ - أبو طالب حامي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وناصره، مطبعة الآداب، (النجف
الاشرف ١٣٨٠ هـ).
العسلي، خالد،
- ٢٨٠ - دراسات في تاريخ العرب، اعداد وتقديم عماد عبد السلام رؤوف، دار الشؤون الثقافية
العامة، (بغداد ٢٠٠٢).
عطية، محمد هاشم،
- ٢٨١ - الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، ط٣، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، (مصر
١٩٣٦).
عطية، مختار،
- ٢٨٢ - الإيجاز في كلام العرب ونص الاعجاز دراسة بلاغية، دار المعرفة الجامعية، (مصر ١٩٩٥).
عقيل، محسن،
- ٢٨٣ - موسوعة الأمثال العربية، دار المحجة البيضاء، (بيروت ٢٠١٢).
عكاوي، رحاب خضر،
- ٢٨٤ - الموجز في تاريخ الطب عند العرب، دار المناهل، (بيروت ٢٠٠٠)،
العلاق، علاء ابو الحسن اسماعيل،
- ٢٨٥ - السفارة والوفادة في الدولة العربية الاسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، دار الشؤون
الثقافية، (بغداد ٢٠٠٩).

علي، جواد،

- ٢٨٦ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، ساعدت على نشره جامعة بغداد (١٩٩٣).
 ٢٨٧ - ابحاث في تاريخ العرب قبل الإسلام، دراسة ومراجعة نصير الكعبي، دار المحجة البيضاء، (بيروت ٢٠١١).

علي، سيد امير،

- ٢٨٨ - مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيف البعلبكي، ط٢، دار العلم للملايين، (بيروت ١٩٦٧).
 العلي، صالح احمد،

- ٢٨٩ - محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة دار الكتب، (الموصل ١٩٨١).
 ابو علي، محمد توفيق،

- ٢٩٠ - الأمثال العربية والعصر الجاهلي دراسة تحليلية، دار النفائس، (بيروت ١٩٨٨).
 غضبان، ياسين،

- ٢٩١ - مدينة يثرب قبل الإسلام، مؤسسة الرسالة، (بيروت ١٩٩٣).
 غوستاف، لويون،

- ٢٩٢ - حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار الكتب (القاهرة ١٩٦٩).
 ابو الفضل، احمد،

- ٢٩٣ - دراسات في العصر الجاهلي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم، (القاهرة، ١٩٦٩).

فلهوزن، يوليوس،

- ٢٩٤ - تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الاموية، مراجعة حسين مؤنس، تقديم مصطفى لبيب عبد الغني، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده، ط٢، المركز القومي للترجمة، (القاهرة ٢٠٠٩).

قائدان، اصغر،

- ٢٩٥ - تاريخ آثار مكة والمدينة، ترجمة الشيخ ابراهيم الخزرجي، دار النبلاء، (بيروت ١٩٩٩).
 القمي، عباس بن محمد رضا،

- ٢٩٦ - الكنى والألقاب، تقديم محمد هادي الاميني، مكتبة الصدر، (طهران ١٩٧٥).

قميحة، مفيد،

٢٩٧ - شرح المعلقات العشر، دار الهلال، (بيروت ١٩٩٧).

القيسي، نوري حمودي،

٢٩٨ - دراسات في الشعر الجاهلي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، (بغداد ١٩٧٢).

كحالة، عمر رضا،

٢٩٩ - معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، دار العلم للملايين، (بيروت ١٩٦٨).

٣٠٠ - معجم المؤلفين، دار احياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

كستر، م. ج،

٣٠١ - الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية، ترجمة يحيى الجبوري، (بغداد ١٩٧٦).

ماجد، عبد المنعم،

٣٠٢ - التاريخ السياسي للدولة العربية عصور الجاهلية والنبوة والخلافة، ط٧، مكتبة الانجلو

المصرية، (القاهرة ١٩٨٣).

محبوبة، عبد الهادي محمد رضا،

٣٠٣ - نظام الملك، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة ١٩٩٨).

مطر، جواد،

٣٠٤ - الحياة الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديم، دار الثقافة العربية، (الشارقة ٢٠٠٢).

معطي، علي،

٣٠٥ - تاريخ العرب السياسي قبل الإسلام، دار المنهل، (بيروت ٢٠٠٤).

الملاح، هاشم يحيى،

٣٠٦ - الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الكتب العلمية، (بيروت ٢٠٠٨).

منصور، عبد الرحمن،

٣٠٧ - الحكمة والأمثال عند العرب، دار الفارابي، (بيروت ٢٠١١).

منيسي، سامية عبد العزيز،

٣٠٨ - إسلام نجاشي الحبشة ودوره في صدر الدعوة الاسلامية، دار الفكر العربي، (القاهرة ٢٠٠١).

مهران، محمد بيومي،

٣٠٩ - تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، (د.ت).

النوري، الميرزا حسن النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ)،

٣١٠ - خاتمة مستدرك الوسائل، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، (قم ١٤١٦ هـ).

النصر الله، جواد كاظم منشد،

٣١١ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي رؤية اعتزالية عن الإمام علي (عليه السلام)، مؤسسة ذوي القربى، (قم ١٣٨٤).

ياسين، نجمان،

٣١٢ - تطور الاوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين، بيت الموصل للنشر، (الموصل ١٩٨٥).

الرسائل الجامعية

بعيد، سامي جودة،

٣١٣ - فدك حتى نهاية العصر العباسي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بغداد، ٢٠٠٦.

البهادلي، ازهار غازي مطر،

٣١٤ - قبيلة الأشعريين ودورهم في التاريخ العربي الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة ديالى، ٢٠٠٥.

جاسم، حنان عيسى،

٣١٥ - الحج عند العرب قبل الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة تكريت، ٢٠٠٥.

الجبر، مخلد ذياب فيصل،

٣١٦ - روايات أهل الكتاب للسيرة النبوية حتى عهد البعثة، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة البصرة، ٢٠١٢.

الجبوري، مرشد صالح ضامن،

٣١٧ - كندة ودورها السياسي والاقتصادي في الجزيرة العربية قبل الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٤.

جواد، سعيد جبار،

٣١٨ - قبيلة تميم ودورها في التاريخ العربي قبل الإسلام، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة بغداد، ٢٠٠٧.

الحجاج، محسن مشكل فهد،

٣١٩ - دولة التبابعة في اليمن ابان القرنين الرابع والخامس الميلاديين دراسة في الأحوال السياسية والإقتصادية والدينية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٩.

الحديشي، اثمار نزار عبد اللطيف،

٣٢٠ - الديانة الوضعية عند العرب قبل الإسلام، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٣.

الحسيناوي، مرتضى جليل جعيلان،

٣٢١ - دور الحج في تطور الأحوال الفكرية والإقتصادية في الدولة العربية الاسلامية إلى نهاية القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة البصرة، ٢٠٠٢.

الخصونه، رائد حمود عبد الحسين،

٣٢٢ - نشأة السجون وتطورها في الدولة العربية الإسلامية حتى نهاية التسلط التركي ٣٣٤ هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٢.

الحمداني، عبد الفتاح عبد الله محمود،

٣٢٣ - قبيلة خثعم ودورها في التاريخ العربي من قبل الإسلام وحتى نهاية العصر الراشدي، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٨.

الحنبلي، فدوى،

٣٢٤ - المثل السائر لابن الأثير والردود عليه، دراسة في القضايا النقدية التي أثارها ابن الأثير، رسالة ماجستير غير منشورة في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأمريكية في بيروت، ١٩٧٥.

الدخيلي، مهدي عربي حسين،

٣٢٥ - بنو اسد ودورهم في التاريخ العربي الإسلامي، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٥.

الربيعي، هديل غالب عباس،

٣٢٦ - الطب عند العرب قبل الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٣.

الروقي، مجاد بن زياد بن معضد،

٣٢٧ - شعر قبيلة بني كلاب من العصر الجاهلي إلى اخر عصر بني أمية، دراسة موضوعية فنية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤١٤ هـ.

زيدان، سلامة عبد السلام،

٣٢٨ - نظام الزواج عند العرب قبل الإسلام وعصر الرسالة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٤.

السعدون، نصار سليمان،

٣٢٩ - امرؤ القيس بن عمرو اللخمي ودوره في توحيد القبائل العربية، رسالة ماجستير غير

٥٦٠ كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي مصدراً من مصادر العرب قبل الإسلام

منشورة، كلية الاداب، جامعة البصرة، ١٩٨٨.

سمار، سعد عبود،

٣٣٠ - قبائل مذحج قبيل الإسلام حتى نهاية العصر الراشدي، اطروحة دكتوراه غير منشورة،

كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٦.

الشاوي، عبد الهادي عبد الرحمن علي،

٣٣١ - المثل في نهج البلاغة دراسة تحليلية فنية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة

الكوفة، ٢٠٠٧.

الصواط، عيضة بن عبد الغفور،

٣٣٢ - شعراء ثقيف في العصر الاموي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة ام

القرى، السعودية، ١٩٨٣.

الطائي، رائد محمد حسن،

٣٣٣ - أوضاع السجون والسجناء في الدولة العربية الإسلامية، أطروحة دكتوراه غير منشورة،

كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٩.

عباس، مصطفى جواد،

٣٣٤ - الجوار عند العرب قبل الإسلام حتى عصر الرسالة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية

التربية، جامعة البصرة، ٢٠١١.

العباسي، اريج أحمد حسن،

٣٣٥ - الثروة المعدنية في اليمن والحجاز قبل الإسلام وأهميتها الاقتصادية، رسالة ماجستير غير

منشورة، كلية التربية، جامعة بغداد، ٢٠٠٤.

عبد الرحمن، هاشم يونس،

٣٣٦ - الحياة الفكرية في الجزيرة العربية قبل الإسلام وعصر الرسالة، اطروحة دكتوراه غير

منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٩٢.

علي، إبراهيم محمد،

٣٣٧ - المناذرة دراسة سياسية حضارية (٢٦٨م - ٦٠٢م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٢.

العوادي، صلاح غلام غضيب،

٣٣٨ - التوحيد عند العرب قبل الإسلام دراسة في الحنيفية وعبادة الرحمن، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٤.

الغزي، محسن راشد طريم،

٣٣٩ - المجالس الاسلامية العامة في بغداد في العصور العباسية المتأخرة ٣٣٤ - ٦٥٦، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة بغداد، ٢٠٠٧.

القرشي، علي كريم عباس أمرة،

٣٤٠ - آل عبد المطلب وأثرهم في الحياة العامة حتى نهاية العصر الراشدي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٧.

القيسي، رواء عبد الستار علي،

٣٤١ - الري والزراعة عند العرب في عصر ما قبل الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية بنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٢.

الكرماشي، اياد صالح عاصي،

٣٤٢ - كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني مصدراً لدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠١٢.

المحمداوي، علي صالح رسن،

٣٤٣ - ابو طالب بن عبد المطلب دراسة في سيرته الشخصية وموقفه من الدعوة الاسلامية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٤.

محيي الدين، علي،

٥٦٢ كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي مصدراً من مصادر العرب قبل الإسلام

٣٤٤ - ابن أبي الحديد سيرته وآثاره الأدبية والنقدية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٧.

المشهداني، اركان طه عبد،

٣٤٥ - النهضة العلمية والثقافية في بغداد في القرنين الخامس والسادس الهجريين، أطروحة دكتوراه غير منشورة، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية، الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٥.

الدوريات

البكر، منذر عبد الكريم،

٣٤٦ - معجم أسماء الآلهة والأصنام لدى العرب قبل الإسلام، مجلة أبحاث البصرة، كلية التربية، ١٩٨٨.

جابر، عادل شايب،

٣٤٧ - أتباع الديانة الحنفية، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد ٨٢، بغداد، ٢٠٠٨.

الجبوري، يحيى وهيب،

٣٤٨ - المنسوجات العربية في الشعر الجاهلي، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد السابع، جامعة قطر، ١٩٨٤.

الجبوري، منذر،

٣٤٩ - أيام العرب في الجاهلية وقيمتها التاريخية وأثرها عند الجاهليين والاسلاميين، مجلة المورد العراقية، مج ٢، العدد الاول، بغداد، ١٩٧٣.

الجبوع، عبد الله سليمان،

٣٥٠ - ملحوظات على ديوان عبد الله بن الزبيري، مجلة أم القرى، السنة الثالثة، العدد الخامس، السعودية، ١٤١١ هـ.

الحجوي، محمد بن محمد،

٣٥١ - الدلالات الاجتماعية والتربوية في الأمثال العربية، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد الخامس والخمسون، دبي، ٢٠٠٦.

حمودي، احمد،

٣٥٢ - جولة مع الجاهلية في عالم الجن، مجلة التراث الشعبي، العدد الثامن والتاسع، السنة السابعة، بغداد، ١٩٧٩.

الرباعي، عبد القادر،

٣٥٣ - الطير والمعتقد في الشعر الجاهلي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مج ٨، العدد ٢٩، ١٩٨٨.

الرحيم، عبد الحسين مهدي،

٣٥٤ - عكاظ في حياة العرب قبل الإسلام، مجلة آداب الرفادين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد السابع، ١٩٨٧.

عبد اللطيف، مصطفى،

٣٥٥ - أثر العقائد الدينية في القيم الاجتماعية والخلقية في العصر الجاهلي، مجلة المربد، كلية الآداب، جامعة البصرة، السنة الثانية، العدد الثاني والثالث، ١٩٦٩.

العلي، صالح احمد،

٣٥٦ - ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد السابع والعشرون، بغداد، ١٩٧٦.

الكبيسي، حمدان عبد المجيد /

٣٥٧ - أسواق العرب قبل الإسلام، مجلة آداب المستنصرية، العدد الرابع، بغداد، ١٩٧٩.

مهران، محمد بيومي،

٣٥٨ - مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الأول، الرياض، ١٩٧٧.

٥٦٤ كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي مصدراً من مصادر العرب قبل الإسلام

الموسوي، جواد مطر،

٣٥٩ - دراسات في تاريخ الاقتصاد العربي قبل الإسلام الأحوال الإقتصادية في دولة الغساسنة،
مجلة المجمع العلمي، مج ٥٣، ج ١، بغداد، ٢٠٠٥.

هادي، رياض هاشم،

٣٦٠ - النشاط الزراعي في المدينة على عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، مجلة آداب
الرافدين، العدد السابع والعشرون، الموصل، ١٩٩٥.

يوسف، شريف،

٣٦١ - الكعبات المقدسة عند العرب قبل الإسلام، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ٢٩، بغداد، ١٩٧٨.

المحتويات

٩مقدمة المؤسسة
١٢مقدمة الكتاب

الفصل الأول

ابن أبي الحديد سيرته ومنهجه ومصادره عن العرب قبل الإسلام

٢٥المبحث الأول: سيرة ابن أبي الحديد ومنزلته العلمية وآثاره
٢٥ أولاً: اسمه ونسبه وكنيته:
٢٨ ثانياً: نشأته وعصره:
٣٣ ثالثاً: عقيدة ابن أبي الحديد
٣٦ رابعاً: منزلته العلمية وآراء العلماء فيه:
٣٧ خامساً: شيوخه:
٤٦ سادساً: تلاميذ ابن أبي الحديد:
٤٨ سابعاً: آثاره العلمية:
٥٦ ثامناً: وفاة ابن أبي الحديد:
٥٨المبحث الثاني: منهجية ابن أبي الحديد ومصادره في كتاب شرح نهج البلاغة...
٥٨ أولاً: منهجية ابن أبي الحديد في كتابة تاريخ العرب قبل الإسلام:
٧٠ ثانياً: مصادر ابن أبي الحديد في تاريخ العرب قبل الإسلام:

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام

٩١المبحث الأول: القيم الاجتماعية عند العرب
٩١ أولاً: الشجاعة والفروسية:
٩٧ ثانياً: الكرم والضيافة:

١٠٥	ثالثاً: صلة الرحم:.....
١٠٨	رابعاً: الحلم:
١١٢	خامساً: الجوار:.....
١١٨	المبحث الثاني: المعتقدات الشعبية والاجتماعية.....
١١٩	أولاً: الهامة والصفير:.....
١٢٥	ثانياً: الطيرة والفأل:
١٣٦	ثالثاً: البلية والعقر على القبور:.....
١٤٠	رابعاً: الرؤي:.....
١٤٥	خامساً: تخيلاتهم في السفر:.....
١٤٩	سادساً: الأطعمة والأشربة:.....
١٦٠	سابعاً: العين:.....
١٦٣	المبحث الثالث: العقوبات والقوانين عند العرب قبل الإسلام:.....
١٦٤	أولاً: الخلع:.....
١٦٧	ثانياً: جز الناصية:.....
١٧٠	ثالثاً: القسامة:.....
١٧٣	رابعاً: الذية:.....
١٧٧	سادساً: السجن:.....
١٨٢	المبحث الرابع: الحياة الأسرية عند العرب قبل الإسلام.....
١٨٢	أولاً: المرأة في مجتمع قبل الإسلام:.....
١٩٢	ثانياً: النكاح:.....
٢٠٠	ثالثاً: الطلاق:.....
٢٠٤	رابعاً: الزنا:.....
٢٠٧	خامساً: وأد البنات:.....
٢١٥	المبحث الخامس: الأنساب عند العرب قبل الاسلام.....
٢١٧	أنساب القبائل:.....

الفصل الثالث

الحياة الفكرية عند العرب قبل الاسلام

٢٣٩	المبحث الأول: المعتقدات الدينية عند العرب قبل الإسلام.....
٢٤٠	أديان العرب.....
٢٧٩	ديانات أخرى.....

- المبحث الثاني: الطقوس الدينية عند العرب قبل الإسلام ٢٨٧
- أولاً: الاستقسام بالأزلام: ٢٨٧
- ثانياً: الحلف: ٢٩٣
- ثالثاً: الاستسقاء: ٢٩٥
- رابعاً: الحج: ٢٩٩
- المبحث الثالث: معارف العرب قبل الإسلام ٣٢٠
- أولاً: الكهانة: ٣٢٠
- ثانياً: القيافة والعيافة ومعرفة النجوم: ٣٢٧
- ثالثاً: الطب: ٣٣٠
- المبحث الرابع: الأمثال عند العرب قبل الإسلام ٣٣٨
- أولاً: الأمثال التي ذكرها الإمام علي عليه السلام ونقلها ابن أبي الحديد: ٣٤٠
- ثانياً: الأمثال التي ذكرها ابن أبي الحديد: ٣٦٠

الفصل الرابع

الحياة الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام

- المبحث الأول: النشاطات الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام ٣٨٧
- أولاً: الزراعة: ٣٨٨
- ثانياً: الصناعة: ٣٩٨
- ثالثاً: التجارة: ٤١٧
- المبحث الثاني: اسواق العرب قبل الإسلام ٤٣١
- أولاً: سوق عكاظ: ٤٣٣
- ثانياً: سوق ذي المجاز: ٤٤٠
- ثالثاً: سوق بدر: ٤٤١
- رابعاً: سوق الحيرة: ٤٤٢

الفصل الخامس

الحياة السياسية عند العرب قبل الإسلام

- المبحث الأول: الممالك والمدن التي ظهرت قبل الإسلام ٤٤٧
- أولاً: حكومة قريش في مكة: ٤٤٧

٤٧٣ ثانياً: الحيرة:
٤٨٠ ثالثاً: كندة:
٤٨٤ رابعاً: الغساسنة:
٤٨٧ خامساً: يثرب:
٤٩٣ المبحث الثاني: أيام العرب قبل الاسلام.
٤٩٦ اولاً: أيام القحطانيين فيما بينهم:
٥٠١ ثانياً: أيام العدنانيين:
٥١٨ ثالثاً: أيام القحطانيين والعدنانيين:
٥٢٤ رابعاً: أيام العرب والفرس:
٥٢٧ الخاتمة.

المصادر والمراجع

٥٢٩ المصادر الأولية
٥٤٧ المراجع الثانوية
٥٥٧ الرسائل الجامعية
٥٦٢ الدوريات